١٥٣ - ١٥٢

المحجة البيضاء

في تهذيب الإحياء

للمحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله

محمد بن المرتضى المدعو

بالمولى محسن الكاشاني ره

صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري

الجزء الخامس والسادس

* * *

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

✿(بيان المواعظ في ذم الدنيا)✿

خطب عليٌّ عليه السلام يوماً فقال في خطبته : « إعلموا أنّكم ميّتون و مبعوثون من بعد الموت ، و موقوفون على أعمالكم ، و مجزيّون بها ، فلا تغرّنّكم الحياة الدّنيا فإنّها بالبلاء محفوفة ، وبالفناء معروفة ، وبالغدر موصوفة ، فكلّ ما فيها إلى زوال ، وهي بين أهلها دول و سجال [1] ، لاتدوم أحوالها ، ولن يسلم من شرّها نزّالها ، بينا أهلها منها في رخاء وسرور إذاهم منها في بلاء و غرور ، أحوال مختلفة ، وتارات متصرّفة ، العيش فيها مذمومٌ ، والرّخاء فيها لا يدوم ، و إنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة ، ترميهم بسهامها ، وتقصمهم بحمامها [2] و كلّ حيفة فيها مقدورٌ و حظّه منها موفورٌ ، واعلموا عباد الله أنّكم و ما أنتم فيه من هذه الدّنيا على سبيل من قد مضى ممّن كان أطول منكم أعماراً ، و أشدّ منكم بطشاً ، و أعمر دياراً ، وأبعد آثاراً ، فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة [3] من بعد طول تقلّبها ، وأجسادهم بالية ، وديارهم خالية ، وآثارهم عافية ، استبدلوا بالقصور المشيّدة ، والسرر والنمارق الممهّدة الصخور والأحجار المسنّدة في القبور اللّاطئة الملحدة ، فمحلّها مقترب ، وساكنها مغترب ، بين أهل عمارة موحشين وأهل محلّة متشاغلين ، لايستأنسون بالعمران ، ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان ، على ماكان بينهم من قرب الجوار و دُنوّ الدّار بالدّيار ،

---

(١) السجل - بفتح السين - : الدلو الملأى ماء ويجمع على سجال - بكسر السين - والحرب بيننا سجال اى مرة لنا ومرة علينا وأصله أن المستقين بالسجل يكون لكل واحد منهم سجل . (النهاية)

(٢) الحمام - بالكسر - الموت .

(٣) همدت النار اى خمدت .

و كيف يكون بينهم تواصل وقد طحنتهم بكلكلة البلى [١] و أكلتهم الجنادل والثرى [٢] و أصبحوا بعد الحياة أمواتاً ، و بعد غضارة العيش رفاتاً [٣] ، فجمع بهم الأحباب ، و سكنوا التراب ، وظعنوا فليس لهم إياب ، هيهات هيهات كلاّ إنّها كلمةٌ هوقائلها و من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون و كأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلى ، والوحدة في دار المثوى ، و ارتهنكم ذلك المضجع(☆) ، وضمّكم ذلك المستودع ، فكيف بكم لو قضيت الأمور ، و بعثرت القبور ، و حصّل ما في الصدور ، و أوقفتم للتحصيل بين يدي الملك الجليل ، فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذّنوب ، و هتكت عنكم الحجب والأستار ، و ظهرت منكم العيوب والأسرار ، هنالك تجزى كلّ نفس بما كسبت إنّ الله يقول : « ليجزي الّذين أساؤا بما عملوا و يجزي الّذين أحسنوا بالحسنى » وقال تعالى : « و وضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممّا فيه » جعلنا الله و إيّاكم عاملين بكتابه و متّبعين لأوليائه و أحبّائه حتّى تحلّنا و إيّاكم دار المقامة من فضله إنّه حميدٌ مجيدٌ » [٤].

و قال عليه السلام أيضاً في خطبته : « اُوصيكم بتقوى الله ، والترك للدّنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبّون تركها ، المبلية لأجسامكم و إن كنتم تريدون تجديدها ، فانّما مثلكم و مثلها كمثل سفر سلكوا طريقاً فكأنّهم قد قطعوه [٥] و أمّوا إلى علم فكأنّهم قد بلغوه ، و كم عسى أن يجري المجري حتّى ينتهي إلى الغاية [٦] وما

---

(١) الكلكل - كجعفر - صدر البعير، شبه عليه السلام البلى - بكسر الباء - اى الفناء - بالجمل برض بصدره مابرك عليه فطحنه .

(٢) الجنادل : الحجارة ، والثرى : التراب .

(٣) الرفاة كلما تكسر وبلى . (☆) اى حبستم كما يحبس الرهن في يد المرتهن .

(٤) اورده الشريف الرضى في النهج باختلاف في اللفظ تحت رقم ٢٢٤ .

(٥) السفر - بفتح فسكون - : جماعة المسافرين اى انكم في مسافة العمر كالمسافرين في مسافة الطريق فلايلبثون أن يأتوا على نهايتها لانها محدودة .

(٦) «كم عسى» استفهامية للتحقير واجراء الفرس ارساله وحمله على السير . و «ما عسى» استفهامية في معنى التحقير للبقاء .

عسى أن يبقى من له يوم في الدّنيا ، وطالب حثيث يطلبه حتّى يفارقها ، فلاتجزعوا لبؤسها و ضرّائها فإنّه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بنعمائها فإنّه إلى زوال ، عجبت لطالب الدّنيا والموت يطلبه و غافل فليس بمغفول عنه »[(١)].

أقول: وفي الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « فيما ناجى الله تعالى به موسى عليه السلام : يا موسى لاتركن إلى الدّنيا ركون الظالمين وركون من اتّخذها أباً وأُمّاً، يا موسى لو وكلتك إلى نفسك لتنظر لها إذاً لغلب عليك حبّ الدّنيا و زهرتها ، يا موسى نافس في الخير أهله واستبقهم إليه فإنّ الخير كاسمه ، واترك من الدّنيا مابك الغنى عنه ، ولا تنظر عينك إلى كلّ مفتون بها موكّل إلى نفسه ، واعلم أنّ كلّ فتنة بدؤها حبّ الدّنيا ولاتغبط أحداً بكثرة المال فإنّ مع كثرة المال تكثر الذّنوب لواجب الحقوق ، ولا تغبطنّ أحداً برضاء الناس عنه حتّى تعلم أنّ الله راض عنه ، و لا تغبطنّ مخلوقاً بطاعة الناس له فإنّ طاعة الناس له و اتّباعهم إيّاه على غير الحقّ هلاك له ولمن تبعه »[(٢)].

و عنه عليه السلام قال : « فيما وعظ به لقمان ابنه : يا بنيّ إنّ الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له و إنّما أنت عبد مستأجر قد أُمرت بعمل و وعدت عليه أجراً فأوف عملك واستوف أجرك ، ولا تكن في هذه الدّنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتّى سمنت فكان حتفها [(٣)] عند سمنها ، ولكن اجعل الدّنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدّهر ، أخربها و لا تعمرها [(٤)] فإنّك لم تؤمر بعمارتها ، و اعلم أنّك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالى عن أربع : شبابك فيما أبليته[(٥)] وعمرك فيما أفنيته ، ومالك ممّا اكتسبته و فيما أنفقته فتأهّب لذلك وأعدّ له جواباً ، ولاتأس على

---

(١) اورده الشريف الرضى فى النهج على وجه أبسط . تحت رقم ٩٧ .
(٢) المصدر ج ٢ ص ١٣٥ تحت رقم ٢١ .
(٣) « حتفها » اى هلاكها . وسمن يسمن سمنا : كثر لحمه .
(٤) اى دعها خراباً بترك مالا تحتاج اليه .
(٥) البالى هوالذى استعمل حتى اشرف على الاندراس .

ما فاتك من الدّنيا فإنّ قليل الدّنيا لا يدوم بقاؤه و كثيرها لا يؤمن بلاؤه ، فخذ حذرك ، وجدّ في أمرك ، واكشف الغطاء عن وجهك ، و تعرّض لمعروف ربّك ، و جدّد التوبة في قلبك ، و اكمش [1] في فراغك قبل أن يقصد قصدك [2] و يقضى قضاؤك و يحال بينك و بين ما تريد » [3].

و عنه عليه السلام قال : « كان أبوذرّ ـ رضي الله عنه ـ يقول في خطبته : يا مبتغي العلم كأنّ شيئاً من الدّنيا لم يكن شيئاً إلّا ما ينفع خيره ويضرّ شرّه إلّا من رحم الله [4]، يا مبتغي العلم لا يشغلك أهلٌ ولا مالٌ عن نفسك أنت يوم تفارقهم كضيف بتّ فيهم ثمّ غدوت عنهم إلى غيرهم والدّنيا والآخرة كمنزل تحوّلت منه إلى غيره و ما بين الموت والبعث إلّا كنومة نمتها ثمّ استيقظت منها ، يا مبتغي العلم قدّم لمقامك بين يدي الله تعالى فإنّك مثاب بعملك كما تدين تدان يا مبتغي العلم » [5].

قال أبوحامد : قال بعضهم : يا أيّها النّاس اعملوا على مهل ، و كونوا من الله على وجل ، ولا تغترّوا بالأمل ونسيان الأجل ولاتركنوا إلى الدّنيا فإنّها غدّارة خدّاعة قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها ، وتزيّنت لخطّابها ، فأصبحت كالعروس المتحلّية ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها عاكفة ، والنفوس لها عاشقة، فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئنّ إليها خذلت ، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنّها دار كثرت بوائقها ، وذمّها خالقها ، جديدها يبلى ، و ملكها يفنى ، و عزيزها يذلّ ، و كثيرها يقلّ ، و حيّها يموت ، وخيرها يفوت ، فاستيقظوا من غفلتكم ، و انتبهوا

---

(١) الكمش : السعي ، أي أسرع وعجل .

(٢) اى نحوك ، كناية عن توجّه ملك الموت اليك لقبض روحك اوتوجّه الامراض والبلايا من الله اليك .

(٣) الكافي ج ٢ ص ١٣٤ تحت رقم ٢٠ .

(٤) « الا » في قوله : « الا ماينفع » كلمة استثناء و « ما » موصولة فالمعنى أن ما يتصور في هذه الدنيا اماشيء ينفع خيره او شيء يضرشره الامن رحم الله ، او كل شيء في الدنياله جهة نفع وجهة ضر لكل الناس الامن رحم الله فيوفقه للاحتراز من جهة شره .

(٥) الكافي ج ٢ ص ١٣٤ تحت رقم ١٨ .

من رقدتكم قبل أن يقال : فلان عليل أو مدنّف ثقيل ، فهل على الدّواء من دليل ؟ أوهل إلى الطبيب من سبيل ؟ فيدعى لك الأطبّاء ولا يرجى لك الشفاء ، ثمّ يقال : فلان أوصى وماله قد اُحصي ، ثمّ يقال : قد ثقل لسانه ، فلا يكلّم إخوانه ، ولا يعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك ، وثبت يقينك ، وطمحت جفونك ، و صدقت ظنونك ، و تلجلج لسانك ، و بكى إخوانك ، وقيل لك : هذا ابنك فلانٌ ، و منعت الكلام فلا تنطق ، وختم على لسانك فلا ينطلق ، ثمّ حلّ بك القضاء ، و انتزعت نفسك من الأعضاء ، ثمّ عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك ، واُحضرت أكفانك فغسّلوك و كفّنوك ، فانقطع عوادك ، واستراح حسّادك وانصرف أهلك إلى مالك ، و بقيت مرتهناً بأعمالك .

و قال بعضهم لبعض الملوك : إنّ أحقّ النّاس بذمّ الدُّنيا وقلاها من بسطله فيها و اُعطي حاجته منها لأنّه يتوقّع آفة تعدو على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرّقه أو يأتي سلطانه فينهدمه من القواعد أو تدبّ إلى جسمه فتسقمه أو تفجعه بشيء ثمّ هو ضنين به من أحبابه ، فالدُّنيا أحقّ بالذمّ هي الآخذة ماتعطي ، الرّاجعة فيما تهب ، بينا هي تضحك صاحبها إذا ضحكت منه غيره ، و بينا هي تبكي له إذا بكت عليه ، وبيناهي تبسط كفّها بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد ، تعقد التاج برأس صاحبها اليوم وتعفره بالتراب غداً ، سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء مابقي ، تجد في الباقي من الذّاهب خلفاً وترضى بكلٍّ من كلّ بدلاً .

وقال : وهب بن منبّه : لمّا بعث الله عزّ وجلّ موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال : «لايروّعنّكما لباسه الّذي لبس من الدُّنيا فإنّ ناصيته بيدي ، ليس ينطق ولا يتنفّس إلّا بإذني ، ولا يعجبنّكما ماتمتّع به منها فإنّما هي زهرة الحياة الدُّنيا و زينة المترفين ولو شئت أن اُزيّنكما بزينة من الدُّنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ مقدرته تعجز عمّا اُوتيتما لفعلت و لكنّي أرغب بكما عن ذلك فأزوي ذلك عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائي إنّي لأذودهم عن نعيمها كما يذود الرّاعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة ، وإنّي لأجنّبهم سلوتها كما يجنّب الرّاعي الشفيق إبله عن مبارك

العَرّة(١)، وماذلك لهوانهم عليّ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماًموفّراً إنّما يتزيّن لي أوليائي بالذلّ والخشوع والخوف ، والتقوى يثبت في قلوبهم فيظهر على أجسادهم فهي ثيابهم الّتي يلبسون ، ودثارهم الّذي يظهرون ، وضميرهم الّذي يستشعرون ، و نجاتهم الّتي بها يفوزون ، و رجاؤهم الّذي إيّاه يأملون ، و مجدهم الّذي به يفخرون ، وسيماهم الّتي بها يعرفون ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، و ذلّل لهم قلبك و لسانك ، و اعلم أنّه من أخاف لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة ثمّ إنّي ثائر له يوم القيامة » .

و قال بعض الحكماء : الأيّام سهام والنّاس أغراض ، والدّهر يرميك كلّ يوم بسهامه ، و يخرمك بلياليه و أيّامه حتّى تستغرق جميع أجزائك ، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيّام بك وسرعة اللّيالي في بدنك ؟ لو كشف لك عمّا أحدثت الأيّام فيك من النقص لاستوحشت من كلّ يوم يأتي عليك ، واستثقلت ممرّ الساعات بك ، و لكن تدبير الله فوق الاعتبار و بالسلو عن غوائل الدّنيا وجد طعم لذّاتها ، وأنّها لأمرّ من العلقم (٢) إذا عجنها الحكيم ، و قد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها ، و ما يأتي به من العجائب أكثر ممّا يحيط به الواعظ فنستوهب الله رشداً إلى الصواب .

و قال بعض الحكماء ـ و قد استوصف الدّنيا وقدر بقائها ـ فقال : الدّنيا وقتك الّذي ترجع إليك فيه طرفك لأنّ مامضى عنك فقد فاتك إدراكه ومالم يأت فلا علم لك به ، والدّهر يوم مقبل تنعاه ليلته و تطويه ساعته ، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان ، والدّهر موكّل بتشتيت الجماعات وانخرام الشمل (٣) وتقلّب الدّول ، والأمل طويل ، والعمر قصير ، وإلى الله تصير الأمور .

و خطب بعضهم فقال : يا أيّها الناس إنّكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدّقون به

---

(١) المبرك موضع البروك جمعه مبارك ، والعرّة ـ بالضم ـ السرجين .

(٢) العلقم : شجرة مر ويقال للحنظل .

(٣) انخرم القرن : ذهب وانقضى . وأصل الخرم الشق .

فأنتم حمقى وإن كنتم تكذّبون به فإنّكم لهلكى .

و قال محمّد بن الحسين : لمّا علم أهل العقل و العلم و المعرفة و الأدب أنّ الله عزّوجلّ قد أهان الدّنيا ، و أنّه لم يرضها لأوليائه ، وأنّها عنده حقيرةقليلة ، وأنّ رسول الله ﷺ قد زهد فيها وحذّرأصحابه من فتنتها ، وقال : «أكلوا منهاقصداً و قدّموا فضلاً » أخذوا منها ما يكفي و تركوا مايلهى ، لبسوا من الثياب ما ستر العورة ، وأكلوا من الطعام أدناه ممّايسدّالجوعة ، نظروا إلى الدّنيا بعين أنّها فانية وإلىالآخرة أنّهاباقية ، فتزوّدوا من الدّنيا كزاد الرّاكب فخربوا الدّنياوعمّروا بها الآخرة ، ونظروا إلى الآخرةبقلوبهمفعلموا أنّهم سينظرون إليهابأعينهمفارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنّهم سيرتحلون إليهابأبدانهم ، صبروا قليلاً ونعّموا طويلاً كلّ ذلك بتوفيق الله مولاهم الكريم أحبّوا ما أحبّ لهم و كرهوا ما كره لهم .

✿(بيان صفة الدنيا بالامثلة)✿

إعلم إنّ الدّنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء تعد بالبقاء ثمّ تخلف في الوفاء تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرّة و هي سائرة سيراً عنيفاً ومرتحلة إرتحالاً سريعاً ، ولكن الناظر إليها قدلايحسّ بحركتها فيطمئنّ إليها وإنّما يتحسّرعندانقضائها ، و مثالها الظلّ فإنّه متحرّك ساكن ، متحرّك في الحقيقة ساكن فيالظاهر لا تدرك حركتها بالبصر الظّاهر بل بالبصيرة الباطنة ، ولمّا ذكرت الدّنيا عند بعضهم أنشد و قال :

أحلامُ نَومٍ أو كَظِلّ زائل ✿ إنّ اللّبيبَ بمثلها لايُخدَع

وكان الحسن بن عليّ عليهما السلام يتمثّل بهذا البيت :

يا أهل لذّات دنيا لا بقاء لها ✿ إنّ اغتراراً بظلّ زائل حُمق

وكان يروى أنّه له ، ويقال : إنّه نزل إعرابيّ بقوم فقدّموا إليه طعاماًفأكل ثمّ قام إلى ظلّ خيمة لهم فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه و قام و هو يقول :

ألا إنّما الدّنيا كظلّ بنيّة ✿ ولابدّ يوماً أنّ ظلّك زائل

وكذلك قيل:

وإنّ امرءً دنياه أكبر همّه ✿ لمستمسك منها بحبل غُرور

مثال آخر للدّنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثمّ الافلاس منها بعد إفلاتها يشبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «الدّنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون»(١).

وقال يونس بن عبيد: ما شبّهت نفسي في الدّنيا إلّا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحبّ فبينا هو كذلك إذا انتبه فكذلك الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا، فاذا ليس في أيديهم شيء ممّا ركنوا إليه وفرحوا به.

وقيل لحكيم: أيّ شيء أشبه بالدّنيا؟ فقال: أحلام النّيّام.

مثال آخر للدّنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنيها:

إعلم أنّ طبع الدّنيا التّلطّف في الاستدراج أوّلاً والتوصّل إلى الاهلاك آخراً وهي كامرأة تتزيّن للخُطّاب حتّى إذا نكحتهم ذبحتهم، فقد روي أنّ عيسى عليه السلام كوشف بالدّنيا فرآها في صورة عجوز هتماء(٢) عليها من كلّ زينة، فقال لها: كم تزوّجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلّهم مات عنك أم كلّهم طلّقك؟ قالت: بل كلّهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين كيف تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حَذَر.

مثال آخر للدّنيا في مخالفة باطنها لظاهرها:

إعلم أنّ الدّنيا مزيّنة الظواهر، قبيحة السرائر وهي تشبه عجوزاً متزيّنة تخدع الناس بظاهرها فاذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثّل لهم قبائحها فندموا على اتّباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها. وعن ابن عبّاس قال: يؤتى بالدّنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء(٣) أنيابها بادية مشوّهة خلقها، فيشرف على الخلايق فيقال لهم: تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدّنيا الّتي تفاخرتم عليها، وبها تقاطعتم الأرحام وبها

(١) قال العراقي: لم اجد له أصلا. (٢) اى التي انكسرت ثناياها من اصولها.
(٣) يأتي معناهما.

تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ، ثمّ يقذف بها في جهنّم فتنادي أي ربّ أين أتباعي و أشياعي ، فيقول الله عزّ وجلّ : الحقوا بها أتباعها وأشياعها .

و قال الفضيل بن عياض : بلغني أنّ رجلاً عرج بروحه إلى السّماء ، فإذا امرأة على قارعة الطريق ، عليها من كلّ زينة الحليّ والثياب و إذا لا يمرّ بها أحدٌ إلّا جرحته ، فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس و إذا أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس ، عجوزٌ شمطاء زرقاء عمشاء [١] ، قال : قلت : أعوذ بالله منك ، قالت : لا والله لا يعيذك الله منّي حتّى تبغّض الدّرهم ، قال : قلت : من أنت؟ قالت : أنا الدّنيا .

مثال آخر للدّنيا و عبور الإنسان بها :

إعلم أنّ الأحوال ثلاثة حالة لم تكن فيها شيئاً وهي ماقبل وجودك إلى الأزل ، وحالة لاتكون فيها مشاهداً للدّنيا وهي مابعد موتك إلى الأبد ، و حالة متوسطة بين الأبد والأزل و هي أيّام حياتك في الدّنيا فانظر إلى مقدار طولها و انسبه إلى طرفي الأزل والأبد حتّى تعلم أنّه أقلّ من منزل قصير في سفر طويل ، ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : «مالي و للدّنيا إنّما مثلي و مثل الدّنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فقال تحت ظلّها ساعة (*) ثمّ راح وتركها» [٢] و من رأى الدّنيا بهذه العين لم يركن إلى الدّنيا ولم يبال كيف انقضت أيّامه في ضرّ وضيق أو في سعة و رفاهية ، بل لا يبني لبنة على لبنة ، توفّي رسول الله صلّى الله عليه وآله و ما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة [٣] .

---

(١) الشمطاء مؤنث أشمط ، وشمط ـ بالتحريك ـ : خالط بياض شعر رأسه سواده . والزرقاء مؤنث أزرق اى التي ظهرت بياض عينها . والعمشاء التي ضعف بصرها مع سيلان دمعتها .

(*) « قال » من القيلولة اى استراح وتدمر .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٩ والترمذي والحاكم من حديث ابن مسعود ورواه احمد و صحّحه الحاكم من حديث ابن عباس راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٢٦ .

(٣) أخرجه ابن حبان في الثقات وللطبراني في الاوسط من حديث عائشة بسند ضعيف هكذا « من سأل عني اوسره أن ينظر الي فلينظر الى أشعث شاحب مشمّر لم يضع لبنة على لبنة ـ الحديث » . الترغيب ج ٤ ص ١٨٧ .

و رأى صلّى الله عليه وآله بعض أصحابه يبني بيتاً من جصّ فقال : « أرى الأمر أعجل من هذا وأنكر ذلك »[١] وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال : « الدّنيا قنطرة فاعبروها و لا تعمروها » و هذا مثال واضح فإنّ الحياة الدّنيا معبر إلى الآخرة والمهد هو الميل الأوّل على رأس القنطرة ، واللّحد هو الميل الثاني ، و بينهما مسافة محدودة ، فمن الناس من قطع نصف القنطرة ، و منهم من قطع ثلثها ، ومنهم من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلّا خطوة واحدة ، وهو غافل عنها ، و كيف كان فلابدّ له من العبور، فالبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزّينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان .

مثال آخر للدّنيا في لين موردها وخشونة مصدرها :

إعلم أنّ أوائل اُمور الدّنيا تبدو هيّنة ليّنة ، يظنّ الخائض فيها أنّ حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها و هيهات فالخوض في الدّنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد ، وقد كتب علي عليه السلام إلى سلمان الفارسي - رضي الله عنه - بمثالها فقال: مثل الدّنيا مثل الحيّة يلين مسّها و يقتل سمّها[٢] ، فأعرض عمّا يعجبك منها لقلّة ما يصحبك منها ، وضع عنك ، همومها لما أيقنت من فراقها و كن أسرّ ما تكون منها أحذر ماتكون منها[٣] ، فإنّ صاحبها كلّما اطمأنّ منها إلى سرور أشخصته عنه مكروهة والسلام »[٤].

مثال آخر للدّنيا وتعذّر الخلاص من تبعاتها بعد الخوض فيها :

قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « إنّما مثل صاحب الدّنيا كمثل الماشي في الماء هل يستطيع الّذي يمشي في الماء أن لاتبتلّ قدماه »[٥] وهذا يعرفك جهالة قوم ظنّوا أنّهم يخوضون في نعيم الدّنيا بأبدانهم و قلوبهم عنها مطهّرة ، وعلايقها عن بواطنهم منقطعة ، وتلك

(١) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٦٤٩ من حديث عبدالله بن عمرو وأخرجه الترمذي وصححه .
(٢) أورده السيد الشريف الرضي في النهج قسم الكتب منه تحت رقم ٦٨ هكذا « لين مسها قاتل سمها » .
(٣) في النهج هكذا « وكن آنس ماتكون بها أحذر ما تكون منها » .
(٤) في النهج هكذا « كلما اطمأن فيها الى سرور أشخصته عنه الى محذور » .
(٥) أخرجه ابن ابي الدنيا في الزهد والبيهقي في الشعب من رواية الحسن . (المغني)

مكيدة الشيطان ، بل لو أخرجوا ممّا هم فيه لكانوا من أعظم المتفجّعين بفراقها ، فكما أنّ المشي في الماء يقتضي بللاً لا محالة يلتزق بالقدم فكذلك ملابسة الدّنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب ، بل علاقة القلب مع الدّنيا تمنع حلاوة العبادة ، قال عيسى عليه السلام : « بحقّ أقول لكم : كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذّ به من شدّة المرض كذلك صاحب الدّنيا لا يلتذّ بالعبادة و لا يجد حلاوتها مع ما يجد من حبّ الدّنيا ، بحقّ أقول لكم : الدّابّة إذا لم تركب ولم تمتهن تصعب و تغيّر خلقها كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت وبنصب العبادة تقسو و تغلظ ، بحقّ أقول لكم : إنّ الزق مالم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء العسل كذلك القلوب مالم تخرقها الشهوات ، أو يدنّسها الطمع ، أو يقسيها النعيم ، فسوف تكون أوعية للحكمة ، و قال نبيّنا صلّى الله عليه وآله : « إنّما بقي من الدّنيا بلاءٌ و فتنةٌ و إنّما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله و إذا خبث أعلاه خبث أسفله »[1].

مثال آخر لما بقي من الدّنيا وقلّته بالإضافة إلى ما سبق :

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله « مثل هذه الدّنيا مثل ثوب شقّ من أوّله إلى آخره فبقي متعلّقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع »[2].

مثال آخر لتأدية علايق الدّنيا بعضها إلى بعض حتّى الهلاك : قال عيسى عليه السلام : « مثل طالب الدّنيا مثل شارب ماء البحر كلّما ازداد شرباً إزداد عطشاً حتّى يقتله ».

مثال آخر لمخالفة آخر الدّنيا أوّلها ، ولنضارة أوايلها وخبث عواقبها :

إعلم أنّ شهوات الدّنيا في القلب لذيذة كشهوات الأطعمة في المعدة و سيجد العبد عند الموت لشهوات الدّنيا في قلبه من الكراهية والنتن والقبح مايجده لأطعمة اللّذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها ، و كما أنّ الطعام كلّما كان ألذّ طعماً وأكثر دسماً

---

(١) أخرجه احمد في المسند ج ٤ ص ٩٤ من حديث معاوية ومثله لابن شعبة في التحف ص ٥٠٦ و ٥٠٧ .

(٢) أخرجه ابن حبان في الثواب وابو نعيم في الحلية والبيهقي من الشعب من حديث أنس بسند ضعيف كما في المغني .

وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشدّ نتناً ، فكذلك كلّ شهوة في القلب هي أشهى و ألذّ وأقوى فنتنها و كراهتها والتأذّي بها عند الموت أشدّ بل هي في الدّنيا مشاهدة فإن من نهبت داره وا ُخذأهله وولده وماله فتكون مصيبته وألمه و تفجّعه في كلّ ما فقده بقدر لذّته فيه و حبّه له وحرصه عليه ، فكلّ ماكان عند الوجود أشهى عنده و ألذّ فهو عند الفقد أدهى وأمرّ ، و ما للموت معنى إلّا فقدما في الدّنيا ، وقدروي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال للضحّاك بن سفيان الكلابيّ : « ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ، ثمّ تشرب اللّبن عليه و الماء ؟ قال : بلى ، قال : فإلى م يصير ؟ قال : إلى ماقدعلمت يا رسول الله ، قال : فإنّ الله عزّ وجلّ قد ضرب مثل الدّنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم »(١).

و قال صلّى الله عليه وآله : « إنّ الله تعالى ضرب الدّنيا لمطعم بن آدم مثلاً ، و ضرب مطعم ابن آدم للدّنيا مثلاً فانظر إلى مايخرج من ابن آدم وأنّ قزحه وملحه إلى مايصير »(٢) قيل : قدرأيتهم يطيبونها بالأفاويه والطيب ، ثمّ يرمون به حيث رأيتم ، وقد قال الله عزّ وجلّ « فلينظر الإنسان إلى طعامه »(٣) قال ابن عبّاس : إلى رجيعه .

قيل لبعضهم : إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه ؟ قال : نعم إنّ الملك ليقول له : هذا ما بخلت به انظر إلى ما ذا صار .

مثال آخر في نسبة الدّنيا إلى الآخرة :

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « ما الدّنيا في الآخرة إلّا كمثل مايجعل أحدكم أصبعه في اليمّ فلينظر بم ترجع إليه »(٤) من الأصل (٥) .

مثال آخر للدّنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدّنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم

---

(١) أخرجه احمد ج ٣ ص ٤٥٢ من حديثه بنحوه .

(٢) أخرجه ابن حبان والطبراني في الكبير من حديث ابي بسند حسن كما في الجامع الصغير مع اختلاف في اللفظ .

(٣) عبس : ٢٥ .

(٤) أخرجه مسلم واحمد ج ٤ ص ٢٢٩ من حديث المستورد بن شداد .

(٥) « من الاصل » كذا في جميع النسخ التي كانت موجودة عندي وليس في الاحياء .

العظيمة بسببها .

إعلم أنّ أهل الدّنيا في غفلتهم مثلهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاّح بالخروج لقضاء الحاجة و حذّرهم المقام و خوّفهم مرور السفينة و استعجالها ، فتفرّقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم الحاجة و بادر إلى السفينة فصادف المقام خالياً فأخذ أوسع الأماكن و ألينها و أوفقها لمراده ، و بعضهم توقّف في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة ، و غياضها الملتفّة (١) ، و نغمات طيورها الطيّبة وألحانها الموزونة الغريبة ، فصار يلتقط من أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال ، الحسنة المنظر ، العجيبة النقوش ، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجها و عجائب صورها ثمّ تنبّه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلاّ مكاناً ضيّقاً حرجاً فاستقرّ فيه ، و بعضهم أكبّ على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإهمالها فاستصحب منها جملة فلم يجد في السفينة إلاّ مكاناً ضيّقاً وزاده ما حمّله من الحجارة ضيقاً وصارت ثقلاً عليه ووبالاً ، فندم على أخذها ولم يقدر على رميها ولم يجد مكاناً لوضعها ، فحملها في السفينة على عنقه و هو متأسّف على أخذها ، و ليس ينفعه التأسّف ، و بعضهم تولج في الغياض ونسي المركب وبعد من متفرّجه و متنزّهه منها حتّى لم يبلغه نداء الملاّح لاشتغاله بأكل تلك الثمار و التشمّم لتلك الأنوار والتفرّج بين تلك الأشجار وهو مع ذلك خائف على نفسه من السّباع وغير خال من السقطات و النكبات ، و لا ينفكّ عن شوك ينشب بثيابه ، و غصن يجرح بدنه ، و حسكة تدخل في رجله ، و صوت هائل يفزع منه ، و عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته ، ويمنعه من الانصراف لو أراده ، فلمّا بلغهم نداء أهل السفينة انصرف بعضهم مثقلاً بما معه ولم يجد في المركب موضعاً فبقي على شاطىء البحر حتّى مات جوعاً ، و بعضهم لم يبلغهم النّداء و سارت السفينة ، فمنهم من افترسته السباع ومنهم من تاه على وجهه حتّى هلك ومنهم من مات في الأوحال (٢) ومنهم من

(١) الانوار جمع نور ـ بالفتح ـ : الزهر . و الغياض جمع الغيضة و هي مجتمع الشجر في مغيض الماء .

(٢) جمع الوحل وهو الطين الرقيق .

نهشته الحيّات و تفرّقوا كالجيف المنتنة و أمّا من وصل إلى المركب بثقل ماأخذه من الأزهاروالأحجارة المزبرجة فقد استرقّته و شغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها ، و قد ضيّق عليه مكانه فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار و كمدت ألوان الأحجار و ظهر نتن رائحتها فصار مع كونه مضيّقاً عليه متأذّياً بنتنها ووحشتها فلم يجد حيلة إلّا أن ألقاها في البحر ، هارباً منها وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلّا بعد أن ظهرت عليه من الأسقام بتلك الرّوائح فبلغ سقيماً مدنفاً . ومن رجع قريباً مافاته إلّا سعة المحلّ فتأذّى بضيق المكان مدّة ولكن لمّا وصل إلى الوطن استراح . و من رجع أوّلاً وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالماً . فهذا مثال أصناف أهل الدّنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم ومصدرهم و غفلتهم عن عاقبة اُمورهم ، و ما أقبح من يزعم أنّه بصير عاقل أن تغرّه أحجار الأرض و هي الذّهب والفضّة و هشيم النبت و هي زينة الحياة الدّنيا وشيء منه لا يصحبه عند الموت بل يصير كلّاً و وبالاً عليه و هو في الحال شاغل له بالخوف والحزن عليه ، وهذا هو حال الخلق كلّهم إلّا من عصمه الله عزّوجلّ .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

مثال آخر لاغترار الخلق بالدّنيا و ضعف إيمانهم بقول الله تعالى في تحذيره إيّاهم غوائل الدّنيا :

روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال لأصحابه : « إنّما مثلي و مثلكم و مثل الدّنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتّى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي ؟ أنفدوا الزّاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة لازاد ولاحمولة فأيقنوا بالهلكة فبيناهم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلّة يقطر رأسه ماء فقالوا هذا قريب عهد بريف و ما جاء كم هذا إلّا من قريب ، فلمّا انتهى إليهم قال : يا هؤلاء قالوا : ياهذا، قال : على م أنتم ؟ فقالوا : على ماترى ، قال : أرأيتم أن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ماتعملون ؟ قالوا : لانعصيك شيئاً ، قال : عهودكم ومواثيقكم بالله ، فأعطوه عهودهم و مواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً ، قال : فأوردهم ماء رواء و رياضاً خضراً فمكث فيهم ماشاء الله ثمّ قال : ياهؤلاء ، قالوا : ياهذا ؛ قال : الرّحيل ، قالوا : إلى أين ، قال :

إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليست كرياضكم فقال أكثرهم : والله ما وجدنا هذا حتّى ظننّا أنّا لن نجده وما نصنع بعيش خير من هذا وقالت طائفة وهم أقلّهم : ألم تعطوا هذا الرّجل عهودكم و مواثيقكم بالله أن لا تعصوه شيئاً ؟ و قد صدقكم في أوّل حديثه فوالله ليصدقنّكم في آخره فراح فيمن اتّبعه وتخلّف بقيّتهم فبدر بهم عدوّ فأصبحوا من بين أسير و قتيل » (١) .

مثال آخر لتنعّم النّاس بالدّنيا ثمّ تفجّعهم على فراقها :

إعلم أنّ مثل النّاس فيما اُعطوا من الدّنيا مثل رجل هيّأ داراً و زيّنها و هو يدعو إلى داره على التّرتيب قوماً واحداً بعد واحد ، فدخل واحد داره فقدّم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمّه ويتركه لمن يلحقه لا ليتملّكه ويأخذه ، فجهل رسمه فظنّ أنّه قد وهب ذلك له فتعلّق به قلبه لما ظنّ أنّه له ، فلمّا استرجع منه ضجر و تفجّع ، و من كان عالماً برسمه انتفع به و شكره وردّه بطيبة قلب وانشراح صدر ، فكذلك من عرف سنّة الله في الدّنيا علم أنّها دار ضيافة سبّلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزوّدوا منها و ينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافر بالعواري و لا يصرفون إليها كلّ قلوبهم حتّى تعظم مصيبتهم عند فراقها .

فهذه أمثلة الدّنيا وآفاتها و غوائلها .

أقول: وههنا مثال آخر أورده شيخنا الصدوق ـ رحمه الله ـ في كتاب إكمال الدّين و إتمام النعمة (٢) نافلاً عن بعض الحكماء لا بأس بإيراده و هو هذا :

مثال آخر : ما أشبه حال الإنسان واغتراره بالدّنيا وغفلته عن الموت وما بعده من الأهوال وانهماكه في اللّذّات العاجلة الفانية الممتزجة بالكدورات بشخص مدلى في بئر ، مشدود وسطه بحبل ، و في أسفل ذلك البئر ثعبان عظيم متوجّه إليه منتظر سقوطه ، فاتح فاه لالتقامه ، وفي أعلى ذلك البئر جرذان أبيض و أسود لا يزالان يقرضان

(١) أخرجه ابن ابي الدنيا هكذا بطوله . ولاحمد والبزار والطبراني من حديث ابن عباس بنحو اخصر منه واسناده حسن (المغني) .

(٢) المصدر ص٣٢٧ أورده المؤلف نقلا بالمعنى لا باللفظ .

ذلك الحبل شيئاً فشيئاً ولا يفتران عن قرضه آناً من الآنات ، و ذلك الشخص مع أنّه يرى ذلك الثعبان و يشاهد انقراض الحبل آناً فآناً قدأقبل على قليل عسل قد لطخ به جدار ذلك البئر و امتزج بترابه واجتمع عليه زنابير كثيرة ، و هو مشغول بلطعه ، منهمك فيه ، ملتذّ بما أصاب منه ، مخاصم لتلك الزنابيرعليه ، قد صرف باله بأجمعه إلى ذلك ، غير ملتفت إلىمافوقه وإلى ما تحته .

فالبئر هو الدّنيا والحبل هوالعمر والثعبان الفاتح فاه هو الموت والجرذان اللّيل والنهار القارضان للأعمار ، والعسل المختلطة بالتراب هولذّات الدّنيا الممتزجة بالكدورات والآلام والزنابيرهم أبناء الدّنيا المتزاحمون عليها .

و ما أشدّ انطباق هذا المثال على الممثّل له فنسأل الله الهداية والبصيرة ونعوذ به من الغفلة والغواية .

✿(بيان حقيقة الدنيا و ماهيتها في حق العبد)✿

إعلم أنّ معرفة ذمّ الدّنيا لاتكفيك مالم تعرف الدّنيا المذمومة ما هي و ما الّذي ينبغي أن يجتنب ، وماالّذي لايجتنب ، فلابدّ أن نبيّن الدّنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوّة قاطعة لطريق الله ماهي ؟

فنقول : دنياك وآخرتك عبارتان عن حالتين من أحوال قلبك والقريب الدّاني منهما يسمّى دنيا وهو كلّ ما قبل الموت و المتراخي المتأخّر يسمّى آخرة وهوما بعد الموت ، فكلّ مالك فيه حظّ و غرضٌ ونصيبٌ وشهوةٌ ولذّةٌ في عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدّنيا في حقّك إلّا أنّ جميع مالك إليه ميل و فيه نصيبٌ وحظٌّ فليس بمذموم بل هي ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل ما يصحبك في الدّنيا و يبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيئان العلم والعمل فقط ، و أعني بالعلم العلم بالله و صفاته و أفعاله و ملائكته و كتبه و رسله و ملكوت أرضه و سمائه والعلم بشريعة نبيّه ، و أعني بالعمل العبادة الخالصة لوجه الله و قد يأنس العالم بالعلم حتّى يصير ذلك ألذّ الأشياء عنده فيهجر النوم و المنكح والمطعم في لذّته لأنّه أشهى عنده من جميعها فقد صارحظاً عاجلاً في الدّنيا ،

و لكنّا إذا ذكرنا الدّنيا المذمومة لم نعدّ هذا من الدّنيا أصلاً بل قلنا : إنّه من الآخرة ، و كذلك العابد قد يأنس بعبادته و يستلذّها بحيث لو منعت عنه لكان ذلك أعظم العقوبات عليه حتّى قال بعضهم : ما أخاف من الموت إلّا من حيث أنّه يحول بيني و بين قيام اللّيل ، و كان آخر يقول : اللّهمّ ارزقني قوّة الصلاة والركوع و السجود في القبر ، فهذا قد صارت الصلاة من حظوظه العاجلة و كلّ حظّ عاجل فاسم الدّنيا ينطبق عليه من حيث الاشتقاق من الدّنوّ ، ولكنّا لسنا نعني بالدّنيا المذمومة ذلك ، و قد قال ﷺ : « حبّب إليّ من دنياكم ثلاث الطيب والنساء و قرّة عيني في الصّلاة » (١) فجعل الصلاة من جملة ملاذّ الدّنيا و ذلك لأنّ كلّ ما يدخل في الحسّ والمشاهدة فهو عالم الشهادة و هو من الدّنيا ، والتلذّذ بتحريك الجوارح بالسجود والركوع إنّما يكون في الدّنيا فلذلك أضافها إلى الدّنيا إلّا أنّا في هذا الكتاب لسنا نتعرّض إلّا للدّنيا المذمومة فنقول : هذه ليست من الدّنيا .

القسم الثاني و هو المقابل للقسم الأوّل على الطرف الأقصى كلّ ما فيه حظّ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً كالتلذّذ بالمعاصي كلّها والتنعّم بالمباحات الزّائدة على قدر الضرورات والحاجات الدّاخلة في جملة الرّفاهية والرّعونات كالتنعّم بالقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة ، والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ، والغلمان والجواري والخيول والمواشي ، والقصور و الدّور المشيّدة ، و رفيع الثياب ولذائذ الأطعمة ، فحظّ العبد من هذه كلّها هي الدّنيا المذمومة ، و فيما يعدّ فضولاً أو في محلّ الحاجة نظر طويل .

القسم الثالث و هو متوسط بين الطرفين كلّ حظّ في العاجل معين على الأعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن و كلّ ما لابدّ منه ليتأتّى للإنسان البقاء والصحّة الّتي بها يتوصّل إلى العلم والعمل و هذا ليس من الدّنيا كالقسم الأوّل لأنّه معين على القسم الأوّل و وسيلة إليه ، فمهما تناوله العبد على

(١) أخرجه احمد ج ٣ ص ١٢٨ ، والنسائي ج ٧ ص ٦١ والحاكم والبيهقي في السنن من حديث أنس بسند حسن كما في الجامع الصغير .

قصد الاستعانة على العلم والعمل لم يكن به متناولاً للدّنيا ولم يصر به من أبناء الدّنيا وإن كان باعثه الحظّ العاجل دون الاستعانة على التقوى إلتحق بالقسم الثاني و صار من جملة الدّنيا و لا يبقى مع العبد عند الموت إلّا ثلاث صفات : صفاء القلب أعني طهارته عن أدناس الدّنيا ، و اُنسه بذكر الله ، و حبّه لله ، و اعلم أنّ صفاء القلب و طهارته لا تحصل إلّا بالكفّ عن شهوات الدّنيا ، والاُنس لايحصل إلّا بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه ، والحبّ لايحصل إلّا بالمعرفة ولاتحصل المعرفة إلّا بدوام الفكر ، و هذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت ، وهي الباقيات الصّالحات ، أمّا طهارة القلب عن شهوات الدّنيا فهي من المنجيات إذ تكون جُنّة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد في الخبر « أنّ أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من جهة رجليه جاء قيام اللّيل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه - الحديث »[1] فأمّا الاُنس والحبّ فهما من المسعدات وهما موصلان للعبد إلى لذّة اللّقاء والمشاهدة وهذه السعادة تتعجّل عقيب الموت إلى أن يدخل الجنّة فيصير القبر روضة من رياض الجنّة ، و كيف لايكون القبر عليه روضة ولم يكن له إلّا محبوب واحد وكانت العوائق تعوقه عن الاُنس بدوام ذكره و مطالعة جماله فارتفعت العوائق ، وأفلت من السجن و خلّي بينه و بين محبوبه فقدم عليه مسروراً سالماً من الموانع آمناً من الفراق وكيف لا يكون محبّ الدّنيا عند الموت معذّباً ولم يكن له محبوب إلّا الدّنيا و قد غصب منه وحيل بينه وبينه ، وسدّت عليه طرق الحيلة في الرّجوع إليه ، وقد قيل في ذلك :

ما حالُ مَن كانَ له واحدٌ ☆ غيّب عنه ذلك الواحدُ

و ليس الموت عدماً إنّما هو فراق لمحابّ الدّنيا و قدوم على الله تعالى ، فإذاً سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث وهي الذّكر والفكر والعمل الّذي يفطمه عن شهوات الدّنيا و يبغّض إليه ملاذّها ويقطعه عنها ، و كلّ ذلك لا يمكن إلّا بصحّة البدن و صحّة البدن لا تنال إلّا بالقوت و الملبس والمسكن و يحتاج كلّ واحد إلى أسباب ، فالقدر الّذي لابدّ منه من هذه الثلاثة

(١) أخرجه الطبراني من حديث عبدالرحمن بن سمرة بطوله (المغني) .

إذا أخذه العبد من الدّنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدّنيا وكانت الدّنيا في حقّه مزرعة الآخرة ، و إن أخذ ذلك على قصد التنعّم ولحظّ النّفس صار من أبناء الدّنيا والرّاغبين في حظوظها إلاّ أنّ الرّغبة في حظوظ الدّنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الله في الآخرة ويسمّى ذلك حراماً وإلى مايحول بينه و بين الدّرجات العلى و يعرضه لطول الحساب ، و يسمّى ذلك حلالاً ، والبصير يعلم أنّ طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضاً عذاب « فمن نوقش في الحساب عذّب » (١) فلذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « حلالها حساب وحرامها عذاب » (٢) وقد قال أيضاً : « حلالها عذاب » إلاّ أنّه عذابٌ أخفّ من عذاب الحرام ولو لم يكن الحساب لكان ما يفوت من الدّرجات العلى في الجنّة و ما يرد على القلب من التحسّر على تفويتها بحظوظ حقيرة خسيسة لا بقاء لها هو أيضاً عذابٌ و قس به حالك في الدّنيا إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنياويّة كيف يتقطّع قلبك عليها حسرات مع علمك بأنّها سعادات منصرمة (٣) لا بقاء لها ، و منغّصة بكدورات لاصفاء لها ، فما حالك في فوات سعادات لا يحيط الوصف بعظمتها و تنقطع الأزمان والدّهور دون غايتها ، و كلّ من تنعّم في الدّنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فهو ينقص من حظّه في الآخرة أضعافه ، والتعرّض لجواب السّؤال فيه ذلّ و خوف و خطر و مشقّة و انتظار و كلّ ذلك من نقصان الحظّ ، فالدّنيا قليلها و كثيرها حلالها و حرامها ملعونة إلاّ ما أعان على تقوى الله فإنّ ذلك القدر ليس من الدّنيا ، و كلّ من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدّنيا أشدّ ، حتّى أنّ عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لمّا نام ثمّ رمى به إذ تمثّل له إبليس و قال :

(١) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٣٩ ، ومسلم ج ٨ ص ١٦٤ باب اثبات الحساب .

(٢) أخرجه ابن ابى الدنيا والبيهقى فى شعب الايمان من طريقه موقوفاً على على ابن ابى طالب عليه السلام باسناد منقطع وفيه « وحرامها النار » وقال العراقى لم أجده مرفوعاً . أقول : اورده الشريف الرضى فى النهج تحت رقم ٧٩ من خطبه عليه السلام هكذا « فى حلالها حساب وفى حرامها عقاب » .

(٣) اى منقطعة .

رغبت في الدّنيا . وحتّى أنّ سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس من لذائذ الأطعمة و هو يأكل خبز الشّعير فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتحاناً وشدّة فإنّ الصبر عن لذيذ الأطعمة مع وجودها أشدّ ، ولهذا زوى الله تعالى الدّنيا عن نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم فكان يطوي أيّاماً وكان يشدّ الحجر على بطنه من الجوع(١) و لهذا سلّط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ثمّ الأمثل فالأمثل كلّ ذلك نظراً لهم وامتناناً عليهم ليتوفّر من الآخرة حظّهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذيذ الفواكه ويلزمه ألم الفصد و الحجامة شفقة عليه وحبّاً له لا بخلاً عليه ، و قد عرفت بهذا أنّ كلّ ما ليس لله فهو من الدّنيا و ما هو لله فليس من الدّنيا .

فإن قلت : فما الّذي هو لله ؟ فأقول الأشياء ثلاثة أقسام : منها ما لا يتصوّر أن يكون لله وهو الّذي يعبّر عنه بالمعاصي والمحظورات وأنواع التنعّمات في المباحات و هي الدّنيا المحضة المذمومة ، فهي الدّنيا صورة و معنى ، و منها ما صورته لله و يمكن أن يجعل لغير الله و هو ثلاثة الفكر والذّكر والكفّ عن الشهوات ، فهذه الثلاثة إذا جرت سرّاً ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهي لله وليست من الدّنيا ، و إن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرّف به وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحّة البدن أو الاشتهار بالزّهد ، فقد صار هذا من الدّنيا بالمعنى وإن كان يظنّ بصورته أنّه لله ، و منها ما صورته لحظّ النّفس و يمكن أن يجعل معناه لله و ذلك كالأكل و النكاح و كلّ ما يرتبط به بقاؤه و بقاء ولده فإن كان القصد حظّ النفس فهو من الدّنيا وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدّنيا ، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من طلب الدّنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله و هو عليه غضبان ، و من طلبها استعفافاً عن المسئلة و صيانة لنفسه جاء يوم القيامة و وجهه كالقمر ليلة البدر »(٢) فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد فإذاً الدّنيا حظّ نفسك العاجل الّذي

---

(١) راجع الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٩٥ باب عيش النبي صلى الله عليه وآله .

(٢) أخرجه ابو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابي هريرة بسند ضعيف كما في المغني .

لا حاجة إليه لأمر الآخرة ويعبّر عنه بالهوى وإليه الاشارة بقوله تعالى : « ونهى النّفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى » (١).

واعلم أنّ مجامع الهوى خمسة أمور وهي ما جمعه الله عزّ وجلّ في قوله : « إنّما الحيوة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد »(٢) والأعيان الّتي منها تحصل هذه الأمور الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى : « زيّن للنّاس حبّ الشهوات من النّساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة و الخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحيوة الدّنيا والله عنده حسن المآب »(٣) فقد عرفت أنّ كلّ ما هو لله ، فليس من الدّنيا ، و قدر ضرورة القوت وما لا بدّ منه من مسكن و ملبس فهو لله إن قصد به وجه الله ، والاستكثار منه تنعّم وهو لغير الله وبين التنعّم والضرورة درجة يعبّر عنها بالحاجة ، ولها طرفان و واسطة : طرف يقرب من حدّ الضرورة فلا يضرّ فإنّ الاقتصار على حدّ الضّرورة غير ممكن ، و طرف يزاحم جانب التنعّم و يقرب منه و ينبغي أن يحذر ، وبينهما وسائط متشابهة « ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » والحزم في الحذر والتقوى والتقرّب من حدّ الضّرورة ما أمكن اقتداء بالأنبياء والأولياء إذ كانوا يردّون أنفسهم إلى حدّ الضّرورة حتّى أنّ أويساً القرني كان يظنّ أهله أنّه مجنون لشدّة تضييقه على نفسه فبنوا له بيتاً على باب دارهم فيأتي عليه السنّة والسّنتان والثلاث ما يرون له وجهاً وكان يخرج أوّل الأذان و يأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة و كان طعامه أن يلتقط النّوى فكلّما أصاب الحشف خبأها لإفطاره ، فإن أصاب ما يقوته من الحشف تصدّق بالنوى وإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى واشترى ما يقوته وكان لباسه ما يلفظ إلى المزابل فيلتقط قطع الأكسية فيغسلها في الفرات و يلفّق بعضها إلى بعض ثمّ يلبسها و كان ذلك لباسه ، و كان ربّما مرّ بالصّبيان فيرمونه و يظنّون أنّه مجنون فيقول لهم : يا إخوتاه إن كنتم ترموني فارموني بأحجار صغار فإنّي

(١) النازعات : ٤٠ .
(٢) الحديد : ٢٠ .
(٣) آل عمران : ١٤ .

أخاف أن تدموني فيحضر وقت الصّلاة ولا اُصيب الماء (١) ، و هكذا كانت سيرته ولهذا عظّم رسول الله ﷺ أمره فقال : « إنّي لأجد نفس الرّحمن من جانب اليمن » (٢) إشارة إليه ، و لمّا ولي عمر بن الخطّاب قال : يا أيّها النّاس من كان منكم من أهل العراق فليقم فقاموا ، قال : اجلسوا إلّا من كان من أهل الكوفة فجلسوا ، فقال : اجلسوا إلّا من كان من مراد (٣) فجلسوا ، فقال : اجلسوا إلّا من كان من قرن فجلسوا كلّهم إلّا رجلاً و احداً فقال له عمر : أقرنيٌّ أنت ؟ فقال : نعم ، فقال : أتعرف اُويس بن عامر القرنيَّ فوصفه له فقال : نعم و ماتسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين والله مافينا أحق منه ولا أجنُّ منه ولاأوحش منه ولاأدنى منه ، فبكى عمر ثمَّ قال : ما قلت إلّا أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر » (٤) فقال هرم بن حيّان : لمّا سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لي همٌّ إلّا أن أطلب اُويساً القرنيّ و أسأل عنه حتّى سقطت عليه فوجدته جالساً على شاطىء الفرات نصف النهار يتوضّأ ويغسل ثوبه ، قال : فعرفته بالنعت الّذي نعت لي فاذا رجل لحيمٌ ، شديدُ الاُدمة ، محلوق الرأس ، كثُّ اللّحية ، عليه إزار من صوف ورداء من صوف ، متغيّر اللّون جدًّا ، كريه الوجه ، متهيّب المنظر ، قال : فسلّمت عليه فردَّ عليَّ ونظر إليَّ ، فهبت فقلت : حيّاك الله من

(١) هذه الخرافة وماشابهها من الاساطير والمختلفات التي كتبتها يدالاوهام الباطلة وبالحرى أن تكتب في طاموز القصاصين ، أسفي على هذا التأليف القيم الفخم ، يحتوى أمثال هذه الخرافات دون اى ركز أوغميزة . ولقد كان اويس رجلا الهياً مقدماً لم يخطأ طريق الحق والاعتدال شهدمع أمير المؤمنين عليه السلام صفين وفاز بالشهادة كمانص عليه جمع من الاعلام كالنجاشي وغيره .

(٢) قال العراقي : لم اجدله اصلا .

(٣) قال الجوهري : مراد : أبوقبيلة من اليمن ، وهومراد بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبأ . ويقال :كان اسمه يحابر - كمهاجر - فتمرد فسمي مراداً ، وهوفعال على هذا القول .

(٤) راجع رجال الكشي ص ٦٥ حديثاً طويلا فيه قال النبي صلى الله عليه وآله ذات يوم لاصحابه : «ابشروا برجل من امتي يقال له : اويس القرني فانه يشفع لمثل ربيعة ومضر» الحديث ومثله في الاختصاص ص ٧.

رجل ، ومَدَدت يدي لأصافحه فأبى أن يصافحني ، فقلت رحمك الله يا أُويس وغفر لك كيف أنت رحمك الله ؟ ثمّ خنقتني العبرة من حبّي إيّاه و رقّتي عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتّى بكيت وبكى ، ثمّ قال : وأنت فحيّاك الله ياهرم بن حيّان كيف أنت يا أخي ومن دلّك عليَّ ؟ قال : قلت : الله ، فقال : لا إله إلّا الله سبحان الله ، إن كان وعد ربّنا لمفعولاً ، قال : فتعجّبت حين عرفني ولا و الله ما رأيته قبل ذلك ولا رآني ، فقلت : من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم ؟ قال : نبّأني العليم الخبير ، عرف روحي روحك حين كلّمت نفسي نفسك ، إنّ الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد وإنّ المؤمنين ليعرف بعضهم بعضاً ويتحابّون بروح الله وإن لم يلتقوا ، يتعارفون ويتكلّمون وإن نأت بهم الدار وتفرّقت بهم المنازل ، قال : قلت : حدّثني رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وآله بحديثٍ أسمعه منك ، قال : إنّي لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله ولم تكن لي معه صحبة بأبي واُمّي رسول الله صلى الله عليه وآله ولكن رأيت رجالاً قد صحبوه وبلغني من حديثه نحو ممّا بلغك ولست اُحبّ أن أفتح هذا الباب على نفسي أن أكون محدّثاً أو مفتياً أو قاضياً ، في نفسي شغل شاغل عن الناس ياهرم ابن حيّان ، فقلت : يا أخي اقرأ عليَّ آية من القرآن أسمعها منك وادع لي بدعوات وأوصني بوصية أحفظها عنك فإنّي اُحبّك في الله حبّاً شديداً ، قال : فقام و أخذ بيدي على شاطىء الفرات ثمّ قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرّجيم ثمّ بكى ، ثمّ قال : قال ربّي - و الحق قول ربّي وأصدق الكلام كلامه - ثمّ قرأ : « و ما خلقنا السموات و الأرض و ما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلّا بالحق و لكنّ أكثرهم لا يعلمون - حتّى انتهى إلى قوله : - إنّه هو العزيز الرّحيم » فشهق شهقة ظننت أنّه قد غشي عليه ، ثمّ قال : يا ابن حيّان مات أبوك حيّان ويوشك أن تموت أنت فإمّا إلى جنّة وإمّا إلى نار ، ومات أبوك آدم ، وماتت اُمّك حوّاء ، ومات نوح ، ومات إبراهيم خليل الرّحمن ، ومات موسى نجي الرّحمن ، ومات داود خليفة الرّحمن ، ومات محمّد صلى الله عليه وآله وهو رسول ربّ العالمين ، ومات أبوبكر ومات عمر ، ثمّ قال : واعمراه ، قال : فقلت : رحمك الله إنّ عمر لم يمت ، قال قد نعاه إليّ ربّي ونعى إليّ نفسي ، ثمّ قال : أنا وأنت

في الموتى كأنّه قدكان ثمّ صلّى على النبيّ صلّى الله عليه وآله ثمّ دعالي بدعوات خفيّات ثمّ قال : هذه وصيّتي إليك ياهرم بن حيّان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد نعيت إليّ نفسي ونفسك عليك بذكر الموت لايفارق قلبك طرفة عين ما بقيت وأنذر قومك إذا رجعت إليهم وانصح للاُمّة جيعاً وإيّاك أن تفارق الجماعة قيد شبر فيفارقك دينك و أنت لاتعلم فتدخل النّار يوم القيمة اُدع لي ولنفسك ثمّ قال : اللّهمّ إنّ هذا يزعم أنّه يحبّني فيك وزارني من أجلك فعرّفني وجهه في الجنّة ، وأدخله عليّ في دارك دار السلام ، واحفظه مادام في الدّنيا حيّاً حيثما كان وضمّ عليه ضيعته وأرضه من الدّنيا باليسير وماأعطيته من الدّنيا فيسّره له تيسيراً واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين واجزه عنّي خير الجزاء ، ثمّ قال : أستودعك الله يا هرم بن حيّان و السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، لا أراك بعد اليوم رحمك الله لاتطلبني فإنّي اُكره الشهرة والوحدة أحبّ إليّ ، إنّي كثير الهمّ شديد الغمّ مع هؤلاء الناس مادمت حيّاً فلاتسأل عنّي ولا تطلبني و اعلم أنّك منّي على بال و إن لم أرك و لم ترني فاذكرني وادع لي فإنّي سأذكرك وأدعولك إن شاء الله انطلق أنت ههنا حتّى أنطلق أنا ههنا ، فحرصت أن أمشي معه ساعة فأبى عليّ وفارقته فبكى وأبكاني وجعلت أنظر في قفاه حتّى دخل بعض السكك ، ثمّ سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحداً يخبرني عنه بشيء رحمه الله وغفر له [1] .

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدّنيا و قد عرفت ممّا سبق في بيان ذمّ الدّنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء أنّ حدّ الدّنيا كلّ ما أظلّته الخضراء وأقلّته الغبراء إلّا ما كان لله عزّ وجلّ من ذلك ، وضدّ الدّنيا الآخرة وهو كلّ ما اُريد به الله عزّ وجلّ ممّا يؤخذ بقدر الضرورة من الدّنيا لأجل قوّة طاعة الله عزّ وجلّ فذلك ليس من الدّنيا ، ويتبيّن هذا بمثال : وهو أنّ الحاجّ إذا حلف أنّه في طريق الحجّ لايشتغل بغير الحجّ بل يتجرّد له ثمّ اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الرّاوية وكلّ مالابدّ للحجّ منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولاً بغير الحجّ ،

---

(١) هذا الكلام بطوله قصة خرافية نسجها بعض الصوفية .

فكذلك البدن مركب النفس يقطع به مسافة العمر فتعهّد البدن بماتبقى به قوّته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدّنيا ، نعم إذا قصد تلذّذ البدن وتنعّمه بشيء من هذه الأسباب كان منحرفاً عن الآخرة و يخشى على قلبه القسوة .

قال الطنافسي : كنت على باب بني شيبة في المسجد الحرام سبعة أيّام طاوياً فسمعت في اللّيلة الثامنة منادياً وأنا بين اليقظة و النوم ـ يقول : ألا إنّ من أخذ من الدّنيا أكثر ممّا يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه ، فهذا بيان حقيقة الدّنيا .

✡ (بيان ماهيّة الدنيا في نفسها) ✡
✡ (واشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم) ✡
✡ (وخالقهم ومواردهم ومصدرهم) ✡

اعلم أنّ الدّنيا عبارة عن أعيان موجودة وللإنسان فيها حظّ وله في إصلاحها شغل فهذه ثلاثة أمور قد يظنّ أنّ الدّنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك أمّا الأعيان الموجودة الّتي الدّنيا عبارة عنها فهي الأرض وما عليها ، قال الله تعالى : « إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً » (١) فالأرض فراش للآدميّين ومهاد ومسكن ومستقرّ ، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ، ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام المعادن والنبات والحيوان ، وأمّا المعادن فيطلبها الآدميّ للآلات والأواني كالنحاس والرصاص وللنقد كالذّهب والفضّة ولغير ذلك من المقاصد ، و امّا النبات فيطلبها الآدميّ للاقتيات وللتداوي ، وأمّا الحيوان فينقسم إلى الإنسان والبهائم ، أمّا البهائم فيطلب لحومها للمأكل و ظهورها للمركب والزّينة ، و أمّا الإنسان فقد يطلب الآدميّ أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان او ليتمتّع بهم كالجواري و النّسوان و يطلب قلوب الناس ليملكها فيغرس فيها التعظيم والاكرام وهو الّذي يعبر عنه بالجاه إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميّين فهذه هي الأعيان الّتي يعبّر عنها بالدّنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله « زيّن للناس

(١) الكهف : ٧ .

حبّ الشهوات من النساء والبنين » (١) و هذا من الانس « و القناطير المُقنطَرَة من الذّهب و الفضّة » و هذا من الجواهر و المعادن و فيه تنبيهٌ على غيرها من اللآلي واليواقيت « والخيل المسوّمة والأنعام » وهي البهائم والحيوانات « والحرث » وهو النبات والزرع فهذه هي أعيان الدّنيا إلّا أنّ لها مع العبد علاقتين علاقة مع القلب وهو حبّه لها وحظّه منها و انصراف همّه إليها حتّى يصير قلبه كالعبد أو المحبّ المستهتر بالدّنيا ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلّقة بالدّنيا كالكبر والغلّ والحسد والرّياء والسمعة وسوء الظنّ و المداهنة و حبّ الثناء وحبّ التكاثر والتفاخر فهذه هي الدّنيا الباطنة ، وأمّا الظاهرة فهي الأعيان الّتي ذكرناها . والعلاقة الثانية مع البدن وهو اشتغاله باصلاح هذه الأعيان ليصلح لحظوظه وحظوظ غيره وهي جملة الصناعات والحرف الّتي الخلق مشغولون بها والخلق إنّما نسو أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم لهاتين العلاقتين علاقة القلب بالحبّ وعلاقة البدن بالشغل ولو عرف نفسه وعرف ربّه وعرف حكمة الدّنيا وسرّها علم أنّ هذه الأعيان الّتي سمّيناها دنيا لم تخلق إلّا لعلف الدّابة الّتي تسير بها إلى الله تعالى وأعني بالدّابة البدن فانّه لايبقى إلّا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن ، كما لايبقى الابل في طريق الحجّ إلّا بعلف وماء وجلال ، ومثال العبد في نسيانه نفسه و مقصده مثال الحاجّ الّذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة و يتعهّدها و ينظّفها ويكسوها ألوان الثياب و يحمل إليها أنواع الحشيش ويبرّد لها الماء بالثلج حتّى تفوته القافلة وهو غافل عن الحجّ وعن مرور القافلة وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته ، و الحاجّ البصير لايهمّه من أمر الجمل إلّا القدر الّذي يقوى به على المشي فيتعهّده وقلبه إلى الكعبة و الحجّ وإنّما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة ، فكذلك البصير في سفر الآخرة لايشتغل بتعهّد البدن إلّا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلّا للضرورة ولافرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجه من البطن ، وأكثر ماشغل الناس عن الله هو البطن فانّ القوت ضروريٌّ ، وأمر الملبس و المسكن أهون ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور

(١) آل عمران : ١٤ .

واقتصروا عليها لم يستغرقهم أشغال الدّنيا فإنّما استغرقتهم لجهلهم بالدّنيا وحكمتها وحظوظهم منها ولكنّهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدّنيا واتّصلت بعضها وتداعت إلى غير نهاية محدودة فتاهوا في كثرة الأشغال ونسوا مقصودها ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدّنيا وكيفية حدوث الحاجة إليها وكيف غلط النّاس في مقاصدها حتّى يتّضح لك أنّ أشغال الدّنيا كيف صرفت الخلق عن الله وكيف أنستهم عاقبة اُمورهم.

فنقول: الأشغال الدّنيويّة هي الحرف والصناعات والأعمال الّتي ترى الخلق مكبّين عليها، وسبب كثرة الأشغال هو أنّ الإنسان مضطرّ إلى ثلاث القوت والمسكن والملبس، القوت للغذاء والبقاء، والملبس لرفع الحرّ والبرد، والمسكن لذلك ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحاً بحيث يستغني عن صنعة الإنسان فيه، نعم خلق الله ذلك للبهائم فإنّ النبات يغذي الحيوان من غير طبخ، والحرّ والبرد لا يؤثّر في أبدانها فيستغني عن البناء ويقنع بالصحراء، ولباسها شعورها وجلودها فتستغني عن اللّباس، والإنسان ليس كذلك، فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هي اُصول الصّناعات وأوائل الأشغال الدّنيويّة وهي الفلاحة والرّعاية والاقتناص والحياكة والبناء، أمّا البناء فللمسكن والحياكة وما يكتنفها من الغزل، والخياطة فللملبس، والفلاحة فللمطعم، والرّعاية للمواشي والخيل وهي أيضاً للمطعم والمركب، والاقتناص يعنى به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب، فالفلاّح يحصّل النباتات، والرّاعي يحفظ الحيوانات ويستنتجها، والمقتنص يحصّل ما نبت ونتج بنفسه من غير صنعة آدمي وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي ونعني بالاقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدّة ثمّ هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتناص، والآلات إنّما تؤخذ إمّا من النبات وهو الأخشاب أو من المعادن كالحديد والرّصاص وغيرهما أو من جلود الحيوانات، فحدثت الحاجة إلى ثلاثة أنواع اُخر من الصناعات النجارة والحدادة والخرز وهؤلاء هم عمّال الآلات ونعني بالنجّار كلّ عامل على خشب كيفما كان، وبالحدّاد كلّ من عمل على جواهر المعادن

حتّى النحّاس والإبري وغيرهما ، وغرضنا ذكر الأجناس فأمّا آحاد الحرف فكثيرة ، وأمّا الخرّاز فنعني به كلّ عامل على جلود الحيوانات وأجزائها فهذه اُمّهات الصناعات، ثمّ إنّ الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطرّ إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك بسببين أحدهما حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان ولا يكون ذلك إلّا باجتماع الذّكر و الاُنثى وعشرتهما ، و الثاني التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد فإنّ الاجتماع يفضي إلى الولد لا محالة والواحد لا يستقلّ بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت ، ثمّ ليس يكفيه الاجتماع مع الأهل و الولد في المنزل ، بل لا يمكنه أن يعيش كذلك مالم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفّل كلّ واحد بصناعة فإنّ الشخص الواحد كيف يتولّى الفلاحة وحده و هو محتاج إلى الآلات ، ويحتاج الآلة إلى حدّاد ونجّار، ويحتاج الطعام إلى طحّان وخبّاز ، وكذلك كيف ينفرّد لتحصيل الملبس وهو يفتقر إلى حراثة القطن وآلات الحياكة والخياطة وأعمال كثيرة ، فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماعات ، ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذّوا بالحرّ والبرد والمطر واللّصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ومنازل ينفرّد أهل كلّ بيت به وبما معه من الآلات والأثاث والمنازل تدفع الحرّ والبرد وتدفع أذى الجيران من اللّصوصية وغيرها ، ولكن جميع المنازل قد تقصدها جماعة من اللّصوص خارج المنازل ، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون والتحصّن بسور يحيط بجميع المنازل ، فحدثت البلاد لهذه الضرورة ، ثمّ مهما اجتمع الناس في البلاد و المنازل و تعاملوا تولّدت بينهم خصومات إذ تحدث رئاسة و ولاية للزّوج على الزوجة ، وولاية للأبوين على الولد لأنّه ضعيف محتاجٌ إلى قوّام به ، و مهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم إذ ليس لها قوّة المخاصمة وإن ظلمت و أمّا المرأة فتخاصم الزّوج ، والولد يخاصم الأبوين هذا في المنزل ، و أمّا أهل البلد أيضاً فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها ولو تركوا كذلك لتقاتلوا و هلكوا ، وكذلك الرّعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعي والأراضي والمياه و هي لا تفي بأغراضهم فيتنازعون لا محالة ثمّ قد يعجز بعضهم عن

الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أوهرم أو تعرض عوارض مختلفة لو ترك ضايعاً لهلك ولو وكل تفقّده إلى الجميع لتخاذلوا ولوخصّ واحد من غير سبب يخصّه لايذعن له [1] فحدثت بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات اُخر فمنها صناعة المساحة الّتي بها تعرف مقادير الأرض لتمكّن القسمة بينهم بالعدل و منها صناعة الجنديّة لحراسة البلد بالسيف و دفع اللّصوص عنهم و منها صناعة الحكم و التوسّط بينهم لفصل الخصومة و منها الحاجة إلى الفقه و هو معرفة القانون الّذي ينبغي أن يضبط به الخلق و يلزموا الوقوف على حدوده حتّى لا يكثر النزاع وهو معرفة حدود الله في المعاملات و شروطها ، فهذه اُمور سياسيّة لابدّ منها ولا يشتغل به إلّا مخصوصون بصفات مخصوصة من التمييز والعلم والهداية وإذا اشتغلوا بها لم يتفرّغوا لصناعات اُخر و يحتاجون إلى المعائش و يحتاج أهل البلد إليهم إذلو اشتغل أهل البلد بالحرب مثلاً مع الأعداء تعطّلت الصناعات ولواشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطّلت البلاد عن الحرّاس واستضرّ الخلق فمسّت الحاجة إلى أن يصرف إلى معائشهم و أرزاقهم الأموال الضايعة الّتي لا مالك لها إن كانت أو تصرف إليهم الغنائم إن كانت العداوة مع الكفّار ، فإن كانوا أهل ديانة و ورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح ، و إن أرادوا التوسّع فتمسّ الحاجة لا محالة إلى أن يمدّهم أهل البلد بأموالهم ليمدّوهم بالحراسة فتحدث الحاجة إلى الخراج ثمّ يتولّد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة إلى صناعات اُخر إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلّاحين وأرباب الأموال وهم العمّال و إلى من يستوفي منهم بالرّفق وهم الجباة [2] والمستخرجون وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزّان وإلى من يفرّق عليهم بالعدل وهم العارض للعساكر [3] وهذه الأعمال لو تولّاها عدد لا يجمعهم رابط انخرم النظام ، فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبّرهم .

---

(١) اذعن له : خضع وذل وأقر وأسرع في الطاعة وانقاد .

(٢) الجباة هم الذين يجمعون الخراج من اطراف البلاد .

(٣) في القاموس عرض الجند عرض عين أمرهم عليه و نظر حالهم .

وأمير مطاع يعيّن لكلّ عمل شخصاً، ويختار لكلّ واحد ما يليق به، ويراعي النصفة في أخذ الخراج وإعطائه واستعمال الجند في الحرب وتوزيع أسلحتهم و تعيين جهات الحرب، و نصب الأمير والقائد على كلّ طائفة منهم إلى غير ذلك من صناعات الملك، فتحدث من ذلك بعد الجند الّذين هم أهل السّلاح وبعد الملك الّذي يراقبهم بالعين الكالئة[1] ويدبّرهم الحاجة إلى الكتّاب والخزّان والحسّاب والجباة والعمّال، ثمّ هؤلاء أيضاً يحتاجون إلى المعيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف، فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمّى فرع الخراج وعند هذا يكون الناس في الصّناعات ثلاثة طوائف الفلاّحون والرّعاة والمحترفون، والثانية الجنديّة الحماة لهم بالسيوف، والثالثة المتردّدون بين الطائفتين في الأخذ والإعطاء وهم العمّال والجباة وأمثالهم فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت و المسكن والملبس و إلى ما ذا انتهى، وهكذا اُمور الدّنيا لا يفتح منها باب إلاّ و ينفتح بسببه عشرة أبواب اُخر و هكذا تتناهى إلى غير حدّ محصور و كأنّها هاوية لا نهاية لعمقها و من وقع في مهواة منها سقط منها إلى اُخرى و هكذا على التوالي، فهذه هي الحرف والصناعات إلاّ أنّها لا تتمّ إلاّ بالأموال والآلات فالمال عبارة عن أعيان الأرض و ما عليها ممّا ينتفع بها وأعلاها الأغذية، ثمّ الأمكنة الّتي يأوي الإنسان إليها و هي الدّور، ثمّ الأمكنة الّتي يسعى فيها للتعيش كالحوانيت والأسواق والمزارع، ثمّ الكسوة، ثمّ أثاث البيت وآلاته ثمّ آلات الآلات و قد يكون في الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد، والبقر آلة الحراثة، والفرس آلة لركوب الحرب، ثمّ يحدث من ذلك حاجة البيع فإنّ الفلاّح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة والحدّاد والنجّار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة، فبالضرورة يحتاج الفلاّح إليهما ويحتاجان إليه فيحتاج أحدهما إلى أن يبذل ما عنده للآخر حتّى يأخذ منه غرضه و ذلك بطريق المعاوضة إلاّ أنّ النجّار مثلاً إذا طلب من الفلاّح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاّح في ذلك الوقت إلى الآلة فلا يبيعه والفلاّح إذا طلب الآلة من النجّار بالطعام ربّما كان عنده طعام في ذلك الوقت

(١) من كلاه أي حفظه واحترسه.

فلا يحتاج إليه فتتعوّق الأغراض فاضطرّوا إلى حانوت تجمع آلة كلّ صنعة يترصّد بها صاحبها أرباب الحاجات و إلى أنبار يجمع إليها ما يحمله الفلاّحون فيشتريه منه صاحب الأنبار ويترصّد به أرباب الحاجات ، فتظهر لذلك الأسواق والمخازن فيحمل الفلاّح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجاً باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها لانتظار أرباب الحاجات طمعاً في الربح و كذلك في جميع الأمتعة والأموال ، ثمّ يحدث لا محالة بين البلاد والقرى تردّد فيتردّد الناس يشترون من القرى الأطعمة و من البلاد الآلات وينقلون ذلك فيتعيّشون به لتنتظم أمور الناس في البلاد بسببهم ، إذ كلّ بلد ربّما لا يوجد فيه كلّ آلة ، و كلّ قرية لا يوجد فيها كلّ طعام فالبعض يحتاج إلى البعض فيحوج إلى النقل فيحدث التجار المتكفّلون بالنقل وباعثهم عليه حرص جمع المال فيتعبون طول اللّيل و النهار في الأسفار لأغراض غيرهم ونصيبهم منها جمع المال الّذي يأكله لامحالة غيرهم إمّا قاطع طريق و إمّا سلطان ظالم ولكن جعل الله في غفلتهم وجهالتهم نظاماً للبلاد ومصلحة للعباد بل جميع امور الدّنيا انتظمت بالغفلة و خساسة الهمّة و لو عقل الناس وارتفعت همّتهم لزهدوا في الدّنيا و لو فعلوا ذلك لبطلت المعايش و لو بطلت لهلكوا ولهلك الزّهّاد أيضاً ، ثمّ هذه الأموال الّتي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دوابّ تحملها ، و صاحب المال قد لا يملك الدّابّة فتحدث معاملة بينه و بين مالك الدّابّة تسمّى الإجارة و يصير الكراء نوعاً من الاكتساب أيضاً ، ثمّ تحدث بسبب البياعات (١) الحاجة إلى النّقدين فإنّ من يريد أن يشتري طعاماً بثوب فمن أين يدري أنّ المقدار الّذي يساويه من الطعام كم هو والمعاملة تجري في أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام و حيوان بثوب ، و هذه أمور لاتتناسب فلابدّ من حاكم عدل يتوسّط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب بذلك العدل من أعيان الأموال ثمّ يحتاج إلى مال يطول بقاؤه لأنّ الحاجة إليه تدوم وأبقى الأموال المعادن فاتّخذت النقود من الذّهب والفضّة والنحاس ثمّ مسّت الحاجة إلى الضرب والنقش والتقدير فحدثت الحاجة إلى دار الضّرب وإلى

(١) البياعة بالكسر ـ السلعة جمعها بياعات ـ (القاموس) .

الصيارفة و هكذا تتداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتّى تنتهي إلى ماتراه فهذه أشغال الخلق و هي معايشهم و شيء من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلّا بنوع تعلّم وتعب في الابتداء ، و في الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزاً عن الاكتساب لعجزه عن الحرف فيحتاج إلى أن يأكل ممّا سعي فيه غيره ، فتحدث منه حرفتان خسيستان اللّصوصيّة والكدية[1] إذ يجمعهما أنّهما يأكلان من سعي غيرهما ، ثمّ إنّ الناس يحترزون عن اللّصوص والمتكدّين و يحفظون منهم أموالهم فافتقروا إلى صرف عقولهم إلى استنباط الحيل والتدبيرات ، أما اللّصوص فمنهم من يطلب أعواناً و يكون في بدنه شوكة و قوّة فيجتمعون و يكاثرون و يقطعون الطرق كالأعراب والأكراد و أمّا الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إمّا بالنقب أو التسلّق عند انتهاز فرصة الغفلة[2] و إمّا بأن يكون طرّاراً أو سلّالاً[3] إلى غير ذلك من أنواع التلصّص الحادثة بحسب ما انتجته الأفكار المصروفة إلى استنباطها ، فأمّا المتكدّي فإنّه إذا طلب ما سعى فيه غيره قيل له : اتعب و اعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يعطى شيئاً فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال و تمهيد العذر لأنفسهم في البطالة فاحتالوا للتعلّل بالعجز إمّا بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون ، و إمّا بالتعامي والتفالج و التجانن والتمارض و إظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أنّ تلك محنة أصابت من غير استحقاق ليكون ذلك سبب الرّحمة ، وجماعة يلتمسون أفعالاً و أقوالاً يتعجّب النّاس منها حتّى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها حتّى يسخوا برفع

---

(١) الكدية - بالضم - : شدة الدهر ، والارض الغليظة ، والصفاة العظيمة الشديدة والشيء الصلب بين الحجارة والطين ، و ما جمع من طعام او شراب فجعل كثبة و أيضاً الاستعطاء وحرفة السائل الملحّ . والمراد معنى الاخير .

(٢) تسلق الجدار صعد عليه ، وانتهز الفرصة : اغتنمها .

(٣) قال الفيومي : طررته طراً من باب قتل شققته ومنه الطرار وهو الذي يقطع النفقات ويأخذها على غفلة من أهلها ، وسل السيف من باب قتل وسللت الشيء : أخذته ، والسلة - بالفتح - السرقة وهي اسم من سللته سلا من باب قتل اذا سرقته .

اليد عن قليل من المال في حال التعجّب ، ثمّ قد يندم بعد زوال التعجّب ولا ينفع الندم وذلك قديكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبدة والأفعال المضحكة مثل النوادج والعجابى و قد يكون بالأشعار الغريبة أو الكلام المنثور المسجّع مع حسن الصوت والشعر الموزون أشدّ تأثيراً في النّفس لا سيّما إذا كان فيه تعصّب يتعلّق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة و فضائل أهل البيت عليهم السلام أو الّذي يحرّك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة البطّالين في الأسواق أو تسليم مايشبه العوض وليس بعوض كبيع التعويذات والحشايش إلى من يخيّل به أنّها أدوية فيخدع بها الصبيان والجهّال و كأصحاب القرعة والفال والزجر من المنجّمين و يدخل في هذه الجنس الوعّاظ المكدّون على رؤوس المنابر إذ لم يكن وراءهم طائل علميّ و كان غرضهم استمالة قلوب العوامّ وأخذ أموالهم وأنواع الكدية تزيد على الألف نوع والألفين و كلّ ذلك استنبطه بدقيق الفكر لأجل المعيشة ، فهذه هي أشغال الخلق و أعمالهم الّتي أكبّوا عليها و جرّهم إلى ذلك كلّه الحاجة إلى القوت والكسوة ، ولكن نسوا في أثناء ذلك أنفسهم و مقصودهم و منقلبهم ومآلهم فضلّوا وتاهوا وسبقت إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة أشغال الدّنيا خيالات فاسدة ، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدّة أوجه فطائفة غلب عليهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمرهم فقالوا : المقصود أن نعيش أيّاماً في الدّنيا فنجهد حتّى نكسب القوت ثمّ نأكل حتّى نقوى على الكسب ثمّ نكتسب حتّى نأكل فيأكلون ليكسبوا و يكسبون ليأكلوا ، فهذه مذاهب الفلّاحين والمحترفين و من ليس له تنعّم في الدّنيا ولاقدم في الدّين فإنّه يتعب نهاراً ليأكل ليلاً ويأكل ليلاً ليتعب نهاراً وذلك كسير السواني (١) فهو سفر لا ينقطع إلّا بالموت .

وطائفة اُخرى زعموا أنّهم تفطّنوا لأمر و هو أن ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل و لا يتنعّم في الدّنيا بل السعادة في أن يقضي و طره من شهوات

---

(١) السواني جمع السانية وهي الناضحة : الناقة التي يستقي عليها وفي المثل « السير السواني سفر لاينقطع » . (مختار الصحاح)

الدّنيا وهي شهوة البطن والفرج فهؤلاء طائفة نسوا أنفسهم وصرفوا هممهم إلى اتّباع النسوان و جمع لذائذ الأطعمة يأكلون كما تأكل الأنعام و يظنّون أنّهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غايات السعادات فيشغلهم ذلك عن الله تعالى واليوم الآخر .

وطائفة ظنّوا أنّ السعادة في كثرة المال والاستغناء بكنز الكنوز فأسهروا ليلهم و نهارهم في الجمع فهم يتعبون في الأسفار طول اللّيل والنهار و يتردّدون في الأعمال الشاقّة و يكتسبون و يجمعون ولا يأكلون إلّا قدر الضرورة شحّاً و بخلاً عليها أن تنقص و هذه لذّتهم وفي ذلك دأبهم و حركتهم إلى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللّذات فيكون للجامع تعبه و وباله و للآكل لذّته و حسابه ، ثمّ إنّ الّذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك في أشباههم و أمثالهم ولا يعتبرون .

و طائفة ظنّوا أنّ السعادة في حسن الاسم و انطلاق الألسن بالثّناء والمدح بالتجمّل والمروّة ، فهؤلاء يتعبون في كسب المعايش و يضيقون على أنفسهم في المطعم والمشرب ، ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة والدّوابّ النفيسة ، ويزخرفون أبواب الدّور و ما يقع عليه أبصار الناس حتّى يقال : إنّه غنيّ و إنّه ذو ثروة ، و يظنّون أنّ ذلك هو السعادة فهمّتهم في ليلهم ونهارهم في تعهّد موقع نظر الخلق .

و طائفة اُخرى ظنّوا أنّ السعادة في الجاه والكرامة بين النّاس و انقياد الخلق بالتواضع والتوقير ، فصرفوا همّتهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة بطلب الولايات وتقلّد الأعمال السلطانيّة لينفذوا أمرهم بها على طائفة من الناس و يرون أنّهم إذا اتّسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة و أنّ ذلك غاية المطلب ، و هذا أغلب الشهوات على قلوب المتغافلين من الناس فهؤلاء شغلهم حبّ تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكّر في آخرتهم ومعادهم ، و وراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيّف وسبعين فرقة كلّهم ضلّوا وأضلّوا عن سواء السبيل ، وإنّما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن فنسوا ما تراد له هذه الاُمور الثلاثة والقدر الّذي يكفي منها وانجرّت بهم أوايل أسبابها

إلى أواخرها ، وتداعت بهم إلى مهاوي لم يمكنهم الرقيّ منها ، فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال و عرف غاية المقصود منها فلا يخوض في شغل و حرفة وعمل إلّا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظّه و نصيبه منه ، وإنّ غاية مقصوده تعهّد بدنه بالقوت والكسوة حتّى لايهلك و ذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت الهمّة إلى الاستعداد له و إن تعدّى به قدر الضّرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية فتشعّب به الهموم ، ومن تشعّبت به الهموم في أودية الدّنيا فلايبال الله في أيّ واد أهلكه ، فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدّنيا .

وتنبّه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدّنيا فحسدهم الشيطان فلم يتركهم وأضلّهم في الأغراض أيضاً حتّى انقسموا إلى طوائف فظنّت طائفة أنّ الدّنيا داربلاء ومحنة وأنّ الآخرة دار سعادة لكلّ مَن وصل إليها سواء تعبّد في الدّنيا أو لم يتعبّد ، فرأوا أنّ الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدّنيا و إليه ذهب طوائف من عبّاد الهند فهم يتهجّمون على النار و يقتلون أنفسهم بالاحراق و يظنّون أنّ ذلك خلاص منهم من محن الدّنيا ، و ظنّت طائفة اُخرى أنّ القتل لا يخلّص بل لابدّ أوّلاً من إماتة الصفات البشريّة و قلعها عن النفس بالكلّيّة وأنّ السّعادة في قطع الشهوة والغضب ، ثمّ أقبلوا على المجاهدة فشدّدوا على أنفسهم حتّى هلك بعضهم بشدّة الرّياضة ، و بعضهم فسد عقله وجُنّ ، و بعضهم مرض وانسدّت عليه طرق العبادة ، و بعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلّيّة فظنّ أنّ ما كلّفه الشرع محال و أنّ الشرع تلبيس لا أصل له فوقع في الإلحاد والزندقة ، و ظهر لبعضهم أنّ هذا التعب كلّه لله و أنّ الله مستغن عن عبادة العباد لا ينقصه عصيان عاص ولاتزيده عبادة عابد ، فعادوا إلى الشّهوات و سلكوا مسلك الإباحة فطووا بساط الشرع والأحكام و زعموا أنّ ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أنّ الله مستغن عن عبادة العباد ، وظنّ طائفة اُخرى أنّ المقصود من العبادات المجاهدة حتّى يصل العبد بها إلى معرفة الله فإذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصال يستغني عن الوسيلة والحيلة ،

فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنّه ارتفع محلّهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف وإنّما التكليف على عوام الخلق ، و وراء هذا مذاهب باطلة وضلالة هائلة وخيالات فاسدة يطول إحصاؤها إلى أن يبلغ نيّفاً وسبعين فرقة وإنّما الناجي منها فرقة واحدة و هي السالكة ما كان عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وأصحابه و هو أن لا يترك الدّنيا بالكلّية و لا يقمع الشهوات بالكلّية أمّا الدّنيا فيؤخذ منها قدر الزّاد ، وأمّا الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ، فلا يتّبع كلّ شهوة ولا يترك كلّ شهوة بل يتّبع العدل ولا يترك كلّ شيء من الدّنيا ولا يطلب كلّ شيء من الدّنيا ، بل يعلم مقصود كلّ ما يخلق من الدّنيا ويحفظه على حدّ مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ، و من المسكن ما يحفظ به من اللّصوص والحرّ و البرد ، و من الكسوة كذلك حتّى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله بكنه همّه واشتغل بالذكر والفكر طول العمر و بقي ملازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتّى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم تفصيل ذلك إلّا بالاقتداء بالفرقة النّاجية .

أقول: و قد عرفت معنى الفرقة الناجية في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات .

قال : (١) وقد كانوا على النهج القصد و على السّبيل الّذي فصّلناه من قبل فإنّهم ما كانوا يأخذون الدّنيا للدّنيا بل للدّين ، وما كانوا يترهّبون و يهجرون الدّنيا بالكلّية ، وما كان لهم في الاُمور تفريط ولا إفراط بل كانوا أمرهم بين ذلك قواماً وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحبّ الاُمور إلى الله كما سبق ذكره في مواضع والله المستعان لا ربّ سواه و صلّى الله على محمّد و آله أجمعين .

هذا آخر كتاب ذمّ الدّنيا من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الاحياء و يتلوه إن شاء الله كتاب ذمّ المال والحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً و باطناً و صلّى الله على محمّد و آله .

---

(١) يعني أباحامد .

كتاب ذمّ المال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكاشف الضرّ بعد القنوط ، الّذي خلق الخلق ، و وسع الرّزق ، و أفاض على العالمين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلّب الأحوال ، وردّدهم فيها بين العسر واليسر ، والغنى والفقر ، والطمع واليأس ، والثروة والافلاس ، والعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، و الفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والانفاق ، والتوسّع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل ، واستحقار الكثير ، كلّ ذلك ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً ، و ينظر أيّهم آثر الدّنيا على الآخرة بدلاً ، وابتغى عن الآخرة عدولاً وحولاً ، واتّخذ الدّنيا ذخيرة وخَولاً .

والصلاة على محمّد الّذي نسخ بملّته مللاً ، و طوى بشريعته أدياناً و نحلاً ، و على آله و أصحابه الّذين سلكوا سبل ربّهم ذللاً وسلّم كثيراً .

أمّا بعد فإنّ فتن الدّنيا كثيرة الشعب والأطراف ، واسعة الأرجاء والأكناف ، ولكنّ الأموال أعظم فتنها وأطمّ محنها وأعظم فتنة فيها أنّه لاغنى لأحدعنها ، ثمّ إذا وجدت فلا سلامة منها ، فإن فقد فقدحصل منه الفقر الّذي يكاد أن يكون كفراً ، وإن وجد حصل منه الطغيان الّذي لاتكون عاقبة أمره إلّا خسراً ، و بالجملة فهي لا تخلو من الفوائد والآفات ، و فوائدها من المنجيات و آفاتها من المهلكات ، و تمييز خيرها عن شرّها من المعوصات الّتي لا يقوى عليها إلّا ذوو البصائر في الدّين من العلماء الرّاسخين دون المترسّمين المغترّين ، وشرح ذلك مهمّ على الانفراد فإنّ ماذكرناه في كتاب ذمّ الدّنيا لم يكن نظراً في المال خاصّة بل في الدّنيا عامّة إذ الدّنيا تتناول

كلّ حظّ عاجل و المال بعض أجزاء الدّنيا ، والجاه بعضها ، واتّباع شهوة البطن و الفرج بعضها ، و تشفّي الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها ، والكبر و طلب العلوّ بعضها ، ولها أبعاض كثيرة و يجمعها كلّ ما للإنسان فيه حظّ عاجل ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده إذفيه آفات وغوائل وللإنسان من فقده صفة الفقر و من وجوده صفةالغنى ، وهما حالتان يحصل بهماالاختبار والامتحان ، ثمّ للفاقد حالتان القناعة والحرص وإحداهما مذمومة والاُخرى محمودة ، وللحريص حالتان طمع فيما في أيدي‌الناس أوتشمّر للحرف والصناعات مع اليأس عن‌الخلق ، والطمع شرّ الحالتين ، و للواجد حالتان إمساك بحكم البخل والشحّ وإنفاق ، و إحداهما مذمومة والاُخرى محمودة ، وللمنفق‌حالتان تبذيرواقتصاد والمحمود هوالاقتصاد ، و هذه اُمور متشابهة و كشف الغطاء عن الغموض فيها مهمّ فنشرحه في فصول ، و هي أربعة عشر فصلاً : وهو بيان ذمّ المال ، ثمّ مدحه ، ثمّ تفصيل فوائد المال وآفاته ، ثمّ بيان ذمّ الحرص والطمع ، ثمّ علاج الحرص والطمع ، ثمّ فضيلة السخاء ، ثمّ حكايات الأسخياء ، ثمّ ذمّ البخل ، ثمّ حكايات‌البخلاء ، ثمّ الإيثار و فضله ، ثمّ حدّ السخاء والبخل ، ثمّ علاج البخل ، ثمّ مجموع الوظائف في المال ، ثمّ ذمّ الغنى و مدح الفقر .

٭(بيان ذم‌المال و كراهة حبه)٭

قال الله تعالى : « ياأيّها الّذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولأولادكم عن‌ذكر الله و من يفعل ذلك فاُولئك هم الخاسرون » (١).

و قال الله تعالى : « إنّما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجرٌ عظيم »(٢).

و قال تعالى : « من‌كان يريدالحيوة‌الدّنيا وزينتها ـ الآية ـ »(٣).

و قال تعالى : « الهيكم التكاثر » (٤).

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « حبّ المال والشرف ينبتان النفاق كماينبت الماء

(١) المنافقون : ٩ . (٢) التغابن : ١٥ .
(٣) هود : ١٥ . (٤) التكاثر : ٢.

البقل »(١).

و قال ﷺ: « ما ذئبان ضاريان اُرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حبّ الشرف والمال والجاه في دين الرّجل المسلم »(٢).

و قال ﷺ: « هلك الأكثرون مالاً إلّامن قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليلٌ ماهم »(٣).

و قيل: يا رسول الله أيّ اُمّتك شرّ؟ قال: « الأغنياء »(٤).

و قال ﷺ: « سيأتي بعدكم قومٌ يأكلون أطائب الطعام وألوانها وينكحون أجمل النساء و ألوانها، و يلبسون ألين الثياب و ألوانها، و يركبون فره الخيل و ألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع، وأنفس بالكثير لا تقنع، عاكفين على الدّنيا يغدون ويروحون إليها، اتّخذوها آلهة من دون إلههم وربّاً دون ربّهم، إلى أمرها ينتهون و لهواهم يتبعون، فعزيمة من محمّد بن عبدالله لمن أدرك ذلك الزّمان من عقب عقبكم و خلف خلفكم أن لا يسلّم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتّبع جنائزهم و لا يوقّر كبيرهم فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الاسلام »(٥).

(١) قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعدهذا بلفظ الجاه بدل الشرف.

(٢) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٢٣ من حديث مالك الانصاري وصححه وفيه « الشرف » وأيضاً « جائعان » بدل « ضاريان » ورواه النسائي في السنن الكبرى هكذا لكن ليس فيها « في زريبة » و للطبراني في الاوسط من حديث ابي سعيد « ماذئبان ضاريان في زريبة غنم الحديث » وفي سنده خالد بن يزيد العمري وهو كذاب و رواه بسند آخر جيد عن ابي هريرة بأدنى اختلاف كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٥١.

(٣) راجع صحيح البخاري ج ٨ ص ١١٦ ومسند احمد ج ٢ ص ٤٢٨ و ج ٣ ص ٥٢.

(٤) ماعثرت عليه بهذا اللفظ في اصل.

(٥) أخرجه البزار عن ابي امامة هكذا « سيكون رجال من امتي يأكلون الوان الطعام ويشربون الوان الشراب ويلبسون الوان الثياب ويتشدقون في الكلام فاولئك شرار امتي الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه اجسامهم » وفي طريقه عبدالرحمن بن زياد بن نعم الافريقي وهو ضعيف في حفظه كما قاله ابن الحجر وقدوثق و الجمهور على تضعيفه كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٥٠. ولم أجد لبقية الحديث اصل.

و قال صلى الله عليه و آله : « دعوا الدّنيا لأهلها من أخذ من الدّنيا فوق ما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لايشعر » (١).

و قال صلى الله عليه و آله : « يقول ابن آدم : مالي‌مالي ، وهل‌لك من مالك إلّاماتصدّقت فأمضيت ، أو أكلت فأفنيت ، أولبست فأبليت » (٢)

و قال رجل : « يا رسول الله مالي لاأحبّ الموت ؟ فقال : هل معك من‌مال؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : قدّم مالك أمامك فإنّ قلب المؤمن مع ماله ، إن قدّمه أحبّ أن يلحقه و إن خلّفه أحبّ أن يتخلّف معه » (٣).

و قال صلى الله عليه و آله : « أخلاّ ابن آدم ثلاثة : واحديتبعه‌إلى‌قبض‌روحه ، والثانى‌إلى قبره ، والثالث إلى محشره فالّذي يتبعه إلى‌قبض روحه فماله ، والّذي يتبعه إلى‌قبره فأهله ، والّذي يتبعه إلى محشره فعمله » (٤).

و قال الحواريّون لعيسى ابن مريم عليه السلام : مالك‌تمشي‌على الماء ولا نقدرعلى ذلك ؟ فقال‌لهم : « مامنزلةالدّينار والدّرهم‌عندكم ؟ قالوا : حسن ، قال : لكنّهما عندي والمدرسواء» .

وكتب سلمان إلى أبي الدّرداء : يا أخي إيّاك أن تجمع من الدّنيا ما لا تؤدّي شكره فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول : « يجاء بصاحب الدّنيا الّذي أطاع الله فيها و ماله بين يديه كلّما تكفّأ به الصراط قال له ماله : امض فقد أدّيت حقّ‌الله فيّ ، ثمّ يجاء بصاحب الدّنيا الّذي لم يطع الله فيها و ماله بين كتفيه كلّما تكفّأبه الصراط قال له ماله : ويلك ألاّ أدّيت حقّ‌الله فيّ ، فما يزال كذلك حتّى

---

(١) أخرجه ابوبكر بن‌لال من حديث انس بسند ضعيف كما في‌الجامع الصغير ج ٢ ص ١٦ ورواه البزار وقال :لايروى‌الامن هذا الوجه كما في‌الترغيب ج ٤ ص ١٦٠ .

(٢) رواه‌الحاكم ج ٤ ص ٣٢٢ من المستدرك والترمذى ج ٩ص٢٠٧ وقدتقدم .

(٣) قال العراقي : لم أقف عليه .

(٤) رواه الطبراني في‌الكبير باسانيد أحدها صحيح ورواه في الاوسط بلفظ‌آخر راجع الترغيب ج ٤ ص ١٧١ ومجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

يدعوا بالثبور والويل »[١].

وكلّ ماأوردنا في كتاب الزّهد والفقر في ذمّ الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذمّ المال فلا نطول بتكريره وكذا كلّ ما ذكرناه في ذمّ الدّنيا فيتناول ذمّ المال بحكم العموم ، لأنّ المال أعظم أركان الدّنيا وإنّما نذكر الآن ما ورد في المال خاصّة .

قال صلّى الله عليه وآله : « إذا مات العبد قالت الملائكة : ماقدّم ، وقال الناس : ماخلّف »[٢].

و قال صلّى الله عليه وآله : « لاتتّخذوا الضيعة فتحبّوا الدّنيا » [٣].

و روي أنّه وضع عليّ عليه السلام درهماً على كفّه ، ثمّ قال : « أما إنّك ما لم تخرج عنّي لا تنفعني » .

و قيل : إنّ أوّل ما ضرب الدّينار والدّرهم رفعهما إبليس ثم وضعهما على جبهته ، ثمّ قبّلهما و قال : من أحبّكما فهو عبدي حقّاً .

و قال يحيى بن معاذ : الدّرهم عقربٌ فان لم تحسن رقيته فلا تأخذه فإنّه إن لدغك قتلك سمّه ، قيل : ما رقيته ؟ قال : أخذه من حلّه ووضعه في حقّه .

و قال : أيضاً مصيبتان لم يسمع الأوّلون والآخرون بمثلها للعبد في ماله عند موته ، قيل : وماهما ؟ قال : يؤخذ منه كلّه و يسأل عنه كلّه .

و قيل : ما أعزّ الدّرهم أحدٌ إلّا أذلّه .

و قال العلاء بن زياد : تمثّلت لي الدّنيا وعليها من كلّ زينة ، فقلت : أعوذ بالله من شرّك ، قالت : إن سرّك أن يعيذك الله من شرّي فأبغض الدّينار والدّرهم . و ذلك لأنّ الدّينار والدّرهم هي الدّنيا كلّها إذ يتوصّل بهما إلى جميع أصنافها فمن صبر عنهما صبر عن الدّنيا ، ولذلك قيل :

---

(١) قال العراقي : ليس هو من حديث سلمان انما هومن حديث ابي الدرداء وأنه كتب الى سلمان كذا رواه البيهقي في الشعب وقال بدل «الدنيا» « المال » وهو منقطع .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابي هريرة بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٣) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٠١ من حديث ابن مسعود وفيه « فترغبوا في الدنيا » .

إنّي وجدت فلا تظنّوا غيره ✡ إنّ التورّع عند هذا الدّرهم
فإذا قدرت عليه ثمّ تركته ✡ فاعلم بأنّ تقاك تقوى المسلم

و قال غيره :

لايغرّنك من المرء قميص رقعه ✡ أو إزار فوق عظم الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه أثر قد خلعه ✡ أره الدّرهم فانظر حبّه أو ورعه

✡(بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم)✡

إعلم أنّ الله سبحانه قد سمّى المال خيراً في مواضع فقال : « إن ترك خيراً الآية ـ »(1) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « نعم المال الصالح للرّجل الصالح »(2) و كلّ ما جاء في ثواب الصدقة والحجّ فهو ثناء على المال إذلا يمكن الوصول إليهما إلّا به و قال تعالى : « و يستخرجا كنزهما رحمة من ربّك » (3) وقال تعالى : ممتنّاً على عباده « و يمددكم بأموال و بنين و يجعل لكم جنّات و يجعل لكم أنهاراً » (4) و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « كاد الفقر أن يكون كفراً »(5) وهو ثناء على المال ، ولاتقف على وجه الجمع بين المدح والذمّ إلّا بأن تعرف حكمة المال و مقصوده وآفاته وغوائله حتّى ينكشف لك أنّه خيرٌ من وجه وشرٌّ من وجه ، وأنّه محمودٌ من حيث هو خيرٌ ومذمومٌ من حيث هو شرٌّ فإنّه ليس هو بخير محض ولاهو شرٌّ محض ، بل هو سبب للأمرين جميعاً و ما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة و يذمّ اُخرى ولكن البصير المميّز يدرك أنّ المحمود منه غير المذموم و بيانه بالاستمداد ممّا ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات و تفصيل درجات النعم ، والقدر المقنع فيه هو أنّ مقصد الأكياس و أرباب البصائر سعادة الآخرة الّتي هي النعيم الدّائم والملك المقيم والقصد إلى هذا دأب

(1) البقرة : ١٨٠ . (2) قال العراقي : أخرجه احمد والطبراني في الكبير والاوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ «نعما» وقالا «للمرء» .
(3) الكهف : ٨٢ .
(4) نوح : ١٢ .
(5) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

الكرام والأكياس ، إذقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مَن أكرم الناس وأكيسهم ؟ فقال : « أكثرهم للموت ذكراً و أشدّهم له استعداداً » (١) و هذه السّعادات لا تنال إلّا بثلاثة وسائل في الدّنيا وهي الفضائل النفسيّة كالعلم وحسن الخلق ، والفضائل البدنيّة كالصحّة والسلامة ، والفضائل الخارجة عن البدن كالمال و سائر الأسباب و أعلاها النفسيّة ثمّ البدنيّة ثمّ الخارجة ، والخارجة أخسّها ، والمال من جملة الخارجات و أدناها الدّراهم والدّنانير فإنّهما خادمان ولاخادم لهما ويرادان لغيرهما ولا يرادان لذاتهما إذالنفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها وأنّهاتخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلهاصفة في ذاتها ، والبدن يخدم النّفس بواسطة الحواسّ والأعضاء ، و المطاعم والملابس تخدم البدن .

و قد سبق أنّ المقصود من المطاعم إبقاء البدن و من المناكح إبقاء النسل و من البدن تكميل النفس و تزكيتها و تزيينها بالعلم والخلق ، و مَن عرف هذا الترتيب فقدعرف قدر المال ووجه شرفه وأنّه من حيث هوضرورة المطاعم و الملابس الّتي هي ضرورة بقاء البدن الّذي هو ضرورة كمال النفس الّذي هوخيرٌ ، ومَن عرف فائدة الشيء و غايته و مقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتاً إليها غيرناس لهافقدأحسن وانتفع وكان ما يحصل الغرض محموداً في حقّه ، فإنّ المال آلة و وسيلة إلى مقصود صحيح ويصلح أن يتّخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة وهي المقاصد الصادّة عن سعادة الآخرة وتسدّ سبيل العلم والعمل ، فهو إذاً محمود مذموم ، محمودٌ بالإضافة إلى المقصود المحمود و مذمومٌ بالإضافة إلى المقصودالمذموم ، فمن أخذ من الدّنيا أكثر ممّا يكفيه فقد أخذ حتفه وهولا يشعر كما ورد في الخبر ، و لمّا كانت الطباع مائلة إلى اتّباع الشهوات القاطعة لسبيل الله وكان المال مسهّلاً لها وآلة إليها عظم الخطر فيمايزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شرّه حتّى قال نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم : « اللّهمّ اجعل قوت آل محمّد كفافاً » (٢) فلم يطلب من الدّنيا ما لم يتمحّض خيره ، وقال : « اللّهمّ

(١) رواه ابن ابي الدنيا في الموت بسند جيد كما في المغني .

(٢) متفق عليه وأخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٣٩ من حديث ابي هريرة .

أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً » (١) .

واستعاذ إبراهيم صلوات الله عليه فقال : « واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام» (٢) و في بعض التفاسير أنّه عنى بهذين الحجرين الذّهب والفضّة إذ رتبة النبوّة أجلّ من أن يخشى عليها أن تعتقد الالهيّة في شيء من هذه الحجارة ، إذ قد كفي قبل النبوّة عبادتها مع الصغر ، و إنّما معنى عبادتهما حبّهما والاغترار بهما والرّكون إليهما ، قال نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم : « تعس عبد الدّرهم تعس عبد الدّينار تعس و انتكس وإذاشيك فلاانتقش » (٣) فبيّن أنّ محبّهما عابدٌ لهما و من عبدحجراً فهو عابد صنم ، بل كلّ من كان عبداً لغيرالله فهوعابدصنم ، أي من قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقّه فهو كعابد صنم ، وهو شرك إلاّ أنّ الشرك شركان شرك خفيّ لايوجب الخلود في النار وقلّما ينفكّ عنه المؤمنون فإنّه أخفى من دبيب النمل و شرك جليّ يوجب الخلود في النار .

(بيان تفصيل آفات المال و فوائده)

إعلم أنّ المال مثل حيّة فيها سمّ و ترياقٌ ففوائده ترياقه و غوائله سمومه فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شرّه و يستدرّ من خيره .

أما الفوائد: فهي تنقسم إلى دنيويّة ودينيّة . وأمّا الدنيويّة فلا حاجة إلى ذكرها فانّ معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها ، وأمّا الدّينيّة فتنحصر جميعها في ثلاثة أنواع :

النوع الأوّل : أن ينفقه على نفسه إمّا في عبادة أو في الاستعانة على عبادة ، أمّا

(١) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢١٣ أبواب الزهد في حديث عن أنس وقال هذا حديث غريب . وابن ماجه تحت رقم ٤١٢٦ .

(٢) ابراهيم : ٣٥ .

(٣) أخرجه البخاري ج ٤ ص ٤١ و٤٢ في حديث عن أبي هريرة . وقوله « تعس » اى عثر وانكب بوجهه وهودعاء عليه بالهلاك . وقوله : « وانتكس» اى انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة ، لان من انتكس في أمره فقد خاب وخسر ، وقوله : « اذاشيك فلا انتقش » اى اذا شاكه شوكة فلايقدر على انتقاشها و هو اخراجها بالمنقاش . (النهاية)

في العبادة فهو كالاستعانة به على الحجّ والجهاد فإنّه لا يتوصّل إليهما إلّا بالمال وهما من اُمّهات القربات ، والفقير محروم عن فضلهما ، وأمّا فيما يقوّيه على العبادة فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة ، فإنّ هذه الحاجات إذا لم تتيسّر كان القلب منصرفاً إلى تدبيرها فلا يتفرّغ للدّين ومالا يتوصّل إلى العبادة إلّا به فهو عبادة فأخذهم الكفاية من الدّنيا لأجل الاستعانة على الدّين من الفوائد الدّينيّة ، ولايدخل في هذا التنعّم والزّيادة على الحاجة ، فإنّ ذلك من حظوظ الدّنيا فقط .

النوع الثاني : مايصرفه إلى الناس وهي أربعة أقسام : الصدقة والمروّة ووقاية العرض واُجرة الاستخدام ، أمّا الصدقة فلايخفى ثوابها وأنّها لتطفىء غضب الرّبّ تعالى و قد ذكرنا فضائلها ، و أمّا المروّة فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة و هديّة وإعانة وما يجري مجراها ، فإنّ هذه لا تسمّى صدقة ، بل الصدقة ما يسلّم إلى المحتاج إلّا أنّ هذا أيضاً من الفوائد الدّينيّة إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسخياء ، فلا يوصف بالجود إلّا من يصطنع المعروف و يسلك سبيل الفتوّة والمروّة ، و هذا أيضاً ممّا يعظم الثواب فيه ، فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات و إطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها ، و أمّا وقاية العرض فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء و ثلب السّفهاء و قطع ألسنتهم ودفع شرّهم ، وهذا أيضاً مع تنجّز فائدته في العاجلة من الحظوظ الدّينيّة أيضاً قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة »(١) وكيف لايكون كذلك و فيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحترازٌ عمّا يثور من كلامه من العداوة الّتي تحمله في المكافأة و الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة ، و أمّا الاستخدام فهو أنّ الأعمال الّتي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه

---

(١) أخرجه ابويعلى من حديث جابر و الدارقطني والخرائطي والبيهقي في شعب الايمان ايضاً في حديث عن جابر بسند حسن كما في المغني وأخرجه الحاكم في المستدرك بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

كثيرة ولو تولّاها بنفسه ضاعت أوقاته و تعذّر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر و الذكر الّذي هو أعلى مقامات السالكين ، ومن لامال لهفيفتقر إلى أن يتولّى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام و طحنه و كنس البيت حتّى نسخ الكتاب الّذي يحتاج إليه و كلّ ما يتصوّر أن يقوم به غيرك و يحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به إذ عليك من العلم والعمل والفكر والذّكر مالا يتصوّر أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت في غيره خسران .

النوع الثالث : مالايصرفه إلى إنسان معيّن ولكن يحصل به خير عامّ كبناء المسجد والقناطير والرباطات و دار المرضى و نصب الحباب في الطرق وغير ذلك من الأوقاف المرصّدة للخيرات ، وهي من الخيرات المؤبّدة الدّارة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية ، وناهيك به خيراً فهذه جملة فوائد المال في الدّين سوى مايتعلّق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذلّ السؤال وحقارة الفقر والوصول إلى العزّ والمجد بين الخلق و كثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء والوقار والكرامة في القلوب فكلّ ذلك ممّا يقتضيه المال من الحظوظ الدّنيويّة .

وأما الآفات : فدينيّة و دنيويّة أمّا الدّينيّة فثلاثة :

الأولى أنّه يجرّ إلى المعاصي فإنّ الشهوات متفاضلة والعجز قد يحول بين المرء و بين المعصية و من العصمة أن لا يقدر ، و مهما كان الإنسان آيساً عن نوع من المعصية لم تتحرّك داعيته إليها فإذا استشعر القدرة عليه انبعثت الدّاعية ، والمال نوع من القدرة يحرّك داعية المعاصي وارتكاب الفجور فإن اقتحم ما اشتهاه هلك و إن صبر وقع في شدّة إذ الصبر مع القدرة أشدّ وفتنة السرّاء أعظم من فتنة الضرّاء .

الثانية أنّه يجر إلى التنعّم في المباحات و هذا أوّل الدّرجات فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لذائذ الأطعمة كما كان يقدر عليه سليمان عليه السلام في ملكه فأحسن أحواله أن يتنعّم بالدّنيا ويمرّن عليه نفسه . فيصير التنعّم مألوفاً عنده و محبوباً لا يصبر عنه و يجرّه البعض منه إلى البعض ، و إذا أشتدّ اُنسه به ربّما لا يقدر على التوصّل إليه بالكسب الحلال

فيقتحم الشبهات و يخوض في المراياة والمداهنة والكذب والنفاق و ساير الأخلاق الرّديّة لينتظم له أمر دنياه و يتيسّر له تنعّمه ، فإنّ من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ومن احتاج إلى الناس فلابدّ وأن ينافقهم ويعصي الله في طلب رضاهم فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى و هي مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هذه أصلاً ، و من الحاجة إلى الخلق تثور العداوة و الصّداقة و ينشأ عنه الحسد والحقد والرّياء والكبر والكذب والغيبة والنميمة وسائر المعاصي الّتي تخصّ القلب واللّسان ولايخلو عن التعدّي أيضاً إلى سائر الجوارح ، وكلّ ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه و إصلاحه .

الثالثة و هي الّتي لاينفكّ عنها أحدٌ و هو أنّه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى وكلّ ما شغل العبد عن الله فهو خسرانٌ ، و لذلك قال عيسى عليه السلام : في المال ثلاث آفات أن يأخذه من غير حلّه فقيل : إن أخذه من حلّه ، قال : يضعه في غير حقّه ، فقيل : إن وضعه في حقّه ، فقال : يشغله إصلاحه عن الله ، و هذا هو الدّاء العضال ، فإنّ أصل العبادات ومخّها و سرّها ذكر الله تعالى والتفكّر في جلاله وذلك يستدعي قلباً فارغاً وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكّراً في خصومة الفلاّح ومحاسبته ، وخصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود ، وخصومة أعوان السّلطان في الخراج ، و خصومة الأجراء في التقصير في العمارة ، وخصومة الفلاّحين في خيانتهم وسرقتهم ، و صاحب التجارة يكون متفكّراً في خيانة شريكه وانفراده بالرّبح وتقصيره في العمل وتضييعه للمال ، و كذلك صاحب المواشي ، وهكذا سائر أصناف الأموال ، وأبعدها عن كثرة الشغل النقد المكنوز تحت الأرض ولايزال بالفكر متردّداً فيما يصرف إليه وفي كيفيّة حفظه ، وفي الخوف ممّن يعثر عليه ، وفي دفع أطماع الناس عنه ، و أودية أفكار أهل الدّنيا لانهاية لها والّذي معه قوت يومه في سلامة عن جميع ذلك فهذه جملة الآفات الدّينيّة سوى مايقاسيه أرباب الأموال في الدّنيا من الخوف والحزن والغمّ والهمّ والتعب في دفع الحسّاد و تجشّم المصاعب في حفظ الأموال و كسبها فإنّ ترياق المال أخذ القوت و صرف الباقي إلى الخيرات و ما عداه سموم وآفات .

☆(بيان ذم الحرص والطمع)☆
☆(ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس)☆

إعلم أنّ الفقر محمودٌ كما أوردناه في كتاب الفقر و لكن ينبغي أن يكون الفقير قانعاً منقطع الطمع عن الخلق ، غيرملتفت إلى ما في أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان ولايمكنه ذلك إلّا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس ، و يقتصر على أقلّه قدراً وأخسّه نوعاً ، ويردّ أمله إلى يومه أو إلى شهره ، ولايشغل قلبه بما بعد الشهر فإن تشوّق إلى الكثرة أوطول الأمل فاته عزّ القناعة وتدنّس لامحالة بالطمع و ذلّ الحرص ، و جرّه الحرص و الطمع إلى مساوي الأخلاق و ارتكاب المنكرات الخارقة للمروّات و قد جبل الآدميّ على الحرص والطمع و قلّة القناعة ، قال رسول الله ﷺ : « لوكان لابن آدم واديان من ذهب لا يبتغى وراءهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب و يتوب الله على من تاب » (١).

وعن أبي واقد اللّيثي قال : كان رسول الله ﷺ إذا أوحي إليه أتيناه يعلمنا بما اُوحي إليه فجئته ذات يوم ، فقال : « إنّ الله عزّوجلّ يقول : إنّا أنزلنا المال لا قام الصلاة و إيتاء الزكاة ، ولو أنّ لابن آدم وادياً من ذهب لأحبّ أن يكون إليه الثاني ، ولوكان له الثاني لأحبّ أن يكون إليهما الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب و يتوب الله على من تاب » (٢).

و قال النبيّ ﷺ : « منهومان لايشبعان : منهوم العلم و منهوم المال » (٣).

و قال ﷺ : « يهرم ابن آدم و يشبّ معه اثنتان الأمل وحبّ المال أو كما قال » (٤).

---

(١) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١١٥ . (٢) أخرجه أحمد في مسنده ج ٥ ص ٢١٩ ولابن ماجه نحوه عن أبي هريرة تحت رقم ٤٢٣٥ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير بسند ضعيف من حديث ابن مسعود بلفظ آخر كما في مجمع الزوائد ج ١ ص ١٣٥ .

(٤) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١١٠ بادنى اختلاف في اللفظ والنسائي واحمد أيضاً من حديث أنس بسند صحيح .

و لمّا كانت هذه جبلّة للآدميّ مضلّة ، و غريزة مهلكة أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة ، وقال صلى الله عليه وآله : « طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به»[١].

و قال صلى الله عليه وآله : « ما من أحد غنيّ ولا فقير إلّا ودّ يوم القيامة أنّه كان اُوتي قوتاً في الدّنيا » [٢].

و قال صلى الله عليه وآله : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنّما الغنى غنى النّفس »[٣].

و نهى عن شدّة الحرص والمبالغة في الطلب فقال : « ألا أيّها الناس اجملوا في الطلب فإنّه ليس للعبد إلّا ما كتب له ، ولن يذهب عبد من الدّنيا حتّى يأتيه ما كتب له في الدّنيا وهي راغمة » [٤].

وروي أنّ موسى عليه السلام سأل ربّه تعالى فقال : « أيّ عبادك أغنى ؟ قال : أقنعهم لما أعطيته ، قال : فأيّهم أعدل ؟ قال : من أنصف من نفسه » .

و قال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ روح القدس نفث في روعي إنّ نفساً لن تموت حتّى تستكمل رزقها فاتّقوا الله و أجملوا في الطلب » [٥].

وعنه صلى الله عليه وآله : « إذا اشتدّ بك الجوع فعليك برغيف و كوز من ماء وعلى الدّنيا الدّمار »[٦].

وعنه صلى الله عليه وآله : « كن ورعاً تكن أعبد الناس ، و كن قانعاً تكن أشكر الناس ، و أحبّ للناس ما تحبّ لنفسك تكن مؤمناً » [٧].

---

(١) أخرجه الترمذي في صحيحه ج ٩ ص ٢١١ و قال : حسن صحيح .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٤٠ باسناده عن نفيع عن أنس ، وقال السيوطي : هذا الحديث اورده ابن الجوزي في الموضوعات وأعله بنفيع فانه متروك ، وهو مخرج في مسند احمد وله شاهد من حديث ابن مسعود أخرجه الخطيب في تاريخه .

(٣) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١١٨ من حديث ابي هريرة .

(٤) أخرج نحوه الحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٤ . والبيهقي في السنن ج ٥ ص ٢٦٤ .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٤ وابن ابي الدنيا في القناعة .

(٦) أخرجه ابن عدي والبيهقي في الشعب عن ابي هريرة بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٧) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢١٧ من حديث ابي هريرة بسند حسن .

و نهى رسول الله ﷺ عن الطمع فيما رواه أبو أيّوب الأنصاري أنّ أعرابيّاً أتى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله عظني و أوجز ، فقال : « إذا صلّيت فصلّ صلاة مودّع ، ولا تحدثنّ بحديث تعتذر منه غداً ، وأجمع اليأس عمّا في أيدي الناس »(١).

و قال عوف بن مالك : كنّا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ قلنا : أو ليس قد بايعناك يا رسول الله ؟ ثمّ قال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا فبايعناه ، و قال قائل منّا : قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس ، و تسمعوا و تطيعوا ، ـ و أسرّ كلمة خفيّة ـ و لا تسألوا الناس شيئاً . قال : و لقد كان بعض اُولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحداً أن يناوله إيّاه (٢) .

الآثار قيل لبعض الحكماء : ماالغنى ؟ قال : قلّة تمنّيك ورضاك بمايكفيك .

و قال ابن مسعود : ما من يوم إلّا و ملك ينادي يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك .

و قيل لحكيم : ما مالك ؟ قال : التجمّل في الظاهر ، والقصد في الباطن ، و اليأس ممّا في أيدي الناس .

و يروى أنّ الله عزّ وجلّ قال : يا ابن آدم لو كانت الدّنيا كلّها لك لم يكن لك منها إلّا القوت فإذا أنا أعطيتك منها القوت و جعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن .

و قيل لبعض الحكماء : أيّ شيء أسرّ للعاقل ، وأيّها أعون على دفع الحزن ؟ قال : أسرّها إليه ماقدم من صالح العمل ، وأعونها له على دفع الحزن الرّضا بمحتوم القدر .

و قال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غمّاً الحسود ، و أهنأهم عيشاً القنوع ، و أصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدّنيا ،

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٧١ وللحاكم ج ٤ ص ٣٢٦ نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٨٦٧ .

و أعظمهم ندامة العالم المفرط . و قد قيل :

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة ✿ إنّ الّذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنّسه ✿ والوجه منه جديد ليس يخلقه
إنّ القناعة من يحلل بساحتها ✿ لم يلق في دهره شيئاً يؤرّقه

و عاتب أعرابيّ أخاه على الحرص فقال : يا أخي أنت طالب ومطلوب يطلبك ما لاتفوته و تطلب أنت ماقد كفيته ، و كلّ ما قدغاب عنك قد كشف لك وما أنت فيه قد نقلت عنه كأنّك يا أخي لم تر حريصاً محروماً و زاهداً مرزوقاً . و قيل :

أراك يزيدك الإثراء حرصاً ✿ على الدّنيا كأنّك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوماً ✿ إليها قلت حسبي قد رضيت ؟

وقال الشعبيّ : حكي أنّ رجلاً صاد قنبرة قالت : ماتريد أن تصنع بي ؟ قال: أذبحك وآكلك ، قالت : والله ماأشفي من قرم[1] ولا أشبع من جوع ولكن اُعلّمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي أمّا واحدة فاُعلّمك و أنا في يدك ، و أمّا الثانية فإذا صرت على الشجرة ، و أمّا الثالثة فإذا صرت على الجبل ، قال : هات الاُولى قالت : لا تلهفنّ على مافات ، فخلاها فلمّا طارت على الشجرة قال : هات الثانية قالت : لا تصدّقنّ بما لايكون أنّه يكون ، ثمّ طارت فصارت على الجبل و قالت : يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درّتين في كلّ واحدة عشرون مثقالاً ، قال : فعضّ على شفتيه و تلهّف و قال : هات الثالثة ، فقالت : أنت قد نسيت الثنتين فكيف اُخبرك بالثالثة ألم أقل لك لا تلهفنّ على مافاتك ولاتصدّقنّ ما لايكون ألا إنّ لحمي و دمي و ريشي لايكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي درّتان في كلّ واحدة عشرون مثقالاً ؟ ثمّ طارت فذهبت ، وهذا مثال لفرط طمع الآدميّ فإنّه يعميه عن درك الحقّ حتّى يقدّر مالا يكون أنّه يكون .

و قال عبدالله بن سلام لكعب : ما يذهب العلم من قلوب العلماء بعد إذ وعوه و عقلوه ؟ قال : الطمع وشره النفس وطلب الحوائج ، فقال رجل للفضيل : فسّر لي قول كعب ، قال : يطمع الرّجل في الشيء فيطلبه فيذهب عليه دينه ، و شره النفس

(١) القرم ـ بالتحريك ـ : شدة شهوة اللحم .

في هذا وفي هذا حتّى لا تحبّ أن يفوتها شيء ، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة ، فإذا قضاها لك خزم أنفك و قادك حيث شاء ، واستمكن منك و خضعت له ، فمن حبّك للدّنيا سلّمت عليه إذا مررت به وعدته إذا مرض ، لم تسلّم عليه لله تعالى ولم تعده لله فلولم تكن لك إليه حاجة كان خيراً لك ، ثمّ قال : هذا خير لك من مائة حديث عن فلان و فلان .

و قال بعض الحكماء : من عجيب أمر الإنسان أنّه لو نودي بدوام البقاء في أيّام الدّنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر ممّا قد استعمله مع قصر مدّة التمتّع وتوقّع الزّوال.

و قال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له : من أين تأكل ؟ فقال : من بيدر اللّطيف الخبير الّذي خلق الرحى يأتيها بالطحين ، و أومأ بيده إلى رحى أضراسه .

✿(بيان علاج الحرص والطمع)✿
✿(والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة)✿

اعلم أنّ هذا الدّواء مركّب من ثلاثة أركان الصبر والعلم والعمل و مجموع ذلك خمسة أمور :

الأوّل وهو العمل : الاقتصاد في المعيشة والرّفق في الإنفاق فمن أراد عزّ القناعة فينبغي أن يسدّ على نفسه أبواب الخرج ما أمكنه و يردّ نفسه إلى ما لابدّ له فإنّ من كثر خرجه واتّسع إنفاقه لم تمكنه القناعة بل إن كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن ، ويقنع بأيّ طعام كان ، و يقلّل من الادام ما أمكنه ، و يوطّن نفسه عليه وإن كان له عيال فيردّ كلّ واحد منهم إلى هذا القدر فإنّ هذا القدر يتيسّر بأدنى جهد ويمكن معه الإجمال في الطلب ، فالاقتصاد في المعيشة هو الأصل في القناعة و نعني به الرّفق في الإنفاق و ترك الخرق فيه.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الله يحبّ الرّفق في الأمر كلّه » (١).

---
(١) متفق عليه وقد تقدم .

و قال ﷺ : « ما عال مَن اقتصد » (١).

و قال ﷺ : « ثلاث منجيات : خشية الله في السرّ و العلانية ، و القصد في الغنى والفقر ، والعدل في الرّضا والغضب » (٢).

و روي أنّ رجلاً أبصر أبا الدّرداء يلتقط حبّاً من الأرض و يقول : إنّ من فقهك رفقك في معيشتك .

و قال ابن عبّاس : قال النبيّ ﷺ : « الاقتصاد و حسن السمت و الهدي الصالح جزء من بضع و عشرين جزءاً من النبوّة » (٣).

و في الخبر « التدبير نصف المعيشة » (٤).

و قال النبيّ ﷺ : « من اقتصد أغناه الله ، ومن بذّر أفقره الله ، ومن ذكر الله عزّوجلّ أحبّه الله » (٥).

وقال ﷺ : « إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتّى يجعل الله لك فرجاً و مخرجاً » (٦) والتؤدة في الإنفاق من أهمّ الأمور .

---

(١) أخرجه احمد في مسند عبدالله بن مسعود بسند حسن كما في الجامع الصغير .

(٢) أخرجه ابوالشيخ في التوبيخ و الطبراني في الاوسط من حديث أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٤٨ عن ابن عباس وقيل في معناه : ان الطريقة الصالحة وحسن الهيئة وسلوك القصد في الامور هي التي منحها الله تعالى انبياءه (ع) فاقتدوا بهم فيها وتابعوهم عليها . وليس معنى الحديث أن النبوة تتجزء ولا أن من جمع له هذه الخصال كان فيه جزء من النبوة فان النبوة غير مكتسبة ، وانما هي كرامة من الله لمن أراد اكرامه بها من عباده وقد ختمت بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم . والخبر رواه أيضاً الطبراني في الكبير عن ابن سرجس بسند حسن كما في الجامع الصغير بتقديم وتأخير في كلاهما .

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس من حديث أنس بسند حسن كما في الجامع الصغير.

(٥) أخرجه البزار عن طلحة بن عبيدالله دون قوله « ومن ذكر الله احبه الله » بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٦) رواه ابن المبارك في البر والصلة كما في المغني و أخرجه البخاري في الادب المفرد والبيهقي في الشعب عن رجل بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

الثاني أنّه إذا تيسّر له في الحال مايكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل الاستقبال، ويعينه على ذلك قصر الأمل والتحقّق بأنّ الرّزق الّذي قدّر له لابدّ و أن يأتيه وإن لم يشتدّ حرصه، فإنّ شدّة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق، بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعدالله تعالى إذ قال: «وما من دابّة في الأرض إلّا على الله رزقها»[1] و ذلك لأنّ الشيطان يعده الفقر و يأمره بالفحشاء و يقول: إن لم تحرص على الجمع والادّخار فربّما تمرض وربّما تعجز و تحتاج إلى احتمال الذّل في السّؤال، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفاً من التعب و يضحك عليه في احتمال التعب نقداً مع الغفلة عن الله لتوهّم تعبه في ثاني الحال وربّما لايكون، و في مثله قيل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله　✿　مخافة فقر فالّذي فعل الفقر

و قد دخل ابنا خالد على رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال لهما: «لا تيأسا من الرّزق ما تهزّزت رؤوسكما فإنّ الإنسان تلده أمّه أحمر ليس عليه قشر، ثمّ يرزقه الله تعالى»[2].

و مرّ رسول الله صلّى الله عليه وآله بابن مسعود و هو حزين فقال له: «لا تكثر همّك ما قدّر يكن وما ترزق يأتك»[3].

و قال صلّى الله عليه وآله: «ألا أيّها الناس أجملوا في الطلب، فإنّه ليس لعبد إلّا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدّنيا حتّى يأتيه ما كتب له من الدّنيا وهي راغمة»[4] ولاينفكّ الإنسان عن الحرص إلّا بحسن ثقة بتدبير الله في تقدير أرزاق العباد وأنّ ذلك يحصل لامحالة مع الإجمال في الطلب، بل ينبغي أن يعلم أنّ رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر، قال الله تعالى: «ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً و يرزقه

---

(١) هود: ٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٦٥ وابنا خالد هما حبة وسواء.

(٣) أخرجه أبونعيم في الحلية من حديث خالد بن رافع كما في المغني.

(٤) تقدم قبل عن الحاكم وغيره.

من حيث لا يحتسب »[١] فإذا انسدّ عليه بابٌ كان ينتظر الرّزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله، قال ﷺ: «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلّا من حيث لا يحتسب»[٢].

وقال بعضهم: اتّق الله فما رأيت تقيّاً محتاجاً. أي لا يترك التقيّ فاقداً لضرورته بل يلقي الله في قلوب المؤمنين أن يوصلوا إليه رزقه.

قال الفضيل: قلت لأعرابيّ: من أين معاشك؟ قال: نذر الحاجّ، قلت: فإذا صدروا؟ فبكى و قال: لولم نعش إلّا من حيث ندري لم نعش.

و قال أبو حازم: وجدت الدّنيا شيئين شيئاً منهما هولي فإن أعجلته قبل أجله لا يصل ولوطلبته بقوّة السماوات والأرض، وشيئاً منهما هولغيري فذلك لم أنله فيما مضى ولا أرجوه فيما بقي، يمنع الّذي لغيري منّي كما يمنع الّذي لي من غيري، ففي أيّ هذين أفني عمري؟ فهذا دواء من جهة المعرفة فلابدّ منه لدفع تخويف الشيطان و إنذاره بالفقر.

الثالث أن يعرف ما في القناعة من عزّ الاستغناء و ما في الطمع و الحرص من الذّل فإذا تحقّق له ذلك انبعث رغبته إلى القناعة لأنّه في الحرص لا يخلو من تعب وفي الطمع لا يخلو من ذلّ وليس في القناعة إلّا ألم الصبر عن الشهوات و الفضول و هذا ألم لا يطّلع عليه أحدٌ إلّا الله وفيه ثواب الآخرة وذلك ممّا يضاف إليه نظر الناس وفيه الوبال والإثم ثمّ يفوته عزّ النفس والقدرة على متابعة الحقّ فإنّ من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحقّ ويلزمه المداهنة وذلك يهلك دينه و من لا يؤثر عزّ النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان، قال النبيّ ﷺ: «عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس»[٣].

(١) الطلاق: ٣.

(٢) أخرجه ابن حبان في الضعفاء وقال المقدسي: رواه احمد بن داود وفيه عبد الغفار كان يضع الحديث راجع تذكرة الموضوعات ص ٨.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣٢٥ وصحح اسناده وأبو الشيخ في كتاب الثواب وابو نعيم في الحلية كلهم من حديث سهل بن سعد أن جبرئيل قاله للنبي (ص) في ←

ففي القناعة الحرمة والعزّ ولذلك قيل : استغن عمّن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، و أحسن إلى من شئت تكن أميره .

الرّابع أن يكثر تأمّله في تنعّم اليهود والنصارى و أراذل الناس و الحمقاء من الأكراد والأعراب و من لادين لهم ولاعقل ، ثمّ ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء و إلى سمت الصحابة (١) والتابعين و يستمع أحاديثهم و يطالع أحوالهم و يخيّر عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الخلق أو على الاقتداء بمن هو أعزّ أصناف الخلق عند الله حتّى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير فإنّه إن تنعّم في البطن فالحمار أكثر أكلاً منه ، وإن تنعّم في الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه ، و إن تزيّن في الملبس والخيل ففي اليهود والنصارى من هو أعلى رتبة منه ، وإن قنع بالقليل و رضي به لم يساهمه في رتبته إلّا الأنبياء والأولياء .

الخامس أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرناه من آفات المال و ما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع وما في خلوّ اليد من الأمن والفراغ ويتأمّل ما ذكرناه من آفات المال مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنّة إلى خمسمائة عام فإنّه إذا لم يقنع بما يكفيه التحق بزمرة الأغنياء و أخرج من جريدة الفقراء ويتمّ ذلك بأن ينظر أبداً إلى من هو دونه في الدّنيا لا إلى من هو فوقه فإنّ الشيطان أبداً يصرف نظره في الدّنيا إلى من هو فوقه فيقول : لِمَ تفتر عن الطلب ؟ وأرباب الأموال يتنعّمون في المطاعم و الملابس و يصرف نظره في الدّين إلى من هو دونه فيقول : و لِمَ تضيق على نفسك وتخاف الله ؟ وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله والناس كلّهم مشغولون بالتنعّم فلمَ تريد أن تتميّز عنهم ؟ . قال أبو ذرّ : أوصاني خليلي ﷺ « أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقي » (٢) أي في الدّنيا .

= اتناه حديث و فيه زفر بن سليمان عن محمد بن عيينة و كلاهما مختلف فيه وجعله القضاعي في مسند الشهاب من قول النبي صلى الله عليه وآله كما المغني .

(١) السمت : هيئة أهل الخير .

(٢) أخرجه احمد في المسند ج ٥ ص ١٥٥ .

و عنه ﷺ : « إذا نظر أحدكم إلى من فضّله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممّن فضّل عليه »(١) فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خُلق القناعة و عماد الأمر الصبر و قصر الأمل و أن يعلم أنّ غاية صبره في الدّنيا أيّام قلائل ليتمتّع دهراً طويلاً فيكون كالمريض الّذي يصبر على مرارة الدّواء لشدّة طمعه في انتظار الشفاء.

✲(بيان فضيلة السخاء)✲

إعلم أنّ المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلّة الحرص وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسّخاء واصطناع المعروف والتباعد من الشحّ والبخل فإنّ السخاء من أخلاق الأنبياء و هو أصل من اُصول النّجاة و عنه عبّر النبيّ ﷺ حيث قال : « السخاء شجرة من شجر الجنّة أغصانها متدلّية إلى الأرض فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنّة »(٢).

و قال جابر : قال رسول الله ﷺ : « قال جبرئيل : قال الله تعالى : إنّ هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه إلاّ السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهما ما استطعتم» وفي رواية « فأكرموه بهما ما صحبتموه »(٣).

وعنه ﷺ « ما جبل الله أولياء إلاّ على السخاء وحُسن الخلق »(٤).

وعن جابر قال قيل : يا رسول الله أيّ الأعمال أفضل ؟ قال: «الصبر والسماحة»(٥).

وعنه ﷺ : « خُلقان يحبّهما الله عزّ وجلّ وخُلقان يبغضهما الله عزّ وجلّ فأمّا اللّذان يحبّهما الله عزّ وجلّ فحسن الخلق والسخاء ، و أمّا اللّذان يبغضهما الله

(١) أخرجه احمد والبخاري ومسلم بسند صحيح عن ابي هريرة كما في الجامع الصغير.

(٢) أخرجه الدار قطني في الافراد ، والبيهقي في الشعب عن علي ؑ وابن عدي عن ابي هريرة وابونعيم في الحلية عن جابر والخطيب عن ابي سعيد وابن عساكر عن أنس والديلمي في الفردوس عن معاوية بسند حسن كما في الجامع الصغير.

(٣) رواه الطبراني في الاوسط كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٠ .

(٤) رواه ابوالشيخ ابن حبان في كتاب الثواب كما في الترغيب ج ٣ ص ٣٨٣ .

(٥) رواه البيهقي في الزهد باسناد صحيح بزيادة كما في المغني .

عزّ وجلّ فسوء الخلق و البخل ، فإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله في قضاء حوائج الناس » (١).

و روى المقدام بن شريح عن أبيه عن جدّه قال : قلت : يارسول الله دلّني على عمل يدخلني الجنّة ، قال : « إنّ من موجبات المغفرة بذل الطعام و إفشاء السلام و حسن الكلام » (٢).

وعنه صلى الله عليه وآله « يقول الله تعالى : اطلبوا الفضل من الرّحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم ، فإنّي جعلت فيهم رضائي ، ولاتطلبوها من القاسية قلوبهم فإنّي جعلت فيهم سخطي » (٣).

و عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « تجافوا عن ذنب السخيّ فإنّ الله آخذ بيده كلّما عثر » (٤).

و قال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الرّزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير ، وإنّ الله تعالى ليباهي بمطعم الطعام الملائكة » (٥).

و قال صلى الله عليه وآله : « إنّ الله تعالى جواد يحبّ الجود ، ويحبّ معالي الأخلاق و يكره سفسافها » (٦).

---

(١) رواه الاصفهاني موقوفاً على ابن عمر . ورواه الديلمي من حديث أنس هكذا « اذا اراد الله بعبده خيراً صير حوائج الناس اليه » كمافي الجامع الصغير وقال العراقي : في سنده يحيى بن شبيب ضعفه ابن حبان .

(٢) أخرجه الطبراني بسند حسن كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٩ .

(٣) أخرجه الخرائطي في مكارم الاخلاق عن ابي سعيد بسند ضعيف كمافي الجامع الصغير.

(٤) أخرجه الدار قطني في الافراد والطبراني وابونعيم والبيهقي عن ابن مسعود بلفظ «تجاوزوا » بسند ضعيف كما في الجامع الصغير . ورواه الكليني في الكافي ج ٤ ص ٢٨ . ولفظه « اجيزوا» .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٣٥٧ دون قوله : « و ان الله الخ » من حديث ابن عباس ، ولم اجده من حديث ابن مسعود .

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب عن طلحة بن عبيدالله وابونعيم في الحلية من حديث ابن عباس بسند حسن كمافي الجامع الصغير .

و قال أنس : « إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يسأل على الاسلام شيئاً إلّا أعطاه فأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثيرة بين جبلين من شاء الصّدقة فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإنّ محمّداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة » (١).

وعنه صلى الله عليه وآله : « إنّ لله عباداً يخصّهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله عنه و حوّلها إلى غيره » (٢).

وعن الهلالي قال : اُتي رسول الله صلى الله عليه وآله بأسارى من بني العنبر فأمر بقتلهم و أفرد منهم رجلاً فقال : عليّ بن أبي طالب عليه السلام : يا رسول الله الرّبّ واحد والدّين واحد فما بال هذا من بينهم ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : نزل عليّ جبرئيل عليه السلام فقال : اُقتل هؤلاء واترك هذا فإنّ الله شكر له سخاء فيه»(٣).

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ لكلّ شيء ثمرة و ثمرة المعروف تعجيل السراح » (٤). وعنه صلى الله عليه وآله « طعام الجواد دواء و طعام البخيل داء » (٥).

وقال صلى الله عليه وآله : « من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤونة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤونة عرض تلك النعمة للزّوال » (٦).

---

(١) تقدم في المجلد الرابع في اخلاقه صلى الله عليه وآله رواه مسلم ج ٧ ص ٧٤.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير والاوسط وأبونعيم و فيه محمد بن حسان السمتي وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن شيخه ابي عثمان عبدالله بن زيد الحمصي ضعفه الازدي كمافي مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٩٢.

(٣) نقله العلامة المجلسي - رحمه الله - في البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر ص ٢١ عن فقه الرضا مرسلا.

(٤) قال العراقي ولم اجد له اصلا : أقول : رواه الكليني في الكافي ج ٤ ص ٣٠ والسراح - بالمهملات - : الارسال والخروج من الامر بسرعة وسهولة وفي المثل «السراح من النجاح » يعني اذا لم تقدر على قضاء حاجة أحد فآيسته فان ذلك من الاسعاف.

(٥) كتاب الامامة والتبصرة كما في المجلد الخامس عشر من البحار الجزء الثاني ص ٢١. وأخرجه ابن عدي والدار قطني في غرائب مالك وابويعلى الصدفي في عواليه.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج من حديث عائشة والبيهقي في الشعب من حديث معاذ بسند ضعيف كما في الجامع الصغير ولفظه « ما عظمت نعمة الله.. الحديث »

و قال عيسى عليه السلام : « استكثروا من شيء لا تأكله النّار ، قيل : وماهو ؟ قال: المعروف » .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : « الجنّة دار الأسخياء » (١).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ السخيّ قريب من الله قريب من النّاس قريب من الجنّة بعيد من النّار ، و إنّ البخيل بعيدٌ من الله بعيدٌ من النّاس بعيدٌ من الجنّة قريبٌ من النّار ، وجاهل سخيّ أحبّ إلى الله من عالم بخيل وأدوء الدّاء البخل » (٢).

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « اصنع المعروف إلى من هو أهله و إلى من ليس بأهله فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله و إن لم تصب أهله فأنت من أهله » (٣).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ بدلاء أمّتي لم تدخل الجنّة بصلاة ولا بصيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين » (٤).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الله عزّ وجلّ جعل للمعروف وجوهاً من خلقه حبّب إليهم المعروف وحبّب إليهم فعاله و وجّه طلّاب المعروف إليهم ويسّر عليهم إعطاءه كما

(١) أخرجه ابن عدي والدار قطني في المستجاد بسند ضعيف كما في المغني ومنقول في جامع الاخبار ص ١١٢ مرسلا .

(٢) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٤٠ من حديث ابي هريرة وقال : هذا حديث غريب .

(٣) أخرجه الدار قطني في المستجاد من حديث جعفر بن محمد عليهما السلام عن ابيه عن جده مرسلا ورواه الكليني من حديثه عليه السلام في الكافي ج ٤ ص ٢٧ تحت رقم ٦ و ٩ . والخبر محمول على ما اذا لم يعلم قطعاً أنه ليس من أهله ومن حاله مجهول عنده لئلا ينافي ما رواه الكليني مسنداً عن الصادق عليه السلام قال للمفضل : « اذا اردت أن تعلم أشقي الرجل ام سعيد ؟ فانظر سيبه [اى عطاءه] و معروفه الى من يصنعه ، فان كان يصنعه الى من هو أهله فاعلم أنه الى خير وان كان يصنعه الى غير أهله فاعلم أنه ليس له عند الله خير » . وقال في حديث آخر « اذا اردت أن تعلم الى خير يصير الرجل ام الى شر انظر أين يضع معروفه فان كان يضع معروفه عند أهله فاعلم أنه يصير الى خير ، وان كان يضع معروفه عند غير أهله فاعلم أنه ليس له في الآخرة من خلاق » راجع الكافي ج ٥ ص ٣١ .

(٤) أخرجه ابو بكر بن لال في المكارم و الدار قطني في المستجاد من حديث أنس بسند ضعيف كما في المغني .

يسّر الغيث إلى البلدة الجدبة فيحييها ويحيي بها أهلها »(١).

و قال ﷺ : « كلّ معروف صدقة ، و كلّ ماأنفق الرّجل على نفسه وأهله كتب له صدقة ، وما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة ، وماأنفق الرّجل من نفقة فعلى الله خلفها » (٢).

و قال ﷺ : « كلّ معروف صدقة ، والدّال على خير كفاعله ، والله يحبّ إغاثة اللّهفان » (٣).

و قال ﷺ : « كلّ معروف فعلته إلى غنيّ أو فقير صدقة »(٤).

و روي أنّ الله أوحى إلى موسى عليه السلام : «لا تقتل السامريّ فإنّه سخيّ».

و قال جابر : بعث رسول الله ﷺ بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم قيس تسع ركائب فحدّثوا رسول الله ﷺ بذلك فقال : « إنّ الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت » (٥).

و قال عليّ عليه السلام : « إذا أقبلت عليك الدّنيا فأنفق منها فإنّها لاتفنى و إذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنّها لاتبقى ، و أنشد :

لاتبخلنّ بدنيا و هي مقبلة ☆ فليس ينقصها التبذير والسرف

فإن تولّت فأحرى أن تجود بها ☆ فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

و سأل معاوية الحسن بن عليّ عليهما السلام عن المروّة والنجدة والكرم فقال : أمّا المروّة فحفظ الرّجل دينه وحرزه نفسه وحسن قيامه بضيفه وحسن المنازعة والاقدام

---

(١) أخرجه الدار قطني في المستجاد ورواه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣٢١ من حديث علي عليه السلام وصححه ، ورواه الكليني في الكافي ج ٤ ص ٢٥ تحت رقم ٢ .

(٢) أخرجه ابن عدي والدار قطني والخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند حسن كما في المغني والحاكم في المستدرك بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٣) رواه الكليني في الكافي ج ٤ ص ٢٧ تحت رقم ٤ ، والدار قطني في المستجاد .

(٤) أخرجه الخطيب في الجامع من حديث جابر و الطبراني عن ابن مسعود بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٥) أخرجه الدار قطني عن ابي حمزة الحميري عن جابر ولا يعرف اسمه ولاحاله .

في الكراهية ، وأمّا النجدة فالذبّ عن الجار والصّبر في المواطن ، وأمّا الكرم فالتبرّع بالمعروف قبل السؤال ، والاطعام في المحلّ ، والرأفة بالسّائل مع بذل النائل (١).

ورفع رجل إلى الحسن بن عليّ عليهما السلام رقعة فقال : حاجتك مقضية ، فقيل له : ياابن رسول الله لو نظرت في رقعته ثمّ رددت الجواب على قدر ذلك ؟ فقال : يسألني الله تعالى عن ذلّ مقامه بين يديّ حتّى أقرأ رقعته .

وقال عليّ بن الحسين عليهما السلام : من وصف ببذل ماله لطلّابه لم يكن سخيّاً وإنّما السخيّ من يبتدىء بحقوق الله تعالى في أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حبّ الشكر له إذا كان ثقته بثواب الله تامّاً .

وقال جعفر الصادق عليه السلام : « لا مال أعود من العقل ، ولا مصيبة أعظم من الجهل ، ولا مظاهرة كالمشورة (٢) ، ألا وإنّ الله عزّ وجلّ يقول : إنّي جوادٌ كريمٌ لا يجاورني لئيمٌ ، واللّوم من الكفر ، والكفر في النار ، والجود والكرم من الايمان والايمان في الجنّة » .

وقال الأصمعيّ : كتب الحسن بن عليّ إلى الحسين بن عليّ عليهما السلام يعتب عليه في إعطاء الشعراء فكتب إليه خير المال ما وقي به العرض .

وتمثّل متمثّل عند عبدالله بن جعفر بهذين البيتين .

إنّ الصنيعة لا تكون صنيعة ✡ حتّى يصاب بها طريق المصنع
فإذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها ✡ لله أو لذوي القرابة أودع

فقال عبدالله بن جعفر : إنّ هذين البيتين ليبخلان الناس ولكن أمطر المعروف مطراً فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً وإن أصاب اللّئام كنت أنت له أهلاً .

وقال حذيفة : ربّ فاجر في دينه أخرق في معيشته يدخل الجنّة بسماحته .

(١) تحف العقول ص ٢٢٥ وحلية الاولياء لابي نعيم ج٢ ص ٣٦ والفصول المهمة لابن صباغ ص ١٦٤ والبداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص٣٩ وفي جميع هذه المصادر هذه المسائل سألها اميرالمؤمنين صلوات الله عليه عن الحسن عليه السلام .

(٢) الى هنا روى الكليني في الكافي ج ١ ص ٢٩ نحوه .

و رأى الأحنف بن قيس رجلاً وفي يده درهم فقال : لمن هذا الدّرهم ؟ قال : لي ، فقال : أما إنّه ليس لك حتّى تخرجه من يدك ، و في معناه قيل :

أنت للمال إذا أمسكته ✡ فإذا أنفقته فالمال لك

و سمّي واصل بن عطاء الغزّال لأنّه كان يجلس إلى الغزّالين فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئاً .

وقال ابن السماك : عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه.

وسئل بعض الأعراب وقيل : من سيّدكم ؟ فقال : من احتمل شتمنا ، وأعطى سائلنا ، وأغضى عن جاهلنا .

و قال بعضهم : بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود .

وقيل لبعض الحكماء : من أحبّ الناس إليك ؟ قال : من كثرت أياديه عندي ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : من كثرت أيادي عنده .

وقال بعضهم : إذا الرّجل أمكنني من نفسه حتّى أضع معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده .

✡(حكايات الأسخياء)✡

قيل : بكى عليّ عليه السلام يوماً فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : لم يأتني ضيف منذ سبعة أيّام أخاف أن يكون الله قد أهانني .

و سأل رجل الحسن بن عليّ عليهما السلام حاجة فقال له : يا هذا حقّ سؤالك إيّاي يعظم لديّ ، ومعرفتي بما يجب لك يكبر عليّ ، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله والكثير في ذات الله تعالى قليلٌ ، و ما في ملكي وفاء لشكرك ، فإن قبلت الميسور ورفعت عنّي مؤونة الاحتمال والاهتمام بما أتكلّف من واجب حقّك فعلت ، فقال : يا ابن رسول الله أقبل و أشكر العطيّة وأعذر على المنع ، فدعا الحسن عليه السلام بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتّى استقصاها فقال : هات الفاضل من الثلاثمائة ألف درهم فأحضر خمسين ألفاً ، قال : فما فعلت بالخمسمائة دينار قال ؟ : هي عندي ، قال : أحضرها فأحضرها فدفع الدّنانير و الدّراهم إلى الرّجل وقال : هات من يحملها لك فأتاه

بحمّالين فدفع إليه الحسن عليه السلام رداءه لكراء الحمّالين فقال له مواليه : والله ما عندنا درهم فقال : ولكنّي أرجو أن يكون لي عندالله أجرعظيم [(١)] .

وقال أبوالحسن المدائني : خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجّاجاً ففاتتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا فمرّوا بعجوز في خباء لها فقالوا : هل من شراب ؟ قالت : نعم فأناخوا إليها و ليس لها إلّا شويهة في كسر الخيمة فقالت : احلبوها و امتذقوا لبنها ، ففعلوا ذلك ثمّ قالوا لها : هل من طعام ؟ قالت : لا إلّا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتّى أهيّىء لكم ما تأكلون فقام إليها أحدهم فذبحها وكشطها ثمّ هيّأت لهم طعاماً فأكلوا وقاموا حتّى أبردوا ، فلمّا ارتحلوا قالوا لها : نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فإذا رجعنا سالمين فألمّي بنا فإنّا صانعون بك خيراً ثمّ ارتحلوا فأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرّجل وقال : ويلك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثمّ تقولين : نفر من قريش ، قال : ثمّ بعد مدّة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ويعيشان بثمنه فمرّت العجوز في بعض سكك المدينة فإذا الحسن بن عليّ عليهما السلام جالس على باب داره فعرف العجوز و هي له منكرة فبعث الحسن غلامه و دعا بالعجوز فقال لها : ياأمة الله أتعرفيني ؟ قالت : لا ، قال : أناضيفك يوم كذا وكذا ، قالت العجوز: بأبي أنت وأمّي أنت هو ؟ قال : نعم ، ثمّ أمر الحسن فاشتروا لها من شاء الصدقة ألف شاة و أمر لها معها بألف دينار ، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين عليه السلام فقال لها الحسين:

(١) ماعثرت عليه في أي اصل من الاصول المعتبرة الاعلى ماأورده الاربلي في كشف الغمة نقلا عن الكنجي الشافعي صاحب مطالب السؤول مرسلا . و العجب من ابي حامد حيث نقل قبل هذا الكلام أن مصعب بن الزبير قال : حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة فقال الحسين بن علي لاخيه الحسن عليهم السلام : لاتلقه ولاتسلم عليه . فلما خرج معاوية قال الحسن ان علينا ديناً فلابد لنا من آتيانه فركب في أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدينه فمروا عليه ببختي عليه ثمانون ألف دينار وقدأعيا وتخلف عن الابل وقوم يسوقونه ، فقال معاوية : ماهذا ؟ فذكروا له ، فقال : اصرفوه بماعليه الى أبي محمد . انتهى . فليت شعري كيف توافق هاتان القصتان .

بكم وصلك أخي ؟ فقالت : بألف شاة و ألف دينار ، فأمر لها الحسين أيضاً بمثل ذلك ، ثمّ بعث بهامع غلامه إلى عبد الله بن جعفر ، فقال : بكم وصلك الحسن و الحسين ؟ قالت : بألفي شاة و ألفي دينار ، فأمر لها عبد الله بن جعفر بألفي شاة و ألفي دينار و قال لها : لو بدأت بي لاتعبتهما ، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف دينار وأربعة آلاف شاة (١).

و اجتمع قرّاء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل البصرة فقالوا : لنا جار صوّام قوّام يتمنّى كلّ واحد منّا أن يكون مثله و قد زوّج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عندهما يجهّزها به ، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم و أدخلهم داره وفتح صندوقاً فأخرج منه ستّ بدر ، فقال : احملوا فحملوا ، فقال ابن عبّاس : ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله من صيامه و قيامه و ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدّنيا من القدر ما يشغل به مؤمناً عن عبادة ربّه و ما بنا من الكبر مالانخدم أولياء الله ، ففعل وفعلوا .

وكان أبو طاهر بن كثير شيعيّاً وقال له رجل : بحقّ عليّ بن أبي طالب لمّا وهبت لي نخلتك بموضع كذا ، قال : قد فعلت وحقّه لأعطينّك مايليها وكان ذلك أضعاف ماطلبه الرّجل .

و كان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر : و الله ما عندي ما اُعطيك ولكن قدّمني إلى القاضي وادّع عليّ بعشرة آلاف درهم حتّى أقرّ لك بها ثمّ احبسني فإنّ أهلي لا يتركوني محبوساً ففعل ذلك فلم يمس حتّى دفع إليه عشرة آلاف درهم و اُخرج أبو مرثد من الحبس .

وكان معن بن زائدة عاملاً على العراقين بالبصرة فحضر بابه شاعر فأقام مدّة و أراد الدخول على معن فلم يتهيّأ له فقال يوماً لبعض خدم معن : إذا دخل الأمير البستان فعرّفني ، فلمّا دخل أعلمه فكتب الشاعر بيتاً على خشبة و ألقاها في الماء الّذي يدخل ببستان معن ، و كان على رأس الماء فلمّا بصر بالخشبة أخذها و قرأها

---

(١) مطالب السؤول باب جوده و كرمه عليه السلام ص ٦٦ . وفى كشف الغمة ص ١٦٦ .

فاذا فيها مكتوب:

أيا جود معن ناج معناً بحاجتي　☆　فمالي إلى معن سواك شفيع

قال: فقال: من صاحب هذه؟ فدعا بالرّجل فقال له: كيف قلت؟ فقاله، فأمر له بعشرة بدر فأخذها و وضع معن الخشبة تحت بساطه فلمّا كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط وقرأ ما فيها و دعا بالرّجل فدفع إليه مائة ألف درهم، فلمّا أخذها الرّجل تفكّر و خاف أن يأخذ منه ما أعطاه، و خرج فلمّا كان في اليوم الثالث قرأ مافيها و دعا بالرّجل فطلب فلم يوجد فقال معن: حقّ عليّ أن أعطيه حتّى لايبقى في بيت مالي درهم ولادينار.

و خرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله و هو وحده، فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه فقال له عبد الله: ألك حاجة؟ قال: صلاحك و فلاحك رأيتك تمشي وحدك فقلت أقيك بنفسي و أعوذ بالله أن يطرأ بجنابك مكروه، فأخذ عبدالله بيده ومشى معه إلى منزله ثمّ دعا له بألف دينار فدفعها إليه و قال: استنفق هذا فنعم ما أدّبك أهلك.

و حكي أنّ قوماً من العرب جاؤوا إلى قبر بعض أسخيائهم للزيارة فنزلوا عند قبره وقد جاؤوا من سفر بعيد فباتوا عند قبره فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر و هو يقول له: هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي ـ وكان قد خلّف الميّت نجيباً معروفاً به وكان لهذا الرّجل بعير سمين ـ فقال: نعم وباع في النوم بعيره بنجيبه فلمّا وقع بينهما العقد عمد هذا الرّجل إلى بعيره فنحره في النوم فانتبه الرّجل من نومه فاذا يثجّ الدّم من نحر بعيره فقام و نحره و قسّم لحمه فطبخوه و قضوا حاجتهم ثمّ رحلوا و ساروا فلمّا كان اليوم الثاني وهم في الطريق استقبلهم ركب فقال رجل منهم: من فلان بن فلان منكم؟ ـ باسم ذلك الرّجل ـ فقال: أنا، فقال: هل بعت من فلان شيئاً؟ ـ وذكر الميّت صاحب القبر ـ قال: نعم بعت منه بعيري بنجيبه في النوم و ذكر القصّة فقال: خذ هذا نجيبه، ثمّ قال: هو أبي و قد رأيته في النوم و هو يقول: إن كنت ابني فادفع نجيبي إلى فلان بن فلان وسمّاه.

و قدم رجلٌ من قريش من سفر فمرّ برجل من الأعراب على قارعة الطريق و قد أقعده الدّهر و أضربه المرض فقال له : يا هذا أعنّا على الدّهر فقال الرّجل لغلامه : ما بقي من النفقة فادفعه إليه فصبّ الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم فذهب ينهض فلم يقدر من الضعف فبكى فقال الرّجل : ما يبكيك لعلّك استقللت ما أعطيناك ؟ قال : لا ولكن ذكرتُ ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني .

و اشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره الّتي في السوق بتسعين ألف درهم فلمّا كان اللّيل سمع بكاء آل خالد فقال لأهله : ما لهؤلاء ؟ قالوا: يبكون لدارهم ، قال : يا غلام ائتهم فأعلمهم أنّ الدّار و المال لهم جميعاً .

و قيل أنفذ هارون الرّشيد إلى مالك بن أنس خمسمائة دينار فبلغ ذلك اللّيث ابن سعد فأنفذ إليه ألف دينار فغضب هارون وقال : اُعطيه خمسمائة وتعطيه ألفاً وأنت من رعيّتي فقال : يا أمير المؤمنين إنّ لي في كلّ يوم من غلّتي ألف دينار و استحييت أن اُعطي مثله أقلّ من دخل يوم ، وحكي أنّه لم تجب عليه الزّكاة مع أنّ دخله كلّ يوم ألف دينار .

و روي أنّ امرأة سألت اللّيث شيئاً من عسل فأمر لها بزقّ فقيل له : إنّها كانت تقنع بأقلّ من هذا ، فقال : إنّها سألت على قدرها ونعطيها على قدر النعمة علينا .

وكان اللّيث بن سعد لا يتكلّم كلّ يوم حتّى يتصدّق على ثلاثمائة وستّين مسكينا .

و قال الأعمش اشتكت شاة عندي و كان خيثمة بن أبي عبد الرّحمن يعودها بالغداة و العشيّ ويسألني هل استوفت علفها و كيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها و كان تحتي لبد أجلس عليه فإذا خرج قال : خذ ما تحت اللّبد ، حتّى وصل إليّ في علّة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من برّه حتّى تمنّيت أنّ الشاة لم تبرأ .

و قيل : مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقيل له : إنّهم يستحيون ممّا لك عليهم من الدّين فقال : أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزّيارة ، ثمّ أمر منادياً ينادي من كان عليه لقيس حقّ فهو منه في حلّ قال : فكثرت درجته بالعشيّ لكثرة من زاره وعاده .

و قال الشيخ أبو سعد الخركوشي النيسابوري : سمعت محمّد بن محمّد الحافظ يقول : سمعت الشافعيّ المجاور بمكّة يقول : كان بمصر رجلٌ عرف بأن يجمع للفقراء شيئاً فولد لبعضهم ولدٌ قال : فجئت إليه وقلت له : ولد لي مولودٌ وليس معي شيء ، فقام معي و دخل على جماعة فلم يفتح له بشيء ، فجاء إلى قبر رجل كان يعرفه و جلس عنده وقال : رحمك الله كنت تفعل وتصنع و إنّي درت اليوم وكلّفت جماعة دفع شيء لمولود فلم يتّفق لي شيء ، قال : ثمّ قام وأخرج ديناراً فكسّره بنصفين و ناولني نصفه وقال : هذا دين عليك إلى أن يفتح لك بشيء ، قال : فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتّفق لي به ، قال : ورأى ذلك المحتسب تلك اللّيلة ذلك الشخص في منامه فقال : سمعت جميع ما قلت و ليس لنا إذن في الجواب ولكن احضر منزلي و قل لأولادي يحفروا مكان الكانون و يخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها إلى هذا الرّجل ، قال : فلمّا كان الغد تقدّم إلى منزل الميّت وقصّ عليهم القصّة فقالوا له : انزل ، وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاؤوا بها ووضعوها بين يديه فقال : هذا مالكم وليس لرؤياي فيه حكمٌ فقالوا : هو يتسخّى ميتاً و نحن لا نتسخّى أحياء فلمّا ألحّوا عليه حمل الدّنانير و جاء إلى الرّجل صاحب المولود وذكر له القصّة قال : فأخذ منها ديناراً فكسّره نصفين فأعطاه النصف الّذي أقرضه و حمل النصف الآخر ، و قال : يكفيني هذا تصدّق به على الفقراء ، فقال أبو سعد : فلا أدري أيّ هؤلاء أسخى .

و أتى رجلٌ صديقاً ودقّ عليه الباب ، فقال : لم جئتني ؟ قال : عليّ أربعمائة دينار ديناً ، فوزن أربعمائة و أخرجها إليه وعاد يبكي فقالت امرأته : لم أعطيته إذ شقّ عليك ؟ فقال : إنّما أبكي لأنّي لم أتفقّد حاله حتّى احتاج إلى مفاتحتي به .

(بيان ذم البخل)

قال الله تعالى : « ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون » (١).

و قال تعالى : « ولا يحسبنّ الّذين يبخلون بما آتيهم الله من فضله هو خيراً لهم

(١) الحشر : ١٠ .

بل هو شرّ لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة »[(١)].

و قال تعالى : « الّذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل و يكتمون ما آتيهم الله من فضله »[(٢)].

و قال رسول الله ﷺ : « إيّاكم و الشحّ فإنّه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم و يستحلّوا محارمهم »[(٣)].

و قال ﷺ : « لا يدخل الجنّة بخيل ولاخبّ ولاخائن ولا سيّىء الملكة » . و في رواية . « ولاجبّار » . وفي رواية . « ولا منّان »[(٤)].

و قال ﷺ : « ثلاث مهلكات : شحّ مطاع ، و هوى متّبع ، و إعجاب المرء بنفسه »[(٥)].

و قال ﷺ : « إنّ الله يبغض ثلاثة : الشيخ الزّاني ، و البخيل المنّان ، و المعيل المختال »[(٦)].

وقال ﷺ : « مثل المنفق و البخيل كمثل رجلين عليهما جنّتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما ، فأمّا المنفق فلا ينفق شيئاً إلّا اتّسعت أو وفرت على جلده حتّى تخفى بنانه ، وأمّا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلّا قلصت ولزمت كلّ حلقه مكانها حتّى أخذت بتراقيه فهو يوسّعها ولاتتّسع »[(٧)].

---

(١) آل عمران : ١٧٧ . (٢) النساء : ٤١ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند والبخاري في الادب المفرد ومسلم في صحيحه والبيهقي من حديث جابر بن عبدالله في حديث كما في الدر المنثور ج ٦ ص ١٩٦ .

(٤) أخرجه أحمد في مسند أبي بكر واللفظ له دون قوله : « ولا منان » والترمذي ج ٨ ص ١٤١ و ١٤٢ وفي سنن ابن ماجه تحت رقم ٣٦٩١ « لايدخل الجنة سيىء الملكة » .

(٥) تقدم غير مرة .

(٦) ما عثرت عليه في أي أصل الا أن للطبراني في الاوسط من حديث علي عليه السلام « ان الله ليبغض الغني الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال » كما في الجامع الصغير .

(٧) متفق عليه في الصحيحين البخاري ج٢ ص ١٤٣ و مسلم ج ٣ ص ٨٩ باختلاف في اللفظ وأخرجه أحمد ج ٢ ص ٢٥٦ و ٣٨٩ و ٥٢٢ من حديث أبي هريرة .

و قال صلى الله عليه وآله: « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق »(١).

و قال صلى الله عليه وآله: « أللّهمّ إنّي أعوذ بك من البخل ، وأعوذبك من الجبن ، وأعوذ بك أن اُردّ إلى أرذل العمر »(٢).

و قال صلى الله عليه وآله: « إيّاكم و الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة ، و إيّاكم و الفحش فإنّ الله لايحبّ الفاحش ولا المتفحّش ، و إيّاكم و الشحّ فإنّما أهلك من كان قبلكم الشحّ ، أمرهم بالكذب فكذبوا ، وأمرهم بالظلم فظلموا و أمرهم بالقطيعة فقطعوا» (٣).

و قال صلى الله عليه وآله: « شرّ ما في الرّجل شحّ هالع وجبن خالع» (٤).

و قتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فبكته باكية وقالت : واشهيداه ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: « وما يدريك أنّه شهيد فلعلّه كان يتكلّم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لاينقصه » (٥).

و قال جبير بن مطعم : بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه النّاس مقفلة من حنين علّقت برسول الله صلى الله عليه وآله الأعراب يسألونه حتّى اضطرّوه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف فقال : أعطوني ردائي فوالّذي نفسي بيده لو كان عدد هذه العضاه نعماً لقسمتها بينكم ثمّ لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولاجباناً » (٦).

وقال عمر قسم النبيّ صلى الله عليه وآله قسماً فقلت : غير هؤلاء كانوا أحقّ به منهم فقال: « إنّهم يخيّروني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني ولست بباخل » (٧).

---

(١) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٤١ من حديث أبي سعيد و قال : غريب .

(٢) أخرجه النسائي ج ٨ ص ٢٥٦ من حديث سعد و متفق عليه .

(٣) أخرجه الحاكم ج ١ ص ١١ باختلاف في اللفظ من حديث ابن عمر.

(٤) أخرجه أبوداود ج٢ ص ١٢ والهالع : ذوالهلع ، وهو الجزع . والخالع أى الشديد ، كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه .

(٥) أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . و قد تقدم ، و أخرجه البيهقي من حديث أنس باختلاف يسير كما في الدر المنثور ج ٦ ص ١٩٦ .

(٦) أخرجه البخاري و قد تقدم والنسائي ج ٦ ص ٢٦٣ .

(٧) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٠٣ من حديث عمر .

و قال أبو سعيد : دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وآله فسألاه ثمن بعير فأعطاهما دينارين فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطّاب فأثنيا و قالا معروفاً وشكراً ما صنع بهما ، فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره بما قالا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : لكن فلاناً أعطيته ما بين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك ، إنّ أحدكم ليسألني فينطلق في مسألته يتأبّطها وهي نار ، فقال عمر : فلم تعطهم ما هو نار ؟ فقال : يأبون إلّا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل » [1].

و عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الجود من جود الله تعالى فجوّدوا يجد الله تعالى لكم ، ألا إنّ الله خلق الجود فجعله في صورة رجل و جعل أسّه راسخاً في أصل شجرة طوبى و شدّ أغصانها بأغصان سدرة المنتهى و دلى بعض أغصانها إلى الدّنيا فمن تعلّق بغصن منها أدخله الجنّة ، ألا إنّ السخاء من الإيمان و الإيمان في الجنّة وخلق البخل من مقته وجعل أسّه راسخاً في أصل شجرة الزقّوم و دلى بعض أغصانها إلى الدّنيا فمن تعلّق بغصن منها أدخله النار ، ألا إنّ البخل من الكفر والكفر في النّار » [2].

و قال صلى الله عليه وآله : « السخاء شجرة تنبت في الجنّة فلا يلج الجنّة إلّا سخيٌّ ، والبخل شجرةٌ تنبت في النار ولا يلج النار إلّا بخيل » [3].

و عنه صلى الله عليه وآله : أنّه قال : « من سيّدكم يا بني سلمة ؟ قالوا : سيّدنا جدُّ بن قيس إلّا أنّه رجلٌ فيه بخلٌ ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : وأيّ داء أدوى من البخل ولكن

---

(١) أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار بنحوه . ولم يقل أحدهما «سألاه ثمن بعير». و رواه البزار من رواية أبي سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات (المغنى) وقال في النهاية : فيه « أما والله ان أحدكم ليخرج بمسألته من عندي يتأبطها » أي يجعلها تحت ابطه .

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس (المغنى) وكنوز الحقايق للمناوي .

(٣) تقدم نحوه و ذكره صاحب الفردوس بلفظه من حديث علي عليه السلام ولم يخرجه ولده في مسنده (المغنى) و أخرج نحوه البيهقي من حديث أبي هريرة كما في الدر المنثور ج ٦ ص ١٩٧ .

سيّدكم عمرو بن الجموح »[١].

و في رواية « إنّهم قالوا : سيّدنا جدّ بن قيس فقال : بم تسودونه ؟ قالوا : إنّه أكثرنا مالاً وإنّا على ذلك لنتّهمه بالبخل ، فقال صلى الله عليه وآله : فأيّ داء أدوى من البخل ، ليس ذلك سيّدكم قالوا : فمن سيّدنا يا رسول الله ؟ قال : سيّدكم بشر ابن البراء بن معرور »[٢].

و قال عليّ عليه السلام : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الله يبغض البخيل في حياته السخيّ عند موته »[٣].

و عنه صلى الله عليه وآله : « السخيّ الجهول أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من العابد البخيل »[٤].

و عنه صلى الله عليه وآله : « لا يجتمع الشحّ والإيمان في قلب عبد »[٥].

و قال صلى الله عليه وآله أيضاً : « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق »[٦].

و قال صلى الله عليه وآله : « لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً »[٧].

و قال صلى الله عليه وآله : « يقول قائلكم : الشحيح أعذر من الظالم وأيّ ظلم أظلم عند الله من الشحّ ، حلف الله بعزّته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنّة شحيح ولا بخيل »[٨].

وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يطوف بالبيت فإذا رجل يتعلّق بأستار الكعبة

---

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط وفيه أبو الربيع السمان وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ١٢٦ .

(٢) أخرجه الحاكم ج ٣ ص ٢١٩ باقتصار وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه و رواه الكليني في الكافي ج ٤ ص ٤٤ .

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخه كما في الجامع الصغير .

(٤) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٤٠ هكذا « لجاهل سخي أحب .. الحديث » .

(٥) أخرجه الحاكم و صححه و أيضاً ابن أبي شيبة والنسائي والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة كما في الدر المنثور ج ٦ ص ١٩٦ .

(٦) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٤١ وقد تقدم و هو مكرر في الباب .

(٧) قال العراقي : لم أجد له أصلا و أقول : وقد مر مضمونه سابقاً

(٨) روى الكليني نحوه في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام ج ٤ ص ٤٤ .

وهو يقول : بحرمة هذا البيت إلّا غفرت لي ذنبي قال رسول الله صلى الله عليه وآله : و ما ذنبك صفه لي ، قال : هو أعظم من أن أصفه لك ، قال : ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون ؟ قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال : ويحك ذنبك أعظم أم الجبال ؟ قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم البحار ؟ قال : بل ذنبي يارسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم السماوات ؟ قال : بل ذنبي يارسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم العرش ؟ قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم الله ؟ قال : بل الله أعظم و أعلى و أجلّ ، قال : ويحك فصف لي ذنبك ، قال : يا رسول الله إنّي رجلٌ ذو ثروة من المال و إنّ السائل ليأتيني ليسألني فكأنّما يستقبلني بشعلة من نار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إليك عنّي لا تحرقني بنارك فوالّذي بعثني بالهداية و الكرامة لو قمت بين الرُّكن و المقام ثمّ صلّيت ألفي ألف عام و بكيت حتّى تجري من دموعك الأنهار و تسقى بها الأشجار ثمّ متّ وأنت لئيم لأكبّك الله في النار ، ويحك أما علمت أنّ البخل كفر وأنّ الكفر في النار ، ويحك أما علمت أنّ الله يقول : «و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسه» «ومن يوق شحّ نفسه فاُولئك هم المفلحون» (١).

و قال عليّ عليه السلام في خطبته : «أنّه سيأتي على الناس زمانٌ عضوضٌ يعضّ الموسر على ما في يديه ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى : «ولا تنسوا الفضل بينكم» (٢) .

وقال عليه السلام : «ما استقصى كريم حقّه قطّ قال الله تعالى : «عرّف بعضه وأعرض عن بعض» (٣).

الآثار : قال ابن عباس : لمّا خلق الله تعالى جنّة عدن قال لها : تزيّني

(١) سورة محمد : ٤٠ ، والحشر : ١٠ . قال العراقي : هو بطوله باطل لا أصل له .

(٢) ليس هذا الكلام من خطبه عليه السلام انما هو من حكمه وقصارى كلامه عليه السلام أورده الرضي - رحمه الله - في النهج باب المختار من حكمه تحت رقم ٤٦٨ والعضوض - بالفتح - : الشديد . والموسر : الغني ، ويعض على ما في يده أي يمسكه بخلا على خلاف ما امره الله في قوله : « ولا تنسوا الفضل بينكم » أي الاحسان كما في هامش النهج والاية في سورة البقرة : ٢٣٨ .

(٣) التحريم : ٤ .

فتزيّنت ثمّ قال لها : أظهري أنهارك فأظهرت عين السلسبيل و عين الكافور و عين التسنيم فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللّبن ، ثمّ قال لها : أظهري سررك وحجالك و كراسيك و حليك و حللك و حور عينك ، فأظهرت فنظر إليها فقال : تكلّمي فقالت : طوبى لمن دخلني فقال الله تعالى : وعزّتي وجلالي لاُسكنك بخيلاً .

و قيل : لو كان البخل قميصاً ما لبسته ، ولو كان طريقاً ماسلكته .

و قيل : ورد على أنوشروان حكيم الهند وفيلسوف الرّوم فقال للهندي : تكلّم فقال : خير الناس من ألفي سخيّاً ، وعند الغضب وقوراً ، و في القول متأنّياً ، و في الرّفعة متواضعاً ، وعلى كلّ ذي رحم مشفقاً . وقام الرّوميّ فقال : من كان بخيلاً ورث عدوّه ماله ، ومن قلّ شكره لم ينل النجح ، وأهل الكذب مذمومون ، وأهل النميمة يموتون فقراء ، و من لم يرحم سلّط الله عليه من لا يرحمه .

و قال الضحاك في قوله تعالى : «إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً» (١) قال لأهل البخل أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى .

و قال كعب : ما من صباح إلّا وقد وكّل به الله ملكين يناديان اللّهمّ اجعل للممسك تلفاً وللمنفق خلفاً .

و قال الأصمعيّ : سمعت أعرابيّاً و قد وصف رجلاً فقال : لقد صغر فلان في عيني لعظم الدّنيا في عينه وكأنّما يرى السائل إذا رآه ملك الموت إذا أتاه .

و قال الجاحظ : مابقي من اللّذات إلّا ثلاث : ذمّ البخلاء ، و أكل القديد ، وحكّ الجرب .

وقال بشر بن الحارث : البخيل لا غيبة له قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : «إنّك إذاً لبخيل» (٢).

و مدحت امرأة عند النبيّ صلّى الله عليه وآله فقالوا : صوّامة قوّامة إلّا أنّ فيها بخلاً قال : «فما خيرها إذاً» (٣).

و قال بشر : النظر إلى البخيل يقسي القلب ، و لقاء البخلاء كرب على قلوب

---

(١) يس : ٨ . (٢) كذا . (٣) تقدم في آفات اللسان .

المؤمنين .

وقال يحيى بن معاذ : يأبى القلب للأسخياء إلّا حبّاً ولو كانوا فجّاراً وللبخلاء إلّا بغضاً ولو كانوا أبراراً .

و قال ابن المعتزّ : أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه .

ولقي يحيى بن زكريّا عليه السلام إبليس في صورته فقال له : يا إبليس أخبرني بأحبّ الناس إليك وأبغض الناس إليك ؟ قال : أحبّ الناس إليّ المؤمن البخيل ، وأبغض الناس إليّ الفاسق السخيّ ، قال له : لم ؟ قال : لأنّ البخيل قد كفاني بخله ، و الفاسق السخيّ أخاف أن يطّلع الله عليه في سخائه فيقبله ، ثمّ ولّى و هو يقول : لو لا أنّك يحيى لما أخبرتك .

☼(حكايات البخلاء)☼

قيل : كان بالبصرة رجل موسر بخيل فدعاه بعض جيرانه وقدم إليه طباهجة ببيض[1] فأكل منها فأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت فجعل يلتوي[2] فلمّا أجهده الأمر وصف حاله لطبيب ، فقال : لا بأس عليك تقيّأ ما أكلت ، فقال : هاه أتقيّؤ طباهجة ببيض ؟ ! أموت والله لا أتقيّؤ طباهجة ببيض .

وقيل : أقبل أعرابيّ يطلب رجلاً وبين يديه تين فغطّى التين بكسائه فجلس الأعرابي ، فقال له الرّجل : هل تحسن شيئاً من القرآن ؟ قال : نعم و قرأ « والزّيتون و طور سينين » فقال : أين « والتّين » ؟ قال : هو تحت كسائك .

و دعا بعضهم أخاً له ولم يطعمه إلى العصر شيئاً حتّى اشتدّ جوعه وأخذه مثل الجنون فأخذ صاحب البيت العود وقال له : بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك ؟ قال : صوت المقلى .

و يحكى أنّ محمّد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً قبيح البخل فسئل

(١) الطباهج ـ بفتح الهاء ـ طعام من لحم وبيض قال الكرخي : ولا يكون طبيخاً لان الطبيخ ماله مرق و فيه لحم أو شحم و أما القلية اليابسة و نحوها فلا (المغرب) .

(٢) لواه فتله و ثناه و عطف بعضه على بعض .

نسيب له ـ كان يألفه ـ عنه وقال له قائل : صف لي مائدته فقال : هي فتر في فتر وصحافه منقوره من حبّ الخشخاش ، قال : فمن يحضرها ؟ قال : الكرام الكاتبون ، قال : أفيأكل معه أحدٌ ؟ قال : بل الذّباب ، فقال : سوءة لك أنت خاصٌّ به و ثوبك مخرق ؟ فقال : إنّي و الله ما أقدر على إبرة أخيط بها ، فقال : ألا استعرت منه ؟ قال : ولو ملك محمّد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوّاً إبراً ثمّ جاء جبرئيل و ميكائيل ومعهما يعقوب عليه السلام يضمنون عنه إبرة ويسألونه أعرنا إيّاها لنخيط به قميص يوسف الّذي قدّ من دبر ما فعل .

ويقال : كان مروان بن أبي حفصة بخيلاً لا يأكل اللّحم بخلاً حتّى يقرم [1] إليه فإذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله فقيل له : نراك لا تأكل إلّا الرؤوس في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك ؟ قال : نعم الرأس أعرف سعره فآمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبنني فيه وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه إن مسّ عيناً أو اُذناً أوخدّاً وقفت على ذلك ، وآكل منه ألواناً آكل عينه لوناً و اُذنه لوناً و غلصمته لوناً و دماغه لوناً و لسانه لوناً وأكفي مؤونة طبخه فقد اجتمعت لي فيه مرافق . وخرج يوماً يريد الخليفة المهديّ فقالت له امرأة من أهله : مالي عليك إن رجعت بالجائزة ؟ قال : إن اُعطيت مائة ألف أعطيتك درهماً فاُعطي ستّين ألفاً فأعطاها أربعة دوانق [2]. واشترى مرّة لحماً بدرهم فدعاه صديق له فردّ اللّحم إلى القصّاب بنقصان دانق وقال : أكره الإسراف .

و كان للأعمش جار كان لايزال يعرض عليه المنزل فيقول : لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً فيأبى عليه الأعمش فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش فقال : سربنا فدخل منزله فقرّب إليه كسرة وملحاً فجاء سائل فقال له ربّ المنزل : بورك فيك فأعاد عليه المسئلة فقال : له : بورك فيك فلمّا سأل الثالثة قال له : إذهب و إلّا والله خرجت إليك بالعصا قال : فناداه الأعمش فقال : إذهب ويحك فلا والله مارأيت أحداً أصدق مواعيد منه هومنذ مدّة يعدني على كسرة وملح فلا والله مازادني عليهما .

(١) أي يشتهيه ، والقرم ـ بالتحريك ـ : شدة شهوة اللحم وقد تقدم .

(٢) الدانق ـ بفتح النون ـ سدس الدرهم جمعه دوانق .

(بيان الايثار و فضيلته)

اعلم أنّ السخاء و البخل كلّ واحد منهما ينقسم إلى درجات فأرفع درجات السخاء الإيثار ، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه وإنّما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أولغير محتاج و البذل مع الحاجة إليه أشدّ و كما أنّ السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة ، و كم من بخيل يمسك المال و يمرض فلا يتداوى ، و يشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلّا البخل بالثمن و لو وجدها مجّاناً لأكلها فهذا يبخل على نفسه مع الحاجة و ذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنّه محتاج إلى ذلك ، فانظر مابين الرّجلين فإنّ الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء و ليس بعد الإيثار درجة في السخاء و قد أثنى الله تعالى على الصحابة فقال : « و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (١).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أيّما امرىء اشتهى شهوة فردّ شهوته و آثر على نفسه غفر له » (٢).

و قالت عائشة : ما شبع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ثلاثة أيّام متوالية حتّى فارق الدّنيا ولو شئنا لشبعنا ولكنّا كنّا نؤثر على أنفسنا » (٣).

و نزل برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجلٌ من الأنصار فذهب به إلى أهله فوضع بين يديه الطعام و أمر امرأته باطفاء السراج و جعل يمدّ يده إلى الطعام كأنّه يأكل ولا يأكل حتّى أكل الضيف الطعام ، فلمّا أصبح قال له رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : لقد عجب الله من صنيعكم إلى ضيفكم البارحة ونزلت « و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (٤). فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى

(١) الحشر : ١٠ .

(٢) أخرجه ابن حبان في الضعفاء و أبو الشيخ في الثواب من حديث ابن عمر و قد تقدم .

(٣) تقدم كراراً .

(٤) صحيح البخاري ج ٦ ص ١٨٠ .

و الإيثار أعلى درجات السخاء و كان ذلك من دأب رسول الله صلى الله عليه و آله حتّى سمّاه الله تعالى عظيماً فقال تعالى: «وإنّك لعلى خلق عظيم[1]».

و قال سهل بن عبد الله: قال موسى عليه السلام: يا ربّ أرني بعض درجات محمّد صلى الله عليه و آله و أُمّته قال: يا موسى إنّك لن تطيق ذلك لكنّي أراك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضّلته بها عليك وعلى جميع خلقي قال: فكشف له عن ملكوت السماوات فنظر إلى منزلة كادت أن تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله عزّ وجلّ فقال: يا ربّ بما ذا بلغت به إلى هذه الكرامة؟ قال: بخلق اختصصته به من بينهم و هو الإيثار، يا موسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلّا استحييت من محاسبته و بوّأته من جنّتي حيث يشاء.

و قيل: خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم و فيها غلام أسود يعمل فيها إذ أتى الغلام بقوته ودخل الحائط كلب و دنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ثمّ رمى إليه بالثاني و الثالث فأكله وعبد الله ينظر فقال: ياغلام كم قوتك كلّ يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب إنّه جاء من مسافة بعيدة جايعاً فكرهت ردّه، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبدالله بن جعفر: أُلام على السخاء إنّ هذا الغلام لأسخى منّي فاشترى الحائط و الغلام و ما فيه من الآلات وأعتق الغلام و وهبه له.

و قيل: أُهدي إلى الرّجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله رأس شاة فقال: إن أخي كان أحوج منّي إليه فبعث إليه به فلم يزل يبعث به الواحد إلى الآخر حتّى تداولته سبعة أبيات حتّى رجع إلى الأوّل.

و بات عليّ بن أبي طالب عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه و آله فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل و ميكائيل عليهما السلام: إنّي آخيت بينكما و جعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة فاختار كلاهما الحياة و أحبّاها، فأوحى

(١) القلم: ٥.

الله إليهما أفلا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب ، إنّي آخيت بينه وبين نبيّي محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه و يؤثره بالحياة ، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه ، فكان جبرئيل عند رأسه وميكائيل عندرجليه وجبرئيل ينادي بخ بخ من مثلك ياابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة ، فأنزل الله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه إبتغاء مرضات الله و الله رؤف بالعباد » (١).

و عن أبي الحسن الأنطاكي أنّه اجتمع عنده نيّف و ثلاثون نفساً و كانوا في قرية بقرب الرّيّ ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم فكسروا الرّغفان وأطفؤوا السراج و جلسوا للطعام ، فلمّا رفع الطعام فإذا الطعام بحاله و لم يأكل أحدمنهم شيئاً إيثاراً لصاحبه على نفسه .

و روي أن شعبة جاءه سائل و لم يكن عنده شيء فنزع خشبة من سقف بيته فأعطاه ثمّ اعتذر إليه .

و قال حذيفة العدويّ : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمّ لي ومعي شيء من ماء و أنا أقول : إن كان به رمق سقيته و مسحت به وجهه فإذا أنا به و به رمق فقلت : أسقيك فأشار إليّ أن نعم فإذا هو أن يشرب فإذا رجل يقول : آه فأشار ابن عمّي إليّ أن انطلق إليه به فجئته فإذا هوهشام بن العاص فقلت : أسقيك فسمع به آخر فقال : آه فأشار هشام أن انطلق به إليه فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمّي فإذا هو قدمات .

وقال عبّاس بن دهقان : ماخرج أحدٌ من الدنيا كما دخلها إلّا بشر بن الحارث فإنّه أتاه رجل في مرضه فشكى إليه الحاجة فنزع قميصه فأعطاه و استعار ثوباً فمات فيه .

---

(١) الاية فى سورة البقرة : ٢٠٣ والخبر رواه الثعلبى فى تفسيره وابن عقبة فى ملحمته و أبو السعادات فى فضائل العشرة و جماعة من أصحابنا كابن بابويه والكلينى والشيخ الطوسى وابن عقدة والبرقى وابن فياض والعبدكى والصفوانى والثقفى باسانيدهم عن ابن عباس وأبي رافع وهند بن أبي هالة . راجع تفسير البرهان ذيل الاية و اشار اليه ابن سعد فى الطبقات ج ١ ص ٢٢٨ طبع بيروت ١٣٧٦ .

و عن بعض الصوفيّة قال: كنّا بطرسوس فاجتمعنا جماعة و خرجنا إلى باب الجهاد فتبعنا كلب من البلد فلمّا بلغنا باب الجهاد إذا نحن بدابّة ميتة فصعدنا إلى موضع عال و قعدنا فلمّا نظر الكلب إلى الميتة فرجع إلى البلد ثمّ عاد بعد ساعة ومعه مقدارعشرين كلباً فجاء إلى تلك الميتة و قعد ناحية و وقعت الكلاب على الميتة فما زالت تأكلها و ذلك الكلب قاعدٌ ينظر إليها حتّى أكلت الميتة وبقيت العظام ورجعت الكلاب إلى البلد فقام ذلك الكلب و جاء إلى تلك العظام فأكل ما بقي على العظم قليلاً ثمّ انصرف. و قد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار و أحوال الأولياء في كتاب الفقر والزّهد فلا نعيده[1].

(بيان حد السخاء و البخل وحقيقتهما)

لعلّك تقول: قد عرف بشواهد الشرع أنّ البخل من المهلكات ولكن ماحدّ البخل؟ و بما ذا يصير الإنسان بخيلاً؟ وما من إنسان إلّا و هو يرى نفسه سخيّاً و ربما يراه غيره بخيلاً، و قد يصدر فعل من إنسان فيختلف الناس فيه فيقول قوم: هذا بخل ويقول آخرون: ليس هذا من البخل، و ما من إنسان إلّا ويجد في نفسه حبّاً للمال و لأجله يحفظ المال و يمسكه فإن كان يصير بإمساكه المال بخيلاً فإذن لاينفكّ أحدٌ عن البخل، وإذا كان الإمساك مطلقاً لا يوجب البخل فلامعنى للبخل إلّا الإمساك فما معنى البخل الّذي يوجب الهلاك، و ما حدّ السخاء الّذي يستحقّ العبد به صفة السخاوة وثوابها.

فنقول: قد قال قائلون: حدّ البخل منع الواجب و كلّ من أدّى ما يجب عليه فليس ببخيل و هذا غير كاف فإنّ من يردّ اللّحم مثلاً إلى القصّاب و الخبز إلى الخبّاز بنقصان حبّة أو نصف حبّة فإنّه يعدّ بخيلاً بالاتّفاق و كذلك من يسلّم إلى عياله القدر الّذي يفرضه القاضي ثمّ يضايقهم في لقمة زادوا عليها أو تمرة أكلوا من ماله عدّ بخيلاً، و من كان بين يديه رغيف فحضر من يظنّ أنّه يأكل معه و أخفاه عدّ

(١) كذا والصحيح أن يقال « فلانتعرض لذكرها » لان كتاب الفقر والزهد يأتي بعد، ومن هنا يعلم أن المؤلف صنف كتاب الفقر والزهد قبلا ولدى الترتيب جعله كتاب الرابع من ربع المنجيات.

بخيلاً و قال قائلون : البخيل هو الّذي يستصعب العطيّة ، و هو أيضاً قاصرٌ فإنّه إن اُريدبهأنّه يستصعب كلّ عطيّة فكم من بخيل لايستصعبالعطيّة القليلة كالحبّة و ما يقرب منها ويستصعب ما فوقها و إن اُريد بهأنّه يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلاّ و قديستصعب بعض العطايا وهو ما يستغرق جميع ماله أو المالالعظيم وهذا لايوجب الحكم بالبخل .

و كذلك تكلّموا في الجود فقيل : الجود عطاء بلا منّ و إسعاف من غير رويّة ، وقيل: الجود عطاء من غير مسألة على رؤية التقليل ، وقيل : الجودالسرور بالسائل و الفرح بالعطاء بما أمكن ، و قيل : الجود عطاء على رؤية أنّ المال لله تعالى و العبد لله تعالىفيعطي عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر ، وقيل : منأعطى البعض و أبقى البعض فهو صاحب السخاء ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود ، و من قاسى الضرّ وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار ، ومن لميبذل شيئاً فهو صاحب بخل ، و جملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة البخل و الجود بل نقول : المال خلق لحكمة و مقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه و يمكن بذله بالصرف إلى مالا يحسنالصرف إليه ، ويمكن التصرّف فيه بالعدل وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ و يبذل حيث يجب البذل ، فالإمساك حيث يجب البذل بخلٌ ، و البذل حيث يجب الإمساك تبذيرٌ ، و بينهما وسط وهو المحمود ، و ينبغي أن يكون السخاء و الجود عبارة عنه إذ لم يؤمر رسول الله صلّى الله عليه وآله إلّا بالسخاء ، وقيل له : «ولاتجعل يدك مغلولة إلىعنقك ولاتبسطها كلّ البسط »[1] وقال تعالى : « و الّذين إذا أنفقوا لميسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً »[2] فالجود وسط بينالإقتار والإسراف و بين البسط و القبض و هو أن يقدّر بذله وإمساكه بقدر الواجب و لا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيّباً بهغير منازع له فيه فإن بذل في محلّ وجوبالبذل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو متسخٌ و ليس بسخيّ بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال

(١) الاسراء : ٣٢ . (٢) الفرقان : ٦٧ .

إلّا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه .

فإن قلت : قد صار موقوفاً على معرفة الواجب فما الّذي يجب بذله ؟ فأقول: الواجب قسمان واجب بالشرع و واجب بالمروّة و العادة ، و السخيّ هو الّذي لا يمنع واجب الشرع و لا واجب المروّة ، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل ، ولكنّ الّذي يمنع واجب الشرع أبخل كالّذي يمنع أداء الزكاة ويمنع أهله وعياله النفقة أو يؤدّيهما ولكن يشقّ عليه فإنّه بخيلٌ بالطبع و إنّما يتسخّى بالتكلّف أو الّذي يتيمّم الخبيث من ماله و لا يطيب له أن يعطي من أطيب ماله أو من وسطه ، فهذا كلّه بخل ، وأمّا واجب المروّة فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقّرات فإنّ ذلك مستقبح واستقباح ذلك يختلف في الأحوال و الأشخاص فمن كثر ماله يستقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة ، ويستقبح من الرّجل من المضايقة مع أهله و أقاربه و مماليكه ما لا يستقبح مع الأجانب ، و يستقبح من الجار مالا يستقبح مع البعيد ، ويستقبح في الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح أقلّ منه في المبايعة والمعاملة فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعام أو ثوب إذ يستقبح في الأطعمة ما لا يستقبح في غيرها ، ويستقبح في شراء الكفن مثلاً أو شراء الاُضحيّة أو شراء خبز الصدقة مالا يستقبح في غيره من المضايقة و كذلك يختلف بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبيّ ، وبمن منه المضايقة من صبيّ أو امرأة أو شيخ أو شابّ أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير ، فالبخيل هو الّذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إمّا بحكم الشرع و إمّا بحكم المروّة وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره ولعلّ حدّ البخل هو إمساك المال عن غرض ذلك الغرض هو أهمّ من حفظ المال فإنّ صيانة الدّين أهمّ من حفظ المال ، فمانع الزّكاة والنفقة بخيل و صيانة المروّة أهمّ من حفظ المال و المضايق في الدقايق مع من لا تحسن المضايقة معه هاتك ستر المروّة لحبّ المال فهو بخيل ثمّ تبقى درجة اُخرى وهو أن يكون الرّجل ممّن يؤدّي الواجب ويحفظ المروّة ولكن معه مال كثير قد جمعه وليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدّة على نوائب الزّمان و غرض

الثواب ليكون رافعاً لدرجاته في الآخرة فإمساك المال عن هذا الغرض بخلٌ عند الأكياس و ليس ببخل عند عوام الخلق وذلك لأنّ نظر العوام مقصور على حظوظ الدّنيا فيرون إمساكه لدفع نوائب الزّمان مهمّاً وربّما يظهر عند العوام أيضاً سمة البخل عليه إن كان فيجواره محتاجٌ فمنعه و قال : قد أدّيت الزّكاة الواجبة وليس عليّ غيرها ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدارماله و باختلاف شدّة حاجة المحتاج و صلاح دينه و استحقاقه ، فمن أدّى واجب الشرع و واجب المروّة اللائقة به فقد تبرّأ من البخل ، نعم لا يتّصف بصفة الجود و السخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدّرجات ، و إذااتّسعت نفسه لبذل المال حيث لايوجبه الشرع ولا تتوجّه إليه الملامة في العادة فهو جوادٌ بقدر ما تتّسع له نفسه من قليل أو كثير و درجات ذلك لا تحصر و بعض الناس أجود من بعض ، فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة ، و المروّة هو الجود ولكن بشرط أن يكون عن طيبة نفس ولا يكون عن طمع و رجاء خدمة أو مكافاة أو شكر أو ثناء فإن من طمع في الشكر و الثناء فهو بيّاع وليس بجواد فإنّه يشتري المدح بماله و المدح لذيذ وهو مقصود في نفسه و الجود هو بذل الشيء من غيرعوض ، هذا هو الحقيقة ولا يتصوّر ذلك إلّا من الله تعالى فأمّا الآدمي فاسم الجواد عليهمجازٌ إذ لا يبذل الشيء إلّا لغرض ولكن إذا لم يكن غرضه إلّا الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود و تطهير النفس عن رذالة البخل فيسمّى جواداً فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلاً أومن ملامة الخلق أو ما يتوقّعه من نفع يناله من المنعم عليه فكلّ ذلك ليس من الجود لأنّه مضطرٌ إليه بهذه البواعث و هي أعواض معجّلة له عليه فهو معتاضٌ لا جواد كما روي عن بعض المتعبّدات أنّها وقفت على حبّان بن هلال و هو جالس مع أصحابه فقالت : ما السخاء عندكم ؟ قالوا : العطاء و البذل والإيثار ، قالت : هذا السخاء في الدّنيا فماالسخاء في الدّين ؟ قالوا : أن نعبدالله تعالى سخيّة بها أنفسنا غير مكرهة ، قالت: فتريدون على ذلك أجراً؟ قالوا : نعم ، قالت : ولم؟ قالوا : لأنّ الله وعدنا بالحسنة عشر أمثالها ، قالت : سبحان الله فإذا أعطيتم واحدة و أخذتم عشرة

فبأيّ شيء تسخّيتم عليه ؟ قالوا لها : فما السخاء عندك يرحمك الله ؟ قالت: السخاء عندي أن تعبدوا الله متنعّمين متلذّذين بطاعته غير كارهين لا تريدون على ذلك أجراً حتّى يكون مولكم يفعل بكم ما يشاء ألا تستحيون من الله أن يطّلع على قلوبكم فيعلم منها أنّكم تريدون شيئاً بشيء، إنّ هذا في الدّنيا لقبيح ، وقالت بعض المتعبّدات : أيحسب أحدكم أنّ السخاء في الدّرهم والدّينار فقط ؟ قيل : ففيم ؟ قالت : السخاء عندي في المهج ، وقال المحاسبيّ : السخاء في الدّين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عزّ وجلّ و يسخو قلبك ببذل مهجتك و إهراق دمك لله عزّ وجلّ بسماحة من غير إكراه ولا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا آجلاً ، وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنّك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله حتّى يكون مولاك هو الّذي يفعل بك مالا تحسن أن تختاره لنفسك .

❁(بيان علاج البخل)❁

اعلم أنّ البخل سببه حبّ المال ولحبّ المال سببان :

أحدهما حبّ الشهوات الّتي لا وصول إليها إلّا بالمال مع طول الأمل ، فإنّ الإنسان لو علم أنّه يموت بعد يوم ربما كان لا يبخل بماله إذ القدر الّذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب ، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد قام له الولد مقام طول الأمل فإنّه يقدّر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله : « الولد مبخلة مجبنة مجهلة » (١) فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلّة الثقة بمجيء الرّزق قوي البخل لا محالة .

السبب الثاني أن يحبّ عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه لبقيّة عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ ولا ولد له ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه بإخراج الزّكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار محبّاً للدّنانير عاشقاً لها يلتذّ بوجودها في يده و بقدرته عليها فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنّه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه و مع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل منها

(١) أخرجه أبو يعلى من حديث أبي سعيد بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

أو يتصدّق بحبّة واحدة ، و هذا مرض للقلب عظيمٌ عسير العلاج لا سيّما في كبر السنّ و هو مرض مزمن لا يرجى علاجه ، ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصاً فأحبّ رسوله لنفسه ثمّ نسي محبوبه واشتغل برسوله فإنّ الدّنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك لأنّ الموصل إلى اللّذيذ لذيذ، ثمّ قد تنسى الحاجات ويصير الذّهب عنده كأنّه محبوب في نفسه و هو غاية الضلال بل من رأى بينه وبين الحجر فرقاً فهو جاهل إلّا من حيث قضاء حاجته به فالفاضل عن قدر حاجته و الحجر بمثابة واحدة فهذه أسباب حبّ المال ، و إنّما علاج كلّ علّة بمضادّة سببها ، فيعالج حبّ الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر ، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت و النظر في موت الأقران و طول تعبهم في جمع المال و ضياعه بعدهم ، ويعالج التفات القلب إلى الولد بأن الّذي خلقه خلق معه رزقه ، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالاً وحاله أحسن ممّن ورث ، و بأن يعلم أنّه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير و ينقلب هو إلى شرّ وأنّ ولده إن كان تقيّاً صالحاً فيكفيه الله ، و إن كان فاسقاً فيستعين بماله على المعصية و ترجع مظلمته إليه ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمّل في الأخبار الواردة في ذمّ البخل و مدح السخاء وما توعّد الله تعالى به على البخل من العقاب العظيم ، و من الأدوية النافعة كثرة التأمّل في أحوال البخلاء و نفرة الطبع عنهم واستقباحه لهم فإنّه ما من بخيل إلّا ويستقبح البخل من غيره و يستثقل كلّ بخيل من أصحابه فيعلم أنّه مستثقل و مستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه ، ويعالج أيضاً قلبه بأن يتفكّر في مقاصد المال وأنّه لماذا خلق ، فلا يحفظ من المال إلّا بقدر حاجته إليه والباقي يدّخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل ثواب بذله لنفسه ، فهذه أدوية من جهة المعرفة و العلم ، فإذا عرف بنور البصيرة أنّ البذل خيرٌ له من الإمساك في الدّنيا و الآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً فإن تحرّكت الدّاعية فينبغي أن يجيب الخاطر الأوّل ولا يتوقّف لأنّ الشيطان يعده الفقر ويخوّفه ويصدّه عنه .

كان أبو الحسن البوشنجي ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذاً له وقال : أنزع عنّي القميص و ادفعه إلى فلان ، فقال : هلّا صبرت حتّى تخرج ؟ قال : قد خطر

لي الآن بذله ولم آمن على نفسي أن تتغيّر ، و لا تزول صفة البخل إلّا بالبذل تكلّفاً كما لا يزول العشق إلّا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقرّه حتّى إذا سافر و فارق تكلّفاً و صبر عنه مدّة تسلّى عنه قلبه فكذلك الّذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلّفاً بأن يبذله ، بل لو رماه في الماء كان أولى به[1] من إمساكه إيّاه مع الحبّ له ، و من لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء فيبذل على قصد الرّياء حتّى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب لها خبث الرياء ، ولكن ينعطف بعد ذلك على الرّياء و يزيله بعلاجه ، و يكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال كما قد يسلّى الصبيّ عند الفطام عن الثدي باللّعب بالعصافير وغيرها ، لا للبخل واللّعب ولكن لينفكّ عن الثدي إليه ثمّ ينقل عنه إلى غيره فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلّط بعضها على بعض كما تسلّط الشهوة على الغضب و تكسر سورته بها و يسلّط الغضب على الشهوة و تكسر رعونتها به إلّا أنّ هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حبّ الجاه و الرّياء فيبدّل الأقوى بالأضعف ، فإن كان الجاه محبوباً عنده كالمال فلا فائدة فيه فإنّه يقلع من علّة ويزيد في الأخرى مثلها إلّا أنّ علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرّياء فبذلك يتبيّن أنّ الرّياء أغلب عليه فإن كان البذل يشقّ عليه مع الرّياء فينبغي أن يبذل فإنّ ذلك يدلّ على أنّ مرض البخل أغلب على قلبه ومثال دفع بعض هذه الصفات ببعض ما يقال : من أنّ الميّت تستحيل جميع أجزائه دوداً ثمّ يأكل بعض الدّيدان البعض حتّى يقلّ عددها و يكبرون ثمّ يأكل بعضهم بعضاً حتّى يرجع إلى اثنين قويّين عظيمين ثمّ لا يزالان يتقاتلان إلى أن يغلب أحدهما الآخر فيأكله و يسمن به ثمّ لا يزال يبقى وحده جائعاً إلى أن يموت فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلّط بعضها على بعض حتّى يقمعها فيجعل الأضعف قوتاً للأقوى إلى أن لا يبقى إلّا واحدة ثمّ تقع العناية بمحوها و إذابتها بالمجاهدة ، و هو منع القوت عنها ، و منع القوت عن الصفات المذمومة أن لا يعمل بمقتضاها فإنّها تقتضي لا محالة أعمالاً فإذا خولفت خمدت

(١) غير أنه حرام شرعاً .

الصفات و ماتت مثل البخل فإنّه يقتضي إمساك المال فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرّة بعد أُخرى ماتت صفة البخل و صار صفة البذل طبعاً و سقط التعب فيه ، فإذن علاج البخل بعلم و عمل ، العلم يرجع إلى معرفة آفة البخل و فائدة الجود ، و العمل يرجع إلى البذل على سبيل التكلّف ولكن قد يقوى البخل بحيث يُعمي ويُصم فيمنع تحقّق المعرفة بآفته وإذالم يتحقّق المعرفة لم يتحرّك الرّغبة فلم يتيسّر العمل فتبقى العلّة مزمنة كالمرض الّذي يمنع معرفة الدّواء و إمكان استعماله فإنّه لا حيلة فيه إلّا الصبر إلى الموت ، ومن عادة بعض شيوخ الصوفيّة في معالجة علّة البخل في المريدين أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم فكان إذا توهّم في مريد فرحه بزاويته وما فيها نقله إلى زاوية غيره ونقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع ما ملكه ، و إذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه أو سجّادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره ويلبسه ثوباً خليقاً لا يميل إليه قلبه ، فهذا ونحوه تتجافى القلوب عن متاع الدّنيا فمن لم يسلك هذا السبيل أنس الدّنيا و أحبّها فإن كان له ألف متاع كان له ألف محبوب ، ولذلك إذا سرق كلّ واحد منه ألمت به مصيبة بقدر حبّه له فإذا ماتت نزلت به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنّه كان يحبّ الكلّ و قد سلب عنه بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد و الهلاك .

حمل إلى بعض الملوك قدحٌ من فيروزج مرصّع بالجواهر لم ير له نظير ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً فقال لبعض الحكماء عنده : كيف ترى هذا قال : أراه مصيبة أوفقراً ، قال : كيف ؟ قال : إن كسر صارت مصيبة لا جبر لها ، و إن سرق صرت فقيراً إليه و لم تجد مثله و قد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر ، ثمّ اتّفق أن كسر يوماً وعظمت مصيبة الملك فيه فقال : صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا . وهذا شأن جميع أسباب الدّنيا فإنّ الدّنيا عدوّة لأعداء الله إذ تسوقهم إلى النار ، وعدوّة لأولياء الله إذ تغمّهم بالصبر عنها ، و عدوّة لله إذ تقطع طريقه على عباده ، وعدوّة نفسها فإنّها تأكل نفسها ، فإنّ المال لا يحفظ إلّا بالخزائن و الحرّاس ، و الخزائن و الحرّاس لا يمكن تحصيلها إلّا بالمال وهو بذل الدّراهم

والدّنانير فالمال يأكل نفسه و يضادّ ذاته حتّى يفنى و من عرف آفات المال لم يأنس به و لم يفرح به ولم يأخذ منه إلّا قدر حاجته ، و من قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأنّ ما أمسكه لحاجته فليس ببخل وما لا يحتاج إليه فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله ، بل هو كالماء على شطّ دجلة إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة .

(بيان مجموع الوظائف التى على العبد فى ماله)

اعلم أنّ المال كما وصفناه خيرٌ من وجه و شرٌّ من وجه و مثاله مثال حيّة يأخذها الرّاقي ويستخرج منها الترياق و يأخذها الغافل فيقتله سمّها من حيث لا يدري ، ولا يخلو أحد عن سمّ المال إلّا بالمحافظة على خمس وظائف :

الأولى - أن يعرف مقصود المال ، وأنّه لماذا خلق ، وأنّه لم يحتج إليه حتّى يكتسب ، ولا يحفظ إلّا قدر حاجته ، ولا يعطيه من همّته فوق ما يستحقّه .

الثانية أن يراعي جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض ، و ما الغالب عليه الحرام كمال السلاطين ، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروّة كالهدايا الّتي فيها شوائب الرّشوة وكالسؤال الّذي فيه الذّلّة وهتك المروّة و مايجري مجراه .

الثالثة - في المقدار الّذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولايستقلّ بل القدر الواجب و معياره الحاجة و الحاجة ملبس ومسكن و مطعم ولكلّ واحد ثلاث درجات أدنى و أوسط و أعلى و مادام مائلاً إلى جهة جانب القلّة و متقرّباً من حدّ الضرورة كان محقّاً ويجيىء في جملة المخفّفين ، فإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها ، وقد ذكرنا تفصيل هذه الدّرجات في كتاب الزّهد (١).

الرّابعة - أن يراعي جهة المخرج ويقتصد في الإنفاق غير مبذّر و لامقتّر كما ذكرناه فيضع ما اكتسبه من حلّه في حقّه ولا يضعه في غير حقّه ، فإنّ الإثم في الأخذ من غير حقّه و الوضع في غير حقّه سواء .

الخامسة - أن يصلح نيّته في الأخذ والترك و الإنفاق و الإمساك فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ، و يترك ما يترك زهداً فيه و استحقاراً له و إذا فعل ذلك لم يضرّه وجود المال ولذلك قال عليّ عليه السلام : « لو أنّ رجلاً أخذ جميع ما في

---

(١) قد يأتي في المجلد السابع انشاء الله .

الأرض و أراد به وجه الله فهو زاهدٌ ولو أنّه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله فليس بزاهد، فلتكن جميع حركاتك و سكناتك لله مقصورة على العبادة أو على مايعين على العبادة فإنّ أبعد الحركات عن العبادة الأكل و قضاء الحاجة وهما معينان على العبادة فإذا كان ذلك قصدك بهما صارتا عبادة في حقّك ، و كذلك ينبغي أن يكون نيّتك في كلّ ما يحفظك من قميص و إزار و فراش و آنية لأنّ كلّ ذلك ممّا قد يحتاج إليه في الدّين وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله فلا يمنعه منه عند حاجته فمن فعل ذلك فهو الّذي أخذ من حيّة المال جوهرها و ترياقها واتّقى سمّها فلا تضرّه كثرة المال ولكن لا يتأتّى ذلك إلّا لمن رسخت في الدّين قدمه و عظم فيه علمه والعامي إذا تشبّه بالعالم في الاستكثار من المال وزعم أنّه يشبه الأغنياء من الصحابة فشأنه شأن الصبيّ الّذي يرى المعزم الحاذق يأخذ الحيّة و يتصرّف بها ليخرج ترياقها فيقتدي به و هو يظنّ أنّه أخذها مستحسناً صورتها و شكلها و مستليناً جلدها فيأخذها اقتداءً به فيقتله في الحال إلّا أنّ قتيل الحيّة يدري أنّه قتيل وقتيل المال قدلايعرف، وقد شبّهت الدّنيا بالحيّة ، وقيل :

هي دنيا كحيّة تنفث السـ ـمّ و إن كانت المجسّة لانت

و كما يستحيل أن يتشبّه الأعمى بالبصير في التخطّي قلل الجبال وأطراف البحار و الطرق المشوكة فمحال أن يشبه العاميّ بالعالم الكامل في تناول المال .

✡(بيان ذم الغنى و مدح الفقر)✡

إعلم أنّ النّاس قد اختلفوا في تفضيل الغنيّ الشاكر على الفقير الصابر ، و قد أوردنا ذلك في كتاب الفقر و الزّهد و كشفنا عن تحقيق الحقّ فيه ولكنّا في هذا الكتاب ندلّ على أنّ الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة من غير التفات إلى تفصيل الأحوال فيه ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره حارث المحاسبيّ ـ رحمه الله ـ في بعض كتبه في الردّ على بعض العلماء من الأغنياء حيث احتجّ بأغنياء الصحابة و بكثرة مال بعضهم وشبّه نفسه بهم ، والمحاسبيّ له قدم في علم المعاملة و له السبق على أكثر الباحثين عن عيوب النفس و آفات الأعمال و أغوار العبادات فكلامه

جديرٌ بأن يحكى على وجهه و قد قال بعد كلام له في الرّدّ على علماء السوء :
بلغنا أنّ عيسى صلوات الله عليه قال : « يا علماء السوء تصومون وتصلّون وتصدّقون ولا تفعلون ما تؤمرون و تدرسون ما لا تعملون فياسوء ما تحكمون تتوبون بالقول و الأمانيّ وتعملون بالهوى ، و ما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم و قلوبكم دنسة ، بحقّ أقول لكم : لاتكونوا كالمنخل يخرج منه الدّقيق الطيّب ويبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغلّ في صدوركم ، يا عبيدالدّنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي شهوته من الدّنيا ولاتنقطع منها رغبته ، بحقّ أقول لكم : إنّ قلوبكم تبكي من أعمالكم ، جعلتم الدّنيا تحت ألسنتكم و العمل تحت أقدامكم ، بحقّ أقول لكم : أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم فصلاح الدّنيا أحبّ إليكم من صلاح الآخرة ، فأيّ الناس أخسر منكم لو تعلمون ، ويلكم حتّى متى تصفون الطريق للمدلجين و تقيمون في محلّ المتحيّرين كأنّكم تدعون أهل الدّنيا ليتركوها لكم مهلاً مهلاً ويلكم ما ذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره و جوفه وحشٌ مظلم ، كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطّلة ، ياعبيدالدّنيا لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام توشك الدّنيا أن تقلعكم عن أُصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثمّ تكبّكم على مناخركم ، ثمّ تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثمّ يرفعكم العلم من خلفكم حتّى يسلّمكم إلى الملك الدّيّان عراة فرادى[١] فيوقفكم على سوآتكم ثمّ يجزيكم بسوء أعمالكم .

ثمّ قال الحارث : إخواني فهؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس رغبوا في عرض الدّنيا و رفعتها وآثروها على الآخرة وأذلّوا الدّين للدّنيا فهم في العاجل عار و شين و في الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الله الكريم بفضله ، وبعد فإنّي رأيت الهالك المؤثر للدّنيا سروره ممزوج بالتنغيص فيتفجّر عنه أنواع الهموم و فنون

(١) أورده ابن شعبة في التحف باختلاف وفيه «حتى يسلماكم » أى الخطايا آخذاً بالنواصي ، والعلم رافعاً من الخلف يسلماكم الى . . .

المعاصي و إلى التلف و البوار مصيره ، فرح الهالك برجائه فلم تبق له دنياه و لم يسلم له دينه ، خسر الدّنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين ، فيالها من مصيبة ما أفظعها ، ورزيّة ما أجلّها ، ألافراقبوا الله إخواني ولا يغرّنّكم الشيطان وأولياؤه من الإنس بالحجج الدّاحضة عند الله ، فإنّهم يتكالبون على الدّنيا ، ثمّ يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج ويزعمون أنّ أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم كانت لهم أموال فيتزيّن المغرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال ولقد دهاهم الشيطان و ما يشعرون ، ويحك أيّها المفتون متى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى و أفضل من تركه فقد ازدريت محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم و المرسلين و نسبتهم إلى قلّة الرّغبة و الزّهد في هذا الخير الّذي رغبت فيه أنت و أصحابك من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت ، و متى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى من تركه فقد زعمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم ينصح للأمّة إذ نهاهم عن جمع المال الحلال ، و قد علم أنّ جمع المال خير للأمّة فقد غشّهم بزعمك حين نهاهم عنه كذبت وربّ السماء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقد كان للأمّة ناصحاً و عليهم مشفقاً و بهم رؤوفاً ، ومتى زعمت أنّ جمع المال خير لهم ، أو زعمت أنّ الله عزّ و جلّ لم يعلم أنّ الفضل في الجمع فلذلك نهاهم عنه و أنت عليم بما في المال من الخير و الفضل و لذلك رغبت في الاستكثار كأنّك أعلم بمواضع الفضل و الخير من ربّك تعالى الله عن جهلك ، أيّها المفتون تدبّر ما دهاك به الشيطان حين زيّن لك الاحتجاج بمال الصحابة ويحك و ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرّحمن بن عوف فلعلّ ودّ ابن عوف في القيامة أنّه لم يؤت من الدّنيا إلّا قوتاً ولقد بلغني أنّه لمّا توفّي عبد الرّحمن بن عوف(١) قال أُناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّا نخاف على عبد الرّحمن فيما ترك فقال كعب : سبحان الله و ما تخافون على عبد الرّحمن كسب طيّباً و أنفق طيّباً و ترك طيّباً ، فبلغ ذلك أباذرّ - رضي الله عنه - فخرج مغضباً يريد كعباً فمرّ بعظم لحى بعير فأخذه بيده ثمّ انطلق يطلب كعباً فقيل لكعب : إنّ أباذرّ يطلبك فخرج هارباً

(١) راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٣٩ .

حتّى انتهى إلى عثمان يستغيث به وأخبره الخبر ، فأقبل أبوذرّ - رحمه الله - يقتصّ الأثر في طلب كعب حتّى انتهى إلى دار عثمان فلمّا دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبي ذرّ ، فقال له أبوذرّ : هيه يا ابن اليهوديّة تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرّحمن بن عوف لقد خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله يوماً نحو اُحد و أنا معه فقال : يا أبا ذرّ فقلت : لبّيك يا رسول الله ، فقال : « الأكثرون هم الأقلّون يوم القيامة إلّا من قال هكذا وهكذا عن يمينه و شماله و قدّامه و خلفه و قليلٌ ماهم ، ثمّ قال : يا أباذرّ قلت : نعم يا رسول الله بأبي أنت و اُمّي ، قال : ما يسرّني أنّ لي مثل اُحد ذهباً أنفقه في سبيل الله أموت يوم أموت و أترك منه قيراطين قلت أو قنطارين يا رسول الله ؟ قال : بل قيراطان ، ثمّ قال : ياأبا ذرّ و أنت تريد الأكثر و أنا اُريد الأقلّ » فرسول الله صلّى الله عليه وآله يريد هذا و أنت تقول - يا ابن اليهوديّة - : لا بأس بما ترك عبد الرّحمن بن عوف ، كذبت و كذب من قال بقولك ، فلم يردّ جواباً حتّى خرج (١) و بعد فالعجب كلّ العجب لكلّ مفتون يتمرّغ في تخاليط الشبهات و السّحت و يتكالب على أوساخ الناس و هو يتقلّب في الشهوات و الزّينة و المباهاة و يتقلّب في فتن الدّنيا ، ثمّ يحتجّ بالصحابة و لعمري لقد كانت لبعض الصحابة أموال أرادوا بها التعفّف و البذل في سبيل الله فكسبوا حلالاً ، و أنفقوا قصداً ، و قدّموا فضلاً ، و لم يمنعوا منها حقّاً ، و لم يبخلوا بها ، لكنّهم جادوا الله بأكثرها و جاد بعضهم بجميعها ، و في الشدّة آثروا الله تعالى على أنفسهم كثيراً فبالله أكذلك أنت إنّك لبعيد التشبّه بالقوم و بعد فإنّ أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبّين و من خوف الفقر آمنين وبالله في أرزاقهم واثقين و بمقادير الله

(١) قال العراقي : الحديث متفق عليه و قد تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبدالرحمن بن عوف « كسب طيباً وترك طيباً » وانكار أبي ذر عليه فلم أقف على هذه الزيادة الا في قول الحارث المحاسبي بلغني كما ذكره المصنف (يعني أبا حامد) و قد رواها أحمد وأبويعلى أخصر من هذا ولفظ كعب اذاكان قضى عنه حق الله فلا بأس به فرفع أبوذر عصاه فضرب كعباً و قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول : « ما احب لوكان هذا الجبل لي ذهباً . . الحديث » وفيه ابن لهيعة .

مسرورين ، و في البلاء راضين ، و في الرّخاء شاكرين ، و في الضرّاء صابرين ، وفي السرّاء حامدين ، وكانوا لله متواضعين ، وعن حبّ العلوّ والتكاثر ورعين ، لم ينالوا من الدّنيا إلّا المباح لهم ، و رضوا بالبلغة منها ، و زجّوا الدّنيا [1] و صبروا على مكارهها ، وتجرّعوا مرارتها ، وزهدوا في نعيمها وزهرتها ، فبالله أكذلك أنت ؟ ولقد بلغنا أنّهم كانوا إذا أقبلت الدّنيا عليهم حزنوا و قالوا : ذنبٌ عجّلت عقوبته من الله وإذا رأوا الفقر مقبلاً قالوا : مرحباً بشعار الصالحين ، وبلغنا أنّ بعضهم كان إذا أصبح و عند عياله شيء أصبح كئيباً حزيناً و إذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحاً مسروراً فقيل لهم : إنّ الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا و إذا كان عندهم شيء فرحوا و أنت لست كذلك فقال : إنّي إذا أصبحت و ليس عندي شيء فرحت إذ كانت لي بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم أسوة و إذا كان عند عيالي شيء اغتممت إذ لم يكن لي بآل محمّد عليهم السلام أسوة . وبلغنا أنّهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرّخاء حزنوا وأشفقوا و قالوا : ما لنا و للدّنيا و ما يراد بها ، فكأنّهم على جناح خوف ، و إذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا و استبشروا ، و قالوا : الآن تعاهدنا ربّنا ، فهذه أحوال السلف و نعمتهم و فيهم من الفضل أكثر ممّا وصفنا ، فبالله أكذلك أنت ؟ إنّك لبعيد التشبّه بالقوم و سأصف لك أحوالك أيّها المفتون ضدّاً لأحوالهم وذلك أنّك تطغى عند الغنى ، وتبطر في الرّخاء ، وتمرح عند السرّاء ، وتغفل عن شكر النعماء ، وتقنط عند الضرّاء ، و تسخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء ، نعم و تبغض الفقر و تأنف من المسكنة ، و ذلك فخر المرسلين وأنت تأنف من فخرهم وتدّخر المال و تجمعه خوفاً من الفقر وذلك من سوء الظنّ بالله تعالى وقلّة اليقين بضمانه و كفى به إثماً ، ولعلّك تجمع المال لنعيم الدّنيا وزهرتها وشهواتها ولذّاتها ولقد بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « شرار أمّتي الّذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم » [2] وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ليجيء يوم القيامة قومٌ يطلبون حسنات لهم فيقال لهم : « أذهبتم طيّباتكم في حياتكم

(١) زجه أي طعنه . وبالشيء : رمى به .

(٢) أخرجه الحاكم بسند صحيح وقد تقدم .

الدّنيا و استمتعتم بها » و أنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدّنيا فيالها حسرة و مصيبة نعم و عساك تجمع المال للتكاثر و العلوّ و الفخر و الزّينة في الدّنيا و قد بلغنا أنّ من طلب الدّنيا للتكاثر بها أو للتفاخر لقي الله وهو عليه غضبان ، وأنت غير مكترث بما حلّ بك من غضب الله حين أردت التكاثر و العلوّ ، نعم وعساك المكث عندك في الدّنيا أحبّ إليك من النقلة إلى جوار الله و أنت تكره لقاء الله والله للقائك أكره وأنت في غفلة ، وعساك تأسف على مافاتك من عرض الدّنيا و قد بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة سنة» (١) و أنت تأسف على مافاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله نعم و لعلّك تخرج من دينك أحياناً لتوفير دنياك و تفرح لإقبال الدّنيا عليك و ترتاح لذلك سروراً بها وقد بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من أحبّ الدّنيا و سرّ بها ذهب خوف الآخرة من قلبه » (٢) و بلغنا أنّ بعض أهل العلم قال : إنّك محاسبٌ على الحزن على ما فاتك و محاسبٌ بفرحك في الدّنيا إذا قدرت عليها و أنت تفرح بدنياك و قد سلبت الخوف من الله تعالى ، وعساك تعني بأمور دنياك أضعاف ما تعني بأمور آخرتك ، و عساك أنّ مصيبتك في معاصيك في انتقاص دينك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك ، نعم و خوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذّنوب ، وعساك تبذل للناس ماجمعت من الأوساخ كلّها للعلوّ والرّفعة في الدّنيا ، وعساك ترضي المخلوقين بمساخط الله تعالى كيما تكرم وتعظم ، ويحك ! فكأنّ احتقار الله لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس إيّاك ، عساك تخفي من المخلوقين مساويك ولاتكترث باطّلاع الله عليك فيها فكأنّ الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس ، و كأنّ العبيد أعلى عندك قدراً من الله تعالى ، الله عن جهلك ، فكيف تنطق عند ذوي الألباب و هذه المثالب فيك ، أفّ لك تتلوّث في الأقذار تحتجّ بمال الأبرار ؟ هيهات ما أبعدك عن السلف و الله لقد بلغني أنّهم كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منكم فيما حرّم

(١) أخرجه الرازي في مشيخته عن ابن عمرو بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .
(٢) للحارث بن أسد المحاسبي كما ذكره المصنف .

عليكم إنّ الّذي لا بأس به عندكم كان كالموبقات[1] عندهم و كانوا للزّلّة الصغيرة أشدّ استعظاماً منكم لكبائر المعاصي فليت أطيب مالك وأحلّه مثل شبهات أموالهم ، و ليتك أشفقت من سيّئاتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لاتقبل ، ليت صومك على مثل إفطارهم ، وليت اجتهادك في العبادة على مثل فتورهم ونومهم ، وليت جميع حسناتك مثل واحدة من حسناتهم ، وقد بلغني عن بعض الصحابة أنّه قال : غنيمة الصدّيقين ما فاتهم من الدّنيا ، ونهمتهم[2] مازوي عنهم منها ، فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدّنيا ولا معهم في الآخرة ، فسبحان الله كم بين الفريقين من التفاوت ، فريق خيار الصحابة في العلوّ عند الله و فريق أمثالكم في السفالة أو يعفو الله الكريم بفضله ، وبعد فإن زعمت أنّك متأسّ بالصحابة بجمع المال للتعفّف والبذل في سبيل الله فتدبّر أمرك ، ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم أو تحسب أنّك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا ، لقد بلغني أنّ بعض الصحابة قال : كنّا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام ، أفتطمع من نفسك في مثل هذا الاحتياط لا وربّ الكعبة ما أحسبك كذلك ويحك كن على يقين أنّ جمع المال لأعمال البرّ مكيدة من الشيطان ليوقعك بسبب البرّ في اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت و الحرام ، و قد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « من اجترأ على الشّبهات يوشك أن يقع في الحرام »[3] أيّها المغرور أما علمت أنّ خوفك من اقتحام الشبهات أعلى و أفضل و أعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات و بذلها في سبيل الله و سبيل البرّ ، بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال : لأن تدع درهماً واحداً مخافة أن لايكون حلالاً خير لك من أن تتصدّق بألف دينار من شبهة لا تدري أيحلّ لك أم لا ، فإن زعمت أنّك أتقى و أورع من أن تتلبّس بالشبهات و إنّما تجمع المال بزعمك من

(١) أى المهلكات . (٢) أى فرط شهوتهم .

(٣) أخرجه البخارى ج ٣ ص ٧٠ فى حديث هكذا : « ومن اجترأ على ما يشك فيه من الاثم أوشك أن يواقع ما استبان . والمعاصى حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » . وأخرجه مسلم ج ٥ ص ٥٠ هكذا « فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه » .

الحلال للبذل في سبيل الله ويحك إن كنت كما زعمت بالغاً في الورع فلا تتعرّض للحساب فإنّ خيار الصحابة خافوا المسائلة ، وبلغنا أنّ بعض الصحابة قال: ماسرّني أن أكتسب كلّ يوم ألف دينار من حلال و أنفقها في طاعة الله و لم يشغلني الكسب عن صلاة الجماعة ، قالوا : و لم ذلك رحمك الله ؟ قال : لأنّي غنيٌّ عن مقامي يوم القيامة فيقول : عبدي من أين اكتسبت و في أيّ شيء أنفقت ، فهؤلاء المتّقون كانوا في جدة الإسلام و الحلال موجود لديهم تركوا المال وجلاً من الحساب مخافة أن لا يقوم خير المال بشرّه وأنت من نفاية الاُمّة[1] والحلال في دهرك مفقود ، تتكالب على الأوساخ ثمّ تزعم أنّك تجمع المال من الحلال في دهرك ، ويحك أين الحلال فتجمعه ، وبعد فلو كان الحلال موجوداً لديك أما تخاف أن يتغيّر عند الغنى قلبك و قد بلغنا أنّ بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه ، أفتطمع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شيء من الحقّ في أمرك و أحوالك لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظنّ بنفسك الأمّارة بالسوء ، ويحك إنّي لك ناصح أرى لك أن تقنع بالبلغة من العيش ولا تجمع المال لأعمال البرّ ولا تتعرّض للحساب فإنّه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال : « من نوقش الحساب عذّب »[2] و قال صلى الله عليه وآله : « يؤتى برجل يوم القيامة و قد جمع مالاً من حرام فأنفقه في حرام فيقال : اذهبوا به إلى النار ، و يؤتى برجل قد جمع مالاً من حلال و أنفقه في حرام فيقال : اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى برجل قد جمع مالاً من حرام و أنفقه في حلال فيقال اذهبوا به إلى النار ، و يؤتى برجل جمع مالاً من حلال فأنفقه في حلال فيقال له : قف لعلّك أضررت في طلب هذا بشيء ممّا فرضت عليك من صلاة لم تصلّها لوقتها أو فرّطت في شيء من ركوعها و سجودها و وضوئها ، فيقال : لا يارب كسبت من حلال وأنفقت منه في حلال ولم اُضيّع شيئاً ممّا فرضت عليّ ، فيقال : لعلّك اختلت في هذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهيت به فيقول : لا يارب لم أختل ولم اُباه في شيء . فيقال : لعلّك منعت حقّ أحد أمرتك أن تعطيه من ذوي القربى واليتامى

(١) أي بقيتها . (٢) متفق عليه من حديث عائشة و قد تقدم كراراً .

و المساكين و ابن السبيل ؟ فيقول : لا يا ربّ كسبت في حلال وأنفقت في حلال ولم أُضيّع شيئاً ممّا افترضته عليّ ولم أختل ولم أُباه و لم اُضيّع حقّ أحد أمرتني أن اُعطيه ، قال : فيجيء أولئك فيخاصمونه فيقولون : يارب أعطيته وأغنيته وجعلته بين أظهرنا وأمرته أن يعطينا ، فان كان أعطاهم وماضيّع مع ذلك شيئاً من الفرائض و لم يختل في شيء فيقال : قف الآن هات شكر كلّ نعمة أنعمتها عليك من أكلة أوشربة أو لقمة أو لذّة فلا يزال يسأل »[1] ويحك فمن الّذي يتعرّض لهذه المسائلة الّتي كانت لهذا الرّجل الّذي يتقلّب في الحلال و قام بالحقوق كلّها و أدّى الفرائض بحدودها حوسب بهذه المحاسبة فكيف تراه يكون حال أمثالنا الغرقى في فتن الدّنيا و تخاليطها و شبهاتها و شهواتها و زينتها ، ويحك لأجل هذه المسائلة يخاف المتّقون أن يتلبّسوا بالدّنيا فرضوا بالكفاف منها و عملوا بأنواع البرّ من كسب المال فلك ويحك بهؤلاء الأخيار اُسوة ، فان أبيت ذلك و زعمت أنّك بليغ في الورع و التقوى و لم تجمع المال إلّا من حلال بزعمك للتعفّف و البذل في سبيل الله ، ولم تنفق شيئاً من الحلال إلّا بحقّ ، و لم يتغيّر بسبب المال قلبك عمّا يحبّ الله ، و لم تسخط الله في شيء من سرائرك وعلانيتك ، ويحك فان كنت كذلك - ولست كذلك - فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة و تعتبر بذوي الأموال إذا وقفوا للسؤال و تسق مع الرعيل الأوّل في زمرة المصطفى صلّى الله عليه وآله لا حبس عليك للمسائلة والحساب فامّا سلامة وإمّا عطب فانّه بلغنا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « يدخل صعاليك المهاجرين الجنّة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام »[2] يا قوم فاستبقوا السباق مع المخفّفين في زمرة المرسلين و كونوا وجلين من التخلّف و الانقطاع عن رسول الله صلّى الله عليه وآله كما و جل المتّقون ، ويحك فان تخلّفت في القيامة عن المصطفى لتنظرنّ إلى أهوال جزعت منها الملائكة و الأنبياء ، و لئن قصرت عن السباق فليطولنّ عليك اللّحاق ، و لئن أردت الكثير

(١) قال العراقي : لم أقف له على أصل .

(٢) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢١٣ وابن ماجه تحت رقم ٤١٢٣ و ٢٤ من حديث أبي سعيد وابن عمر بلفظ «فقراء» مكان « صعاليك » .

لتصيرنّ إلى حساب عسير ، ولئن لم تقنع بالقايل لتصيرنّ إلى وقوف طويل وصراخ وعويل ، أمّا علمت أنّ ترك الاشتغال بالمال و فراغ القلب بالذكر و التذكار والفكر و الاعتبار أسلم للدّين و أيسر للحساب و أخفّ للمسائلة وآمن من روعات يوم القيامة و أجزل للثواب و أعلى لقدرك عند الله و أروح لبدنك و أقلّ لتعبك و أنعم لعيشك و أرخى لبالك وأقلّ لهمومك ، فما عذرك في جمع المال ، أنت بترك المال أفضل ممّن طلب المال لأعمال البرّ ، نعم شغلك بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة و الفضل في العاجل وبعد فلو كان في جمع المال فضل عظيم لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تتأسي بنبيّك صلى الله عليه وآله وترضى بما اختار لنفسه من مجانبة الدنيا ويحك تدبّر بما سمعت وكن على يقين أنّ السعادة والفوز في مجانبة الدّنيا فسر مع لواء المصطفى صلى الله عليه وآله سابقاً إلى جنّة المأوى فإنّه بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « سادات المؤمنين في الجنّة من إذا تغدّى لم يجد عشاء ، و إذا استقرض لم يجد قرضاً وليس له فضل كسوة إلّا ما يواريه ولم يقدر على أن يكتسب ما يغنيه يمسي مع ذلك ويصبح راضياً عن ربّه « فاُولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقاً »(١) ألا يا أخي فمتى جمعت المال بعد هذا البيان فإنّك مبطلٌ فيما ادّعيت أنّك للبرّ و الفضل تجمعه لاولكنّك خوفاً من الفقر تجمعه وللتنعّم والزّينة والفخر والتكاثر و العلوّ و الرّياء والسمعة والتعظّم والتكرّم تجمعه ، ثمّ تزعم أنّك لأعمال البرّ تجمع المال ويحك راقب الله و استحي من دعواك أيّها المغرور ويحك إن كنت مفتوناً بحبّ الدّنيا فكن مقرّاً أنّ الخير و الفضل في الرّضا بالبلغة و مجانبة الفضول ، نعم وكن عند جمع المال مزرياً على نفسك(٢) ، معترفاً بإساءتك ، وجلاً من الحساب ،

(١) الاية في سورة النساء : ٧٠ . والخبر عزاه صاحب مسند الفردوس للطبراني من رواية أبي حازم عن أبي هريرة مختصراً بلفظ « سادة الفقراء في الجنة الحديث » و قال العراقي : و لم أره في معاجم الطبراني .

(٢) من أزرى يزرى أي موهناً نفسك .

فذلك أنجى لك و أقرب إلى الفضل من طلب الحجج لجمع المال ، و قد نصحت لكم إن قبلتم والقابلون لهذا قليلٌ ، وفّقنا الله و إيّاكم لكلّ خير برحمته . آخر كلامه .

وفيه كفاية في إظهار فضل الفقر على الغنى و لا مزيد عليه ، و يشهد لذلك جميع الأخبار الّتي أوردناها في كتاب ذمّ الدّنيا و في كتاب الفقر و الزّهد ، و يشهد له أيضاً ما روي عن أبي أمامة الباهليّ أنّ ثعلبة بن حاطب [1] قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً ، قال : يا ثعلبة قليلٌ تؤدّي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه ، قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً ، قال : يا ثعلبة أمالك فيَّ اُسوة ؟ أما ترضى أن تكون مثلي ؟ أما و الّذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضّة لسارت ، قال : والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً لئن دعوت الله لي أن يرزقني مالاً لاُعطينّ كلَّ ذي حقّ حقّه و لأفعلنّ و لأفعلنّ ، قال رسول الله صلّى الله عليه و آله : « اللّهمَّ ارزق ثعلبة مالاً » فاتّخذ غنماً فنمت كما ينمو الدُّود فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتّى جعل يصلّي الظهر و العصر في الجماعة ويدع ما سواهما ، ثمَّ نمت و كثرت فتنحّى حتّى ترك الصلاة في الجماعة إلّا الجمعة فتنمي كما ينمي الدُّود حتّى ترك الجمعة وطفق يلقى الرُّكبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار وسأل رسول الله صلّى الله عليه و آله فقال : ما فعل ثعلبة بن حاطب ؟ فقيل : يارسول الله اتّخذ غنماً فضاقت عليه المدينة واُخبر بأمره كلّه ، فقال : يا ويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة ، قال : و أنزل الله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم إنّ صلوتك سكنٌ لهم » [2] و أنزل الله تعالى فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله صلّى الله عليه و آله رجلاً من جهينة و رجلاً من بني سليم على الصدقة وكتب لهما كتاباً بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجا فيأخذا الصدقة من المسلمين وقال : مرّا بثعلبة بن حاطب

(١) أخرجه البغوي والباوردي وابن قانع وابن السكن وابن شاهين عن أبي امامة عن ثعلبة ابن حاطب بسند ضعيف كما في الجامع الصغير ج ٢ ص ٨٨ . وأخرجه الحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والعسكري في الامثال وابن منده وأبو نعيم في معرفة الصحابة وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن أبي امامة راجع الدر المنثور ج ٣ ص ٢٦٠ .

(٢) التوبة : ١٠٥ .

و بفلان رجل من بني سليم وخذا صداقتهما ، فخرجا حتّى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرءاه كتاب رسول الله ﷺ فقال : ماهذا إلّا جزية ما هذا إلّا جزية ماهذه إلّا اُخت الجزية ، انطلقا حتّى تفرغا ثمّ تعودا إليّ ، فانطلقا نحو السليميّ فسمع بهما فقام إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثمّ استقبلهما بها فلمّا رأوها قالوا : لا يجب عليك هذا و ما نريد أن نأخذ هذا منك ، فقال : بلى خذوها نفسي بها طيّبة وإنّما هي لتأخذوها ، فلمّا فرغا من صدقاتهما رجعا حتّى مرّا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال : أرياني كتابكما فنظر فيه فقال : هذا اُخت الجزية انطلقا حتّى أرى رأياً فانطلقا حتّى أتيا رسول الله ﷺ فلمّا رآهما قال : ياويح ثعلبة قبل أن يكلّماه ودعا للسليميّ ، فأخبراه بالّذي صنع ثعلبة وبالّذي صنع السليميّ فأنزل الله تعالى في ثعلبة « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصّدّقنّ ولنكوننّ من الصالحين ۞ فلمّا آتاهم من فضله بخلوا به و تولّوا و هم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون »(١) و عند رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارب ثعلبة فسمع ما أنزل الله فيه فخرج حتّى أتى ثعلبة ، فقال : لا اُمّ لك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا و كذا ، فخرج ثعلبة حتّى أتى رسول الله ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : إنّ الله منعني أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال له رسول الله ﷺ : هذا عملك أمرتك فلم تطعني ، فلمّا أبى أن يقبل منه شيئاً رجع إلى منزله فلمّا قبض رسول الله ﷺ جاء بها إلى أبي بكر فأبى أن يقبلها منه ، و جاء بها إلى عمر فأبى أن يقبلها و توفّي ثعلبة بعد في خلافة عثمان » فهذا طغيان المال و شومه و قد عرفته من هذا الحديث و لأجل بركة الفقر وشوم الغنى آثر رسول الله ﷺ الفقر لنفسه ولأهل بيته حتّى :

روي عن عمران بن حصين أنّه قال : كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه فقال : يا عمران بن حصين إنّ لك عندنا منزلة وجاهاً فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ؟ فقلت : نعم بأبي أنت واُمّي ، فقام وقمت معه حتّى وقف بباب منزل

(١) التوبة : ٧٦ .

فاطمة فقرع الباب فقال : السلام عليكم أأدخل ؟ قالت : ادخل بأبي أنت وأمّي[1] يا رسول الله ، قال : أنا ومن معي ؟ قالت : و من معك يا رسول الله قال قالت : و الّذي بعثك بالحقّ نبيّاً ما عليّ إلّا عباءة قال : اصنعي بها هكذا و هكذا - و أشار بيده - فقالت : هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال : شدّي بها على رأسك ثمّ أذنت له فدخل فقال : السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت؟ فقالت أصبحت والله وجعة و زادني وجعاً على ما بي أنّي لست أقدر على طعام آكله فقد أجهدني الجوع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : لا تجزعي يا بنتاه فو الله ما ذقت طعاماً منذ ثلاث و إنّي لأكرم على الله منك ولو سألت ربّي لأطعمني ولكنّي آثرت الآخرة على الدّنيا ثمّ ضرب بيده على منكبها و قال لها : ابشري فوالله إنّك لسيّدة نساء أهل الجنّة ، فقالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ؟ فقال : آسية سيّدة نساء عالمها ، ومريم سيّدة نساء عالمها ، و خديجة سيّدة نساء عالمها ، و أنت سيّدة نساء عالمك إنكنّ في بيوت من قصب لاأذى فيها ولاصخب ، ثمّ قال لها : اقنعي بابن عمّك فو الله لقد زوّجتك سيّداً في الدّنيا و سيّداً في الآخرة »[2].

فانظر الآن إلى حال فاطمة وهي بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله كيف آثرت الفقر و تركت المال ، و من راقب أحوال الأنبياء عليهم السلام و أقوالهم و ما ورد من أخبارهم و آثارهم لم يشكّ في أنّ فقد المال أفضل من وجوده و إن صرف إلى الخيرات إذ أقلّ ما فيه مع أداء الحقوق و التوقّي من الشبهات و الصرف إلى الخيرات اشتغال الهمّ بإصلاحه و انصرافه عن ذكر الله إذ لا ذكر إلّا مع الفراغ و لا فراغ مع اشتغال البال .

و قد روي عن جرير عن ليث قال : صحب رجلٌ عيسى ابن مريم عليه السلام فقال: أكون معك و أصحبك فانطلقا حتّى أتيا إلى شاطئ نهر فجلسا يتغدّيان و معهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين و بقي رغيف فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثمّ رجع

(١) كذا . (٢) أخرجه أحمد ج ٥ ص ٢٦ من حديث معقل بن يسار باختصار . وقال العراقي : لم أجده من حديث عمران .

فلم يجد الرّغيف فقال للرّجل : من أخذ الرّغيف فقال : لا أدري فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية و معها خشفان لها (١) فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فاشتوى منه فأكل هو و ذلك الرّجل ثمّ قال للخشف : قم باذن الله فقام فذهب فقال للرّجل : أسألك بالّذي أراك هذه الآية من أخذ الرّغيف ؟ قال : لا أدري ، قال : ثمّ انتهيا إلى وادي ماء فأخذ عيسى عليه السلام بيد الرّجل فمشيا على الماء فلمّا جاوزا قال : أسألك بالّذي أراك هذه الآية من أخذ الرّغيف ؟ قال : لا أدري ، قال : فانتهيا إلى مفازة فجلسا فأخذ عيسى صلوات الله عليه يجمع تراباً أو كثيباً ثمّ قال : كن ذهباً باذن الله فصار ذهباً فقسّمه ثلاثة أثلاث فقال : ثلث لي و ثلث لك وثلث لمن أخذ الرّغيف قال : فأنا أخذت الرّغيف ، قال : فكلّه لك و فارقه عيسى عليه السلام ، فانتهى إليه رجلان في المفازة ومعه المال ، فأرادا أن يأخذاه منه و يقتلاه فقال : هو بيننا أثلاثاً ، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتّى يشتري لنا طعاماً قال : فبعثوا أحدهم فقال الّذي بعث : لأيّ شيء اُقاسم هؤلاء في هذا المال لكنّي أضع في هذا الطعام سمّاً فأقتلهما فآخذ المال وحدي قال : ففعل وقال ذانك الرّجلان : لأيّ شيء نجعل لهذا ثلثاً ولكن إذ رجع قتلناه واقتسمناه المال بيننا ، قال : فلمّا رجع إليهما قتلاه و أكلا الطعام فماتا فبقي ذلك المال في المفازة و اُولئك الثلاثة قتلى عنده ، فمرّ بهم عيسى صلوات الله عليه على تلك الحال فقال لأصحابه : هذه الدّنيا فاحذروها .

و حكي أنّ ذا القرنين أتى على اُمّة من الاُمم ليس في أيديهم شيء ممّا يستمتع به النّاس من دنياهم قد احتفروا قبوراً فاذا أصبحوا تعهّدوا تلك القبور و كنسوها و صلّوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم وقيّض الله لهم في ذلك معايش من نبات الأرض ، فأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له : أجب الملك ذا القرنين فقال : مالي إليه حاجة ، فأقبل إليه ذو القرنين فقال له : أرسلت إليك لتأتيني فأبيت فها أنا قد جئت ، فقال : لو كانت لي إليك حاجة لأتيتك ، فقال له ذو القرنين : مالي أراكم على الحالة الّتي لم أر أحداً من الاُمم عليها ؟ قال : و ما ذاك ؟ قال : ليس لكم

(١) الخشف بتثليث الخاء المعجمة : ولد الظبي أول ما يولد .

دينار ولا شيء أفلا اتّخذتم الذهب والفضّة فاستمتعتم بهما ؟ قالوا : إنّما كرهناهما لأنّ أحداً لم يؤت منهما شيئاً إلّا تاقت نفسه و دعته إلى ما هو أفضل منه ، فقال : مالكم قد احتفرتم قبوراً فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها وصلّيتم عندها ؟ قالوا : أردنا إذا نظرنا إليها و أملنا الدّنيا منعتنا قبورنا من الأمل ، قال : وأراكم لا طعام لكم إلّا البقل من الأرض أفلا اتّخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها و ركبتموها و استمتعتم بها ؟ فقالوا : كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً لها و رأينا في نبات الأرض بلاغاً و إنّما يكفي ابن آدم أدنى العيش من الطعام و أنّ ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعماً كائناً ماكان من الطعام ، ثمّ بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة فقال : يا ذا القرنين أتدري من هذا ؟ قال : لا ومن هو ؟ قال : ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطاناً على أهل الأرض فغشم[1] و ظلم و عتا فلمّا رأى الله ذلك منه حسمه بالموت فصار كالحجر الملقى فقد أحصى الله عليه عمله حتّى يجزيه به في آخرته ، ثمّ تناول جمجمة اخرى بالية فقال : يا ذا القرنين هل تدري من هذا ؟ قال : لا ومن هو ؟ قال : هذا ملك ملّكه الله بعده قد كان يرى ما يصنع الّذي قبله بالناس من الغشم و الظلم و التجبّر فتواضع و خشع لله عزّ وجلّ و أمر بالعدل في أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتّى يجزيه به في آخرته ، ثم أهوى إلى جمجمة ذي القرنين فقال : و هذه الجمجمة كأن قد كانت كهاتين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع فقال له ذو القرنين : هل لك في صحبتي فأتّخذك أخاً و وزيراً و شريكاً فيما آتاني الله من هذا المال ؟ قال : ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعاً ، قال ذو القرنين : ولِمَ ؟ قال : من أجل أنّ الناس كلّهم لك عدوّ ولي صديق ، قال : ولِمَ ؟ قال : يعادونك لما في يديك من الملك و المال والدّنيا ، ولا أجد أحداً يعاديني لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة و قلّة الشيء ، قال : فانصرف عنه ذو القرنين متعجّباً منه ومتّعظاً به .

فهذه الحكايات تدلّك على آفات الغنى مع ما قدّمنا من قبل ، و الله الموفّق

---

(١) غشمه أي ظلمه والغاشم : الظالم والغاصب .

لا ربّ غيره ولا معبود سواه .

هذا آخر كتاب ذمّ المال من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء و يتلوه إن شاء الله كتاب ذمّ الجاه و الرّياء ، و الحمد لله أوّلاً و آخراً .

كتاب ذمّ الجاه والرياء

و هو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله علاّم الغيوب ، المطّلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كبائر الذّنوب ، العالم بما تجنّه الضمائر من خفايا الغيوب ، البصير بسرائر النيّات وخفايا الطويّات ، الّذي لايقبل من الأعمال إلّا ما كمل و وفى ، و خلص عن شوائب الرّياء و الشرك و صفا ، فإنّه المتفرّد بالملكوت والملك ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، والصلاة والسلام على محمّد وآله وأصحابه المبرّئين من الخيانة والإفك وسلّم تسليماً كثيراً .

أمّا بعد فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : «إنّ أخوف ما أخاف على أمّتي الرّياء و الشهوة الخفيّة» (١) و الرّياء من الشهوة الخفيّة الّتي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في اللّيلة الظلماء ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة العلماء فضلاً عن عامّة العبّاد و الأتقياء و هو من أواخر غوائل النفس و بواطن مكائدها ، و إنّما يبتلى بها العلماء و العبّاد المشمّرون عن ساق الجدّ لسلوك سبيل الآخرة ، فإنّهم مهما قهروا أنفسهم و جاهدوها و فطموها عن الشهوات و صانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح فطلبت الاستراحة إلى التظاهر

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٠٥ وفيه «الشرك» بدل «الرياء» وفسره بالرياء .

بالخير و إظهار العمل و العلم فوجدت مخلصاً من مشقّة المجاهدة إلى لذّة القبول عند الخلق و نظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصّلت إلى اطّلاع الخلق و لم تقنع باطّلاع الخالق و فرحت بحمد الناس و لم تقنع بحمد الله وحده ، و علمت أنّهم إذا عرفوا تركه الشهوات و توقّيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح و الثناء ، و بالغوا في التقريظ و الإطراء ، و نظروا إليه بعين التوقير و الاحترام ، و تبرّكوا بمشاهدته و لقائه ، و رغبوا في بركة دعائه ، و حرصوا على اتّباع رأيه ، وفاتحوه بالخدمة و السلام ، و أكرموه في المحافل غاية الإكرام ، و سامحوه في البيع و المعاملات ، و قدّموه في المجالس ، و آثروه بالمطاعم و الملابس ، و تصاغروا له متواضعين و انقادوا له في أغراضه موقّرين فأصابت النفس في ذلك لذّة هي أعظم اللّذّات و شهوة هي أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصي و الهفوات و استلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذّة اللّذّات و شهوة الشهوات فهو يظنّ أنّ حياته بالله و بعبادته المرضيّة و إنّما حياتها بهذه الشهوة الخفيّة الّتي تعمى عن دركها العقول النافذة القويّة و يرى أنّه مخلص في طاعة الله و مجتنب لمحارم الله و النفس قد أبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد و تصنّعاً للخلق و فرحاً بما نالت من المنزلة و الوقار و حسن الحال و الاقبال ، و احبطت بذلك ثواب الطاعات و اُجور الأعمال و أثبت اسمه في جريدة المنافقين و هو يظنّ أنّه عند الله من المقرّبين ، و هذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلّا الصدّيقون ، و مهواة لا يرقى منها إلّا المقرّبون ، ولذلك قيل : آخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حبّ الرّئاسة ، وإذا كان الرّياء هو الدّاء الدّفين الّذي هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول في سببه و حقيقته ، و درجاته و أقسامه وطرق معالجته ، و الحذر منه ، و يتّضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين الشطر الأوّل في حبّ الجاه و الشهرة و فيه بيان ذمّ الشهرة و انتشار الصيت ، و بيان فضيلة الخمول ، و بيان ذمّ الجاه ، و بيان معنى الجاه و حقيقته ، و بيان السبب في كونه محبوباً حبّاً أشدّ من حبّ المال ، و بيان أنّ الجاه كمال وهميّ

وليس بكمال حقيقيّ ، وبيان ما يحمد من حبّ الجاه و ما يذمّ ، وبيان السبب في حبّ المدح و الثناء و كراهية الذمّ ، و بيان العلاج في حبّ الجاه ، و بيان علاج حبّ المدح ، و بيان علاج كراهية الذمّ ، و بيان اختلاف أحوال الناس في الذمّ و المدح ، فهي إثنا عشر فصلاً منها تنشأ معاني الرّياء فلابدّ من تقديمها .

✿(بيان ذمّ الشهرة وانتشار الصيت)✿

اعلم أنّ أصل الجاه هو انتشار الصيت و الاشتهار و هو مذموم بل المحمود الخمول إلّا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلّف طلب الشّهرة منه قال : أنس قال رسول الله ﷺ : «حسب امرء من الشرّ أن يشير إليه بالأصابع إلّا من عصمه الله »[1].

و قال جابر بن عبدالله : قال رسول الله ﷺ : « بحسب المرء من الشرّ إلّا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه و دنياه ، إنّ الله لاينظر إلى صوركم و لكن ينظر إلى قلوبكم و إلى أعمالكم »[2] و لقد ذكر الحسن للحديث تأويلاً لا بأس به إذ روى هذا الحديث فقيل له : يا أبا سعيد إنّ الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع فقال : إنّه لم يعن هذا إنّما عنى به المبتدع في دينه والفاسق في دنياه .

و قال عليّ عليه السلام : « تبذّل ولاتشتهر ، ولاترفع شخصك لتذكر وتعلم ، واكتم و اصمت تسلم تسرّ الأبرار وتغيظ الفجّار ».

و قال إبراهيم بن أدهم : ماصدّق الله من أحبّ الشهرة . وقال أيّوب : والله ما صدّق الله عبد إلّا سرّه أن لا يشعر بمكانه . و عن خالد بن معدان أنّه كان إذا

---

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط بسند فيه عبدالعزيز بن حصين و هو ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٩٦ . وأخرجه البيهقي في الشعب كما في مشكاة المصابيح ص ٤٥٥ و في المصابيح للبغوي ج ٢ ص ١٨١ بأدنى اختلاف .

(٢) قال العراقي : هو غير معروف من حديث جابر انما هو معروف من حديث أبي - هريرة رواه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب بسند فيه ضعف مقتصرين على أوله و رواه مسلم مقتصراً على الزيادة التي في آخره .

كثرت حلقته قام مخافة الشهرة . و عن أبي العالية أنّه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . وعن الحسن قال : خرج ابن مسعود يوماً من منزله فتبعه اُناس فالتفت إليهم فقال على م تتبعوني فو الله لو تعلمون ما أغلق عليه بأبي ما أتبعني منكم رجلان . و قال الحسن : إنّ خفق النعال حول الرّجال قلّما تلبث عليه قلوب الحمقى ، و روي أنّ رجلاً صحب ابن محيريز في سفر فلمّا فارقه قال : أوصني ؟ قال: إن استطعت أن تعرف ولا تعرف و تمشي ولا يمشى إليك و تسأل و لا تسأل فافعل . و خرج أيّوب في سفر فتبعه ناس كثير فقال : لولا أنّي أعلم أنّ الله يعلم من قلبي أنّي لهذا كاره لخشيت المقت من الله . وقال معمر : عاتبت أيّوب على طول قميصه ، فقال : إنّ الشهرة فيما مضى كانت في طوله وهي اليوم في تشميره . وقال الثوريّ : كانوا يكرهون الشهرتين الثياب الجيّدة و الثياب الرديّة إذ الأبصار تمتدّ إليهما جميعاً . و قال رجل لبشر بن الحارث : أوصني فقال : أخمل ذكرك ، و طيّب مطعمك . وكان حوشب يبكي ويقول : بلغ اسمي مسجد الجامع وقال بشر : ماأعرف رجلاً أحبّ أن يعرف إلّا ذهب دينه و افتضح . و قال أيضاً : لايجد حلاوة الآخرة رجلٌ يحبّ أن يعرفه الناس .

☼(بيان فضيلة الخمول)☼

قال رسول الله ﷺ : « ربّ أشعث أغبر ذي طمرين لايؤبه له ، لو أقسم على الله لأبرّه ، منهم البراء بن مالك » (١).

و قال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « ربّ ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه ، لو قال : اللّهمّ إنّي أسألك الجنّة لأعطاه الجنّة و لم يعطه

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٣٦ و ١٥٤ من حديث أبي هريرة « رب أشعث مدفوع بالابواب لو أقسم على الله لابره » وللحاكم «رب أشعث اغبر ذى طمرين تنبوعنه أعين الناس لو أقسم على الله لابره» و قال : صحيح الاسناد و لابي نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف « رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره منهم البراء بن مالك» وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة و قال : صحيح الاسناد و قال العراقي في المغني : بل ضعيفه .

من الدّنيا شيئاً » (١).

و قال ﷺ : « ألا أدلّكم على أهل الجنّة ؟ : كلّ ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبرّه ، وأهل النار كلّ متكبّر جوّاظ » (٢).

و عنه ﷺ : « إنّ أهل الجنّة كلّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له ، الّذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم ينصت لقولهم ، حوائج أحدهم تتلجلج في صدره ، لو قسّم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم » (٣).

و قال ﷺ : « إنّ من أمّتي من لو أتى أحدكم يسأله ديناراً لم يعطه إيّاه ولو سأله درهماً لم يعطه إيّاه و لو سأله فلساً لم يعطه إيّاه ، ولو سأل الله تعالى الجنّة لأعطاها إيّاه ، و لو سأله الدّنيا لم يعطه إيّاها ، و ما منعها إيّاه إلّا لهوانها عليه ، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه » (٤).

و عنه ﷺ : « إنّ اليسير من الرّياء شرك ، وإنّ الله يحبّ الأتقياء الأخفياء الّذين إن غابوا لم يفقدوا و إذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كلّ غبراء مظلمة » (٥).

و قال محمّد بن سويد : قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له لازم لمسجد رسول الله ﷺ فبيناهم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فصلّى

---

(١) راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٦٤ وقال العراقي : أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥٤ من حديث حارثة بن وهب و رواه الطبراني في الاوسط عن شيخه عبدالله بن محمد بن أبي مريم وهو ضعيف .

(٣) تقدم صدره وما عثرت على ذيله في أي أصل .

(٤) رواه الطبراني في الاوسط ورجاله رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٦٤ .

(٥) أخرجه الطبراني والحاكم واللفظ له وقال : صحيح الاسناد وأخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٨٩ و في اسناده عبدالله بن لهيعة وهو ضعيف .

ركعتين أوجز فيهما ثمّ بسط يديه فقال : يا ربّ أقسمت عليك إلّا أمطرت علينا الساعة فلم يردّ يديه ولم يقطع دعاءه حتّى تغشّت السماء بالغيم وأمطروا حتّى صاح أهل المدينة من خوف الغرق فقال : يا ربّ إن كنت تعلم أنّهم قد اكتفوا فارفع عنهم فسكن ، و تبع محمّد بن سويد صاحب المطر حتّى عرف منزله ، ثمّ بكّر عليه فخرج إليه فقال : إنّي أتيتك في حاجة ، فقال : ماهي ؟ قال : تخصّني بدعوة ، قال : سبحان الله أنت أنت و تسألني أن أخصّك بدعوة ، ثمّ قال : ما الّذي بلغك ما رأيت قال : أطعت الله فيما أمرني و نهاني فسألت الله فأعطاني .

و قال ابن مسعود : كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت ، سرج اللّيل ، جدد القلوب ، خلقان الثياب ، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض .

و قال أبوأمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنّ أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الحاذ ذوحظّ من صلاة أحسن عبادة ربّه وأطاعه في السرّ [والعلانية] و كان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع و صبر على ذلك ، قال : ثمّ نقر رسول الله صلى الله عليه وآله بيده فقال : عجّلت منيّته و قلّ تراثه وقلّت بواكيه »[(١)].

و قال الفضيل : بلغني أنّ الله تعالى يقول في بعض ما يمنّ به على عبده : ألم أنعم عليك ؟ ألم أسترك ؟ ألم أخمل ذكرك ؟.

وكان الخليل بن أحمد يقول : اللّهمّ اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك ، و اجعلني عند الناس من أوسط خلقك .

فهذه الأخبار والآثار تعرّفك مذمّة الشهرة وفضيلة الخمول و إنّما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه و المنزلة في القلوب وحبّ الجاه هومنشأ كلّ فساد .

فإن قلت : فأيّ شهرة تزيد على شهرة الأنبياء عليهم السلام و أئمّة العلماء ، فكيف فاتهم فضيلة الخمول ؟

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١١٧ . و رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٤١ تحت رقم ٦ باختلاف فيه .

فاعلم أنّ المذموم طلب الشهرة وأمّا وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلّف من العبد فليس بمذموم، نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، و هو كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم فإنّهم يتعلّقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم و أمّا القويّ فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلّقوا به فينجيهم و يثاب على ذلك.

☼(بيان ذمّ حبّ الجاه)☼

قال الله تعالى: «تلك الدّار الآخرة نجعلها للّذين لا يريدون علوّاً في الأرض و لا فساداً» [1] جمع بين إرادة الفساد و العلوّ و بين أنّ الدّار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً، و قال تعالى: «من كان يريد الحياة الدّنيا و زينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ☼ أولئك الّذين ليس لهم في الآخرة إلّا النار وحبط ما صنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون» [2] و هذا أيضاً متناول بعمومه لحبّ الجاه فإنّه أعظم لذّة من لذّات الحياة الدّنيا وأكثر زينة من زينتها.

وقال صلّى الله عليه وآله: «حبّ الجاه و المال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» [3].

و قال صلّى الله عليه وآله: «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حبّ الجاه والمال والشرف في دين الرّجل المسلم» [4].

و قال صلّى الله عليه وآله: لعليّ عليه السلام: «إنّما هلاك الناس باتّباع الهوى وحبّ الثناء» [5].

أقول: ومن طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن عبدالله بن مسكان قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إيّاكم وهؤلاء الرّؤساء الّذين يترأسون فوالله ما

---

(١) القصص: ٨٣. (٢) هود: ١٥ - ١٦.

(٣) تقدم أول هذا المجلد ص ٤٠.

(٤) تقدم ص ٤١. و رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٩٧.

(٥) قال العراقي: لم أره بهذا اللفظ.

خفقت النعال خلف رجل إلّا هلك و أهلك » (١).

وعنه عليه السلام قال : « ملعونٌ من ترأّس ، ملعونٌ من همّ بها ، ملعونٌ من حدّث بها نفسه » (٢).

وعنه عليه السلام : « من أراد الرّئاسة هلك » (٣).

و عن أبي الربيع الشاميّ ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : «قال : لي ويحك يا أباالرّبيع لاتطلبنّ الرّئاسة ولا تكن ذئباً ولاتأكل بنا الناس فيفقرك الله ولا تقل فينا مالانقول في أنفسنا فإنّك موقوف ومسئول لامحالة فإن كنت صادقاً صدّقناك و إن كنت كاذباً كذّبناك » (٤).

و عن محمّد بن مسلم قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : « أتراني لا أعرف خيار كم من شرار كم ؟ بلى والله و إنّ شرار كم من أحبّ أن يوطّأ عقبه إنّه لابدّ من كذّاب أو عاجز الرأي » (٥).

وفي الصحيح عن معمر بن خلّاد عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام أنّه ذكر رجلاً فقال له : إنّه يحبّ الرّئاسة فقال : « ما ذئبان ضاريان في غنم قدتفرّق رعاؤها بأضرّ في دين المسلم من الرّئاسة » (٦).

(بيان معنى الجاه وحقيقته)

إعلم أنّ الجاه والمال هما ركنا الدّنيا و معنى المال ملك الأعيان المنتفع بها و معنى الجاه ملك القلوب المطلوبة تعظيمها وطاعتها ، و كما أنّ الغنيّ هو الّذي يملك

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٩٧ و خفق الارض بنعله ضرب و كل ضرب بشيء عريض خفق ، و يقال لمن ارتكب أمراً عظيماً : هلكت - من باب التفعيل - وأهلكت .

(٢) الى (٤) المصدر ج٢ ص ٢٩٨ .

(٥) المصدر ج ٢ ص ٢٩٩ وقال المؤلف في الوافي : أي من أحب أن يوطأ عقبه لابد أن يكون كذاباً أوعاجز الرأى لانه لا يعلم جميع ما يسأل عنه ، فان أجاب عن كل ما سئل فلابد من الكذب وان لم يجب عما لايعلم فهو عاجز الرأى ، أو المعنى أنه لابد في الارض من كذاب يطلب الرئاسة و من عاجز يتبعه .

(٦) أخرجه الكشي راجع رجاله ص ٣١٣ .

الدّنانير والدّراهم أي يقدر عليهما ليتوصّل بهما إلى الأغراض والمقاصد و قضاء الشهوات و سائر حظوظ النفس فكذلك ذوالجاه هو الّذي يملك قلوب الناس أي يقدر على أن يتصرّف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه و مآربه و كما أنّه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات ولا تصير القلوب مسخّرة إلّا بالمعارف والاعتقادات ، فكلّ من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال إنقاد له وتسخّر له بحسب قوّة اعتقاده وبحسب درجة ذلك الكمال عنده و ليس يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه بل يكفي أن يكون كمالاً عنده و في اعتقاده ، و قد يعتقد ماليس كمالاً كمالاً و يذعن قلبه للموصوف به انقياداً ضروريّاً بحسب اعتقاده فإنّ انقياد القلب حال للقلب وأحوال القلب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيّلاتها وكما أنّ محبّ المال يطلب ملك الأرقّاء والعبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترقّ الأحرار ويستعبدهم و يملك رقابهم بملك قلوبهم ، بل الرّقّ الّذي يطلبه صاحب الجاه أعظم لأنّ المالك يملك العبد قهراً والعبد متأبّ بطبعه ولو خلّي و رأيه انسلّ عن الطاعة ، و صاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً وينبغي أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع مع الفرح بالعبوديّة والطاعة له فما يطلبه طالب الجاه فوق ما يطلبه مالك الرقّ بكثير فإذاً معنى الجاه قيام المنزلة في قلوب الناس أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم و بقدر إذعان القلوب تكون قدرته على أرباب القلوب و بقدر قدرته على القلوب يكون فرحه و حبّه للجاه فهذا هو معنى الجاه و حقيقته وله ثمرات كالمدح والإطراء فإنّ المعتقد للكمال لايسكت عن ذكر ما يعتقده فيثني عليه وكالخدمة والإعانة فإنّه لايبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه وكالإيثار و ترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب ، و معنى قيام الجاه في القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إمّا بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو

قوّة في بدن أو شيء ممّا يعتقده النّاس كمالاً فإنّ هذه الأوصاف كلّها يعظم محلّها في القلوب فتكون سبباً لقيام الجاه .

(بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع)
(حتى لايخلو عنه قلب الابشديد المجاهدة)

إعلم أنّ السبب الّذي يقتضي كون الذّهب والفضّة و سائر أنواع الأموال محبوباً هو بعينه يقتضي كون الجاه محبوباً بل يقتضي أن يكون أحبّ من المال كما يقتضي أن يكون الذّهب أحبّ من الفضّة مهما تساويا في المقدار و هو أنّك تعلم أنّ الدّراهم والدّنانير لا غرض في أعيانهما إذ لا تصلح لمنكح ولا لمطعم و لا لملبس وإنّما هي والحصى بمثابة واحدة ولكنّها محبوبة لأنّها وسيلة إلى جميع المحابّ وذريعة إلى قضاء الشهوات ، و كذلك الجاه لأنّ معنى الجاه ملك القلوب و كما أنّ ملك الذّهب والفضّة يفيد قدرة يتوصّل الانسان بها إلى سائر أغراضه فكذلك ملك قلوب الأحرار والقدرة على استسخارها تفيد قدرة على التوصّل إلى جميع الأغراض فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبّة و ترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحبّ من المال ، و لملك القلوب ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه : الأوّل : أنّ التوصّل بالجاه إلى المال أيسر من التوصّل بالمال إلى الجاه فالعالم أو الزّاهد الّذي تقرّر له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال يتيسّر له فإنّ أموال أرباب القلوب مسخّرة للقلوب و مبذولة لمن اعتقد فيه الكمال و أمّا الرّجل الخسيس الّذي لايتّصف بصفة كمال إذا وجد كنزاً و لم يكن له جاه يحفظ ماله و أراد أن يتوصّل بالمال إلى الجاه لم يتيسّر له فإذن الجاه آلة إلى المال ، فمن ملك الجاه فقد ملك المال أيضاً ، و من ملك المال لم يملك الجاه بكلّ حال فلذلك صار الجاه أحبّ .

الثاني هو أنّ المال معرض للبلوى والتلف لأنّه يُسرق ويُغصب ويَطمع فيه الملوك والظلمة و يحتاج فيه إلى الحفظ والحراسة و الخزائن و يتطرّق إليه أخطار كثير وأمّا القلوب إذا ملكت لم تتعرّض لهذه الآفات ، فهي على التحقيق خزائن

عقيدة لا يقدر عليها السرّاق ولا تتناولها أيدي الغصّاب وأثبت الأموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغني عن المراقبة و الحفظ ، و أمّا خزائن القلوب فهي محفوظة بأنفسها و ذو الجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها ، نعم إنّما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال و تغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال و ذلك ممّا يهون دفعه ولا يتيسّر على محاوله فعله .

الثالث أنّ ملك القلوب يسري وينمو ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة لأنّ القلوب إذا أذعنت لشخص و اعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لامحالة بمافيها فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً له ولهذا المعنى يحبّ بالطبع الصيت و انتشار الذّكر لأنّ ذلك إذا استطار في الأقطار اقتنص القلوب و دعاها إلى الإذعان و التعظيم فلا يزال يسري من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مردّ معين ، وأمّا المال فمن ملك منه شيئاً فهو مالكه فقط ولا يقدر على استنمائه إلّا بتعب و مقاساة فالجاه أبداً في النماء بنفسه و لا مردّ لموقعه ، والمال واقف و لهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء استحقرت الأموال في مقابلته ، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال و إذا فصّلت كثرت وجوه الترجيح .

فإن قلت : فالاشكال قائم في المال و الجاه جميعاً فلا ينبغي أن يحبّ الإنسان المال و الجاه ، نعم القدر الّذي يتوصّل به إلى جلب الملاذّ و دفع المضارّ معلوم كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم أو كالمبتلي بمرض أو عقوبة إذا كان لا يتوصّل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلّا بمال و جاه فحبّه للمال و الجاه معلوم إذ كلّ مالا يتوصّل إلى المحبوب إلّا به فهو محبوبٌ و في الطباع أمرٌ عجيب وراء هذا وهو حبّ جمع الأموال و كنز الكنوز و ادّخار الذّخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات حتّى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى وراءهما ثالثاً ، و كذلك يحبّ الإنسان اتّساع الجاه و انتشار الصيت إلى أقاصي البلاد الّتي يعلم قطعاً أنّه قطّ لا يطؤها و لا يشاهد أصحابها ليعظّموه أو ليبرّوه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه ومع اليأس من ذلك فإنّه يلتذّ به غاية الالتذاذ و حبّ ذلك ثابت في الطبع

و يكاد يظنّ أنّ ذلك جهل فإنّه حبّ لما لافائدة فيه لا في الدّنيا ولا في الآخرة .

فنقول : نعم هذا الحبّ لا ينفكّ عنه القلوب وله سببان أحدهما جليّ تدركه الكافّة و الآخر خفيّ وهو أعظم السببين ولكنّه أدقّهما و أخفاهما و أبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء و ذلك لاستمداده من عرق خفيّ في النفس وطبيعة مستكنّة في الطبع لايكاد يقف عليها إلّا الغوّاصون ، فأمّا السبب الأوّل فهو دفع ألم الخوف لأنّ الشفيق بسوء الظنّ مولع والإنسان و إن كان مكتفياً في الحال فإنّه طويل الأمل و يخطر بباله أنّ المال الّذي فيه كفايته ربّما يتلف فيحتاج إلى غيره فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلّا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة فهو أبداً لشفقته على نفسه و حبّه للحياة يقدّر طول الحياة و يقدّر هجوم الحاجات و يقدّر إمكان تطرّق الآفات إلى الأموال ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه و هو كثرة المال حتّى إن اُصيب بطائفة من ماله استغنى بالاُخرى و هذا خوف لا يوقف له عند مقدار مخصوص من المال فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدّنيا ولذلك قال ﷺ : « منهومان لايشبعان منهوم العلم ومنهوم المال »[1] و مثل هذه العلّة تطّرد في حبّه قيام المنزلة و الجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده فإنّه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه و يحتاج إلى الاستعانة بهم و مهما كان ذلك ممكناً ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذّة بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف ، و أمّا السبب الثاني و هو الأقوى أنّ الرّوح أمر ربّانيّ وصفه الله تعالى إذ قال : « و يسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي »[2] ومعنى كونه ربّانيّاً من أسرار علوم المكاشفة ولا رخصة في إظهاره إذ لم يظهره رسول الله ﷺ ولكنّك قبل معرفة ذلك تعلم أنّ للقلب ميلاً إلى صفات بهيمية كالأكل و الوقاع ، و إلى

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط من حديث ابن عباس وقد تقدم في العلم .

(٢) الاسراء : ٨٨ .

صفات سبعيّة كالقتل و الضرب والإيذاء ، و إلى صفات شيطانيّة كالمكر و الخديعة و الإغواء ، وإلى صفات ربوبيّة كالكبر والعزّ والتجبّر و طلب الاستعلاء ، وذلك لأنّه مركّب من اُصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها فهو لمافيه من الأمر الربّاني يحبّ الرّبوبيّة بالطبع و معنى الرّبوبيّة التوحد بالكمال و التفرّد بالوجود على سبيل الاستقلال فصار الكمال من نعوت الإلهيّة و صار محبوباً بالطبع للإنسان والكمال في التفرّد بالوجود ، فإنّ المشاركة في الوجود نقص لا محالة ، فكمال الشمس في أنّها موجودة وحدها فلو كانت معها شمس اُخرى كان ذلك نقصاناً في حقّها إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسيّة و المتفرّد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه فإنّ ماسواه أثر من آثار قدرته لاقوام له بذاته بل هو قائم به فلم يكن موجوداً معه لأنّ المعيّة توجب المساواة في الرّتبة والمساواة في الرّتبة نقصان في الكمال بل الكامل من لا نظير له في رتبته ، وكما أنّ إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاناً في الشمس بل هو من جملة كمالها و إنّما نقصان الشمس بوجود شمس اُخرى تساويها في الرّتبة مع الاستغناء عنها ، فكذلك وجود كلّ ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً فلايكون متّبعاً فإذاً معنى الرّبوبيّة التفرّد بالوجود وهو الكمال وكلّ إنسان فإنّه بطبعه محبّ لأن يكون هو المتفرّد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفيّة : ما من إنسان إلّا وفي باطنه ما صرّح به فرعون من قوله «أنا ربّكم الأعلى» ولكنّه ليس يجد له مجالاً ، وهو كما قال فإنّ العبوديّة قهر على النفس و الرّبوبيّة محبوبة بالطبع وذلك للنسبة الربّانيّة الّتي أومأ إليها قوله تعالى: «قل الرّوح من أمر ربّي» ولكن لمّا عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فهي محبّة للكمال ومشتهية له و ملتذّة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال ، فكلّ موجود فهو محبّ لذاته و لكمال ذاته ومبغض للهلاك الّذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته ، و إنّما الكمال بعد أن لم يسلم التفرّد بالوجود في الاستيلاء على كلّ الموجودات ، فإنّ أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فإن لم يكن منك فأن تكون مستولياً عليه فصار

الاستيلاء على الكلّ محبوباً بالطبع لأنّه نوع كمال و كلّ موجود يعرف ذاته فإنّه يحبّ ذاته ويحبّ كمال ذاته و يلتذّ بها إلّا أنّ الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه وعلى تغييره بحسب الإرادة و كونه مسخّراً لك تردّده كيف تشاء فأحبّ الإنسان أن يكون له الاستيلاء على الأشياء الموجودة معه إلّا أنّ الموجودات منقسمة إلى ما لايقبل التغيّر في نفسه كذات الله وصفاته وإلى ما يقبل التغيّر ولكن لايستولي عليها قدرة الخلق كالأفلاك و الكواكب و ملكوت السماوات و نفوس الملائكة و الجنّ و الشياطين و كالجبال و البحار و ما تحت الجبال و البحار ، وإلى ما يقبل التغيّر بقدرة العبد كالأرض و أجزائها و ما عليها من المعادن و النبات و الحيوان و من جملتها قلوب الناس فإنّها قابلة للتأثّر و التغيّر مثل أجسادهم و أجساد الحيوانات فإذا انقسمت الموجودات إلى مايقدر الإنسان على التصرّف فيه كالأرضيات و إلى ما لايقدر كذات الله تعالى و الملائكة والسماوات فأحبّ الإنسان أن يستولي على السماويات بالعلم و الإحاطة و الاطّلاع على أسرارها فإن ذلك نوع استيلاء إذ المعلوم المحاط به كالدّاخل تحت القدرة و العالم كالمستولي عليه فلذلك أحبّ أن يعرف الله و الملائكة و الأفلاك والكواكب وجميع عجائب السماوات وعجائب البحار و الجبال وغيرها لأنّ ذلك نوع استيلاء عليها و الاستيلاء نوع كمال و هذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها كمن يعجز عن وضع الشطرنج فإنّه قد يشتهي أن يعرف اللّعب به وأنّه كيف وضع ، و كمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو الشعبذة أو جرّ الثقيل أو غيره وهو مستشعر في نفسه نقص العجز والقصور عنه لكنّه يشتاق إلى معرفة كيفيّته فهو متألّم بنقص العجز ومتلذّذ بكمال العلم إن علمه .

و أمّا القسم الثاني و هو الأرضيّات الّتي يقدر الإنسان عليها فإنّه يحبّ بالطبع أن يستولي عليها بالقدرة على التصرّف فيها كيف يريد و هي قسمان أجساد و أرواح و الأجساد الدّراهم و الدّنانير و الأمتعة فيحبّ أن يكون قادراً عليها يفعل فيها ما يشاء من الرّفع و الوضع و التسليم و المنع فإنّ ذلك قدرة و القدرة

كمال ، و الكمال من صفات الرّبوبيّة ، و الربوبيّة محبوبة بالطبع ، فلذلك أحبّ الأموال و إن كان لايحتاج إليها في ملبسه و مطعمه وفي شهوات نفسه ولذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر و الغلبة حتّى يتصرّف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار و إن لم يملك قلوبهم فإنّها ربّما لم تعتقد كماله حتّى يصير محبوباً لها و يقوم القهر منزلته فيها فإنّ الحشمة القهريّة أيضاً لذيذة لما فيها من القدرة .

القسم الثالث نفوس الآدميّين و قلوبهم وهي أنفس ما على وجه الأرض فهو يحبّ أن يكون له استيلاء و قدرة عليها لتكون مسخّرة له متصرّفة تحت إشارته و إرادته لما فيها من كمال الاستيلاء و التشبّه بالصفات الرّبوبيّة ، والقلوب إنّما تتسخّر بالحبّ ولا تحبّ إلّا باعتقاد الكمال فإنّ كلّ كمال محبوب لأنّ الكمال من صفات الإلهيّة و الصفات الإلهيّة كلّها محبوبة بالطبع للمعنى الرّبّاني من جملة معاني الإنسان و هو الّذي لا يبليه الموت فيعدمه و لا يتسلّط عليه التراب فيأكله لأنّه محلّ الإيمان و المعرفة ، و هو الواصل إلى لقاء الله و الساعي إليه ، فإذاً معنى الجاه تسخّر القلوب ومن تسخّرت القلوب له كانت له قدرة واستيلاء عليها والقدرة و الاستيلاء كمال وهو من أوصاف الرّبوبيّة فإذاً محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم و القدرة ، و المال والجاه من أسباب القدرة ولا نهاية للمعلومات و لا نهاية للمقدورات و مادام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن و النقصان لا يزول فلذلك قال عليه السلام : « منهومان لايشبعان» فإذاً مطلوب القلب الكمال والكمال بالعلم والقدرة ، و تفاوت الدرجات فيه غير محصور ، فسرور كلّ إنسان ولذّته بقدر ما يدركه من الكمال ، فهذا هو السبب في كون العلم و المال والجاه محبوباً ، وهو أمر وراء كونه محبوباً لأجل التوصّل به إلى قضاء الشهوات فإنّ هذه العلّة قد تبقى مع سقوط الشهوات ، بل يحبّ الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصّل به إلى الأغراض بل ربّما يفوت عليه جملة من الأغراض و الشهوات ولكنّ الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب و المشكلات لأنّ في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال

الّذي هو من صفات الرّبوبيّة و كان محبوباً بالطبع ، إلّا أنّ في حبّ كمال العلم و القدرة أغاليط لابدّ من بيانها .

✲(بيان الكمال الحقيقي و الكمال الوَهْمي الّذى لاحقيقة له)✲

قد عرفت أنّه لا كمال بعدفوات التفرّد بالوجود إلّا في العلم والقدرة ولكنّ الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهميّ وبيانه أنّ كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه ؟ أحدها من حيث كثرة المعلومات وسعتها فإنّه محيط بجميع المعلومات فلذلك كلّما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى .

والثاني من حيث تعلّق العلم بالمعلوم على ما هو به وكون المعلوم مكشوفاً به كشفاً تامّاً فإنّ المعلومات مكشوفة لله سبحانه بأتمّ أنواع الكشف على ما هي عليها فلذلك مهما كان علم العبد أوضح و أتقن و أصدق و أوفق للمعلوم في تفاصيل صفات المعلوم كان أقرب إلى الله تعالى .

الثالث من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغيّر ولايزول فإنّ علم الله تعالى باق لا يتصوّر أن يتغيّر ويزول و كذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لاتقبل التغيّر والانقلاب كان أقرب إلى الله تعالى ، والمعلومات قسمان متغيّرات وأزليات أمّا المتغيّرات فمثاله العلم بكون زيد في الدّار فإنّه علم لمعلوم ولكنّه يتصوّر أن يخرج زيد من الدّار و يبقى اعتقاد كونه في الدّار كما كان فينقلب جهلاً فيكون نقصاناً لا كمالاً فكلّ ما اعتقدته اعتقاداً موافقاً و تصوّر أن ينقلب المعتقد فيه عمّا اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصاً ويعود علمك جهلاً ، ويلتحق بهذا المثال جميع متغيّرات العالم كعلمك مثلاً بارتفاع جبل ومساحة أرض وبعدد البلاد وتباعد ما بينها من الأميال و الفراسخ و سائر ما يذكر في المسالك و الممالك و كذلك العلم باللّغات الّتي هي اصطلاحات تتغيّر بتغيّر الأعصار و الاُمم و العادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزيبق يتغيّر من حال إلى حال فليس فيه كمال إلّا في الحال و لا يبقى كمالاً في القلب ، و القسم الثاني هي المعلومات الأزليّة و هو جواز الجائزات ، و وجوب الواجبات ، واستحالة المستحيلات ، فإنّ هذه معلومات أزليّة

أبديّة إذ لا يستحيل الواجب قطّ جائزاً ولا الجائز محالاً ولا المحال واجباً وكلّ هذه الأقسام داخلة في معرفة الله تعالى وما يجب له وما يستحيل في صفاته ويجوز في أفعاله، فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السماء والأرض وترتيب الدّنيا والآخرة وما يتعلّق به هو الكمال الحقيقيّ الّذي يقرب من يتّصف به من الله تعالى ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت وتكون هذه المعرفة نوراً للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف مالم ينكشف في الدّنيا كما أنّ من معه سراجٌ خفيّ فإنّه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه فيكمل النور بذلك النور الخفيّ على سبيل الاستتمام ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك، فمن ليس معه أصل معرفة الله سبحانه لم يكن له مطمع في هذا النور فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها بل كظلمات في بحر لجّيّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض. فإذاً لا سعادة إلّا في معرفة الله تعالى فأمّا ما عدا ذلك من المعارف فمنها مالا فائدة فيه أصلاً كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرها. ومنها ماله منفعة في الإعانة على معرفة الله كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار، فإنّ معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفيّة العبادات والأعمال الّتي تفيد تزكية النفس، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية إلى معرفة الله تعالى كما قال الله عزّ وجلّ «قد أفلح من زكّيها»(١) وقال: «والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا»(٢) فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى وإنّما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلّها من أفعاله فمن عرفها من حيث هي فعل الله ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة فهي من تكملة معرفة الله تعالى وهذا حكم كمال العلم

---

(١) الشمس: ١٠.　(٢) العنكبوت: ٦٩.

ذكرناه وإن لم يكن لايقاً بأحكام الجاه والرّياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال.

و أمّا القدرة فليس فيها كمال حقيقيّ للعبد بل للعبد علم حقيقيّ و ليس له قدرة حقيقيّة و إنّما القدرة الحقيقيّة لله تعالى و مايحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة باحداث الله كما قدقرّناه في كتاب الصبر والشكر وكتاب التوكّل وفي مواضع شتّى من ربع المنجيات فكمال العلم يبقى معه بعد الموت و يوصله إلى الله تعالى فأمّا كمال القدرة فلا، نعم له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهي وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوّة يده للبطش و رجله للمشي وحواسّه للإدراك فإنّ هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم و قد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصّل به إلى المطعم والملبس والمسكن وذلك إلى قدر معلوم فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة الله فلا خير فيه البتّة إلّا من حيث اللّذّة الحاليّة الّتي تنقضي على القرب ومن ظنّ ذلك كمالاً فقد جهل، فالخلق كلّهم هالكون في غمرة هذا الجهل فإنّهم يظنّون أنّ القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال، فلمّا اعتقدوا ذلك أحبّوه و لمّا أحبّوه طلبوه و لمّا طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه فنسوا الكمال الحقيقيّ الّذي يوجب القرب من الله و من ملائكته و هو العلم والحرّيّة، أمّا العلم فما ذكرناه من معرفة الله وأمّا الحرّيّة فالخلاص من أسر الشهوات و غموم الدّنيا و الاستيلاء عليها بالقهر تشبّهاً بالملائكة الّذين لايستفزّهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، فإذاً دفع آثار الغضب والشهوة عن النفس من الكمال الّذي هو من صفات الملائكة، و من صفات الكمال لله تعالى استحالة التغيّر و التأثّر عليه فمن كان عن التغيّر و التأثّر بالعوارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب و بالملائكة أشبه ومنزلته عند الله أعظم، و هذا كمال ثالث سوى كمال العلم و القدرة، و إنّما لم نورده في أقسام الكمال لأنّ حقيقته ترجع إلى عدم و نقصان فإنّ التغيّر نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة و هلاكها و الهلاك نقص في اللّذّات و في صفات الكمال. فإذاً الكمالات ثلاثة إن عددنا عدم التغيّر

بالشهوات و عدم الانقياد لها كمالاً ككمال العلم وكمال الحرّيّة و أعني به عدم العبوديّة للشهوات و إرادة الأسباب الدّنياويّة وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم وكمال الحرّيّة ولاطريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته إذ قدرته على أعيان الأموال و على استسخار القلوب و الأبدان تنقطع بالموت و معرفته و حرّيّته لا تنعدمان بالموت بل تبقيان كمالاً فيه و وسيلة إلى القرب من الله تعالى.

فانظر كيف انقلب الجاهلون و انكبّوا على وجوههم انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالمال و الجاه و هو الكمال الّذي لا يسلم و إن سلم فلا بقاء له و أعرضوا عن كمال الحرّيّة والعلم الّذي إذا حصل كان أبديّاً لا انقطاع له و هؤلاء هم الّذين اشتروا الحياة الدّنيا بالآخرة فلاجرم لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينصرون، و هم الّذين لم يفهموا قوله تعالى: «المال و البنون زينة الحيوة الدّنيا و الباقيات الصالحات خيرٌ عند ربّك» (١) فالعلم والحرّية هي الباقيات الصالحات الّتي تبقى كمالاً في النفس، و المال والجاه هو الّذي ينقضي على القرب و هو كما مثّله الله تعالى حيث قال: «إنّما مثل الحياة الدّنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض - الآية -» (٢) وكلّ ما تذروه الرّياح بالموت فهو زهرة الحياة الدّنيا، وكلّ مالا يقطعه الموت فهو من الباقيات الصالحات، فقد عرفت بهذا أنّ كمال القدرة بالمال و الجاه كمال ظنّيّ لا أصل له و أنّ من قصّر الوقت على طلبه و ظنّه مقصوداً فهو جاهل إلّا قدرالبلغة منها إلى الكمال الحقيقيّ.

☆(بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم)☆

و مهما عرفت أنّ معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها فحكمه حكم ملك الأموال فإنّه عرض من أعراض الحياة الدّنيا و ينقطع بالموت كالمال، و الدّنيا مزرعة الآخرة، فكلّ ما خلق الله من الدّنيا فيمكن أن يتزوّد منه إلى الآخرة، وكما أنّه لابدّ من أدنى مال لضرورة المطعم و الملبس فلابدّ من أدنى جاه لضرورة

(١) الكهف: ٤٥. (٢) يونس ٢٥.

المعيشة مع الخلق ، والإنسان كما لايستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحبّ الطعام أو المال الّذي يبتاع به الطعام فكذلك لايخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، و رفيق يعينه ، وأُستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبّه لأن يكون له في قلب خادمه من المحلّ ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم ، وحبّه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحلّ ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم ، وحبّه لأن يكون له في قلب أُستاذه من المحلّ ما يحسن به إرشاده و تعليمه والعناية به ليس بمذموم ، و حبّه لأن يكون له من المحلّ في قلب سلطانه ما يحثّه ذلك على دفع الشرّ عنه ليس بمذموم ، فإنّ الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال فلا فرق بينهما إلّا أنّ التحقيق في هذا يفضي إلى أن لايكون المال و الجاه في أعيانهما محبوبين بل ينزل ذلك منزلة حبّ الإنسان أن يكون في داره بيت ماء لأنّه يضطرّ إليه لقضاء حاجته و يؤدّ أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتّى يستغني عن بيت الماء و هذا على التحقيق ليس محبّاً لبيت الماء فكلّ ما يراد به للتوصّل إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصّل إليه ، و تدرك التفرقة بمثال و هو أنّ الرّجل قد يحبّ زوجته من حيث أنّه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام ولو كفي مؤونة الشهوة لكان يهجر زوجته كما لو كفي قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء و لا يدور به ، و قد يحبّ زوجته لذاتها حبّ العشّاق و لو كفي الشهوة لبقي مستصحباً لنكاحها ، فهذا هو الحبّ دون الأوّل ، و كذلك الجاه و المال قد يحبّ كلّ واحد منهما على هذين الوجهين فحبّهما لأجل التوصّل إلى مهمّات البدن غير مذموم و حبّهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ولكنّه لايوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحبّ على مباشرة معصية وما لم يتوصّل به إلى اكتسابه بكذب وخداع و ارتكاب محظور ، و مالم يتوصّل إلى اكتسابه بعبادة ، فإنّ التوصّل إلى المال و الجاه بالعبادة جناية على الدّين و هو حرام و إليه يرجع معنى الرّياء المحظور كما سيأتي .

فإن قلت : طلب الجاه و المنزلة في قلب أُستاده و خادمه و رفيقه و سلطانه

و من يرتبط به أمره مباحٌ على الإطلاق كيفما كان ؟ أو مباح إلى حدّ مخصوص أو على وجه مخصوص ؟ فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه ، وجهان منها مباح و وجه منها محظور أمّا المحظور فهوأن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة و هو منفكٌ عنها مثل العلم و الورع و النسب فيظهر لهم أنّه علويٌ أو عالم أو ورع و هو لا يكون كذلك فهذا حرام لأنّه تلبيس و كذب إمّا بالقول و إمّا بالفعل ، وأمّا أحد المباحين فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متّصف بها كقول يوسف عليه السلام : « اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظٌ عليم » [1] فإنّه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظاً عليماً وكان محتاجاً إليه و كان صادقاً فيه ، و الثاني أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه و معصية من معاصيه حتّى لا يعلمه فلا تزول منزلته به ، فهذا أيضاً مباح لأنّ حفظ الستر على القبائح جائز ولا يجوز هتك الستر و إظهار القبيح فهذا ليس فيه تلبيس بل هو سدٌ لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به كالّذي يخفي عن السلطان أنّه يشرب الخمر ولا يلقي إليه أنّه ورع فإنّ قوله : إنّي ورع تلبيس وعدم إقراره بالشرب لا يوجب إعتقاده الورع بل يمنع العلم بالشرب ، ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فإنّ ذلك رياء و هو ملبّس إذ يخيّل إليه أنّه من المخلصين الخاشعين لله وهو مرائيٌ بما يفعله فكيف يكون مخلصاً ، فطلب الجاه بهذا الطريق حرام و كذا بكلّ معصية و ذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق و كما لا يجوز له أن يتملّك مال غيره بتلبيس في عوض أو في غيره فلا يجوز له أن يتملّك قلبه بتزوير و خداع فإنّ ملك القلوب أعظم من ملك الأموال .

(بيان السبب في حبّ المدح و الثناء)
(و ارتياح النفس به وميل الطباع اليه و بغضها للذم و نفرتها منه)

إعلم أنّ لحبّ المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب السبب الأوّل وهو الأقوى : شعور النفس بالكمال فإنّا بيّنّا أنّ الكمال محبوبٌ وكلٌ محبوبٍ فإدراكه لذيذٌ فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزّت وتلذّذت ، والمدح يشعر نفس الممدوح

(١) يوسف : ٥٤ .

بكمالها فإنّ الوصف الّذي به مدح لا يخلو إمّا أن يكون جليّاً ظاهراً أو يكون مشكوكاً فيه، فإنّ كان جليّاً ظاهراً محسوساً كانت اللّذّة فيه أقلّ ولكنّه لايخلو عن لذّة كثنائه عليه أنّه طويل القامة أبيض اللّون، فإنّ هذا نوع كمال و لكنّ النفس تغفل عنه فتخلوعن لذّته فإذا استشعرت به لم يخل حدوث الشعور عن حدوث اللّذّة، و إن كان ذلك الوصف ممّا يتطرّق إليه الشكّ فاللّذّة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أوبالحسن المطلق، فإنّ الإنسان ربّما يكون شاكّاً في كمال حسنه وفي كمال علمه و كمال ورعه ويكون مشتاقاً إلى زوال هذا الشكّ بأن يصير مستيقناً لكونه عديم النظير في هذه الأمور إذ تطمئنّ نفسه إليه فإذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة و سكوناً وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذّته و إنّما تعظم اللّذّة بهذه العلّة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبيربها لا يجازف في القول إلّا عن تحقيق و ذلك كفرح التلميذ بثناء اُستاذه عليه بالكياسة و الذّكاء و غزارة الفضل فإنّه في غاية اللّذّة فإن صدر ممّن يجازف في الكلام أو لا يكون بصيراً في ذلك الوصف ضعفت اللّذّة، وبهذه العلّة يبغض الذمّ أيضاً و يكرهه لأنّه يشعره بنقصان في نفسه و النقصان ضدّ الكمال المحبوب فهوممقوت و الشعوربه مؤلم و لذلك يعظم الألم إذا صدر الذمّ من بصير موثوق به فيذلك كما ذكرناه فيالمدح.

السبب الثاني أنّ المدح يدلّ علىأنّ قلب المادح مملوك للممدوح و أنّه مريدٌ له ومعتقد فيه و مسخّر تحت مشيّته، و ملك القلوب محبوبٌ و الشعور بحصوله لذيذٌ، وبهذه العلّة تعظم اللّذّة مهما صدر الثناء ممّن تتّسع قدرته و ينتفع باقتناص قلبه كالملوك و الأكابر، ويضعف مهماكان المثني ممّن لا يؤبه له و لايقدر على شيء فإنّ القدرة عليه بملك قلبه قدرة علىأمر حقير فلايدلّ المدح إلّا علىقدرةقاصرة، و بهذه العلّة أيضاً يكره الذمّ ويتألّم به القلب، و إذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأنّ الفائت به أعظم.

السبب الثالث أنّ ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كلّ من يسمعه لا سيّما إذا كان ذلك ممّن يلتفت إلى قوله ويعتدّ بثنائه، وهذا يختصّ بثناء يقع

على الملاء فلا جرم كلّما كان الجمع أكثر و المثني أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان المدح ألذّ و الذّمّ أشدّ على النفس.

السبب الرّابع أنّ المدح يدلّ على حشمة الممدوح و اضطرار المادح إلى إطلاق اللّسان بالثناء عليه إمّا عن طوع و إمّا عن قهرفإنّ الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر و القدرة و هذه اللّذّة تحصل و إن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به ولكن كونه مضطرّاً إلى ذكره نوع قهر و استيلاء عليه فلا جرم تكون لذّته بقدر تمنّع المادح وقوّته فيكون لذّة ثناء القويّ الممتنع عن التواضع بالثناء أشدّ، فهذه الأسباب الأربعة قد يجتمع في مدح مادح واحد فيعظم به الالتذاذ ، وقد تفترق فتنقص اللّذّة به أمّا العلّة الاُولى و هي استشعار الكمال فتندفع بأن يعلم الممدوح أنّه غير صادق في مدحه كما إذا مدح بأنّه نسيب أو سخيّ أو عالمٌ بعلم أو متورّع عن المحظورات و هو يعلم من نفسه ضدّ ذلك فتزول اللّذّة الّتي سببها استشعار الكمال وتبقى لذّة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقيّة اللّذّات ، فإن كان يعلم أنّ المادح ليس يعتقد ما يقوله و يعلم بخلوه عن هذه الصفة بطلت اللّذّة الثانية و هو استيلاؤه على قلبه و بقيت لذّة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللّعب بطلت اللّذّات كلّها فلم يكن فيه أصلاً لذّة لفوات الأسباب الثلاثة ، فهذا ما يكشف الغطاء عن علّة التذاذ النفس بالمدح وتألّمها بسبب الذّم وإنّما ذكرناه ليعرف طريق العلاج لحبّ الجاه و حبّ المحمدة وخوف المذمّة ، فإنّ ما لا يعرف سببه لايمكن معالجته إذ العلاج عبارة عن حلّ أسباب المرض.

✿(بيان علاج حب الجاه)✿

إعلم أنّ من غلب على قلبه حبّ الجاه صار مقصور الهمّ على مراعاة الخلق ، مشغوفاً بالتودّد إليهم و المراياة لأجلهم ، و لا يزال في أقواله و أفعاله و أعماله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم و ذلك بذر النفاق و أصل الفساد و يجرّ ذلك لامحالة إلى التساهل في العبادات و المراياة بها ، وإلى اقتحام المحظورات للتوصّل إلى اقتناص

القلوب ولذلك شبّه رسول الله ﷺ حبّ الشرف و المال وإفسادهما للدّين بذئبين ضاريين و قال : « إنّه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل » (١) إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أوالفعل و كلّ من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطرّ إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هوخال عنها ، وذلك هوعين النفاق ، فحبّ الجاه إذاً من المهلكات فيجب علاجه وإزالته عن القلب فانّه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حبّ المال ، وعلاجه مركّب من علم وعمل ، أمّا العلم فهو أن يعلم السبب الّذي لأجله أحبّ الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم ، وقد بيّنّا أنّ ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت ، فليس من الباقيات الصالحات ، بل لو سجد لك كلّ من على وجه الأرض من المشرق إلى المغرب و إلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ، وتكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له ، فهذا لا ينبغي أن يترك به الدّين الّذي هو الحياة الأبديّة الّتي لا انقطاع لها ، و من فهم الكمال الحقيقيّ والكمال الوهميّ - كما سبق - صغر الجاه في عينه ، إلّا أنّ ذلك إنّما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنّه يشاهدها و يستحقر العاجلة و يكون الموت كالحاصل عنده ، و أبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لايمتدّ نورها إلى مشاهدة العواقب و لذلك قال تعالى : « بل تؤثرون الحيوة الدّنيا و الآخرة خير و أبقى » (٢) وقال تعالى : « كلّا بل تحبّون العاجلة ۞ و تذرون الآخرة» (٣) إلى غيرها من الآيات ، فمن هذا حدّه فينبغي أن يعالج قلبه في حبّ الجاه بالعلم بالآفات العاجلة و هو أن يتفكّر في الأخطار الّتي يستهدف لها أرباب الجاه في الدّنيا ، فانّ كلّ ذي جاه محسود و مقصود بالإيذاء و خائف على الدّوام على جاهه ومحترز من أن تتغيّر منزلته في القلوب و القلوب أشدّ تغيّراً من القدر في غليانها وهي متردّدة بين الإقبال و الإعراض ، فكلّ ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبني على أمواج البحر فانّه لاثبات له ، و الاشتغال

(١) تقدم آنفاً .

(٢) الاعلى : ١٦ . (٣) القيامة : ٢٢ و ٢٣ .

بمراعاة القلوب و حفظ الجاه و دفع كيد الحسّاد ومنع أذى الأعداء اشتغال عن الله و تعرّض لمقته في العاجل والآجل ، كلّ ذلك غموم عاجلة مكدّرة للذّة الجاه ، فلا يفي في الدّنيا أيضاً مرجوّها بمخوفها فضلاً عمّا يفوت في الآخرة ، فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة ، و أمّا من نفذت بصيرته وقوي إيمانه لم يلتفت إلى الدّنيا ، فهذا هو العلاج من حيث العلم .

و أمّا من حيث العمل فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتّى يسقط من أعين الخلق و تفارقه لذّة القبول و يأنس بالخمول و يردّ الخلق ويقنع بالقبول من الخالق ، وهذا هو منهاج الملامتيّة إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه و هذا غير جائز لمن يقتدى به فإنّه يوهن الدّين في قلوب المسلمين ، وأمّا الّذي لايقتدى به فلا يجوز له أن يقدّم على محظور لأجل ذلك بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس كما روي أنّ بعض الملوك قصد بعض الزّهاد فلمّا علم بقربه منه استدعى طعاماً وبقلاً و أخذ يأكل بشره و يعظم اللّقم فلمّا نظر إليه الملك سقط من عينه و انصرف ، فقال الزّاهد : الحمد لله الّذي صرفك عنّي ، و منهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر حتّى يظنّ به أنّه يشرب الخمر فيسقط من الأعين ، وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه إلّا أنّ أرباب الأحوال ربّما يعالجون أنفسهم بما لايفتي به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم ، ثمّ يتداركون مافرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم فإنّه عرف بالزّهد و أقبل الناس عليه فدخل حمّاما ولبس ثوب غيره وخرج و وقف في الطريق حتّى عرفوه فأخذوه و ضربوه و استردّوا منه الثياب و قالوا : إنّه طرّار وهجروه ، وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس و الهجرة إلى موضع الخمول ، فإنّ المعتزل في بيته في البلدة الّتي هو بها مشهور لايخلو عن حبّ المنزلة الّتي ترسّخ له في القلوب بسبب عزلته فربما يظنّ أنّه ليس محبّاً لذلك الجاه وهو مغرور ، وإنّما سكنت نفسه لأنّها قد ظفرت بمقصودها و لو تغيّر الناس عمّا اعتقدوا فيه و ذمّوه أو نسبوه إلى أمر غير لايق به جزعت نفسه

و تألّمت وربّما توصّلت إلى الاعتذار عن ذلك و إماطة ذلك الغبار عن قلوبهم ، وربّما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولايبالي به وبه يتبيّن بعد أنّه محبٌّ للجاه و المنزلة ، ومن أحبّ الجاه و المنزلة فهو كمن أحبّ المال بل هو شرٌّ منه فإنّ فتنة الجاه أعظم ، ولايمكنه أن لايحبّ المنزلة في قلوب الناس مادام يطمع في الناس ، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة اُخرى وقطع طمعه عن الناس رأساً أصبح الناس كلّهم عنده كالأراذل ، فلا يبالي أكانت له منزلة في قلوبهم أولم تكن كما لا يبالي ذلك في قلوب الّذين هم منه في أقصى الشرق لأنّه لايراهم و لا يطمع فيهم ، و لا يقطع الطمع عن الناس إلّا بالقناعة ، فمن قنع استغنى عن الناس ، و إذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن ولايتمّ ترك الجاه إلّا بالقناعة و قطع الطمع . و يستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذمّ الجاه ومدح الخمول و الذّل مثل قولهم : « المؤمن لا يخلو من ذلّة أو علّة أو قلّة » . و ينظر في أحوال السلف و إيثارهم الذّل على العزّ ورغبتهم في ثواب الآخرة .

✿(بيان وجه العلاج لحب المدح و كراهة الذم)✿

إعلم أنّ أكثر الخلق إنّما هلكوا بخوف مذمّة الناس وحبّ مدحهم فصارت حركاتهم كلّها موقوفة على مايوافق رضا الناس رجاءً للمدح وخوفاً من الذمّ ، و ذلك من المهلكات فيجب معالجته و طريقة ملاحظة الأسباب الّتي لأجلها يحبّ المدح و يكره الذمّ .

أمّا السبب الأوّل : فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك و تقول لنفسك : هذه الصفة الّتي يمدحك بها أنت متّصف بها أم لا ؟ فإن كنت متّصفاً بها فهي إمّا صفة تستحقّ بها المدح كالعلم و إمّا صفة لا تستحقّ بها المدح كالثروة والجاه والأعراض الدّنيويّة ، فإن كان من الأعراض الدّنيويّة فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الّذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرّياح ؛ وهذا من قلّة العقل ، بل العاقل يقول :

أشدّ الغمّ عندي في سرور ✿ تيقّن عنه صاحبه ارتحالاً

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعرض الدّنيا ، و إن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها و المدح ليس هو سبب وجودها ، و إن كانت الصفة ممّا يستحقّ الفرح بها كالعلم و الورع فينبغي أن لا يفرح بها لأنّ الخاتمة غير معلومة و هذا إنّما يقتضي الفرح لأنّه يقرّب عند الله زلفى و خطر الخاتمة باق ، ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكلّ ما في الدّنيا بل الدّنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح و سرور ، ثمّ إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم و التقوى لا بمدح المادح فإنّ اللّذة في استشعار الكمال و الكمال موجود من فضل الله لا من المدح و المدح تابع له ، فلا ينبغي أن تفرح بالمدح و المدح لايزيدك فضلاً ، وإن كانت الصفة الّتي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجهل ، ومثالك مثال من يهزؤ به إنسان ويقول له : سبحان الله ما أكثر العطر الّذي في أحشائه و ما أطيب الرّوايح الّتي تفوح منه إذا قضى حاجته ، وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقذار و الأنتان ، ثمّ يفرح بذلك ، فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطّلع على خبائث باطنك و غوائل سريرتك و أقذار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل ، فإذاً المادح إن صدق فليكن فرحك بصفاتك الّتي هي من فضل الله عليك و إن كذب فينبغي أن يغمّك ذلك ولا تفرح به .

و أمّا السبب الثاني : و هو دلالة المدح على تسخّر قلب المادح و كونه سبباً لتسخير قلب آخر فهذا يرجع إلى حبّ الجاه و المنزلة في القلوب و قد سبق وجه معالجته وذلك بقطع الطمع عن الناس و طلب المنزلة عند الله ، وبأن تعلم أنّ طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك بها يسقط منزلتك عند الله فكيف تفرح به ؟.

و أمّا السبب الثالث : و هو حشمة الّتي اضطرّت المادح إلى المدح فهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لاثبات لها ولاتستحقّ الفرح بها ، بل ينبغي أن يغمّك مدح المادح وتكرهه وتغضب به كما نقل ذلك عن السلف لأنّ آفة المدح على الممدوح عظيمة كما ذكرناه في كتاب آفة اللّسان ، قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد

أمكن الشيطان من أن يدخل في قلبه .

و قال بعضهم : إذا قيل لك : نعم الرّجل أنت ؛ فكان أحبّ إليك من أن يقال لك : بئس الرّجل أنت ، فأنت والله بئس الرّجل .

و روي في بعض الأخبار ما لو صحّ فهو قاصم للظهور : إنّ رجلاً أثنى على رجل خيراً عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : « لو كان صاحبك حاضراً فرضي بالّذي قلت فمات على ذلك دخل النار »(١).

و قال صلى الله عليه وآله مرّة للمادح : « ويحك قطعت ظهره ولو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة » (٢).

و قال عليه السلام : « ألا لا تمادحوا ، و إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب » (٣) فلهذا كان الصحابة على وجل عظيم من المدح وفتنته ، وما يدخل على القلب من السرور به ، وإنّما كرهوا المدح خيفة من أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق وكان اشتغال قلوبهم بأحوالهم عند الله يبغّض إليهم مدح الخلق لأنّ الممدوح على الحقيقة هو المقرّب إلى الله والمذموم بالحقيقة هو المبعد عن الله الملقى في النار مع الأشرار ، فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره و إن كان من أهل الجنّة فلا ينبغي أن يفرح إلّا بفضل الله وثنائه عليه إذ ليس أمره بيد الخلق ، ومهما علم أنّ الآجال والأرزاق بيد الله تعالى قلّ التفاته إلى مدح الخلق وذمّهم و سقط من قلبه حبّ المدح و اشتغل بما يهمّه من أمر دينه .

✡(بيان علاج كراهة الذم)✡

قد سبق أنّ العلّة في كراهة الذّمّ هو ضدّ العلّة في حبّ المدح ، فعلاجه أيضاً

(١) قال العراقي : لم اجده أصلا .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص٢٢٧ والبخاري ج ٨ ص ٢٢ بالفاظ مختلفة و قد تقدم .

(٣) أخرجه احمد في المسند والطبراني في الكبير دون قوله : « الا لاتماد حوا » و رجاله رجال الصحيح من حديث ابن عمر وقد تقدم .

يفهم منه . و القول الوجيز فيه أنّ من ذمّك لا يخلو من ثلاثة أحوال .

إمّا أن يكون قد صدق فيما قال و قصده النصح و الشفقة . و إمّا أن يكون صادقاً ولكن قصده الإيذاء و التعنّت ، أو يكون كاذباً .

فإن كان صادقاً و قصده النصح فلا ينبغي أن تذمّه و تغضب عليه و تحقد بسببه ، بل ينبغي أن تتقلّد منّته ، فإنّ من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك لك حتّى تتّقيه ، فينبغي أن تفرح به و تشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها ، فأمّا اغتمامك بسببه و كراهتك له و ذمّك إيّاه فإنّه غاية الجهل . و إن كان قصده التعنّت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به ، أو ذكّرك عيبك إن كنت غافلاً عنه ، أو قبّحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته ، و كلّ ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه ، فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمّة ، فمهما قصدت الدّخول على ملك و ثوبك ملوّث بالعذرة و أنت لا تدري ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحزّ رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة فقال لك قائل : أيّها الملوّث بالعذرة طهّر نفسك ، فينبغي أن تفرح به لأنّ تنبيهك بقوله غنيمة ، و جميع مساوي الأخلاق مهلكة في الآخرة والإنسان إنّما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن تغتنمه ، فأمّا قصد العدوّ التعنّت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت أنت به وتضرّر هو به ؟.

الحالة الثالثة : أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله فينبغي أن لا تكره ذلك و لا تشتغل بذمّه بل تتفكّر في ثلاثة اُمور : أحدها أنّك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله و أخواته وما ستر الله من عيوبك أكثر فاشكر الله إذ لم يطّلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء منه ، والثاني أنّ ذلك كفّارات لبقيّة مساويك وذنوبك ، و كأنّه رماك بعيب أنت بريء منه وطهّرك من ذنوب أنت ملوّث بها ، و كلّ من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته و كلّ من مدحك فقد قطع ظهرك ، فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات الّتي تقرّبك إلى الله

وأنت تزعم أنّك تحبّ القرب من الله . و أمّا الثالث فهو أنّ المسكين قد جنى على دينه حتّى سقط من عين الله جلّ وعزّ وأهلك نفسه بافترائه و تعرّض لعقابه الأليم فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان و تقول : « اللّهمّ أهلكه » بل ينبغي أن تقول : « اللّهمّ أصلحه ، اللّهمّ تب عليه ، اللّهمّ ارحمه » كما قال رسول الله ﷺ إذ قال : « اللّهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون »[1] لمّا أن ضربوه ، ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شجّ رأسه بالمغفرة ، فقيل له في ذلك ، فقال : علمت أنّي مأجور بسببه و ما نالني منه إلّا خير ، فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي . وممّا يهوّن عليك كراهة المذمّة قطع الطمع ، فإنّ من استغنيت عنه مهما ذمّك لم يعظم أثر ذلك في قلبك ، و أصل الدّين القناعة و بها ينقطع الطمع عن الجاه و المال ، و مادام الطمع قائماً كان حبّ الجاه و المدح في قلب من طمعت فيه غالباً ، و كانت همّتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة ، و لا ينال ذلك إلّا بهدم الدّين ، فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحبّ المدح ومبغض الذّمّ في سلامة دينه فإنّ ذلك بعيد جدّاً .

(بيان اختلاف احوال الناس في المدح و الذم)

إعلم أنّ للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذّامّ والمادح .

الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح و يشكر المادح و يغضب من الذّمّ و يحقد على الذّامّ و يكافئه أو يحبّ مكافأته . و هذا حال أكثر الخلق و هو غاية درجات المعصية في هذا الباب .

الحالة الثانية أن يتبغّض في الباطن على الذّامّ ولكن يمسك لسانه وجوارحه من مكافأته ، ويفرح باطنه و يرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور ، و هذا من النقصان إلّا أنّه بالإضافة إلى ماقبله كمال .

الحالة الثالثة : وهي أوّل درجات الكمال أن يستوي عنده ذامّه ومادحه فلا تغمّه

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة والحديث في الصحيح أنه صلى الله عليه و آله قاله حكاية عن نبي من الانبياء حين ضربه قومه . (المغني)

المذمّة ولاتسرّه المدحة . وهذا قد يظنّه بعض العبّاد بنفسه و يكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته ، و علاماته أن لا يجد في نفسه استثقالاً للذّامّ عند تطويله الجلوس عنده أكثر ممّا يجده في المادح و أن لا يجد في نفسه زيادة هزّة (١) ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق مايجده في قضاء حاجة الذّام ، وأن لايكون انقطاع الذّامّ عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح ، وأن لايكون موت المادح المطري له أشدّ نكاية في قلبه من موت الذّامّ ، وأن لايكون غمّه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر ممّا يكون بمصيبة الذّامّ ، و أن لاتكون زلّة المادح أخفّ على قلبه و في عينه من زلّة الذّامّ . فمهما خفّ الذّامّ على قلبه كماخفّ المادح و استويا من كلّ وجه فقد نال هذه الرّتبة و ما أبعد ذلك و ما أشدّه على القلوب ، و أكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لايشعرون حيث لايمتحنون أنفسهم بهذه العلامات .

وربّما يشعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذّامّ ، والشيطان يحسّن له ذلك و يقول له : الذّامّ قد عصى الله بمذمّتك و المادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تسوّي بينهما فانّما استثقالك للذّامّ من الدّين المحض ، وهذا محض التلبيس ، فإنّ العابد لو تفكّر علم أنّ في الناس من ارتكب من كبائر المعاصي أكثر ممّا ارتكبه الذّامّ في مذمّته ، ثمّ إنّه لايستثقلهم ولاينفر عنهم ، ويعلم أنّ المادح الّذي مدحه لايخلوعن مذمّة غيره و لا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمّة غيره كما يجد لمذمّة نفسه ، والمذمّة من حيث أنّها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أوغيره ، فإذاً العابد المغرور لنفسه يغضب ولهواه يتبغّض ، ثمّ الشيطان يخيّل إليه أنّه من الدّين حتّى يعتقده على الله بهواه فيزيده على ذلك بعداً من الله ، و من لم يطّلع على مكائد الشيطان و آفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضايع يفوت عليه الدّنيا ويخسره في الآخرة وفيهم قال الله تعالى : «قل هل نُنَبِّئكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضَلّ سعيُهم في الحيوة الدّنيا و هم يَحْسَبُونَ أنّهم يُحْسِنونَ صنعاً » (٢).

---

(١) الهزة - بكسر الهاء - : النشاط والارتياح .

(٢) الكهف : ١٠٣ .

الحالة الرّابعة وهي الصدق في العبادة أن يكره المدح و يمقت المادح إذ يعلم أنّه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرّ له في الدّين و يحبّ الذّامّ إذ يعلم أنّه مهد إليه عيوبه و مرشد له إلى مهمّه و مهد إليه حسناته ، و قد قال ﷺ : «رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبرّ و التقوى» (١) و قد روي في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صحّ إذ روي أنّه ﷺ قال : «ويل للصائم و ويل للقائم ، و ويل لصاحب الصوف إلّا من .... فقيل : يارسول الله إلّا من ؟ فقال : إلّا من تنزّهت نفسه عن الدّنيا و أبغض المدحة و استحبّ المذمّة» (٢) و هذا شديد جدّاً ، و غاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية ، وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذّامّ والمادح ولا يظهره بالقول والعمل .

فأمّا الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح و الذّامّ فلسنا نطمع فيها ، ثمّ إن طالبنا نفسنا بعلامة الحالة الثانية ما وفت بها لأنّها لابدّ وأن نتسارع إلى إكرام المادح و قضاء حاجاته و نتثاقل عن إكرام الذّامّ و الثناء عليه و قضاء حوائجه ولا نقدر على أن نسوّي بينهما في الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه في سريرة القلب ومن قدر على التسوية بين المادح و الذّامّ في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتّخذ قدوة في هذا الزّمان إن وجد فهو الكبريت الأحمر يتحدّث به ولا يرى ، فكيف بما بعده من المرتبتين ، و كلّ واحدة من هذه الرّتب فيها درجات أمّا الدّرجات في المدح فهو أنّ من الناس من تمنّى المدحة و الثناء و انتشار الصيت فيتوصّل إلى نيلها بكلّ ممكن حتّى يرائي بالعبادات ولا يبالي بمقارفة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح وهذا من الهالكين . ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ولا يباشر المحظورات و هذا على شفا جرف هار فانهار به . فإنّ حدود الكلام الّذي يستميل به القلوب و حدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك

---

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

(٢) قال العراقي : لم أجده هكذا وذكره صاحب الفردوس من حديث أنس «ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله» ولم يخرجه ولده في مسنده .

أن يقع فيما لا يحلّ له ليتوصّل إلى نيل الحمد ، فهو قريب من الهالكين جدّاً .
و منهم من لايريد المدحة ولا يسعى لطلبها ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإ ذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلّف الكراهية فهوقريبٌ من أن يستجرّه فرط السرور إلى الرّتبة الّتي قبلها ، وإن جاهد نفسه في ذلك و كلّف قلبه الكراهية وبغّض السرور إليه بالتفكّر في آفات المدح فهو في خطر المجاهدة ، فتارة تكون اليد له و تارة تكون عليه ، و منهم من إذا سمع المدح لم يسرّ به و إذا سمع الذّمّ لم يغتمّ و لم يؤثر فيه وهذا على خير ، وإن كان قد بقي عليه بقيّة من الإخلاص ، و منهم من يكره المدح إذا سمعه ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح و ينكر عليه و أقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهوصادق فيه ، لا أن يظهر الغضب و قلبه محبّ له فإنّ ذلك عين النفاق لأنّه يريد أن يظهر من نفسه الاخلاص والصدق و هو مفلس عنه و كذلك بالضدّ من هذا تتفاوت الأحوال في حقّ الذّامّ ، و أوّل درجاته إظهار الغضب و آخرها إظهار الفرح ، ولايكون الفرح وإظهاره إلّا ممّن في قلبه حنق و حقد على نفسه لتمرّدها عليه و لكثرة عيوبها و مواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة فيبغضها بغض العدوّ ، والانسان يفرح ممّن يذمّ عدوّه ، وهذا شخص عدوّه نفسه فيفرح إذا سمع ذمّها و يشكر الذّامّ على ذلك و يعتقد فطنته و ذكاءه لما وقف على عيوبها فيكون ذلك كالتشفّي له من نفسه ويكون غنيمة عنده إذا صار بالمذمّة أوضع في أعين الناس حتّى لايبتلى بفتنة الناس ، و إذا سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها فعساه يكون جبراً لعيوبه الّتي هو عاجز عن إماطتها ولوجاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة و هو أن يستوي عنده ذامّه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لايتفرّغ معه لغيره ، و بينه و بين السعادة عقبات كثيرة هذه إحدى تلك العقبات ، ولاينفع شيء منها إلّا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل .

(الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات وهو الرّياء)

و فيه بيان ذمّ الرّياء و بيان حقيقة الرّياء وما يراءى به ، و بيان درجات الرّياء ، و بيان الرّياء الخفيّ ، و بيان ما يحبط العمل من الرّياء و ما لا يحبط ،

و بيان دواء الرّياء و علاجه ، وبيان الرّخصة في إظهار الطاعات ، وبيان الرّخصة في كتمان الذّنوب ، وبيان ترك الطاعات خوفاً من الرّياء و الآفات ، وبيان ما يصحّ من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق ، و بيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها . وهي أحد عشر فصلاً .

✿(بيان ذمّ الرّياء)✿

إعلم أنّ الرّياء حرام و المرائي عند الله ممقوتٌ و قد شهدت لذلك الآيات و الأخبار والآثار .

أمّا الآيات فقوله تعالى : «فويلٌ للمصلّين ✿ الّذين هم عن صلاتهم ساهون ✿ الّذين هم يراؤون ✿ ويمنعون الماعون » (١).

و قوله تعالى : « و الّذين يمكرون السيّئات لهم عذابٌ شديدٌ ومكر اُولئك هو يبور » (٢) و قال مجاهد : هم أهل الرّياء .

و قال تعالى : « إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا » (٣) فمدح المخلصين بنفي كلّ إرادة سوى وجه الله ، والرّياء هو ضدّه .

و قال تعالى : «فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربّه أحداً » (٤) ، نزل ذلك فيمن يطلب الأجر و الحمد بعباداته وأعماله وغير ذلك .

وأمّا الأخبار فقد قال صلّى الله عليه وآله حين سأله رجلٌ فقال : يا رسول الله : فيم النجاة ؟ فقال : « ألّا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس » (٥) وفي حديث الثلاثة - المقتول

---

(١) الماعون ٥ الى ٨ .

(٢) فاطر : ١٠ « ويبور » اى يكسد ويفسد ويهلك . (٣) الانسان : ١٠ .

(٤) الكهف : ١١٠ وهو حديث أخرجه عبدالرزاق و ابن ابى الدنيا فى الاخلاص و ابن أبي حاتم والطبرانى والحاكم ج ٤ ص ٣٣٠ عن طاؤوس والبيهقي في شعب الايمان موصولاً عن طاؤوس عن ابن عباس . راجع الدرالمنثور ج ٤ ص ٢٥٥ .

(٥) لم أجد له أصلا الا ما رواه الصدوق -ره- فى أماليه عن رسول الله صلى الله عليه وآله « أنه سئل فيما النجاة غداً ؟ فقال : انما النجاة فى أن لا تخادعوا الله فيخدعكم فانه من يخادع الله يخدعه و يخلع منه الايمان ونفسه يخدع لو يشعر فقيل له : وكيف يخادع -

في سبيل الله والمتصدّق بماله والقارئ لكتابه كما أوردناه في كتاب الإخلاص ـ فإنّ الله تعالى يقول لكلّ واحد منهم : « كذبت بل أردت أن يقال : فلانٌ شجاع ، كذبت بل أردت أن يقال : فلان جوادٌ ، كذبت بل أردت أن يقال : فلان قارئ ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّهم لم يثابوا و أنّ رياءهم هو الّذي أحبط أعمالهم »(١).

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « من راءى راءى الله به و من سمع سمّع الله به »(٢).

و في حديث آخر طويل « إنّ الله تعالى يقول للملائكة : إنّ هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجّين »(٣).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشّرك الأصغر ، قالوا : وما الشّرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرّياء يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : إذهبوا إلى الّذين كنتم تراؤون في الدّنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء »(٤).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « استعيذوا بالله من جبّ الحزن قيل : و ما هو يا رسول الله قال : وادي جهنّم اُعدّ للقرّاء المرائين »(٥).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله تعالى : من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كلّه وأنا منه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشّرك »(٦).

← الله ؟ قال : يعمل بما امر الله به ثم يريد غيره ، فاتقوا الله واجتنبوا الرّياء فانه شرك بالله ، ان المرائي يدعى يوم القيامة باربعة اسماء : يا كافر ، يا فاجر ، يا غادر ، يا خاسر حبط عملك و بطل أجرك ولاخلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممّن كنت تعمل له » انتهى .

(١) أخرجه مسلم والنسائي و الترمذي ج ٩ ص ٢٣٠ وحسنه وابن حبّان في صحيحه راجع الترغيب ج ١ ص ٥٢ .

(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٣٠ من حديث جندب . وفيه «يرائي»

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن ابي الدنيا في الاخلاص وابو الشيخ في كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلاً (المغني) ورواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٩٤ تحت رقم ٧ كما يأتي مع بيان له .

(٤) أخرجه احمد ج ٥ ص ٤٢٨ من حديث محمود بن لبيد .

(٥) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٣٠ وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٠٣ من حديث ابي سعيد الخدري .

و قال عيسى صلوات الله عليه : « إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلاّ يرى الناس أنّه صائم وإذا أعطى بيمينه فليُخف عن شماله و إذا صلّى فليرخ ستر بابه فإنّ الله يقسم الثناء كما يقسم الرّزق » .

و قال نبيّنا صلى الله عليه وآله : « لايقبل الله عملاً فيه مقدار ذرّة من رياء » (١).

و عنه صلى الله عليه وآله «أدنى الرّياء شركٌ »(٢).

و قال صلى الله عليه وآله : « أخوف من أخاف عليكم الرّياء والشّهوة الخفيّة » (٣) وهي أيضاً ترجع إلى خفايا الرّياء ودقائقه .

و قال صلى الله عليه وآله : « إنّ في ظلّ العرش يوم لاظلّ إلّا ظلّه رجلاً تصدّق بيمينه فكاد يخفيها عن شماله » (٤) .

و لذلك ورد : « أنّ فضل عمل السرّ على عمل الجهر بسبعين ضعفاً »(٥).

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ المرائي ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر ياغادر يا مرائي ضلّ عملك وحبط أجرك ، إذهب فخذ أجرك ممّن كنت تعمل له » (٦).

و قال شدّاد بن أوس : رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يبكي فقلت : ما يبكيك ؟ قال : «إنّي تخوّفت على اُمّتي الشّرك أما إنّهم لايعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولاحجراً ولكنّهم يراؤون بأعمالهم » (٧) .

---

(١) قال العراقي : لم أجده هكذا .

(٢) أخرجه الحاكم ج ٣ ص ٢٧٠ و صحّحه . ورواه البيهقي في الشعب عن معاذ بن جبل قال : سمعت النبي صلى الله عليه و آله يقول في حديث له : « ان يسيراً من الرياء شرك .. الحديث » راجع الدر المنثور ج ٤ ص ٢٥٧ .

(٣) أخرجه ابن ماجه وقد تقدم أوّل الكتاب .

(٤) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٩٣ في حديث عن ابي هريرة .

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء باختلاف ومضمونه واحد .

(٦) قال العراقي : أخرجه ابن ابي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسمّ وزاد « ياكافر ياخاسر» و لم يقل « يا مرائي » و اسناده ضعيف اه أقول : وقد مر مضمونه في الهامش آنفاً .

(٧) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٣٣٠ باختلاف ، وابن ماجه تحت رقم ٤٢٠٥ بنحوه .

و قال رسول الله ﷺ : « لمّا خلق الله الأرض مادت بأهلها فخلق الجبال فصيّرها أوتاد الأرض فقالت الملائكة : ما خلق ربّنا خلقاً هو أشدّ من الجبال فخلق الله الحديد فقطع الجبل ، ثمّ خلق النار فأذاب الحديد ، ثمّ أمر الله تعالى الماء بإطفاء النار و أمر الرّيح فكدرت الماء ، فاختلفت الملائكة فقالت : نسأل الله تعالى فقالوا : يا ربّ ما أشدّ ما خلقت من خلقك ؟ قال الله تعالى : لم أخلق شيئاً هو أشدّ من [قلب] ابن آدم حين يتصدّق بيمينه بصدقة فيخفيها عن شماله فهذا أشدّ خلق خلقته »(١).

و روى عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل أنّه قال لمعاذ : حدّثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال : فبكى معاذ حتّى ظننت أنّه لا يسكت ثمّ سكت ، ثمّ قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : لي يا معاذ ، قلت : لبّيك بأبي أنت و أمّي قال : إنّي محدّثك حديثاً إن أنت حفظته نفعك و إن أنت ضيّعته و لم تحفظه انقطعت حجّتك عند الله يوم القيامة ، يا معاذ إنّ الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات و الأرض ثمّ خلق السماوات ، فجعل لكلّ سماء من السبعة ملكاً بوّاباً عليها قد جلّلها عظماً فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى أن أمسى ، له نور كنور الشمس حتّى إذا صعدت به إلى السماء الدّنيا زكّته فكثّرته فيقول الملك للحفظة : اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربّي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري ، قال : ثمّ تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتمرّ فتزكّيه وتكثّره حتّى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكّل بالسماء الثانية : قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنّه أراد بعمله هذا عرض الدّنيا أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنّه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم ، قال : و تصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نوراً من صدقة و صيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم

(١) أخرجه الترمذي ج ١٢ ص ٢٦٣ بادنى اختلاف . وقال : غريب لانعرفه الا من هذا الوجه .

الملك الموكّل بها : قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنّه كان يتكبّر على الناس في مجالسهم ، قال : و تصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدرّيّ له دويّ من تسبيح و صلاة و حجّ و عمرة حتّى يجاوزوا به إلى السماء الرّابعة فيقول لهم الملك الموكّل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، اضربوا به ظهره وبطنه أنا صاحب العجب أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنّه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب في عمله ، قال : و تصعد الحفظة بعمل العبد يجاوزوا به إلى السماء الخامسة كأنّه العروس المزفوفة إلى بعلها فيقول لهم الملك الموكّل بها : قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنّه كان يحسد الناس من يتعلّم ويعمل بمثل عمله و كلّ من كان يأخذ فضلاً من العبادة يحسدهم و يقع فيهم ، أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ، قال : و تصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة و زكاة و حجّ و عمرة و صيام فيجاوزون به إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكّل بها : قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنّه كان لا يرحم إنساناً قطّ من عباد الله أصابه بلاء أو ضرّ بل كان يشمت به أنا ملك الرّحمة أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ، قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد و ورع له دويّ كدويّ الرّعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكّل بها : قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به جوارحه واقفلوا على قلبه إنّي أحجب عن ربّي كلّ عمل لم يرد به وجه ربّي إنّه أراد بعمله غير الله تعالى ، إنّه أراد رفعة عند الفقهاء ، و ذكراً عند العلماء ، وصيتاً في المدائن أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ، و كلّ عمل لم يكن لله خالصاً فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائي ، قال : و تصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة و زكاة و صيام وحجّ وعمرة و خلق حسن وصمت وذكر الله وتشيّعه ملائكة السماوات حتّى يقطعوا به الحجب كلّها إلى الله تعالى فيقفون بين يديه و يشهدون له بالعمل الصالح المخلص

لله قال : فيقول الله لهم : أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرّقيب على نفسه إنّه لم يردني بهذا العمل و أراد به غيري فعليه لعنتي ، فتقول الملائكة كلّهم : عليه لعنتك و لعنتنا ، و تقول السماوات كلّها : عليه لعنة الله ولعنتنا ، وتلعنه السماوات السبع و من فيهنّ . قال معاذ : يا رسول الله أنت رسول الله و أنا معاذ ، قال : اقتد بي و إن كان في عملك تقصير يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن و احمل ذنوبك عليك و لا تحملها عليهم ، ولا تزكّ نفسك بذمّهم ولا ترفع نفسك عليهم ، و لا تدخل عمل الدّنيا في عمل الآخرة و لا تتكبّر في مجلسك لكي يحذر النّاس من سوء خلقك ، ولا تناج رجلاً وعندك آخر ، ولا تتعظّم على النّاس فينقطع عنك خير الدّنيا ، و لا تمزّق النّاس فتمزّقك كلاب النار يوم القيامة في النار ، قال الله تعالى : «والناشطات نشطاً»[1] تدري من هنّ يا معاذ قلت : ما هنّ بأبي أنت وأمّي يا رسول الله قال : كلاب في النّار تنشط اللّحم والعظم ، قلت : بأبي أنت و أمّي يا رسول الله فمن يطيق هذه الخصال و من ينجو منها ؟ قال : يا معاذ إنّه ليسير على من يسّره الله عليه ، قال : فمارأيت أحداً أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر ممّا في هذا الحديث »[2].

وقال علي عليه السلام : « للمرائي ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده ، وينشط إذا كان في النّاس ، ويزيد في العمل إذا اُثني عليه ، وينقص إذا ذمّ »[3].

أقول : و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال : « قال الله تعالى : « أنا خير شريك من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلّا ما كان لي

---

(١) النازعات : ٢.

(٢) أخرجه بطوله ابن المبارك في الزهد عن رجل لم يسمه عن معاذ و رواه ابن حبان في غير الصحيح والحاكم وغيرهما و نقله المنذري في الترغيب ج ١ ص ٦ وقال : آثار الوضع ظاهرة عليه في جميع طرقه و بجميع ألفاظه ، ورواه ابن الجوزي في الموضاعات أيضا .

(٣) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٩٥ وفيه « ويحب أن يحمد في جميع اموره » بدل قوله : « وينقص اذا ذم » . وسيأتي عنقريب .

خالصاً » (١).

و عنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم ، وتحسن فيه علانيتهم طمعاً في الدّنيا ، لا يريدون به ماعند ربّهم ، يكون دينهم رياء ، لايخالطهم خوف ، يعمّهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم » (٢).

و عنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله تعالى : اجعلوها في سجّين إنّه ليس إيّاي أراد بها » (٣).

وبإسناده قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : « ثلاث علامات للمرائي : ينشط إذا رأى الناس ، ويكسل إذا كان وحده ، ويحبّ أن يحمد في جميع اُموره » (٤).

و عنه عليه السلام قال : « قال أمير المؤمنين عليه السلام : اخشوا الله خشية ليست بتعذير واعملوا لله في غير رياء ولا سمعة ، فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى عمله » (٥).

و عن أبيه الباقر عليه السلام قال : « الإبقاء على العمل أشدّ من العمل ، قيل : و ما الإبقاء على العمل ؟ قال : يصل الرّجل بصلة ، وينفق نفقة لله وحده لاشريك له فكتبت له سرّاً ، ثمّ يذكرها فتمحى فتكتب له علانية (٦) ثمّ يذكرها فتمحى و تكتب له

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ٩ .
(٢) المصدر ج ٢ ص ٢٩٦ تحت رقم ١٤ .
(٣) المصدر ج٢ ص ٢٩٥ تحت رقم٧ ، والابتهاج : السرور . وقوله « يصعد بعمل العبد » اي يشرع في الصعود . وقوله « فاذاصعد » اي تم صعوده ووصل الى موضع يعرض فيه الاعمال على الله تعالى . وقوله : « بحسناته » من قبيل وضع المظهر موضع المضمر ، تصريحاً بان العمل من جنس الحسنات . و قوله : « اجعلوها في سجين » اى اثبتوا تلك الاعمال ، او التي تزعمون أنها حسنات في ديوان الفجار الذى هو في سجين كما في قوله تعالى : « كلا ان كتاب الفجار لفي سجين » .
(٤) المصدرج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ٨ .
(٥) المصدر ج ٢ ص ٢٩٧ تحت رقم ١٧ .
(٦) اى يصير ثوابه أخف.

رياء »[1] .

و عن الصادق عليه السلام أنّه قال لعبّاد بن كثير البصري في المسجد : « ويلك يا عبّاد إيّاك و الرياء فإنّه من عمل لغير الله و كله الله إلى من عمل له »[2].

و عنه عليه السلام « إجعلوا أمركم هذا لله ولا تجعلوه للناس فإنّه ما كان لله فهو لله و ما كان للناس فلا يصعد إلى الله »[3].

و عنه عليه السلام « كلّ رياء شرك ، إنّه من عمل للناس كان ثوابه على الناس و من عمل لله كان ثوابه على الله »[4].

و عنه عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً »[5] قال : الرّجل يعمل شيئاً من الثواب لايطلب به وجه الله إنّما يطلب تزكية الناس ، يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الّذي أشرك بعبادة ربّه ، ثمّ قال : ما من عبد أسرّ خيراً فذهبت الأيّام أبداً حتّى يظهر الله له خيراً ، وما من عبد يسرّ شرّاً فذهبت الأيّام حتّى يظهر الله له شرّاً »[6].

و عنه عليه السلام قال : « ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً ويسرّ سيّئاً ؟ أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أنّ ذلك ليس كذلك والله تعالى يقول : « بل الإنسان على نفسه بصيرة» إنّ السريرة إذا صحّت قويت العلانية »[7].

و عنه عليه السلام قال : « من أراد الله بالقليل من عمله أظهره الله له أكثر ممّا أراد ومن أراد الناس بالكثير من عمله في تعب من بدنه وسهر من ليله أبى الله إلّا أن يقلّله في عين من سمعه »[8].

و عن الرّضا عليه السلام قال لمحمد بن عرفة : « ويحك يا ابن عرفة اعملوا لغير رياء

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٩٦ تحت رقم ١٦ .

(٢) الى (٤) المصدر ج ٢ ص ٢٩٣ تحت رقم ١ و ٢ و ٣ .

(٥) الكهف : ١١٠ . (٦) الكافي ج ٢ ص ٢٩٣ تحت رقم ٤ .

(٧) المصدر ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ١١ .

(٨) المصدر ج ٢ ص ٢٩٦ تحت رقم ١٣ .

ولاسمعة فإنّه من عمل لغير الله وَكَلَه الله إلى ماعمل ، ويحك ماعمل أحد عملاً إلاّ ردّاه الله به ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ »[1] .

قال أبوحامد : وأمّا الآثار : رأى أبو أمامة رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال : أنت أنت لوكان هذا في بيتك .

و قال رجل لعبادة بن الصامت : اُقاتل بسيفي في سبيل الله اُريد وجه الله و محمدة الناس ؟ قال : لاشيء لك فسأله ثلاث مرّات كلّ ذلك يقول : لاشيء لك ، ثمّ قال في الثلاثة : إنّ الله يقول « أنا أغنى الأغنياء عن الشّرك ـ الحديث ـ » .

و قال الحسن : لقد صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلّا مخافة الشّهرة . وإن كان أحدهم ليمرّ ويرى الأذى في الطريق فما منعه أن ينحّيه إلّا مخافة الشهرة ، ويقال : إنّ المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : يا غادر يا فاجر يا خاسر اذهب فخذ أجرك ممّن عملت له فلا أجر لك عندنا .

وقال الفضيل : كانوا يراؤون بما يعملون و صاروا اليوم يراؤون بما لايعملون .

و قال عِكرِمة : إنّ الله يعطي العبد على نيّته مالايعطيه على عمله لأنّ النيّة لارياء فيها .

وقال الحسن : المرائي يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس : هوصالح . و كيف يقولون وقدحلّ من ربّه محلّ الارديا. فلابدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفه .

و قال قتادة : إذا راءى العبد يقول الله تعالى : انظروا إلى عبدي يستهزىء بي .

و قال مالك بن دينار: القرّاء ثلاثة قرّاء الدّنيا وقرّاء الملوك وقرّاء الرّحمن .

و قال ابن المبارك : أن كان الرّجل ليطوف بالبيت و هو بخراسان ، فقيل : و كيف ذاك ؟ قال : يحبّ أن يذكر أنّه مجاور بمكّة .

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٩٤ تحت رقم ٥ . و قوله عليه السلام : « رداه » اى البسه الرداء يعني يلبسه الله تعالى ذلك العمل كالرداء .

و قال إبراهيم بن أدهم : ماصدق الله من أراد أن يشتهر .

✿ (بيان حقيقة الرّياء ومايراءى به) ✿

إعلم أنّ الرّياء مشتقّ من الرؤية ، والسمعة مشتقّة من السماع وإنّما الرّياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلّا أنّ الجاه و المنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات و اسم الرّياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلب بالعبادات وإظهارها ، فحدّ الرّياء هو إرادة المنزلة بطاعة الله تعالى فالمرائي هو العابد والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم لطلب المنزلة في قلوبهم و المراءى به هي الخصال الّتي قصد المرائي إظهارها و الرّياء هو قصده إظهار ذلك والمراءى به كثيرة وتجمعها خمسة أقسام وهي مجامع مايتزيّن به العبد للنّاس فهو البدن والزيّ والقول والعمل والأتباع والأشياء الخارجة وكذلك أهل الدّنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة إلّا أنّ طلب الجاه وقصد الرّياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرّياء بالطاعات .

القسم الأوّل : الرّياء في الدّين من جهة البدن و ذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدّة الاجتهاد و عظم الحزن على أمر الدّين و غلبة خوف الآخرة و ليدلّ بالنحول على قلّة الأكل و بالصفار على سهر اللّيل و كثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدّين و كذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدلّ به على استغراق الهمّ بالدّين وعدم التفرّغ لتسريح الشعر ، وهذه الأسباب مهما ظهرت استدلّ الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعو النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة و يقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين ليستدلّ بذلك على أنّه مواظب على الصوم و أنّ وقار الشرع هو الّذي خفض من صوته أوضعف الجوع هو الّذي ضعف قوّته وعن هذا قال عيسى عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهّن رأسه ويرجّل شعره ويكحل عينيه و ذلك كلّه لمايخاف عليه من نزغ الشيطان بالرّياء ولذلك قال ابن مسعود : أصبحوا صياماً مدهّنين ، فهذه مراياة أهل الدّين في البدن وأما أهل الدّنيا فيراؤون بإظهار السمن و صفاء اللّون و اعتدال القامة و حسن الوجه ونظافة البدن

وقوّة الأعضاء و تناسبها .

الثاني الرّياء بالزيّ والهيئة أمّا الهيئة فبتشعيث شعر الرّأس وحلق الشارب وإطراق الرّأس في المشي والهدوء في الحركة و إبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب و لبس الصوف و تشميرها إلى قريب من نصف الساق و تقصير الأكمام و ترك تنظيف الثوب وتركه مخرقاً ، كلّ ذلك يرائي به ليظهر من نفسه أنّه متّبع للسنّة فيه و مقتدٍ فيه بعباد الله الصالحين ، ومنه لبس المرقّع والصلاة على السجّادة ولبس الثياب الزرق تشبّهاً بالصوفيّة مع الإفلاس عن حقائق التصوّف في الباطن . و منه التقنّع بالإزار فوق العمامة ليري به أنّه انتهى تقشّفه إلى الحذر من غبار الطريق ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميّزه بتلك العلامة و منه الدّرّاعة و الطيلسان يلبسه و هو خال من العلم ليوهم أنّه من أهل العلم .

والمراؤون بالزّي على طبقات منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزّهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائي بغلظها وقصرها ووسخها و تخرّقها ، ولو كلّف أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً ممّا كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذّبح و ذلك لخوفه أن يقول الناس : قد بدا له في الزّهد و رجع عن تلك الطريقة و رغب في الدّنيا . وطبقة اُخرى يطلبون القبول عند أهل الصّلاح وعند أهل الدّنيا من الملوك والتجّار ، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردّهم القرّاء ولو لبسوا الثياب المخرقة النازلة ازدرتهم أعين الملوك والأغنياء ، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدّين و الدّنيا فلذلك يطلبون الأصواف الدّقيقة والأكيسة الرّقيقة و المرقّعات المصبوغة والفوط الرّفيعة فيلبسونها ، ولعلّ قيمة أثوابهم قيمة ثياب الأغنياء ، وهيئته ولونه لون ثياب الصلحاء ، فيلتمسون القبول عند الفريقين ، وهؤلاء لو كلّفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذّبح خوفاً من السقوط من أعين الملوك والأغنياء ، و لو كلّفوا لبس ثوب الدّيبقي والكتّان الرقيق الأبيض أو المقصّب المعلّم وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم لعظم عليهم خوفاً من أن يقول أهل الصلاح : قد رغبوا في زيّ أهل الدّنيا و كلّ طبقة منهم رأى منزلته في زيّ مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى

مادونه أومافوقه وإن كان مباحاً خيفة من المذمّة . و أمّا أهل الدّنيافمراءاتهم بالثياب النفيسة و المراكب الرّفيعة و أنواع التوسّع والتجمّل في الملبس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيل و بالثياب المصبغة و الطيالسة النفيسة و ذلك ظاهر بين الناس ، فإنّهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة و يشتدّ عليهم لو برزوا للّناس على تلك الثياب مالم يبالغوا في الزّينة .

الثالث الرّياء بالقول و رياء أهل الدّين بالوعظ و التذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاورة إظهاراً لغزارة العلم و دلالة على شدّة العناية بأحوال السلف الصّالحين و تحريك الشفتين بالذّكر في محضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق وإظهار الغضب للمنكرات ، و إظهار الأسف على مقارفة الناس بالمعاصي ، وتضعيف الصوت في الكلام و ترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدلّ بذلك على الحزن و الخوف ، وادّعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ و الدّقّ على من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنّه بصير بالأحاديث و المبادرة إلى أنّ الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه و المجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوّته في علم الدّين ، والرياء بالقول كثير وأنواعه لاتنحصر ، وأمّا أهل الدّنيا فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في العبارات وحفظ النحو الغريب للإغراب على أهل الفضل وإظهار التودّد إلى الناس لاستمالة القلوب .

الرّابع الرّياء بالعمل كمراءاة المصلّي بطول القيام و مدّ الظهر و تطويل السجود و الرّكوع و إطراق الرأس و ترك الالتفات و إظهار الهدوء و السكون و تسوية القدمين و اليدين ، و كذلك بالصوم و الغزو و الحجّ و بالصدقة و بإطعام الطعام و بالإخبات في المشي عند اللّقاء كإرخاء الجفون و تنكيس الرأس و الوقار في الكلام حتّى أنّ المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا اطّلع عليه أحدٌ من أهل الدّين رجع إلى الوقار ، وإطراق الرأس خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة و قلّة الوقار ، فإن غاب الرّجل عاد إلى عجلته فإذا رآه عاد إلى خشوعه و لم

يحضره ذكر الله حتّى يكون يجدّد الخشوع له بل هو لاطّلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنّه من العبّاد و الصلحاء . و منهم من إذا سمع هذا استحيى من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس فيكلّف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتّى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير و يظنّ أنّه يتخلّص به عن الرّياء و قد تضاعف به رياؤه فإنّه صار في خلوته أيضاً مرائياً فإنّه إنّما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا لخوف من الله و حياء منه ، و أمّا أهل الدّنيا فمراءاتهم بالتبختر والاختيال و تحريك اليدين و تقريب الخطا والأخذ بأطراف الذّيل و إدارة العطفين ليدلّوا بذلك على الجاه و الحشمة .

الخامس المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالّذي يتكلّف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال : إنّ فلاناً قد زار فلاناً ، أو عابداً من العباد ليقال: إنّ أهل الدّين يتبرّكون بزيارته و يتردّدون إليه ، أو ملكاً من الملوك أو عاملاً من عمّال السلطان ليقال : إنّهم يتبرّكون به لعظم رتبته في الدّين ، و كالّذي يكثر ذكر الشيوخ ليري أنّه لقي شيوخاً كثيرة و استفاد منهم ، فيباهي بشيوخه و مباهاته و مراءاته تترشّح منه عند مخاصمته ، فيقول لغيره : و من لقيت من الشيوخ ؟ و أنا قد لقيت فلاناً و فلاناً و درت البلاد و خدمت الشيوخ ، وما يجري مجراه ، فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون و كلّهم يطلبون به الجاه و المنزلة في قلوب العباد ، و منهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه ، فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة و كم من عابد اعتزل إلى قلّة جبل مدّة مديدة وإنّما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنّهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوّش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته بل يشتدّ لذلك غمّه و يسعى بكلّ حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم مع أنّه قطع طمعه من أموالهم ولكنّه يحبّ مجرّد الجاه فإنّه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه فإنّه نوع قدرة واستيلاء و كمال في الحال وإن كان سريع الزّوال لايغترّ به إلّا الجهّال ولكن أكثر الناس جهّال ، ومن المرائين من لايقنع بقيام منزلته بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللّسان بالثناء و الحمد ، ومنهم من يريد انتشار الصيت في

البلاد لتكثر الرّحلة إليه ، ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته و تنجز الحوائج على يديه فيقوم له به جاه عند العامّة ، ومنهم من يقصد التوصّل بذلك إلى جمع حطام و كسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام وهؤلاء شرّ طبقات المرائين الّذين يراؤون بالاسباب الّتي ذكرناها . فهذه حقيقة الرّياء وما به يقع الرّياء .

﴿ فصل ﴾

فان قلت : فالرّياء حرام ؟ أو مكروه ؟ أو مباح ؟ أو فيه تفصيل ؟ .

فأقول : فيه تفصيل فانّ الرّياء هو طلب الجاه وهو إمّا أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات فان كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنّه طلب منزلة في قلوب العباد ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورة فكذلك الجاه و كما أنّ كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه الانسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات محمود وهو الّذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال : «إنّي حفيظٌ عليم» و كما أنّ المال فيه سمّ ناقع وترياق نافع فكذلك الجاه و كما أنّ كثير المال يلهي ويطغي وينسي ذكر الله والدّار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشدّ وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال و كما أنّا لا نقول : تملّك المال الكثير حرام فلا نقول أيضاً : تملّك القلوب الكثيرة حرام إلّا إذا حملته كثرة المال و كثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز ، نعم انصراف الهمّ إلى سعة الجاه مبدء الشرور كانصراف الهمّ إلى كثرة المال ولا يقدر محبّ الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللّسان و غيرها و أمّا سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه و من غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وآله ومَن بعده من علماء الدّين ولكن انصراف الهمّ إلى طلب الجاه نقصان في الدّين ولا يوصف بالتحريم فعلى هذا نقول تحسين الثوب الّذي يلبسه الانسان عند الخروج إلى الناس مراءاة و هو ليس بحرام لأنّه ليس رياء بالعبادة بل بالدّنيا وقس على هذا كلّ تجمّل للناس وتزيّن لهم والدّليل

عليه ما روي عن عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أراد يوماً أن يخرج على أصحابه فكان ينظر في حبّ من الماء ويسوّي عمامته و شعره فقالت : أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ فقال : نعم «إنّ الله يحبّ من العبد أن يتزيّن لإخوانه إذا خرج إليهم »(١)، نعم هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبادة لأنّه كان مأموراً بدعوة الخلق و ترغيبهم في الاتّباع و استمالة قلوبهم ، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتّباعه فكان يجب عليه أن يظهر لهم من محاسن أحواله لكيلا تزدريه أعينهم فإنّ أعين عوام الخلق تمتدّ إلى الظواهر دون السرائر فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن لو قصد قاصدٌ به أن يحسن نفسه في أعينهم حذراً من ذمّهم ولومهم واسترواحاً إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمراً مباحاً إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمّة ويطلب راحة الأنس بالإخوان ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم ، فإذاً المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحاً وقد تكون طاعة وقد تكون مذمومة و ذلك بحسب الغرض المطلوب بها ولذلك نقول الرّجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنّه سخيّ فهذا مراءاة ليس بحرام و كذلك أمثاله .

أمّا العبادات كالصدقة والصلاة والغزو والحجّ فللمرائي فيه حالتان إحداهما أن لا يكون له قصد إلّا الرّياء المحض دون الأجر و هذا يبطل عبادته لأنّ الأعمال بالنيّات و هذا ليس بقصد العبادة ثمّ لا يقتصر على إحباط عبادته حتّى نقول : صار كما كان قبل العبادة بل يعصي بذلك و يأثم لما دلّت عليه الأخبار والآيات ، والمعنيّ فيه أمران أحدهما يتعلّق بالعبادة وهو التلبيس والمكر لأنّه خيّل إليهم أنّه مخلص مطيع لله و أنّه من أهل الدّين وليس كذلك ، والتلبيس في أمر الدّنيا أيضاً حرام حتّى لو قضى دين جماعة وخيّل إلى الناس أنّه متبرّعٌ عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم بذلك لما فيه من التلبيس و تملّك القلوب بالخداع والمكر، والثاني يتعلّق بالله وهو أنّه مهما قصد بعبادة الله خلق الله فهو مستهزىء بالله ولذلك قال قتادة : إذا رائي العبد قال الله تعالى لملائكته : انظروا إليه كيف يستهزىء بي . و مثاله أن تمثّل بين يدي

(١) قال العراقي : أخرجه ابن عدي في الكامل من حديث عائشة .

ملك من الملوك طول النّهار كما جرت عادة الخدم وإنّما وقوفك لملاحظتك جارية من جواري الملك أو غلاماً من غلمانه فإنّ هذا استهزاء بالملك إذا لم تقصد التقرّب إلى الملك بخدمته بل قصدت به عبداً من عبيده فأيّ استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضرّاً ولا نفعاً و هل ذلك إلّا أنّه ظنّ أنّ ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنّه أولى بالتقرّب إليه من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصودعبادته وأيّ استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى ؟ فهذا من كبائر المهلكات ولهذا سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله « الشّرك الأصغر »(١) نعم بعض درجات الرّياء أشدّ من بعض كما سيأتي بيانه في درجات الرّياء ولايخلو شيء منه عن أثم غليظ أو خفيف بحسب مابه المراءاة ولولم يكن في الرّياء إلّا أنّه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية فإنّه إذا لم يقصد التقرّب إلى الله فقد قصد غير الله ولعمري لو قصد غير الله بالسجود لكفر كفراً جليّاً إلّا أنّ الرّياء هوالكفر الخفيّ لأنّ المرائي عظم في قلبه النّاس فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع لهم فكان النّاس هم المعظّمون بالسجود من وجه و مهما زال قصد تعظيم الله بالسجود و بقي تعظيم الخلق كان ذلك قريباً من الشّرك إلّا أنّه قصدتعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله فعن هذا كان شركاً خفيّاً لا شركاً جليّاً وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلّا من خدعه الشّيطان و أوهم عنده أنّ العباد يملكون من نفعه و ضرّه و رزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر ممّا يملكه الله تعالى فلذلك عدل بوجهه عن الله تعالى إليهم فأقبل بقلبه عليهم يستميل بذلك قلوبهم ، ولو وكله الله إليهم في الدّنيا والآخرة لكان ذلك أقلّ مكافأة له على صنيعه فإنّ العباد كلّهم عاجزون عن أنفسهم لايملكون لأنفسهم ضرّاً ولانفعاً فكيف لغيرهم ، هذا في الدّنيا فكيف في يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً بل يقول الأنبياء فيه : نفسي نفسي فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عندالله مايرتقبه بطمعه الكاذب في الدّنيا من النّاس فلا ينبغي أن نشكّ في أنّ المرائي بطاعة الله في

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج ٥ ص ٤٢٥ من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم .

سخط الله من حيث النقل والعقل جميعاً ، هذا إذا لم يقصد الأجر فأمّا إذا قصد الأجر والحمد جميعاً في صدقته أو صلاته فهو الشرك الّذي يناقض الإخلاص و قد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص ويدلّ على ما نقلناه في الآثار ههنا على أنّه لا أجر فيه أصلاً .

(بيان درجات الرّياء)

إعلم أنّ بعض أبواب الرّياء أشدّ وأغلظ من بعض واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدّرجات فيه وأركانه ثلاثة المراءى به ، والمراءى لأجله ، ونفس قصد الرّياء .

الرّكن الأول نفس قصد الرّياء و ذلك لا يخلو إمّا أن يكون مجرّداً دون إرادة عبادة الله والثّواب و إمّا أن يكون مع إرادة الثواب فإن كان كذلك لا يخلو إمّا أن تكون إرادة الثواب أقوى و أغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العباد فتكون الدّرجات أربعاً .

الدّرجة الأولى وهي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلاً كالّذي يصلّي بين أظهر النّاس ولو انفرد لكان لا يصلّي ، بل ربّما يصلّي من غير طهارة مع النّاس فهذا جرّد قصده إلى الرّياء فهو الممقوت عند الله ، و كذلك من يخرج الصّدقة خوفاً من مذمّة النّاس وهو لا يقصد الثّواب و لو خلا بنفسه لما أدّاها فهذه من الدّرجة العليا من الرّياء .

الدّرجة الثانية أن يكون له قصد الثواب أيضاً ولكن قصداً ضعيفاً بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل ولو لم يكن قصد الثواب لكان قصد الرّياء يحمله على العمل فهذا قريب ممّا قبله و ما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقلّ بحمله على العمل لا ينفي عنه المقت والإثم .

الدّرجة الثالثة أن يكون قصد الثواب و قصد الرّياء متساويين بحيث لو كان كلّ واحد خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل فلمّا اجتمعا انبعثت الرّغبة ، أو كان كلّ واحد منهما لو انفرد لاستقلّ بحمله على العمل فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأساً برأس لا له ولا عليه ، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدلّ على أنّه لا يسلم وقد تكلّمنا عليه في كتاب الإخلاص ،

الدّرجة الرّابعة أن يكون اطّلاع الناس مرجّحاً ومقوّياً لنشاطه ولولم يكن لكان لايترك العبادة ولو كان قصد الرّياء وحده لما أقدم عليه والّذي نظنّه - والعلم عندالله - أنّه لايحبط أصل الثواب ولكنّه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصدالرّياء ويثاب على مقدارقصدالثواب ، وأمّاقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول‌الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك »[1] فهومحمول على ما إذا تساوى القصدان أوكان قصد الرّياء أرجح .

الرّكن الثاني المراءى به وهوالطاعات و ذلك ينقسم إلى الرّياء بأصول العبادات و إلى الرّياء بأوصافها .

القسم الأوّل وهو الأغلظ الرّياء بالأصول و هو على ثلاث درجات :

الدّرجة الأولى الرّياء بأصل الإيمان و هوأغلظ أبواب الرّياء وصاحبه مخلّد في النار و هو الّذي يظهر كلمتي الشّهادة و باطنه مشحون بالتّكذيب ولكنّه يرائي بظاهر الإسلام وهوالّذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتّى كقوله : « إذاجاءك المنافقون قالوا نشهد إنّك لرسول الله والله يعلم إنّك لرسوله والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون »[2] أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم .

و قال تعالى : « و من الناس من يعجبك قوله في الحيوة الدّنيا ويشهد الله على ما في قلبه و هو ألدّ الخصام ✫ وإذا تولّى سعى في الأرض - الآية - »[3] .

و قال تعالى : « و إذا لقوكم قالوا آمنّا و إذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ »[4] .

و قال تعالى : « يراؤون النّاس ولا يذكرون الله إلّا قليلاً »[5] و الآيات فيهم كثيرة وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ممّن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لغرض و ذلك ممّا يقلّ في زماننا ولكن يكثر نفاق من ينسلّ من الدّين باطناً فيجحد الجنّة والنّار والدّار الآخرة ميلاً إلى قول الملحدة أويعتقد طيّ بساط الشرع و

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٠٥ وقد تقدم . وأخرجه احمد ورجاله رجال الصحيح .

(٢) المنافقون : ٢ . (٣) البقرة : ٢٠١ و ٢٠٢ .

(٤) آل عمران : ١١٦ . (٥) النساء : ١٤٢ .

الأحكام ميلاً إلى أهل الإباحة أويعتقد كفراً أو بدعة وهو يظهر خلافه فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلّدين في النّار وليس وراء هذا الرّياء رياء ، و حال هؤلاء هو أشدّ من حال الكفّار المجاهرين لأنّهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر.

الدّرجة الثانية الرّياء بأصول العبادات مع التّصديق بأصل الدّين و هذا أيضاً عظيم عندالله و لكنّه دون الأوّل بكثير ، ومثاله أن يكون مال الرّجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزّكاة خوفاً من ذمّه والله يعلم منه أنّه لوكان في يده لماأخرجها أو يدخل وقت الصلاة و هو في جمع فيصلّي معهم وعادته ترك الصلاة في الخلوة و كذلك يصوم رمضان و هو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر و كذلك يحضر الجمعة و لولاخوف المذمّة لكان لايحضرها ، أو يصل رحمه ويبرّ والديه لا عن رغبة في الثواب ولكن خوفاً من الناس ، أو يغزو أويحجّ كذلك فهذا المرائي معه أصل الإيمان بالله يعتقد أنّه لا معبود سواه ولو كلّف أن يعبد غير الله أو يسجد لغير الله لم يفعل ولكنّه يترك العبادات للكسل و ينشط عند اطّلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحبّ إليه من منزلته عند الخالق و خوفه من مذمّة النّاس أعظم من خوفه من عقاب الله و رغبته في محمدتهم أشدّ من رغبته في ثواب الله وهذا غاية الجهل ، و ماأجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير منسلّ عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد.

الدّرجة الثالثة أن لا يرائي بالإيمان و لا بالفرائض ولكنّه يرائي بالنوافل والسنن الّتي لوتركها لا يعصي ولكنّه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولإيثار لذّة الكسل على مايرجى من الثواب ، ثمّ يبعثه الرّياء على فعله و ذلك كحضور الجماعة في الصّلاة وعيادة المريض واتّباع الجنازة و غسل الميّت وكالتهجّد باللّيل وصيام يوم عرفة ونحوذلك ، فقديفعل المرائي جملة ذلك خوفاً من المذمّة أوطلباً للمحمدة ، ويعلم الله تعالى أنّه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض ، فهذا أيضاً عظيم و لكنّه دون ما قبله فإنّ الّذي قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق ، و هذا أيضاً قد فعل ذلك و اتّقى ذمّ الخلق دون ذمّ الخالق فكأنّ ذمّ الخلق أعظم عنده من عقاب الله تعالى ، و أمّا هذا فلم يفعل ذلك لأنّه لم يخف عقاباً على ترك

النافلة لو تركها وكأنه على الشطر من الأول وعقابه نصف عقابه، فهذا هو الرياء بأصول العبادات.

القسم الثاني الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها وهي أيضاً على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة كالذي غرضه أن يخفف الركوع و السجود و لا يطول القراءة فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود و ترك الالتفات و تمم القعود بين السجدتين، و قد قال ابن مسعود: من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه. أي أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة فإذا اطلع آدمي عليه أحسن الصلاة، و من جلس بين يدي إنسان متربعاً أو متكئاً فدخل غلامه فاستوى و أحسن الجلسة كان ذلك تقديماً للغلام على السيد و استهانة بالسيد لا محالة، وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة، و كذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفاً من مذمته، و كذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالاً لعبادة الصوم خوفاً من المذمة فهذا أيضاً من الرياء المحظور لأن فيه تقديماً للمخلوق على الخالق ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات.

فإن قال المرائي: إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود و كثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة فإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية فيقال له: هذه مكيدة للشيطان وتلبيس وليس الأمر كذلك فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك من غيبة غيرك، فلو كان باعثك الدين لكان شفقتك على نفسك أكثر و ما أنت في هذا إلا كمن يهدي وصيفة إلى ملك لينال منه ولاية يتقلدها فيهديها إليه وهي عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف و لا يبالي به إذا كان الملك وحده وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفاً من مذمة غلامه و ذلك محال بل من يراعي جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر.

نعم للمرائي فيه حالتان إحداهما أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس، وذلك حرام قطعاً، والثانية أن يقول: ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع

والسجود ولو خففت كان صلاتي عندالله ناقصة وآذاني الناس بذمّهم وغيبتهم وأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمّتهم ولا أرجو عليه ثواباً فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب و تحصل المذمّة . فهذا فيه أدنى نظر والصحيح أنّ الواجب عليه أن يحسن و يخلص فإن لم تحضره النيّة فينبغي أن يستمرّ على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذمّ بالمراءاة بطاعة الله فإنّ ذلك استهزاء كما سبق .

الدّرجة الثّانية أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه و لكن فعله في حكم التكملة والتتمّة لعبادته كالتطويل في الرّكوع والسجود و مدّ القيام وتحسين الهيئة و رفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الاُولى و تحسين الاعتدال والزّيادة في القراءة على السورة المعتادة و كذلك كثرة الخلوة في شهر رمضان و طول الصمت و كاختيار الأجود على الجيّد في الزكاة و إعتاق الرقبة الغالية في الكفّارة و كلّ ذلك ممّا لو خلّي ونفسه لكان لا يقدم عليه .

الدّرجة الثالثة أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده الصفّ الأوّل وتوجّهه إلى يمين الامام وما يجري مجراه و كلّ ذلك ممّا يعلم الله منه أنّه لو خلا بنفسه لكان لايبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة فهذه درجات الرّياء بالإضافة إلى مايرائي به وبعضه أشدّ من بعض والكلّ المذموم .

الركن الثالث المراءى لأجله فإنّ للمرائي مقصوداً لا محالة فإنّما يرائي لإدراك مال أو غرض من الأغراض لا محالة ، وله أيضاً ثلاث درجات :

الدّرجة الاُولى وهي أشدّها و أعظمها أن يكون مقصده التمكّن من معصية كالّذي يرائي بعباداته و يظهر التقوى والورع بكثرة النوافل و الامتناع من أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة ، فيولّى القضاء والأوقاف أوالوصايا أو مال الأيتام فيأخذها ، أو تسلّم إليه تفرقة الزّكوات أوالصّدقات ليستأثر بما يقدر عليه منها ، أو يودع الودايع فيأخذها و يجحدها ، أو تسلّم إليه الأموال الّتي تنفق في طريق الحجّ فيختزل بعضها أو كلّها ، أو يتوصّل بها إلى استتباع الحجيج و يتوصّل بقوّتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي ، وقد يظهر بعضهم زيّ التصوّف وهيئة الخشوع

وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتّذكير وإنّما قصده التحبّب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور ، وقد يحضرون في مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرّغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النّسوان والصّبيان أو يخرج إلى الحجّ و مقصوده الظفر بمن في الرّفقة من غلام أو امرأة وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى لأنّهم جعلوا طاعة ربّهم سلّماً إلى معصيته ، واتّخذوه آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم ، و يقرب من هؤلاء - وإن كان دونهم - من هو مقترفٌ بجريمة اتّهم بها وهو مصرٌّ عليها و يريد أن ينفي التّهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة كالّذي جحد وديعة واتّهمه الناس بها فيتصدّق بالمال ليقال : إنّه يتصدّق بمال نفسه فكيف يستحلّ مال غيره ، وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع و إظهار التقوى .

الدّرجة الثانية أن يكون غرضه نيل حظّ مباح من حظوظ الدّنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة كالّذي يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال وترغب في نكاحه النساء ، فيقصد إمّا امرأة بعينها لينكحها ، أو امرأة شريفة على الجملة ، وكالّذي يرغب في أن يتزوّج بنت عالم أو عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته فهذا رياء محظورٌ لأنّه طلب بطاعة الله متاع الدّنيا و لكنّه دون الأوّل فإنّ المطلوب بهذا مباح في نفسه .

الدّرجة الثالثة أن يقصد نيل حظّ و إدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خيفة من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعدّ من الخاصّة والزّهّاد و يعتقد أنّه من جملة العامّة ، كالّذي يمشي مستعجلاً فيطّلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال : إنّه من أهل اللّهو والسهو لا من أهل الوقار ، وكذلك يسبق إلى الضحك أو يبدو منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفّس الصّعداء و إظهار الحزن و يقول : ما أعظم غفلة الآدميّ عن نفسه ، والله يعلم منه أنّه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك ، وإنّما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير ، وكالّذي يرى جماعة يصلّون النوافل ويتهجّدون أو يصومون التطوّع

أو يتصدّقون فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً منه ، وكالّذي يعطش في اليوم الّذي يصام فيه تطوّعاً فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنّه غير صائم فإذا ظنّوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجلهم أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظنّ أنّه صائم وقد لا يصرّح بأنّه صائم ولكن يقول : لي عذر ، و هو جمع بين خبثين فإنّه يري أنّه صائم ثمّ يري أنّه مخلص ليس بمراء، و إنّه يحترز من أن يذكر عبادته للنّاس فيكون مرائياً فيريد أن يقال : إنّه ساتر لعباداته ، ثمّ إن اضطرّ إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلّل بمرض يقتضي فرط العطش و يمنع من الصوم أو يقول أفطرت تطييباً لقلب فلان ثمّ قد لا يذكر ذلك متّصلاً بشربه كيلا يظنّ به أن يعتذر رياء و لكنّه يصبر ، ثمّ يذكر عذره في معرض حكاية عرضاً مثل أن يقول : إنّ فلاناً محبّ للإخوان شديد الرّغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه و قد ألحّ عليّ اليوم ولم أجد بدّاً من تطييب قلبه ، و مثل أن يقول : إنّ أمّي ضعيفة القلب مشفقة عليّ تظنّ أنّي لو صمت يوماً مرضت فلاتدعني أن أصوم ، فهذا وما يجري مجراه علامات الرّياء فلا تسبق إلى اللّسان إلّا لرسوخ عرق الرّياء في الباطن ، وأمّا المخلص فإنّه لايبالي كيف نظر الخلق إليه فإن لم يكن له رغبة في الصوم و قد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره فيه مايخالف علم الله فيه فيكون ملبّساً ، وإن كانت له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله ولم يشرك فيه غيره ، و قد يخطر له أنّ في إظهاره اقتداء غيره به و تحريك رغبة الناس فيه ، وفيه مكيدة وغرور و سيأتي شرح ذلك وشروطه فهذه درجات الرّياء و مراتب أصناف المرائين ، و جميعهم تحت مقت الله و غضبه و هو من أشدّ المهلكات و إنّ من شدّته أنّ فيه شوائب هي أخفى من دبيب النملة كما ورد به الخبر[1] ، يزلّ فيه فحول العلماء فضلاً عن العبّاد الجهّال بآفات النفوس و غوائل القلوب .

---

(١) رواه البزار من حديث عائشة والطبراني من حديث ابي موسى وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر راجع المغني و مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٢٣ .

(بيان الرّياء الخفي الّذي هو أخفى من دبيب النّمل)

إعلم أنّ الرّياء جليّ وخفيّ، فالجليّ هو الّذي يبعث على العمل ويحمل عليه لولا قصد الثواب، وهو أجلاه، و أخفى منه قليلاً هو مالا يحمل على العمل بمجرّده إلّا أنّه يخفّف العمل الّذي اُريد به وجه الله كالّذي يعتاد التهجّد كلّ ليلة و يثقل عليه فإذا دخل عليه الضيفان نشط له وخفّ عليه و علم أنّه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلّي لمجرّد رياء الضيفان وأخفى من ذلك مالا يؤثّر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنّه مع ذلك مستبطنٌ في القلب ومهما لم يؤثّر في الدّعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلّا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسرّ باطّلاع الناس على طاعته، فربّ عبد مخلص في عمله لا يعتقد الرّياء بل يكرهه و يردّه و يتمّم العمل كذلك ولكنّ إذا اطّلع عليه الناس سرّه ذلك وارتاح له و روّح ذلك عن قلبه شدّة العبادة، و هذا السرور يدلّ على رياء خفيّ منه يترشّح السّرور، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطّلاع الناس، فلقد كان الرّياء مستكنّاً في القلب استكنان النّار في الحجر فأظهر منه اطّلاع الخلق أثر الفرح و السرور، ثمّ إذا استشعر لذّة السرور بالاطّلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتاً و غذاء للعرق الخفيّ من الرّياء حتّى يتحرّك على نفسه حركة خفيّة فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلّف سبباً يطّلع عليه بالتعريض وإلقاء الكلام عرضاً، وإن كان لا يدعو إلى التصريح. وقد يخفى فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً وتصريحاً ولكن بالشمائل كإظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الرّيق و آثار الدّموع و غلبة النعاس الدّال على طول التهجّد، و أخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطّلاع ولا يسرّ بظهور طاعته، ولكنّه مع ذلك إذا رأى الناس أحبّ أن يبدؤوه بالسلام، و أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، و أن يثنوا عليه، و أن ينشطوا في قضاء حوائجه، و أن يسامحوه في البيع والشراء، و أن يوسّعوا له في المكان، وإن قصّر فيه مقصّر ثقل على قلبه و وجد لذلك استبعاداً في نفسه كأنّ نفسه يتقاضى الاحترام على الطّاعة الّتي أخفاها مع أنّه لم يطّلع عليه ولو لم يكن قد سبقت منه تلك الطاعة

لماكان يستبعد تقصير الناس في حقّه ، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كلّ مايتعلّق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله تعالى ، و لم يكن خالياً عن شوب خفيّ من الرّياء أخفى من ديبب النمل و كلّ ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولايسلم منه إلّا الصدّيقون . وقد روي عن علي عليه السلام أنّه قال : « إنّ الله عزّ وجلّ يقول للقرّاء يوم القيامة(١) : ألم يكن يرخّص عليكم السعر ؟ ألم تكونوا تبتدؤون بالسلام ؟ ألم تكن تقضى لكم الحوائج » . وفي الحديث الآخر - « لاأجرلكم قداستوفيتم اُجوركم» .

و قال عبدالله بن المبارك : روي عن وهب أنّه قال : إنّ رجلاً من السوّاح قال لأصحابه : إنّا إنّما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان فنخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر ممّا دخل على أهل الأموال في أموالهم إنّ أحدنا إذا لقي أحبّ أن يعظّم لمكان دينه ، وإن اشترى شيئاً أحبّ أن يرخّص عليه لمكان دينه ، وإن سأل حاجة أحبّ أن تقضى له لمكان دينه . فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكبه من الناس فإذا السهل و الجبل قد امتلأ بالناس ، فقال السائح : ماهذا قيل : هذاالملك قدأظلّك ، فقال للغلام : ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر فجعل يحشو شدقه و يأكل أكلاً عنيفاً ، فقال الملك : أين صاحبكم ، قالوا : هذا قال : كيف أنت ؟ قال : كالناس - و في حديث آخر - : بخير ، فقال الملك : ماعند هذا من خير ، فانصرف عنه . وقال السائح : الحمدلله الّذي صرفك عنّي وأنت لي ذامّ .

فلم يزل المخلصون خائفين من الرّياء الخفي يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصّالحة يحرصون على إخفائها أعظم ممّا يحرص الناس على إخفاء فواحشهم كلّ ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق إذ علموا أنّ الله لايقبل في القيامة إلّا الخالص و علموا شدّة حاجتهم و فاقتهم في القيامة و أنّه يوم لاينفع فيه مال ولا بنون ، ولايجزي و الدعن ولده ، و يشتغل الصدّيقون بأنفسهم فيقول كلّ واحد : نفسي نفسي ، فضلاً عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله إذا توجّهوا إلى مكّة فإنّهم يستصحبون مع أنفسهم الذّهب المغربي الخالص

(١) في بعض النسخ [للفقراء يوم القيامة] .

لعلمهم بأنّ أرباب البوادي لايروّج عندهم الزايف، والحاجة تشتدّ في البادية، ولا وطن يفزع إليه، ولاحميم يتمسّك به، فلاينجي إلّا الخالص من النّقد، فهكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزّاد الّذي يتزوّدونه له التقوى فإذن شوائب الرّياء الخفيّ كثيرة لاتنحصر ومهما أدركت النفس تفرقة بين أن يطّلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرّياء فإنّه لمّا قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرّضّع أوغابوا، اطّلعوا على حركته أولم يطّلعوا، ولوكان مخلصاً قانعاً بعلم الله لاستحقر عقلاء العبادِ كما استحقر صبيانهم و مجانينهم، و علم أنّ العقلاء لايقدرون له على رزق ولاأجل و زيادة ثواب ونقصان عقاب، كمالايقدر عليه البهائم و الصبيان والمجانين، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب رياء خفيّ ولكن ليس كلّ شوب محبطاً للاجر و مفسداً للعمل بل فيه تفصيل.

فان قلت: فمانرى أحداً ينفكّ عن السّرور إذا عرفت طاعاته فالسّرور مذموم كلّه أو بعضه محمود؟.

فنقول أوّلا: كلّ سرور فليس بمذموم بل السّرور منقسم إلى محمود ومذموم، فأمّا المحمود فأربعة:

الاوّل: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والاخلاص لله ولكن لمّا اطّلع عليه الخلق علم أنّ الله اطّلعهم عليه و أظهر الجميل من أحوالهم فيستدلّ به على حسن صنيع الله به ونظره له والطافه به فإنّه يستر الطاعة و المعصية، ثمّ الله يستر عليه المعصية و يظهر الطاعة، فلا لطف أعظم من ستر القبيح و إظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لابحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال الله تعالى: «قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا» (١) و كأنّه ظهر له أنّه عندالله مقبول ففرح به.

الثاني: أن يستدلّ بإظهار الله الجميل و ستره القبيح عليه في الدّنيا أنّه كذلك يفعل به في الآخرة إذقال رسول الله ﷺ: «ماستر الله على عبد ذنباً في الدّنيا

(١) يونس: ٥٨.

إلّا ستر عليه في الآخرة »[1] فيكون الأوّل فرحاً بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل وهذا التفات إلى المستقبل.

الثالث: أن يظنّ رغبة المطّلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بماظهر آخراً، وأجر السّرّ بما قصده أوّلاً، ومن اقتدى به في طاعة فله أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من اُجورهم شيء، و توقّع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور، فإنّ ظهور مخائل الرّبح لذيذ وموجب للسرور لامحالة.

الرّابع: أن يحمده المطّلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحتهم وبحبّهم للمطيع، و بميل قلوبهم إلى الطاعة إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أويذمّه و يهزء به أو ينسبه إلى الرياء ولايحمده عليه، فهذا فرح بحسن إيمان عبادالله، وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إيّاه.

وأمّا المذموم فهو الخامس وهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتّى يمدحوه و يعظّموه و يقوموا بقضاء حوائجه و يقابلوه بالإكرام في مصادره و موارده فهذا مكروه.

✿ (بيان مايحبط العمل من الرّياء الخفيّ والجليّ ومالايحبط) ✿

فنقول: إذا عقدالعبدالعبادة على الإخلاص ثمّ ورد وارد الرّياء فلايخلو إمّا أن يرد بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرّد بالظهور من غير إظهار فهذا لايحبط العمل إذ العمل قد تمّ على نعت الإخلاص سالماً عن الرّياء فما يطرأ بعده فنرجو أن لاينعطف عليه أثره لاسيما إذا لم يتكلّف هو إظهاره و التحدّث به، ولم يتمنّ ذكره و إظهاره ولكن اتّفق ظهوره بإظهارالله إيّاه ولم يكن منه إلّا مادخل من السّرور والارتياح على قلبه.

أقول: و يدلّ على هذا مارواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام « أنّه سئل عن

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ من حديث أبي هريرة.

الرّجل يعمل الشّيء من الخير فيراه إنسان فيسرّه ذلك؟ قال: لابأس مامن أحد إلّا وهو يحبّ أن يظهر الله له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك» (١).

وقد روي أنّ رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: «يارسول الله اُسرّ العمل لا اُحبّ أن يطّلع عليه أحد فيطّلع عليه فيسرّني؟ قال: لك أجران أجر السرّ و أجر العلانية» (٢).

رواه أبوحامد في موضع آخر، قال ههنا: نعم لو تمّ العمل على الإخلاص من غير عقد رياء و لكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدّث به و أظهره فهذا مخوف و في الآثار و الأخبار مايدلّ على أنّه محبط، فقد روي عن ابن مسعود أنّه سمع رجلاً يقول: قرأت البارحة سورة البقرة قال: ذلك حظّه منها.

و روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال لرجل قال له: صمت الدّهر يارسول الله، فقال له: «ماصمت ولا أفطرت» (٣). فقال بعضهم إنّما قال ذلك لأنّه أظهره، وقيل: هو إشارة إلى كراهة صوم الدّهر، و كيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن ابن مسعود استدلالاً على أنّ قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرّياء و قصد له لما أن ظهر منه التحدّث به، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلاً للثواب بل الأقيس أن يقال: إنّه مثاب على عمله الّذي مضى و معاقب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها بخلاف مالو تغيّر عقده إلى الرّياء قبل الفراغ فإنّ ذلك مبطل، وأمّا إذا ورد وارد الرّياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً وكان قد عقدعلى

---

(١) المصدر ج ٢ ص ٢٩٧ تحت رقم ١٨.

(٢) قال العراقي: أخرجه البيهقي في شعب الايمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود. وروى الترمذي ج ٩ ص ٢٣١ من حديث أبي هريرة قال رجل: يا رسول الله الرجل يعمل العمل فيسره فاذا اطلع عليه أعجبه ذلك؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «له أجران أجر السّر وأجر العلانية» و قال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) أخرج الترمذي ج ٣ ص ٢٩٧ عن ابي قتادة قال: قيل: يارسول الله كيف بمن صام الدهر؛ قال لاصام ولا أفطر، أولم يصم ولم يفطر. و قال العراقي لم أجده بلفظ الخطاب.

الاخلاص ولكن ورد في أثنائها وارد الرّياء فلا يخلو إمّا أن يكون مجرّد سرور لايؤثّر في العمل، و إمّا أن يكون رياء باعثاً على العمل فإن كان باعثاً على العمل وختم العمل به حبط أجره، و مثاله أن يكون في تطوّع فتجدّدت له نظارة أوحضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر إليه أو يذكر شيئاً نسيه من ماله وهويريد أن يطلبه ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمّها خوفاً من مذمّة الناس فقد حبط أجره وعليه الاعادة إن كان في فريضة، وقدقال صلى الله عليه وآله: «العمل كالوعاء إذاطاب آخره طاب أوّله» (١) أي النظر إلى خاتمته.

وروي «من راءى بعمله ساعة حبط عمله الّذي كان قبله» (٢) وهو منزل على الصلاة في هذه الصورة لاعلى الصدقة ولا على القراءة، فإنّ كلّ جزء منها متفرد فما يطرأ يفسد الباقي دون الماضي، والصوم والحجّ من قبيل الصلاة، فأمّا إذاكان وارد الرّياء بحيث لايمنعه من قصد الاتمام لأجل الثواب، كما لوحضر جماعة في أثناء صلاته ففرح بحضورهم و عقد الرياء و قصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم وكان لولاحضورهم لكان يتمّها أيضاًفهذا رياء قدأثر في العمل وانتهض باعثاً على الحركات، فإن غلب حتّى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة و الثواب و صار قصد العبادة مغموراً، فهذا أيضاً ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه، لأنّا نكتفي بالنيّة السابقة عند الإحرام بشرط أن لايطرأ عليها مايغلبها ويغمرها، ويحتمل أن يقال: لايفسد العبادة نظراً إلى حالة العقد وإلى بقاء أصل قصد الثواب، و إن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه.

والأقيس أنّ هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادراً عن باعث الدّين، و إنّما انضاف إليه سرور بالاطّلاع فلا يفسد العمل لأنّه لم ينعدم به أصل نيّته و بقيت تلك النيّة باعثة على العمل و حاملة على الإتمام.

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٩٩ من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظه وسنده ضعيف كما في الجامع الصغير ج ١ ص ١٠٢.

(٢) قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ وللشيخين من حديث جندب «من سمع سمع الله به و من راءى راءى الله به» رواه مسلم من حديث ابن عباس وقد تقدم.

أقول : وقد أسلفنا مايدلّ على ذلك من النصّ .

قال(١) : أمّا الأخبار الّتي وردت في الرّياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلّا الخلق ، و إمّا ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرّياء مساوياً لقصد الثواب أو أغلب منه أمّا إذا كان ضعيفاً بالإضافة إليه فلايحبط بالكلّية ثواب الصدقة و سائر الأعمال ولاينبغي أن يفسد الصلاة ، ولايبعد أيضاً أن يقال : إنّ الّذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله والخالص مالايشوبه شيء فلايكون مؤدّياً للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه ، وقد ذكرنا في (كتاب الإخلاص) كلاماً أوفى ممّا أوردناه الآن فليرجع إليه . فهذا حكم الرّياء الطارىء بعد عقد العبادة إمّا قبل الفراغ أو بعده .

القسم الثالث الّذي يقارن حال العقد بأن يبتدء الصلاة على قصد الرّياء فإن تمّ عليه حتّى يسلّم فلا خلاف في أنّه يعصي ولايعتدّ بصلاته ، و إن ندم عليه في أثناء ذلك و استغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه ، قالت فرقة : لم تنعقد صلاته مع قصد الرّياء فليستأنف ، و قالت فرقة : تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود ويفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة لأنّ التحريم عقد والرّياء خاطر في قلبه لايخرج التحريم عن كونه عقداً ، و قالت فرقة : لايلزمه إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتمّ العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة كما لو ابتدأها بالإخلاص وختم بالرّياء لكان يفسد عمله .

و شبّهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا أُزيل العارض عاد إلى الأصل ، فقالوا : إنّ الصلاة والركوع و السجود لاتكون إلّا لله ، ولو سجد لغير الله لكان كافراً ، ولكن قد اقترن به عارض الرّياء ثمّ إن زال بالندم و التوبة و صار إلى حالة لايبالي بحمد الناس و ذمّهم فتصحّ صلاته ، و مذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدّاً خصوصاً من قال : يلزمه إعادة الرّكوع والسجود دون الافتتاح . لأنّ الرّكوع والسجود إن لم يصحّ صارت أفعالاً زائدة في الصلاة فتبطل

(١) يعني أباحامد .

الصلاة ، وكذلك قول من يقول لوختم بالإخلاص صحّ نظراً إلى الآخر فهوأيضاً ضعيف لأنّ الرّياء يقدح في النيّة وأولى الأوقات بمراعاة الأحكام النيّة حال الافتتاح فالّذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال : إن كان باعثه مجرّد الرّياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر لم ينعقد افتتاحه ولم يصحّ مابعده ، وذلك في من إذا خلا بنفسه لم يصلّ ولمّا رآه الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه أيضاً نجساً كان يصلّي لأجل الناس فهذه صلاة لانيّة فيها إذالنيّة عبارة عن إجابة باعث الدّين ، وههنا لاباعث ولا إجابة . فأمّا إذا كان بحيث لولا الناس أيضاً لكان يصلّي إلّا أنّه ظهرت له الرّغبة في المحمدة أيضاً فاجتمع الباعثان ، فهذا إمّا أن يكون في صدقة أو قراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحجّ ، فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرّياء وأطاع بإجابة باعث الثواب « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره » فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ، ولايحبط أحدهما الآخر ، وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرّق خلل إلى النيّة فلا يخلو إمّا أن تكون نفلاً أو فرضاً ، فإن كانت نفلاً فحكمها أيضاً حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه إذا اجتمع في قلبه الباعثان ، وأمّا إذا كان في فرض واجتمع الباعثان وكان كلّ واحد منهما لايستقلّ وإنّما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لايسقط الواجب عنه لأنّ الإيجاب لم ينتهض باعثاً في حقّه بمجرّده واستقلاله ، وإن كان كلّ باعث مستقلاً حتّى لو لم يكن باعث الرّياء لأدّى الفرض ، ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوّعاً لأجل الرّياء فهذا في محلّ النظر ، وهو محتمل جدّاً ، فيحتمل أن يقال : إنّ الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤدّ الواجب الخالص ، ويحتمل أن يقال : الواجب امتثال الأمر باعث مستقل بنفسه وقد وجد ، فاقتران غيره به لايمنع سقوط الفرض عنه كما لوصلّى في دار مغصوبة فإنّه وإن كان عاصياً بإيقاع الصلاة في الدّار المغصوبة فإنّه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه ، وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة ، أمّا إذا كان الرّياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة ، مثل

من بادر بالصلاة في أوّل الوقت لحضور جماعة ولو خلا لأخّرها إلى وسط الوقت ولو لا الفرض لكان لايبتدىء صلاة لأجل الرّياء فهذا ممّا يقطع بصحّة صلاته وسقوط الفرض به لأنّ باعث أصل الصلاة من حيث إنّها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت، فهذا أبعد عن القدح في النيّة، هذا في رياء يكون باعثاً على العمل وحاملاً عليه، فأمّا مجرّد السرور باطّلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثّر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة فهذا ما نراه لايقاً بقانون الفقه، و المسألة غامضة من حيث إنّ الفقهاء لم يتعرّضوا لها في فنّ الفقه، و الّذين خاضوا فيها و تصرّفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه، ومقتضى فتاوي الفقهاء في صحّة الصلاة و فسادها، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب و طلب الإخلاص على إفساد العبادات بأدنى الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه والعلم عندالله تعالى فيه.

(بيان دواء الرّياء وطريق معالجة القلب فيه)

لقد عرفت ممّا سبق أنّ الرّياء محبطٌ للأعمال و سبب للمقت عندالله و أنّه من كبائر المهلكات، و ما هذا وصفه فجديرٌ بالتشمير عن ساق الجدّ في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمّل المشاقّ، فلاشفاء إلّا في شرب الأدوية المرّة البشعة، وهذه مجاهدة يضطرّ إليها العباد كلّهم، إذ الصبيّ يخلق ضعيف العقل و التمييز، ممتدّ العين إلى الخلق، كثير الطمع فيهم، فيرى الناس يتصنّع بعضهم لبعض فيغلب عليه حبّ التصنّع بالضرورة ويترسّخ ذلك في نفسه وإنّما يشعر بكون ذلك مهلكاً بعد كمال عقله وقد انغرس الرّياء في قلبه وترسّخ فيه، فلايقدر على قمعه إلّا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوّة الشهوات، فلاينفكّ أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ولكنّها تشقّ أوّلاً و تخفّ آخراً و في علاجه مقامان: أحدهما قطع عروقه و اُصوله الّتي منها انشعابه، و الثاني دفع مايخطر منه في الحال.

المقام الأوّل في قطع عروقه و استئصال اُصوله، و اُصوله: حبّ المنزلة والجاه، و إذا فصّل رجع إلى ثلاثة اُصول وهو حبّ لذّة المحمدة والفرار من ألم المذمّة والطمع لما في أيدي الناس، ويشهد للرّياء بهذه الأسباب وأنّها الباعثة للمرائي

ماروى أبو موسى أنّ أعرابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إنّ الرّجل يقاتل حمية - ومعناه أنّه يأنف أن يقهر أويذمّ بأنّه مقهورٌ مغلوبٌ - [وقال والرّجل يقاتل ليري مكانه - وهذا هو طلب لذّة الجاه و القدر في القلوب - ، والرّجل يقاتل للذكر - وهذا هوالحمد باللّسان] - فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »(١).

وقال ابن مسعود : إذا التقى الصفّان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم ، فلان يقاتل للذكر ، و فلان يقاتل للملك . و القتال للملك إشارة إلى الطمع في الدّنيا .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من غزا لايبغي إلّا عقالاً فله مانوى »(٢) فهذه إشارة إلى الطمع ، وقد لايشتهي الحمد ولايطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذمّ كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدّقون بالمال الكثير فانّه يتصدّق بالقليل كيلايبخّل ، وهوليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره ، وكالجبان بين الشجعان لايفرّ من الزّحف خوفاً من الذمّ وهو لايطمع في الحمد ، وقد هجم غيره على صفّ القتال ولكن إذا يئس من الحمد كره الذمّ ، وكالرجل بين قوم يصلّون جميع اللّيل فيصلّي ركعات معدودة كيلايذمّ بالكسل وهو لايطمع في الحمد ، وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذّة الحمد ولايقدر على الصبر على ألم الذمّ ، و كذلك قد يترك السؤال عن علم ماهو محتاج إليه خيفة من أن يذمّ بالجهل ويفتي بغير علم و يدّعي العلم بالحديث و هو به جاهل و كلّ ذلك حذراً من الذمّ فهذه الأمور الثلاثة هي الّتي تحرّك المرائي إلى الرّياء ، وعلاجه ماذكرناه في الشطر الأوّل من الكتاب على الجملة .

و لكنّا نذكر الآن ما يخصّ الرّياء ، و ليس يخفى أنّ الإنسان إنّما يقصد

---

(١) أخرجه مسلم ج ٦ ص ٤٦ هكذا « أن رجلا سأل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم عن القتال في سبيل الله عزوجل فقال : الرجل يقاتل غضباً ويقاتل حمية ، قال : فرفع رأسه اليه و مارفع رأسه اليه الا أنه كان قائماً فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله » .

(٢) أخرجه النسائي ج ٦ ص ٢٤ من حديث عبادة بن صامت .

الشيء و يرغب فيه لظنّه أنّه خيرٌ له و نافع و لذيذ إمّا في الحال و إمّا في المآل ، فإن علم أنّه لذيذٌ في الحال ولكنّه ضارٌ في المآل سهل عليه قطع الرّغبة عنه كمن يعلم أنّ العسل لذيذٌ ولكن إذا بان له أنّ فيه سمّاً أعرض عنه ، فكذلك طريق قطع هذه الرّغبة أن يعلم ما فيها من المضرّة ، ومهما عرف العبد مضرّة الرّياء ومايفوته من صلاح قلبه و ما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عندالله و ما يتعرّض له من العقاب العظيم والمقت الشديد و الخزي الظاهر حيث ينادى به على رؤوس العباد : يا فاجر ، يا غادر ، يا مرائي أما استحييت إذا اشتريت بطاعةالله عَرَضَ الدّنيا ، راقبت قلوب العباد واستهزأت بنظر الله تعالى ، و تحبّبت إلى العباد بالتبغّض إلى الله ، و تزيّنت لهم بالشين عندالله ، و تقرّبت إليهم بالبعد من الله ، و تحمّدت إليهم بالتذمّم عندالله ، وطلبت رضاهم بالتعرّض لسخطالله ، أما كان أحدٌ أهون عليك من الله ، فمهما تفكّر العبد في هذا الخزي و قابل ما يحصل له من العباد والتزيّن لهم في الدّنيا بما يفوته من الآخرة ، و ما يحبط عليه من ثواب الأعمال مع أنّ العمل الواحد ربّماكان يترجّح به ميزان حسناته لوخلص فإذا فسد بالرّياء حوّل إلى كفّة السيّئات فترجّح به ويهوي إلى النّار ، فلولم يكن في الرّياء إلّا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافياً في معرفة ضرره وإن كانت مع ذلك سائر حسناته راجحة فقدكان ينال بهذه الحسنة علوّ الرّتبة عندالله في زمرة النبيّين والصدّيقين وقدحطّ عنهم بسبب الرّياء وردّ إلى صفّ النعال من مراتب الأولياء هذا مع ما يتعرّض له في الدّنيا من تشتّت الهمّ بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإنّ رضا الناس غاية لاتدرك ، فكلّ ما يرضى به فريق يسخط به فريق ، و رضا بعضهم في سخط بعضهم ، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه و أسخطهم أيضاً عليه ثمّ أيّ غرض له في مدحهم و إيثار ذمّ الله لأجل حمدهم ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً ، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته ، وهو يوم القيامة ، و أمّا الطمع بما في أيديهم فبأن يعلم أنّ الله تعالى هو المسخّر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأنّ الخلق مضطرّون فيه ولا رازق إلّا الله و من طمع في الخلق لم يخل من الذّل والخيبة ، و إن وصل إلى المراد لم يخل عن المنّة والمهانة

فكيف يترك ما عندالله برجاء كاذب و وهم فاسد ، قد يصيب و يخطىء وإذا أصاب فلا تفي لذّته بألم منّته و مذلّته وأمّا ذمّهم فلم يحذر منه ولايزيده ذمّهم شيئاً مالم يكتبه الله عليه ، ولا يعجل أجله ولا يؤخّر رزقه ولا يجعله من أهل النّار إن كان من أهل الجنّة ، ولايبغّضه إلى الله إن كان محموداً عندالله ، ولا يزيده مقتاً إن كان ممقوتاً عند الله ، فالعباد كلّهم عجزة لايملكون لأنفسهم ضرّاً ولانفعاً ولا يملكون موتاً ولاحياةً ولا نشوراً ، فإذا قرّر في قلبه آفة هذه الأسباب و ضررها فترت رغبته و أقبل على الله قلبه ، فإنّ العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره و يقلّ نفعه و يكفيه أنّ الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرّياء و إظهار الإخلاص لمقتوه و سيكشف الله عن سرّه حتّى يبغّضه إلى الناس و يعرّفهم أنّه مرائي وممقوت عندالله ، ولوأخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحبّبه إليهم و سخّرهم له وأطلق ألسنتهم بحمده والثناء عليه ، مع أنّه لاكمال في مدحهم ولا نقصان في ذمّهم كما قال شاعر من بني تميم : إنّ مدحي زين وإنّ ذمّي شين ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « كذبت ذلك الله الّذي لا إله إلّا هو »[1] إذ لا زين إلّا في مدحه ولا شين إلّا في ذمّه فأيّ خير لك في مدح الناس وأنت عندالله مذموم و من أهل النار ، و أيّ شرّ لك من ذمّ الناس و أنت عندالله محمود و في زمرة المقرّبين ، فمن أحضر في قلبه الآخرة و نعيمها المؤبّد و المنازل الرّفيعة عندالله تعالى استحقر ما يتعلّق بالخلق أيّام الحياة مع مافيه من الكدورات والمنّة والمنغّصات واجتمع همّه وانصرف إلى الله قلبه و تخلّص من مذلّة الرّياء ومقاساة قلوب الخلق وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره ، و ينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد بها اُنسه بالله و وحشته المخلق واستحقاره للدّنيا واستعظامه للآخرة وسقط محلّ الخلق من قلبه وانحلّ عنه داعية الرّياء وتذلّل له منهج الإخلاص فهذا و ما قدّمناه في الشطر الأوّل هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرّياء .

(١) أخرجه احمد ج ٣ ص ٤٨٨ من حديث الاقرع بن حابس وهو قائل ذلك القول ، وقال العراقي : رجاله ثقات الا أنه رواه عن الاقرع ابوسلمة بن عبدالرّحمن ولااعرف له سماعاً عن الاقرع . ورواه الترمذي من حديث البراء وحسنه بلفظ « فقال رجل : ان حمدى » .

و أمّا الدّواء العملي فهو أن يعوّد نفسه إخفاء العبادات و إغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش حتّى يقنع قلبه بعلم الله واطّلاعه على عبادته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به ، و قد روي أنّ بعض أصحاب أبي حفص الحدّاد ذمّ الدّنيا و أهلها فقال له أبو حفص : أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا . فلم يرخّص في إظهار هذا القدر لأنّ في ضمن ذمّ الدّنيا بعض دعوى الزّهد فيها فلا دواء للرّياء مثل الإخفاء وذلك يشقّ في بداية المجاهدة و إذا صبر عليه مدّة بالتكلّف سقط عنه ثقله ، وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله و ما يمدّ به عباده من حسن التوفيق والتأييد ولكن الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم ، فمن العبد المجاهدة و من الله الهداية ، و من العبد قرع الباب و من الله فتح الباب والله لا يضيع أجر المحسنين فإن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجراً عظيماً .

المقام الثاني في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لابدّ من تعلّمه أيضاً فإنّ من جاهد نفسه و قلع مغارس الرّياء من قلبه بالقناعة و قطع الطمع و أسقط نفسه من أعين المخلوقين واستحقر مدح المخلوقين و ذمّهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادة بل يعارضه بخطرات الرّياء ولا تنقطع عنه نزغاته ، و هوى النفس و ميلها لا ينمحي بالكلّيّة فلابدّ وأن يتشمّر لدفع ما يعرض من خاطر الرّياء وخواطر الرّياء ثلاثة قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التّدريج فالأوّل العلم باطّلاع الخلق ورجاء اطّلاعهم ، ثمّ يتلوه هيجان الرّغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم ، ثمّ يتلوه هيجان الرّغبة في قبول النفس له والرّكون إليه وعقد الضمير على تحقيقه فالأوّل معرفة ، والثاني حالة تسمّى الشهوة والرّغبة ، والثالث فعل يسمّى العزم و تصميم العقد ، و إنّما كمال القوّة في دفع الخاطر الأوّل و ردّه قبل أن يتلوه الثاني ، فإذا خطر له معرفة اطّلاع الخلق أو رجاء اطّلاعهم دفع ذلك بأن قال لنفسه : مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا ؟ و الله عالمٌ بحالك ، و أيّ فائدة في علم غيره ، فإن هاجت الرّغبة إلى لذّة الحمد تذكّر ما رسخ في قلبه من قبل في آفة الرّياء وتعرّضه للمقت عند الله تعالى في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله

فكما أنّ معرفة اطّلاع الناس تثير شهوة و رغبة في الرّياء ، فمعرفة آفة الرّياء أيضاً تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة إذ يتفكّر في تعرّضه لمقت الله وعقابه الأليم والشّهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإباء ، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما و أغلبهما ، فإذن لابدّ في ردّ الرّياء من ثلاثة أمور : المعرفة ، والكراهة ، والإباء ، و قد يشرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص ثمّ يرد خاطر الرّياء فيقبله و لا تحضره المعرفة ولا الكراهة الّتي كان الضمير منطوياً عليها و إنّما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذّمّ و حبّ الحمد و استيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متّسع لغيره فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرّياء و شؤم عاقبته إذ لم يبق موضع في القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذّمّ و هو كالّذي يحدّث نفسه بالحلم و ذمّ الغضب و يعزم على التحلّم عند جريان سبب الغضب ، ثمّ يجري من الأسباب ما يشتدّ به غضبه فينسى سابق عزمه ويمتلي قلبه غيظاً يمنع من تذكّر آفة الغضب و يشتغل عنه فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب و تدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب و إليه أشار جابر بقوله : « بايعنا رسول الله صلّى الله عليه وآله تحت الشجرة على أن لا نفرّ ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين حتّى نودي يا أصحاب الشجرة فرجعوا » (١) و ذلك لأنّ القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتّى ذكروا ، وأكثر الشهوات الّتي تهجم فجأة هكذا تكون إذ تنسى معرفة مضرّته الدّاخلة في عقد الإيمان ، و مهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فإنّ الكراهة ثمرة المعرفة و قد يتذكّر فيعلم أنّ الّذي خطر له هو خاطر الرّياء الّذي يعرضه لسخط الله و لكن يستمرّ عليه لشدّة شهوته فيغلب هواه عقله و لا يقدر على ترك لذّة الحال ، فيسوّف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكّر في ذلك لشدّة الشهوة ، و كم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى ذكره إلّا رياء الخلق و هو يعلم ذلك ولكنّه يستمرّ عليه فتكون عليه الحجّة أوكد إذ قبل داعي الرّياء مع علمه بغائلته و كونه مذموماً

(١) أخرجه النسائي ج ٧ ص ١٤٠ دون قوله : « فأنسيناه يوم حنين الخ » فرواه مسلم ج ٥ ص ١٦٧ .

عندالله ولا تنفعه معرفته إذ خلت المعرفة عن الكراهة ، وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرّياء و يعمل به لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوّة الشهوة ، وهذا أيضاً لاينتفع بكراهته ، إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل.

فإذن لافائدة إلّا في اجتماع الثلاث وهي المعرفة والكراهة والإباء ، فالإباء ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوّة المعرفة بحسب قوّة الإيمان ونور العلم ، و ضعف المعرفة بحسب الغفلة و حبّ الدُّنيا و نسيان الآخرة و قلّة التفكّر فيما عند الله وقلّة التأمّل في آفات الحياة الدُّنيا و عظيم نعيم الآخرة و بعض ذلك ينتج بعضاً و يثمره و أصل ذلك كلّه حبّ الدُّنيا و غلبة الشهوة ، وهو رأس كلّ خطيئة و منبع كلّ ذنب ، لأنّ حلاوة حبّ الجاه و المنزلة و نعيم الدُّنيا هي الّتي تغمر القلب و تميله و تحول بينه وبين التفكّر في العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنّة و أنوار العلوم.

فإن قلت : فمن صادف من نفسه كراهة بالرّياء وحملته الكراهة على الإباء ولكنّه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه و حبّه له و منازعته إيّاه إلّا أنّه كاره لحبّه ولميله إليه وغير مجيب إليه ، فهل يكون في زمرة المرائين ؟.

فاعلم أنّ الله تعالى لم يكلّف العبد إلّا ما يطيق ، و ليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته و لا قمع الطمع حتّى لا يميل إلى الشهوات و لا ينزع إليها و إنّما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب ، و علم الدّين و أصول الإيمان بالله واليوم الآخر فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلّف به ويدلّ على ذلك من الأخبار ما روي أنّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله شكوا إليه وقالوا : تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخرّ من السماء فتخطفنا الطير أو تهوي بنا الرّيح في مكان سحيق أحبّ إلينا من أن نتكلّم بها ، فقال : أو قد وجدتموها ؟ قالوا : نعم ، قال : ذلك صريح الإيمان » [1] ولم يجدوا إلّا الوسواس والكراهة له ولا يمكن أن يقال : أراد

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٨٣ مختصراً من حديث ابن مسعود ورواه احمد ج ٦ ص ١٠٦ أيضاً من حديث عائشة . ورواه أبو يعلى والبزار ورجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ١ ص ٣٤ و ٣٥ .

بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلّا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة والرّياء وإن كان عظيماً فهو دون الوسوسة في حقّ الله تعالى فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى ، وكذلك يروى عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في حديث ابن عبّاس أنّه قال : « الحمد لله الّذي ردّ كيد الشيطان إلى الوسوسة » (١).

و قال أبو حازم : ما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك فلا يضرّك ماهو من عدوّك ، و ماكان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه . فإذن وسوسة الشيطان و منازعة النّفس لاتضرّك مهماردّدت مرادهما بالإباء والكراهة . والخواطر الّتي هي العلوم و التذكّرات والتخيّلات للأسباب المهيّجة للرّياء هي من الشيطان ، والرّغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس والكراهة من الإيمان و من آثار العقل إلّا أنّ للشيطان ههنا مكيدة و هو أنّه إذا عجز عن حمله على قبول الرّياء خيّل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الردّ والجدال حتّى يسلبه ثواب الإخلاص و حضور القلب ، لأنّ الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سرّ المناجاة مع الله عزّ وجلّ فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عندالله .

والمتخلّصون عن الرّياء في دفع خواطر الرّياء على أربع مراتب :

الاُولى : أن يردّه على الشيطان فيكذّبه ولايقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته و يطيل الجدال معه لظنّه أنّ ذلك أسلم للقلب و هو على التحقيق نقصان لأنّه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الّذي هو بصدده و انصرف إلى قتال قطّاع الطريق و التعريج على قتال قطّاع الطريق نقصان في السلوك ، الثانية : أن يعرف أنّ القتال و الجدال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه و دفعه و لا يشتغل بمجادلته ، الثالثة : أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً لأنّ ذلك وقفة وإن قلّت ، بل يكون قدقرّر في عقد ضميره كراهة الرّياء و كذب الشيطان فيستمرّ على ما كان عليه مستصحباً للكراهة غير مشتغل بالتكذيب و لا بالمخاصمة ، الرابعة : أن يكون قد علم أنّ

(١) أخرجه احمد ج ١ ص ٢٣٥ من حديث ابن عباس ، و أيضاً ابو داود ج ٢ ص ٦٢٣ في حديث .

الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرّياء فيكون قد عزم على أنّه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص و الاشتغال بالله عزّ وجلّ و إخفاء الصدقة و العبادة غيظاً للشيطان ، و ذلك هو الّذي يغيظ الشيطان و يقمعه و يوجب يأسه و قنوطه حتّى لايرجع ، و يروى عن الفضيل بن غزوان أنّه قيل له : إنّ فلاناً ذكرك بسوء ، قال : والله لأغيظنّ مَن أمره ، قيل : و من أمره ؟ قال : الشيطان ، ثمّ قال : « اللّهمّ اغفر له » أي لأغيظنّه بأن اُطيع الله فيه ، ومهما عرف الشيطان من عبد اعتاد هذه العادة كفّ عنه خيفة من أن يزيد في حسناته ، وقال إبراهيم التيميّ : إنّ الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم فلا يطعه و ليحدث عند ذلك خيراً ، فاذا رآه كذلك تركه . و قال أيضاً : إذا رآك الشيطان متردّداً طمع فيك و إذا رآك مداوماً ملّك وقلاك (١).

و ضرب الحارث المحاسبيّ (٢) لهذه الأربعة مثالاً أحسن فيه فقال : مثالهم كأربعة قصدوا مجلساً من العلم والحديث لينالوا منه فائدة وهداية ورشداً ، فحسدهم على ذلك ضالّ مبتدع و خاف أن يعرفوا الحقّ ، فتقدّم إلى واحد منهم فمنعه وصرفه عنه و دعاه إلى مجلس ضلال فأبى فلمّا عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليردّ ضلاله و هو يظنّ أنّ ذلك مصلحة له و هو غرض الضّالّ ليفوت عليه بقدر تأخّره ، فلمّا مرّ الثاني عليه نهاه و استوقفه فوقف فدفع في نحر الضالّ ولم يشتغل بالقتال و استعجل ففرح منه الضالّ بقدر توقّفه للدّفع فيه ، و مرّ به الثالث فلم يلتفت إليه و لم يشتغل بدفعه و لا بقتاله بل استمرّ على ما كان فخاب منه رجاؤه بالكلّيّة ، و مرّ الرّابع فلم يتوقّف له و أراد أن يغيظه فزاد في عجلته و ترك التأنّي في المشي فيوشك إن عادوا و مرّوا عليه مرّة اُخرى أن يعاود الجميع إلّا هذا الأخير فإنّه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله .

---

(١) مل يمل : أصابه الملال ، تقلب مرضاً أو غماً . والقلى : البغض .

(٢) هو أبو عبدالله الحارث بن اسد المحاسبي صاحب كتاب « الرعاية لحقوق الله » وهذا الكتاب طبع بليدن وهذا الكلام فيه ص ١٠٩ فليراجع .

فإن قلت : فالشيطان إذا كان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصّد له قبل حضوره للحذر منه انتظاراً لوروده أم يجب التوكّل على الله ليكون هو الدّافع له ، أو يجب الاشتغال بالعبادة و الغفلة عنه ؟

قلنا : اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أنّ الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنّهم انقطعوا إلى الله و اشتغلوا بحبّه و اعتزلهم الشيطان ، فأيس منهم وخنس عنهم كما آيس من ضعفاء العباد في الدّعوة إلى الخمر و الزّني فصارت ملاذّ الدّنيا وإن كانت مباحة كالخمر والخنزير عندهم ، و إذ خلوا من حبّها بالكلّيّة لم يبق للشيطان إليهم سبيلٌ فلا حاجة بهم إلى الحذر ، وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أنّ الترصّد للحذر منه إنّما يحتاج إليه مَن قلّ يقينه ونقص توكّله فمن أيقن بأن لاشريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره و يعلم أنّ الشيطان ذليلٌ مخلوق ليس له أمرٌ و لا يكون إلّا ما أراده الله تعالى فهو الضارّ و النافع ، و العارف يستحيي منه أن يحذر غيره ، فاليقين بالوحدانيّة يغنيه عن الحذر ، و قالت فرقة من أهل العلم : لابدّ من الحذر من الشيطان و ما ذكره البصريّون من أنّ الأقوياء قد استغنوا عن الحذر و خلت قلوبهم عن حبّ الدّنيا بالكلّيّة و هو وسيلة للشيطان ، يكاد يكون غروراً إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلّصوا من وساوس الشيطان و نزغاته(١) فكيف يتخلّص غيرهم وليس كلّ وسواس الشيطان من الشهوات وحبّ الدّنيا بل في صفات الله و أسمائه و في تحسين البدع و الضلال وغيره ، ولا ينجو أحدٌ من الخطر فيه ، و القرآن من أوّله إلى آخره تحذيرٌ من الشيطان فكيف يدّعي الأمن منه ، و أخذ الحذر منه حيث أمر الله تعالى به لا ينافي الاشتغال بحبّ الله تعالى فإنّ من الحبّ له امتثال أمره و قد أمرنا بالحذر من العدوّ كما أمرنا بالحذر من الكفّار ، فقال تعالى : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم »(٢) وقال تعالى : « وأعدّوا لهم مااستطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم »(٣)

(١) لولا عصمهم الله سبحانه .

(٢) النساء : ١٠٣ . (٣) الانفال : ٦٣ .

فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدوّ الكافر وأنت تراهم فبأن يلزمك الحذر من عدوّ يراك ولا تراه أولى ، ولذلك قيل : صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به ، و صيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك ، وأشار إلى الشيطان فكيف وليس في الغفلة من عداوة الكافر إلّا قتل هو شهادة و في إهمال الحذر من الشيطان التعرّض للنّار و العقاب الأليم ، فليس من الاشتغال بالله الإعراض عمّا حذّر الله عنه ، و به يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنّهم أنّ ذلك قادح في التوكّل فإنّ أخذ التّرس والسلاح و جمع الجنود و حفر الخندق لم يقدح في توكّل رسول الله صلى الله عليه وآله فكيف يقدح في التوكّل الخوف ممّا خوّف الله به ، والحذر ممّا أمر بالحذر منه ، و قد ذكرنا في كتاب التوكّل ما يبين غلط من ظنّ أنّ معنى التوكّل النزوع عن الأسباب بالكلّيّة و قوله تعالى : « و أعدّوا لهم استطعتم من قوّة و من رباط الخيل » لا يناقض امتثاله التوكّل مهما اعتقد القلب أنّ الضارّ و النافع و المحيي و المميت هو الله ، فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أنّ المضلّ و الهادي هو الله ، ويرى الأسباب وسائط مسخّرة كما ذكرناه في كتاب التوكّل .

و هذا ما اختارة المحاسبيّ و هو الصحيح الّذي يشهد له نور العلم و ما قبله يشبه أن يكون من كلام العبّاد الّذين لم يعزر علمهم ويظنّون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمرّ على الدّوام وهو بعيد .

ثمّ اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفيّة الحذر فقال قوم : إذا حذّرنا الله تعالى العدوّ فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره والحذر منه و الترصّد له فإنّا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا ، و قال قوم : إنّ ذلك يؤدّي إلى خلوّ القلب عن ذكر الله و اشتغال الهمّ كلّه بالشيطان و ذلك مراد الشيطان منّا بل نشتغل بذكر الله تعالى ولا ننسى الشيطان و عداوته و الحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين ، فإنّا إن نسيناه ربّما عرض من حيث لا نحتسب و إن تجرّدنا لذكره كنّا قد أهملنا ذكر الله تعالى فالجمع أولى ، و قال العلماء المحقّقون : غلط الفريقان فأمّا الأوّل : فقد تجرّد لذكر الشيطان و نسي ذكر

الله تعالى فلا يخفى غلطه ، وإنّما اُمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدّنا عن الذّكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا و هو منتهى ضرر العدوّ ، ثمّ يؤدّي ذلك إلى خلوّ القلب عن نور ذكر الله تعالى فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب و ليس فيه نور ذكر الله وقوّة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به و لا يقوي على دفعه فلم يأمرنا بانتظار الشيطان و لا بإدمان ذكره ، و أمّا الفرقة الثانية فقد شاركت الاُولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله و الشيطان و بقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله و قد أمر الله الخلق بذكره و نسيان ما عداه ـ إبليس و غيره ـ فالحقّ أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان و يقرّر على نفسه عداوته فإذا اعتقده وصدق به وسكن الحذر فيه فليشتغل بذكر الله و يكبّ عليه بكلّ الهمّة ولا يخطر بباله أمر الشيطان فإنّه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثمّ خطر الشيطان له تنبّه له وعند التنبّه يشتغل بدفعه ، و الاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقّظ عند نزغة الشيطان ، بل الرّجل ينام وهو خائف على أن يفوته مهمّ عند طلوع الصبح فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبّه في ذلك الوقت فينتبه في اللّيل مرّات قبل أوانه لما استكنّ في قلبه من الحذر مع أنّه بالنوم غافلٌ عنه فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبّهه ، ومثل هذا القلب هو الّذي يقوى على دفع العدوّ وإذا كان اشتغاله بمجرّد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيى فيه نور العقل والعلم و أماط عنه ظلمة الشهوات ، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان و ترصّده و ألزموها الحذر ثمّ لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله و دفعوا بالذّكر شرّ العدوّ و استضاؤوا بنور الذّكر حتّى أبصروا خواطر العدوّ ، فمثال القلب مثال بئر اُريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجّر منها الماء الصافي ، فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر والّذي جمع بين ذكر الشيطان و بين ذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ولكنّه تركه جارياً إليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا تجفّ البئر عن الماء القذر ، والبصير هوالّذي جعل لمجري الماء القذر سدّاً وملأها بالماء الصافي فإذاجاء الماء القذر دفعه بالسكر و السدّ من غير كلفة ومؤونة وزيادة تعب .

(بيان الرّخصة في قصد اظهار الطّاعات)

إعلم أنّ في الإسرار للأعمال فائدة الاخلاص و النجاة من الرّياء وفي الاظهار فائدة الاقتداء و ترغيب الناس في الخير ولكنّ فيه آفة الرّياء ، قال بعض السلف : قد علم المسلمون أنّ السرّ أحرز العملين ولكنّ في الاظهار أيضاً فائدة و لذلك أثنى الله تعالى على السرّ والعلانية فقال : « إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي ، و إن تخفوها و تؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم »[1] و الاظهار قسمان أحدهما في نفس العمل والآخر في التحدّث بما عمل .

القسم الأوّل إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها كما روي عن الأنصاريّ الّذي جاء بالصرّة فتتابع الناس بالعطيّة لمّا رأوه ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « من سنّ سنّة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتّبعه »[2] ثمّ تجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحجّ والغزو وغيره ، ولكنّ الاقتداء على الطباع في الصدقة أغلب ، نعم الغازي إذا همّ بالخروج فاستعدّ وشدّ الرّحل قبل القوم تحريضاً لهم على الحركة فذلك أفضل له لأنّ الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره فالمبادرة إليه ليس من الإعلان بل هو تحريض مجرّد ، فكذلك الرّجل قد يرفع صوته في الصلاة باللّيل لينبّه جيرانه و أهله فيقتدى به فكلّ عمل لا يمكن إسراره كالحجّ و الجهاد و الجمعة فالأفضل المبادرة إليه و إظهار الرّغبة فيه للتحريض بشرط أن لا تكون فيه شوائب الرّياء ، وأمّا ما يمكن إسراره كالصدقة و الصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدّق عليه ويرغّب الناس في الصدقة فالسرّ أفضل لأنّ الإيذاء حرامٌ ، فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم : السرّ أفضل من العلانية و إن كان في العلانية قدوة ، وقال قوم : السرّ أفضل من علانية لا قدوة فيها ، أمّا العلانية للقدوة فهي أفضل من السرّ ، ويدلّ على ذلك أنّ الله تعالى أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء و خصّهم بمنصب النبوّة

(١) البقرة : ٢٧١ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٦١ من حديث جرير بن عبدالله .

ولا يجوز أن يظنّ بهم أنّهم حرموا أفضل العملين و يدلّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « أجرها وأجر من عمل بها » و قد روي في بعض الحديث : « إنّ عمل السرّ يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفاً و يضاعف عمل العلانية إذا استنّ بعامله على عمل السرّ سبعين ضعفاً » [1] و هذا لا وجه للخلاف فيه فإنّه مهما انفكّ القلب عن شوائب الرّياء و تمّ الإخلاص على وجه واحد في الحالتين فما يقتدى به أفضل لامحالة و إنّما يخاف من ظهور الرّياء و مهما حصلت شائبة الرّياء لم ينفعه اقتداء غيره و هلك به فلا خلاف في أنّ السرّ أفضل منه .

ولكنّ على من يظهر العمل وظيفتان : إحداهما : أن يظهره حيث يعلم أنّه يقتدى به أو يظنّ ذلك ظنّاً وربّ رجل يقتدي به أهله دون جيرانه ، و ربّما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق و ربّما يقتدي به أهل محلّته ، وإنّما العالم المعروف هو الّذي يقتدي به الناس كافّة فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربّما نسب إلى الرّياء و النفاق و ذمّوه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة فإنّما يصحّ الإظهار بنيّة القدوة ممّن هو في محلّ القدوة على من هو في محلّ الاقتداء به .

والثانية أن يراقب قلبه فإنّه ربّما يكون فيه حبّ الرّياء الخفيّ فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء ، و إنّما شهوتها التجمّل بالعمل و بكونه مقتدى به ، و هذا حال كلّ من يظهر أعماله إلّا الأقوياء المخلصين وقليل ماهم ، فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك و هو لا يشعر ، فإنّ الضعيف مثاله مثال الغريق الّذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتّى تشبثوا به فهلكوا وهلك و الغرق بالماء في الدّنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرّياء مثله

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابى الدرداء مقتصراً على الشطر الاول بنحوه وقال : هذا من افراد بقية عن شيوخه المجهولين وقد تقدم وله من حديث ابن عمر « عمل السر أفضل من عمل العلانية و العلانية أفضل لمن اراد الاقتداء » و قال قد تفرد به بقية عن عبدالملك بن مهران . وله من حديث عائشة « يفضل او يضاعف الذكر الخفي الذى لايسمعه الحفظة على الذى تسمعه بسبعين ضعفاً » و قال : تفرد به معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف . (المغنى)

لا بل عذابه مدّة مديدة و هذه مزلّة أقدام العبّاد و العلماء ، فإنّهم يتشبّهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرّياء و التفطّن لذلك غامض ، و محك ذلك أن يعرض على نفسه أنّه لوقيل له : اخف العمل حتّى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك و يكون لك في السرّ مثل أجر الإعلان ، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به و هو المظهر للعمل فباعثه الرّياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير فإنّهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره و أجره قد توفّر عليه مع إسراره فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق و مراءاتهم ، فليحذر العبد خدع النفس فإنّ النفس خدوعة و الشيطان مترصّد و حبّ الجاه على القلب غالب و قلّما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئاً و السلامة في الإخفاء ، وفي الإظهار من الأخطار مالا يقوى عليه أمثالنا فالحذر من الإظهار أولى بنا و بجميع الضعفاء .

القسم الثاني أن يتحدّث بما فعله بعد الفراغ و حكمه حكم إظهار العمل نفسه و الخطر في هذا أشدّ لأنّ مؤونة النطق خفيفة على اللّسان و قد تجري في الحكاية زيادة و مبالغة وللنفس لذّة في إظهار الدّعاوي عظيمة إلّا أنّه لوتطرّق إليه الرّياء ثمّ يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون فالحكم فيه أنّ من قوي قلبه و تمّ إخلاصه وصغر الناس في عينه و استوى عنده مدحهم و ذمّهم وذكر ذلك عند من يرجو الإقتداء به و الرّغبة في الخير بسببه فهو جائز بل مندوب إليه إن صفت النيّة و سلمت من جميع الآفات لأنّه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خير ، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . فلا ينبغي أن يسدّ باب إظهار الأعمال ، والطباع مجبولة على التشبّه والاقتداء بل إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنّه رياء فيه خيرٌ كثيرٌ للناس ولكنّه شرٌ للمرائي فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عندالله تعالى وقدروي أنّه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عندالصبح فيسمع أصوات المصلّين بالقرآن من البيوت

فصنّف بعضهم كتاباً في دقائق الرّياء فتركوا ذلك و ترك الناس الرّغبة فيه فكانوا يقولون : ليت ذلك الكتاب لم يصنّف . فإظهار المرائي فيه خيرٌ كثيرٌ لغيره إذا لم يعرف رياؤه ، وإنّ الله يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم كما ورد في الأخبار (١) و بعض المرائين ممّن يقتدى به منهم .

(بيان الرّخصة في كتمان الذّنوب وكراهة اطّلاع الناس عليها وكراهة ذمّهم لها)

اعلم أنّ الأصل في الإخلاص استواء السّريرة و العلانية ، كما قال بعضهم : عليك بعمل العلانية قيل : و ما عمل العلانية ؟ قال : ما إذا اطّلع عليك لم تستحي منه . وقال آخر : ما عملت عملاً اُبالي أن يطّلع الناس عليه إلّا إتياني أهلي والبول و الغائط . إلّا أنّ هذه درجة عظيمة لا ينالها كلّ أحد و لا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه و هو يخفيها و يكره اطّلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والأماني والله مطّلع على جميع ذلك ، فإرادة العبد لإخفائه عن العبيد ربّما يظنّ أنّه رياء محظور ، و ليس كذلك بل المحظور أن يستر ذلك ليرى الناس أنّه ورع و أنّه خائف من الله مع أنّه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي ، أمّا الصادق الّذي لايرائي فيجوز له ستر المعاصي ، و يصحّ قصده فيه ، و يصحّ اغتمامه باطّلاع الناس عليه من ثمانية أوجه :

الأوّل : هو أن يفرح بستر الله عليه و إذا افتضح اغتمّ بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره في القيامة إذ ورد في الخبر « أنّ من ستر الله عليه في الدّنيا ذنباً ستر عليه في الآخرة » (٢) وهذا غمّ ينشأ من قوّة الإيمان .

الثاني : أنّه قد علم أنّ الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحبّ سترها كما

(١) أخرجه البخاری ج ٨ ص ١٥٥ ، وأبوعوانه ج ١ ص ٤٦ من مسنده ، واحمد فی مسنده ج ٢ص ٣٠٩ ، والدارمی ج ٢ص ٢٤٠ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ وقد تقدم .

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستره بستر الله تعالى»[1] فهو و إن عصى الله بالذّنب فلم يخل قلبه من محبّة ما أحبّه الله، و هذا ينشأ من قوّة الايمان لكراهة الله لظهور المعاصي، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذّنب من غيره أيضاً ويغتمّ بسببه.

الثالث أن يكره ذمّ الناس له به من حيث أنّ ذلك يغمّه ويشتغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى فانّ الطبع يتأذّى بالذّمّ و ينازع العقل و يشتغل عن الطاعة و بهذه العلّة ينبغي أيضاً أن يكره الحمد الّذي يشغله عن الله تعالى و يستغرق قلبه و يصرفه عن الذكر وهذا أيضاً من قوّة الايمان إذ صدق الرّغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الايمان.

الرّابع: أن يكون ستره و رغبته فيه لكراهته لذمّ الناس من حيث يتأذّى طبعه به فانّ الذّمّ مؤلم للقلب كما أنّ الضرب مؤلم للبدن و تألّم القلب بالذّنب ليس بحرام و لا الانسان به عاص، و إنّما يعصي إذا جزعت نفسه من ذمّ النّاس و دعته إلى ما لا يجوز حذراً من ذمّهم و ليس يجب على الانسان أن لا يغتمّ بذمّ الخلق و لايتألّم به نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي عنده ذامّه و مادحه لعلمه أنّ الضارّ و النافع هو الله و أنّ العباد كلّهم عاجزون، و ذلك قليل جدّاً و أكثر الطباع تتألّم بالذّمّ لما فيه من الشعور بالنقصان، و ربّ تألّم بالذّمّ محمودٌ إذا كان الذّامّ من أهل البصيرة في الدّين فانّهم شهداء الله و ذمّهم يدلّ على ذمّ الله تعالى و على نقصان في الدّين فكيف لا يغتمّ به، نعم الغمّ المذموم و هو أن يغتمّ لفوات الحمد بالتورّع كأنّه يحبّ أن يحمد بالورع و لا يجوز أن يحبّ أن يحمد بطاعة الله فيكون قد طلب بطاعة الله ثواباً من غيره، فان وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة و الرّدّ، و أمّا كراهة الذّمّ بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذراً من ذلك و يتصوّر أن يكون العبد بحيث

(١) أخرجه الحاكم بلفظ آخر في المستدرك ج ٤ ص ٢٤٤. وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

لايحبّ الحمد ولكن يكره الذمّ و إنّما مراده أن يتركه الناس حمداً و ذمّاً فكم من صابر عن لذّة الحمد لايصبر على ألم الذمّ إذ الحمد يطلب اللّذّة و عدم اللّذّة لايؤلم وأمّا الذمّ فإنّه مؤلم ، فحبّ الحمد على الطاعات طلب ثواب الطاعة في الحال ، و أمّا كراهة الذمّ على المعصية فلا محذور فيه إلّا أمرٌ واحد و هو أن يشغله غمّه باطّلاع الخلق على ذنبه عن اطّلاع الله ، فإنّ ذلك غاية النقصان في الدّين ، بل ينبغي أن يكون غمّه باطّلاع الله و ذمّه له أكثر . و قد يكره الذمّ من حيث إنّ الذّامّ قدعصى الله تعالى به وهذا من الإيمان ، وعلامته أن يكره ذمّه لغيره أيضاً ، فهذا التوجّع لا يفرق بينه و بين غيره بخلاف التوجّع من جهة الطبع .

الخامس : أن يستر ذلك كيلا يقصد بشرّ إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذمّ فإنّ الذمّ مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه و خسّته ، و إن كان ممّن يؤمن شرّه ، و قد يخاف شرّ من يطّلع على ذنبه بسبب من الأسباب فله أن يستر ذلك حذراً منه .

السادس : مجرّد الحياء فإنّه نوع ألم وراء ألم الذمّ والقصد بالشرّ ، والحياء هو خلق كريم يحدث في أوّل الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من القبائح إذا شوهدت منه وهو وصف محمود ، إذ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « الحياء خيرٌ كلّه » (١) وقال : « الحياء شعبة من الإيمان » (٢) . و قال : « الحياء لايأتي إلّا بالخير » (٣) . و قال : « إنّ الله يحبّ الحييّ الحليم » (٤) فالّذي يفسق و لا يبالي بأن يظهر فسقه للناس قد جمع إلى الفسق التهتّك والوقاحة وفقد الحياء فهو أشدّ حالاً ممّن يفسق فيستره ويستحي إلّا أنّ الحياء ممتزج بالرّياء يشتبه به اشتباهاً عظيماً قلّ من يتفطّن له ، و يدّعي كلّ مراء أنّه مستحي و أنّ سبب تحسينه للعبادات هو الحياء من

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٤٧ من حديث عمران بن حصين .

(٢) أخرجه البخاري ج ١ ص ٩ من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٤٦ من حديث عمران بن حصين والبخاري ج ٨ ص ٣٥ من حديث عمران أيضاً .

(٤) قال العراقي : أخرجه الطبراني من حديث فاطمة عليها السلام .

الناس ، وذلك كذب بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم و يهيج عقيبه داعية الرّياء و داعية الإخلاص و يتصوّر أن يخلص معه ويتصوّر أن يرائي معه ، و بيانه أنّ الرّجل يطلب من صديقه قرضاً و نفسه لا تسخو بإقراضه إلّا أنّه يستحي من ردّه و يعلم أنّه لو راسله على لسان غيره لكان لايستحي و لا يقرض رياء و لا لطلب ثواب فله عند ذلك أحوال : أحدها أن يشافه بالردّ الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلّة الحياء ، و هذا فعل من لا حياء له فإنّ المستحي إمّا أن يتعلّل أو يقرض ، فإن أعطى فيتصوّر له ثلاثة أحوال : أحدها أن يمزج الرّياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الردّ فيهيج خاطر الرّياء ، و يقول : ينبغي أن تعطي حتّى يثني عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء ، أو ينبغي أن تعطي حتّى لا يذمّك ولا ينسبك إلى البخل ، فإذا أعطى على هذه الصفة فقد أعطى بالرّياء ، وكان المحرّك للرّياء هو هيجان الحياء . الثاني أن يتعذّر عليه الردّ بالحياء و يبقى في نفسه البخل فيتعذّر الإعطاء فيهيج باعث الإخلاص و يقول له : إنّ الصدقة بواحدة و القرض بثمانية عشر ففيه أجر عظيم و إدخال السرور على قلب صديق و ذلك محمودٌ عند الله فتسخو النفس بالإعطاء لذلك ، فهذا مخلص يهيج الحياء بإخلاصه . الثالث أن لا يكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مذمّته و لا حبٌّ لمحمدته لأنّه لو طلبه مراسلة لكان لايعطيه ، فأعطاه لمحض الحياء و هو ما يجده في قلبه من ألم الحياء و لو لا الحياء لردّه و لو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان يردّه وإن كثر الحمد والثواب فيه فهذا مجرّد الحياء و لايكون هذا إلّا في القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب ، و المرائي يستحي من المباحات أيضاً حتّى أنّه يرى مستعجلاً في المشي فيعود إلى الهدوّ ، أو ضاحكاً فيرجع إلى الانقباض و يزعم أن ذلك حياء و هو عين الرّياء ، وقد قيل : إنّ بعض الحياء ضعف و هو صحيح و المراد به الحياء ممّا ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس و إمامة الصلاة و هو في الصّبيان و النساء محمودٌ و في العقلاء غير محمود ، و قد يشاهد معصية من شيخ فيستحي من شيبته أن ينكر عليه لأنّه من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم » و هذا الحياء حسن و أحسن منه

أن يستحي من الله فلا يضيع الأمر بالمعروف ، و القويّ يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس و الضعيف قد لا يقدر عليه ، فهذه هي الأسباب الّتي يجوز لأجلها ستر القبائح و الذّنوب .

السابع : أن يخاف من إظهار ذنبه سقوط وقع المعاصي من النفس و جرأتها عليها ، فإنّ النفس متى ألفت ظهور الذّنوب زاد انهماكها و استرسلت في شهواتها .

الثامن : أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره و يقتدي به ، و هذه العلّة الواحدة هي الجارية في إظهار الطاعة و هي القدوة و يختصّ ذلك بالأئمّة أو بمن يقتدى به و بهذه العلّة ينبغي أن يخفي العاصي أيضاً معصيته من أهله و ولده لأنّهم يتعلّمون منه .

ففي ستر الذّنوب هذه الأعذار الثمانية و ليس في إظهار الطاعة عذر إلّا هذا العذر الواحد ، ومهما قصد بستر المعصية أن يخيّل إلى الناس أنّه ورع كان مرائياً كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة .

فإن قلت : فهل يجوز للعبد أن يحبّ حمد الناس له بالصلاح و حبّهم إيّاه بسببه ، وقد قال رجل للنبيّ صلى الله عليه وآله : دلّني على ما يحبّني الله عليه و يحبّني الناس قال : « ازهد في الدّنيا يحبّك الله وانبذ إليهم هذا الحطام يحبّوك » (١) ، فنقول : حبّك لحبّ الناس لك قد يكون مباحاً و قد يكون محموداً و قد يكون مذموماً ، فالمحمود أن تحبّ ذلك لتعرف به حبّ الله لك فإنّه تعالى إذا أحبّ عبداً حبّبه في قلوب عباده ، و المذموم أن تحبّ حبّهم وحمدهم على حجّك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها ، فإنّ ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجلاً سوى ثواب الله ، و المباح أن تحب أن يحبّوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعيّنة فحبّك ذلك كحبّك المال لأنّ ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما .

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٢ من حديث سهل بن سعد وفي إسناده خالد بن عمرو ، اتفقوا على ضعفه واتهم بالوضع الا ان النووي قال : رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة .

✿(بيان ترك الطاعات خوفاً من الرّياء ودخول الآفات)✿

إعلم أنّ من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به و ذلك غلط وموافقة للشيطان بل الحقّ فيما يترك من الأعمال و ما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره : و هو أنّ الطاعات تنقسم إلى ما لا لذّة في عينها كالصلاة و الصوم والحجّ و الغزو فإنّها مقاساة ومجاهدات ، و إنّما تصير لذيذة من حيث أنّها توصل إلى حمد الناس ، و حمد الناس لذيذ ، و ذلك عند اطّلاع الناس عليه و إلى ما هو لذيذ و هو أكثر ما لا يقتصر على البدن بل يتعلّق بالخلق كالخلافة و القضاء و الولايات و الحسبة و إمامة الصلاة و التذكير و التدريس و إنفاق المال على الخلق وغير ذلك ممّا تعظم الآفة فيه لتعلّقه بالخلق و لما فيه من اللّذّة .

القسم الأوّل : الطاعات اللاّزمة للبدن الّتي لا تتعلّق بالغير و لا لذّة في عينها كالصلاة و الصوم و الحجّ فخطرات الرّياء فيها ثلاث :

إحداها ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس و ليس معه باعث الدّين ، فهذا ممّا ينبغي أن يترك لأنّه معصية لا طاعة فيه ، فإنّه تذرّع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة[1] فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرّياء وسخت النفس ويقول لها : ألا تستحيين من مولاك لا تسخو بالعمل لأجله وتسخو بالعمل لأجل عباده حتّى يندفع باعث الرّياء وسخت النفس بالعمل لله تعالى عقوبة للنفس على خاطر الرّياء و كفّارة عليه ليشتغل بالعمل .

الثانية أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرّياء مع عقد العبادة و أوّلها ، فلا ينبغي أن يترك العمل لأنّه وجد باعثاً دينياً فليشرع في العمل و ليجاهد نفسه في دفع الرّياء و تحصيل الإخلاص بالمعالجة الّتي ذكرناها من إلزام النفس كراهة الرّياء و الإباء عن القبول .

الثالثة أن يعقد على الإخلاص ثمّ يطرأ الرّياء و دواعيه فينبغي أن يجاهد

---

(١) تذرع بذريعة أي توسل بوسيلة . و ربما يقرء في بعض النسخ [تدرع] بالدال المهملة و درع الرجل في السير أي تقدم . وبالمعجمة أنسب .

في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه قهراً حتى يتم العمل ، لأن الشيطان يدعوك أولاً إلى ترك العمل فإذا لم تجبه واشتغلت فيدعوك إلى الرياء فإذا لم تجب ودفعته بقي يقول لك : هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء و تعبك ضائع فأي فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه حتى يحملك بذلك على ترك العمل ، فإذا تركته فقد حصلت غرضه ، ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائياً كمن سلم إليه مولاه حنطةفيها تراب وقال له : خلصها من التراب ونقها تنقية بالغة ، فيترك أصل العمل ويقول : أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصاً صافياً نقياً ، فترك العمل من أصله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل فلا معنى له ، و من هذا القبيل أن يترك العمل خوفاً على الناس أن يقولوا له : إنه مراء فيعصون الله به ، فهذا من مكائد الشيطان لأنه أولاً أساء الظن بالمسلمين و ما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ، ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة و ترك العمل خوفاً من قولهم : « إنه مراء » هوعين الرياء فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فماله ولقولهم قالوا : إنه مراء أو قالوا : إنه مخلص ، وأي فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال : إنه مراء ، و بين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال : إنه غافل مقصر ، بل ترك العمل أشد من ذلك ، فهذه كلها مكائد الشيطان على العباد الجهال ، ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له الآن : يقول الناس : إنك تركت العمل ليقال : إنك مخلص لا يشتهي الشهرة فيضطرك بذلك إلى أن تهرب فإن هربت و دخلت سرباً تحت الأرض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك ، فكيف تتخلص بل لا نجاة منه إلا أن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء و هو أنه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا لتلزم الكراهة والإباء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل و لا تبالي ، و إن نزغ العدو نازغ الطبع ، فإن ذلك لا ينقطع و ترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة و ترك الخيرات فما دمت تجد باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء و ألزم قلبك الحياء من الله

إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين و هو مطّلع على قلبك، ولو اطّلع الخلق على قلبك وأنت تريد حمدهم لمقتوك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياءً من ربّك و عقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان: أنت مراء فاعلم كذبه لما تصادف قلبك من كراهة الرّياء و إبائه و خوفك منه و حيائك من الله، و إن لم تجد في قلبك له كراهية و منه خوفاً ولم يبق باعث دينيّ بل تجرّد باعث الرّياء فاترك العمل عند ذلك، وهو بعيد فمن شرع في العمل لله تعالى فإنّه لابد أن يبقى معه أصل قصد الثواب.

فإن قلت: فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة.

قلنا: هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممّن لا يحصى، و بالجملة ترك النوافل جائز و الكلام في الأفضل و الأفضل إنّما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء فالأفضل أن يتمّ العمل و يجتهد في الإخلاص و لا يتركه، و أرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدّة الخوف فالاقتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء.

القسم الثاني ما يتعلّق بالخلق وتعظم فيه الآفات و الأخطار، أعظمها الخلافة ثمّ القضاء، ثمّ التذكير و التدريس و الفتوى، ثمّ إنفاق المال.

أمّا الخلافة والإمارة فهي من أفضل العبادات إذا كانت مع العدل والإخلاص، و قد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليوم من إمام عادل خيرٌ من عبادة الرّجل وحده ستّين عاماً»(١) فأعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستّين سنة.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أوّل من يدخل الجنّة ثلاثة الإمام المقسط أحدهم»(٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة لا تردّ دعوتهم الإمام العادل» منهم(٣).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير والاوسط، وإسناد الكبير حسن كما في الترغيب والترهيب للمنذري ج ٣ ص ١٦٧.

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥٩ من حديث عياض بن حمار المجاشعي في حديث طويل هكذا «وأهل الجنة ثلاثة ذوسلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال .. الحديث».

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٧٥٢ «ثلاثة لاترد دعوتهم: الامام العادل، والصائم حتى يفطر، و دعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة .. الحديث».

و قال ﷺ: «أقرب الناس منّي مجلساً يوم القيامة إمام عادل» (١)

أقول: لمّا كانت الخلافة عندنا إنّما تكون منصوصة من الله عزّ و جلّ مخصوصة بالإمام المعصوم المطهّر من الرّجز و شوائب النفس الّتي منها تهيج الرّياء ولا يدّعيها بعده إلّا المشرك الّذي أحبط بشركه جميع أعمال برّه رأساً فلا حاجة بنا إلى الكلام فيها من حيث تطرّق الرّياء إليها فلنطوه، وقد نقل أبو حامد عن شيخيه في هذا المقام من القول و الفعل ما نقل.

قال: وأمّا القضاء فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو في معناها، فإنّ كلّ ذي ولاية أمير أي له أمر نافذ، والإمارة محبوبة بالطبع والثواب في القضاء عظيم مع اتّباع الحقّ، و العقاب فيه أيضاً عظيم مع العدول عن الحقّ.

و قد قال ﷺ: «القضاة ثلاثة واحد في الجنّة و اثنان في النّار» (٢)

و قال ﷺ: «من استقضى فقد ذبح بغير سكين» (٣) فحكمه حكم الإمارة ينبغي أن يتركه الضعفاء و كلّ من للدّنيا ولذّاتها وزن في عينه، وليتقلّده الأقوياء الّذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، و مهما كانت السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء إلّا بمداهنتهم و إهمال بعض الحقوق لأجلهم و لأجل المتعلّقين بهم، إذ يعلم أنّه لو حكم عليهم بالحقّ لعزلوه أو لم يطيعوه، فليس له أن يتقلّد القضاء، و إن تقلّده فعليه أن يطالبهم بالحقوق، ولا يكون خوف العزل عذراً مرخّصاً له في الإهمال أصلاً، بل إذا عزل سقطت العهدة عنه، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضي لاتّباع الهوى والشيطان فكيف يرتقب عليه ثواباً وهو مع الظلمة في الدّرك الأسفل من النار.

(١) أخرجه الترمذي ج ٦ ص ٧٠ من حديث ابي سعيد الخدري هكذا: ان احب الناس الى الله يوم القيامة وادناهم منه مجلساً امام عادل وابغض الناس .. الحديث».

(٢) أخرجه ابوداود من حديث ابن بريدة ج ٢ ص ٢٦٨، وقال: هذا اصح شيء فيه - يعني حديث ابن بريدة «القضاة ثلاثة». و رواه ابن ماجه تحت رقم ٢٣١٥.

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٣٠٨ و فيه «من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكين» من حديث ابي هريرة وأخرجه ابوداود ج ٢ ص ٢٦٨.

أقول: و من طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «اتّقوا الحكومة إنّما هي للإمام العالم بالقضاء العادل في المسلمين لنبيّ أو وصيّ نبيّ»(١).

و عنه عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام لشريح: يا شريح قد جلست مجلساً لايجلسه إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ أو شقيّ»(٢).

و عنه عليه السلام قال: «القضاة أربعة ثلاثة في النار و واحد في الجنّة: رجلٌ قضى بجور و هو يعلم فهو في النار، و رجلٌ قضى بجور و هو لا يعلم فهو في النار، ورجلٌ قضى بالحقّ و هو لايعلم فهو في النار، و رجلٌ قضى بالحقّ و هو يعلم فهو في الجنّة»(٣).

قال أبو حامد: و أمّا الوعظ و الفتوى و التدريس و رواية الحديث و جمع الأسانيد العالية و كلّ ما يتّسع بسببه الجاه ويعظم به القدر فآفته أيضاً عظيمة مثل آفة الولاية، و قد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا و كانوا يقولون: «حدّثنا» باب من أبواب الدّنيا. من قال: حدّثنا فقد قال: أوسعوا لي.

أقول: و قد أسلفنا كلاماً عن مولانا الصادق عليه السلام في الفتوى في كتاب العلم من ربع العبادات.

(١) المصدر ج٧ ص ٤٠٦ وقال العلامة المجلسي - رحمه الله -: لا يخفى أن هذه الاخبار تدل بظواهرها على عدم جواز القضاء لغير المعصوم عليه السلام ولا ريب انهم عليهم السلام يبعثون القضاة الى البلاد، فلابد من حملها على ان القضاء بالاصالة لهم ولايجوز لغيرهم تصدى ذلك الاباذنهم وكذا في قوله في الخبر الاتي: «لايجلسه الانبى» اى الابالاصالة والحاصل أن الحصر اضافى بالنسبة إلى من جلس فيها بغير اذنهم ونصبهم عليهم السلام.

(٢) المصدر ج ٧ ص ٤٠٦ وقال العلامة المجلسي - رحمه الله -: يحتمل أن يكون الغرض بيان صعوبة القضاء و انه لغير المعصوم غالباً يستلزم الشقاء او بيان أنه من زمن النبى صلى الله عليه وآله الى هذا الزمان ما جلس فيه الا هذه الثلاثة الاصناف و يؤيده مافي كتاب «من لايحضره الفقيه» «ماجلسه».

(٣) المصدر ج ٧ ص ٤٠٧ باب اصناف القضاة.

قال: (١) و الواعظ يجد في وعظه و تأثّر قلوب الناس به و تلاحق بكائهم و زعقاتهم (٢) و إقبالهم عليه لذّة لا توازيها لذّة فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كلّ كلام مزخرف يروّج به عند العوام و إن كان باطلاً و يفرّ عن كلّ كلام يستثقله العوام و إن كان حقّاً ، و يصير مصروف الهمّة بالكلّيّة إلى ما يحرّك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم فلا يسمع حديثاً وحكمة إلّا و يكون فرحه به من حيث أنّه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر ، و كان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث أنّه عرف طريق السعادة و طريق سلوك سبيل الدّين ليعمل به أوّلاً ، ثمّ يقول : إذا أنعم الله عليّ بهذه النعمة و نفعني بهذه الحكمة فأفيضها ليشار كني في نفعها إخواني المسلمون ، فهذا ممّا يعظم فيه الخوف و الفتنة فحكمه حكم الولايات ، فمن لا باعث له إلّا طلب الجاه و المنزلة و الأكل بالدّين و التّفاخر و التكاثر ، فينبغي أن يتركه و يخالف الهوى فيه إلى أن ترتاض نفسه و تقوى في الدّين منّته و يأمن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود إليه .

فإن قلت : مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطّلت العلوم و اندرست و عمّ الجهل كافّة الخلق ؟

فنقول : قد نهى رسول الله صلّى الله عليه وآله عن طلب الإمارة و توعّد عليها (٣) حتّى قال : « إنّكم تحرصون على الإمارة و إنّها حسرة وندامة يوم القيامة إلّا من أخذها بحقّها ، و قال : نعمت المرضعة وبئست الفاطمة » (٤) و معلوم أنّ السلطنة والإمارة و لوتعطّلت لبطل الدّين والدّنيا جميعاً و ثار القتال بين الخلق وزال الأمن وخربت البلاد و تعطّلت المعايش فلم نهى عنها مع ذلك ، فأمّا قول القائل نهيك عن ذلك

(١) يعني أباحامد . (٢) جمع الزعقة وهي الصيحة .

(٣) أخرج مسلم والبخاري ج ٩ ص ٧٩ باسنادهما عن عبدالرحمن بن سمرة قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «يا عبدالرحمن لاتسأل الامارة فانك ان اعطيتها عن مسئلة وكلت اليها ، و ان اعطيتها عن غير مسئلة اعنت عليها .. الحديث » .

(٤) أخرجه البخاري أيضاً ج ٩ ص ٧٩ هكذا من حديث ابي هريرة «انكم ستحرصون على الامارة ، و ستكون ندامة يوم القيامة ، فنعمت المرضعة و بئست الفاطمة » .

يؤدّي إلى اندراس العلم فهو غلط إذ نهيُ رسول الله صلّى الله عليه وآله عن القضاء لم يؤدِّ إلى تعطيل القضاء [١] بل الرّئاسة وحبّها يضطرّ الخلق إلى طلبها وكذلك حبّ الرّئاسة لا يترك العلوم تندرس بل لو حبس الناس و قيّدوا بالسلاسل و الأغلال عن طلب العلوم الّتي فيها القبول و الرّئاسة لأفلتوا من الحبس و قطعوا السلاسل و طلبوها و قد وعد الله تعالى أن يؤيّد هذا الدّين بأقوام لا خلاق لهم ، فلا تشتغل قلبك بأمر الناس فإنّ الله لا يضيعهم ، و انظر لنفسك ، ثم إنّي أقول : مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلاً فليس في النهي عنه إلّا امتناع بعضهم و إلّا فيعلم أنّ كلّهم لا يمتنعون ولا يتركون لذّة الرّئاسة فإن لم يكن في البلد إلّا واحد وكان وعظه نافعاً للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته في الظاهر و تخييله إلى العوام أنّه إنّما يريد الله بوعظه و أنّه تارك للدّنيا ومعرضٌ عنها فلا نمنعه عنها و نقول له : اشتغل وجاهد نفسك ، فإن قال : لست آمن على نفسي فنقول : اشتغل و جاهد لأنّا نعلم أنّه لو ترك ذلك لهلك الناس كلّهم إذ لا قائم به غيره ، ولو واظب و غرضه الجاه فهو الهالك وحده و سلامة دين الجميع أحبّ عندنا من سلامة دينه وحده فنجعله فداءً للقوم ونقول : لعلّ هذا هو الّذي قال فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله : « إنّ الله يؤيّد هذا الدّين بأقوام لا خلاق لهم » [٢] ثمّ الواعظ هو الّذي يرغب في الآخرة ويزهد في الدّنيا بكلامه وبظاهر سيرته فأمّا ما أحدثه الوعّاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة و الألفاظ المسجّعة المقرونة بالأشعار ممّا ليس فيه تعظيم لأمر الدّين و لا تخويف للمسلمين بل فيه الترجية و التجرئة على المعاصي بطيّارات النكت فيجب إخلاء البلاد منهم فإنّهم نوّاب الدّجّال وخلفاء الشيطان ، و إنّما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حبّ القبول و لا يقصد غيره ، و فيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حقّ علماء السوء ما يبين

---

(١) نهيه صلى الله عليه وآله عن القضاء أخرجه مسلم ج ٦ ص ٧ من حديث أبي ذر « لاتأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » .

(٢) حديثه تقدم آنفاً عن مصادر عدة .

لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله .

ولقد قال عيسى عليه السلام : « يا علماء السوء تصومون و تصلّون و تتصدّقون ، ولاتفعلون ما تؤمرون ، وتدرسون مالا تعملون فياسوء ماتحكمون ، تتوبون بالقول و الأماني و تعملون بالهوى و ما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم و قلوبكم دنسة ، بحقّ أقول لكم : لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدّقيق الطيّب وتبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم ، ياعبيدالدّنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدّنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته ، بحقّ أقول لكم : إنّ قلوبكم تبكي من أعمالكم ، جعلتم الدّنيا تحت ألسنتكم و العمل تحت أقدامكم ، بحقّ أقول لكم : أفسدتم آخرتكم فصلاح الدّنيا أحبّ إليكم من صلاح الآخرة ، فأي الناس أخسّ منكم لو تعلمون ، ويلكم حتّى متى تصفون الطريق للمدلجين و تقيمون في محلّة المتحيّرين ؟ كأنّكم تدعون أهل الدّنيا ليتركوها لكم ، مهلاً مهلاً ، ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره و جوفه وحش مظلم ، كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطّلة ، يا عبيد الدّنيا لا كعبيد أتقياء و لا كأحرار كرام ، توشك الدّنيا أن تقلعكم عن اُصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثمّ تكبّكم على مناخركم ، ثمّ تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، يدفعكم العلم من خلفكم ثمّ يسلّمكم إلى الملك الدّيان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثمّ يجزيكم بسوء أفعالكم» وقد روى الحارث المحاسبيّ هذا الحديث في بعض كتبه (1).

ثمّ قال : هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس و فتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدّنيا و رفعتها ، وآثروها على الآخرة وأذلّوا الدّين للدّنيا ، فهم في العاجل عار و شين و في الآخرة هم الخاسرون .

---

(1) قدمر أنه رواه الحسن بن علي بن شعبة الحراني في تحف العقول بأدنى اختلاف ولم أجده في كتاب الرعاية لحقوق الله والظاهر أنه منقول من كتاب آخر له - رحمه الله - .

﴿فصل﴾

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم و الوعظ رغائب كثيرة حتّى قال رسول الله ﷺ : « لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من الدّنيا و ما فيها »(١). و قال ﷺ : « أيّما داع دعا إلى هدى واتّبع عليه كان له أجره وأجر من اتّبعه »(٢).

إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فينبغي أن يقال للعالم : اشتغل بالعلم و اترك مراءاة الخلق كما يقال لمن خالجه الرّياء في الصلاة : لا تترك العمل و لكن أتمم العمل وجاهد نفسك .

فاعلم أنّ فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة و الامارة ولا نقول لأحد من عباد الله : اترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة إنّما الآفة في إظهاره للتصدّي بالوعظ والتدريس ورواية الأحاديث ولانقول له أيضاً : اتركه ما دام يجد من نفسه باعثاً دينيّاً ممزوجاً بباعث الرّياء ، و أمّا إذا لم يحرّكه إلّا الرّياء ، فترك الاظهار أنفع له وأسلم وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرّد فيها باعث الرّياء وجب تركها ، امّا إذا خطر له وساوس الرّياء في أثناء الصلاة وهو له كاره فلايترك الصلاة لأنّ آفة الرّياء في العبادات ضعيفة و إنّما تعظم في الولايات وفي التصدّي للمناصب الكبيرة كالعلم . و بالجملة فالمراتب ثلاث :

الأولى : الولايات و الآفات فيها عظيمة و قد تركها جماعة من السلف خوفاً من الآفة .

الثانية الصلاة و الصوم و الحجّ و الصدقة و قد تعرّض لها أقوياء السلف

(١) أخرجه البخاري ج ٦ ص ٢٣من حديث سهل بن سعد ذيل حديث اعطائه (ص) الراية لعلي عليه السلام وساق الحديث الى أن قال : « فقال علي يارسول الله اقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : أنفذ على رسلك حتى ينزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام واخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لان يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم ».

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٠٥ بزيادة في أوله . ولمسلم نحوه مختصراً .

و ضعفاؤهم و لم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة و ذلك لضعف الآفة الدّاخلة فيها و القدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوّة .

المرتبة الثالثة : و هي متوسّطة بين الرّتبتين و هو التصدّي لمنصب الوعظ والفتوى و الرّواية والتدريس و الآفات فيها أقلّ ممّا في الولايات و أكثر ممّا في الصلاة ، و الصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف و القوي ولكن يدفع خاطر الرّياء . و الولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأساً دون الأقوياء و مناصب العلم بينهما و من جرّب آفات منصب العلم علم أنّها بالولايات أشبه و أنّ الحذر منها في حقّ الضعيف أسلم و الله أعلم .

و ههنا رتبة رابعة وهي جمع المال و أخذه للتفرقة على المستحقّين فإنّ في الإنفاق و إظهار السخاء استجلاباً للثناء و في إدخال السّرور على قلوب الناس لذّة للنفس فالآفات فيها أيضاً كثيرة.

و قد اختلف العلماء فقال قوم : إذا طلب الدّنيا من الحلال وسلم منه وتصدّق به فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل لأنّه خير متعدّ كالنكاح ، وقال قوم : الجلوس في دوام ذكر الله أفضل و الأخذ و الإعطاء يشغل عن ذكر الله و قد قال عيسى عليه السلام : « ياطالب الدّنيا لتبرّ بها ، تركك لها أبرّ » وقال قوم : أقلّ ما فيه أنّه يشغله إصلاحه عن ذكر الله و ذكر الله أفضل و أكبر ، و هذا فيمن سلم من الآفات فأمّا من يتعرّض لآفات الرّياء فتركه لها أبرّ والاشتغال بالذّكر لاخلاف في أنّه أفضل .

و بالجملة ما يتعلّق بالخلق وللنفس فيه لذّة فهو مثار الآفات والأحبّ أن يعمل و يدفع الآفات فإن عجز فلينظر و ليجتهد وليستفت قلبه و ليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشرّ و ليفعل ما يدلّ عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع .

و بالجملة ما يجده أخفّ على قلبه فهو في الأكثر أضرّ عليه لأنّ النفس لا تستلذّ إلّا بالشرّ و قلّما تستلذّ الخير وتميل إليه ، و إن كان لا يبعد ذلك أيضاً في بعض الأحوال ، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي وإثبات وهو موكول

إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ويدع ما يريبه إلى مالايريبه ، ثمّ قد يقع ممّا ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال و لاينفقه خيفة من الآفة و هو عين البخل و لا خلاف في أنّ تفرقة المال في المباحات فضلاً عن الصدقات أفضل من إمساكه و إنّما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب أنّ الأفضل ترك الكسب و الإنفاق أو التجرّد للذكر أو الكسب من الحلال و إنفاقه في الخيرات و ذلك لما في الكسب من الآفات و أمّا المال الحاصل الحلال فتفرقته أفضل بكلّ حال من إمساكه .

فإن قلت : فبأيّ علامة يعرف العالم والواعظ أنّه صادق مخلصٌ في وعظه غير مريد رئاء الناس ؟

فاعلم أنّ لذلك علامات إحداها أنّه لو ظهر من هو أحسن منه وعظاً و أغزر منه علماً والناس له أشدّ قبولاً فرح به ولم يحسده ، نعم لابأس بالغبطة وهي أن يتمنّى لنفسه مثل علمه ، والاُخرى أنّ الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغيّر كلامه بل يبقى كما كان عليه فينظر إلى الخلق بعين واحدة ، و الاُخرى أن لا يحبّ اتّباع الناس له في الطريق و المشي خلفه في الأسواق ، و لذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها .

❁(بيان ما يصحّ من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق ومالايصحّ)❁

إعلم أنّ الرّجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجّد أو يقوم بعضهم فيصلّون اللّيل كلّه أو بعضه و هو ممّن يقوم في بيته ساعة قريبة ، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتّى يزيد على ما كان يعتاده أو يصلّي مع أنّه كان لايعتادها أصلاً ، و كذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط ، فهذا ربّما يظنّ أنّه رياء و أنّ الواجب ترك الموافقة و ليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأنّ كلّ مؤمن راغب في عبادة الله وفي قيام اللّيل و صيام النهار ، ولكن قد تعوقه العوائق وتمنعه الأشغال ، ويغلبه التمكّن من الشهوات ، أو تستهويه الغفلة ، فربّما يكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة ، أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرّجل

في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجّد مثل تمكّنه من النوم على فراش وثير أو تمكّنه من التمتّع بزوجته أو المحادثة مع أهله وأقاربه و الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه ، فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل الّتي تفتر رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير لمشاهدته إيّاهم و قد أقبلوا على الله عزّ وجلّ و أعرضوا عن الدّنيا فإنّه ينظر إليهم فينافسهم و يشقّ عليه أن يسبقوه بطاعة فتتحرّك داعيته للدّين لا للرّياء ، أو ربّما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم ، وفي منزله ربّما يغلبه النوم وربّما ينضاف إليه أنّه في منزله على الدّوام ، والنفس لا تسمح بالتهجّد دائماً و إنّما يسمح بالتهجّد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق ، و قد يعسر عليه الصوم في منزله و معه أطائب الأطعمة و يشقّ عليه الصبر عنها فإذا أعوزته (١) تلك الأطعمة لم يشقّ عليه الصوم فينبعث داعية الدّين للصوم فإنّ الشهوات الحاضرة عوائق و دوافع تغلب باعث الدّين ، فإذا سلم منها قوي الباعث ، فهذا و أمثاله من الأسباب يتصوّر وقوعه و يكون السبب فيه مشاهدة النّاس و كونه معهم ، والشيطان عند ذلك ربّما يصدّ عن العمل و يقول : لا تعمل فإنّك تكون مرائياً إذ كنت لا تعمل في بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة ، و قد تكون رغبته في الزّيادة لأجل رؤيتهم و خوفاً من ذمّهم و نسبتهم إيّاه إلى الكسل ، لاسيّما إذا كانوا يظنّون به أنّه يقوم اللّيل فإنّ نفسه لا تسمح بأن تسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته وعند ذلك قد يقول الشيطان : صلّ فإنّك مخلص ولست تصلّي لأجلهم بل لله ، وإنّما كنت لا تصلّي كلّ ليلة لكثرة العوائق و إنّما داعيتك لزوال العوائق لا لاطّلاعهم و هذا أمر مشتبه ، إلّا على ذوي البصائر ، فإذا عرف أنّ المحرّك هو الرّياء فلا ينبغي أن يزيد على ماكان يعتاده ولا ركعة واحدة لأنّه يعصي الله بطلب محمدة النّاس بطاعة الله تعالى ، وإن كان انبعاثه لدفع العوائق و تحرّك الغبطة و المنافسة بسبب عبادتهم فليوافق ، و علامة ذلك أن يعرض على نفسه أنّه لو رأى هؤلاء يصلّون من

---

(١) أعوزه المطلوب : أعجزه وصعب عليه نيله .

حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت تسخو نفسه بالصلاة و هم لا يرونه ، فإن سخت نفسه بها فليصلّ فإنّ باعثه الحقّ ، و إن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك ، فإنّ باعثه الرّياء .

وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة مالا يحضره كلّ يوم ، و يمكن أن يكون ذلك لحبّ حمدهم ، و يمكن أن يكون سبب تحرّك نشاطه بسبب نشاطهم و زوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى ، وقد يتحرّك بذلك باعث الدّين و يقارنه نزوع النفس إلى حبّ الحمد ، فمهما علم أنّ الغالب على قلبه إرادة الدّين فلا ينبغي أن يترك العمل لما يجده من حبّ الحمد ، بل ينبغي أن يردّ ذلك على نفسه بالكراهة و يشتغل بالعبادة ، وكذلك قد تبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله لا من الرّياء و لو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى ولكن بكاء الناس يؤثّر في ترقيق القلب ، وقد لا يحضره البكاء فيتباكي تارة للرّياء و تارة مع الصدق إذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يبكون فلا تدمع عينه فيتباكي تكلّفاً ، و ذلك محمودٌ و علامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنّه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكي أم لا ؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنّما خوفه من أن يقال : إنّه قاسي القلب فينبغي أن يترك التباكي.

قال لقمان عليه السلام لابنه : لاتري الناس أنّك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر .

وكذلك الصيحة و التنفّس و الأنين عند القرآن أو الذّكر أو بعض مجاري الأحوال تارة تكون من الصدق والحزن و الخوف والندم و التأسّف و تارة تكون بمشاهدة حزن غيره و قساوة قلبه فيتكلّف التنفّس و الأنين ويتحازن وذلك محمودٌ ، و قد تقترن به الرّغبة فيه لدلالته على أنّه كثير الحزن ليعرف بذلك فإن تجرّدت هذه الدّاعية فهي الرّياء و إن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها و كرهها سلم بكاؤه و تباكيه ، و إن قبل ذلك و ركن إليه بقلبه حبط أجره و ضاع سعيه و تعرّض لسخط الله به ، و قد يكون أصل الأنين من الحزن ولكن يمدّه و يزيد

في رفع الصوت فتلك الزّيادة من الرّياء و هو محظور لأنّها في حكم الابتداء لمجرّد الرّياء ، فقد يهيج من الخوف ما لايملك العبد معه نفسه ولكن يسبقه خاطر الرّياء فيقبله فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع لهأو حفظ الدمعة على الوجه حتّى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرّياء . و كذلك قد يسمع الذّكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ، ثمّ يستحيي أن يقال له : إنّه سقط من غير زوال عقل و حالة شديدة ، فيزعق و يتواجد تكلّفاً ليري أنّه سقط لكونه مغشياً عليه وقد يكون ابتداء السقوط عن صدق و قد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعاً فتجزع نفسهأن يقال : حالته غير ثابتة ، وإنّما هي كبرق خاطف فيستديم الزّعقة و الرّقص ليري دوام حاله ، و كذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعاً فيجزع أن يقال : لم تكن غشيته صحيحة ولو كانت لدام ضعفه ، فيستديم إظهار الضعف و الأنين فيتّكىء على غيره حالة المشي يري أنّه يضعف عن القيام و يتمايل في المشي و يقرب الخطا ليظهر أنّه ضعف عن سرعة المشي ، فهذه كلّهامكيدة الشيطان ونزغات النفس . فاذا خطرت فعلاجها أن يتذكّر أنّ الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن و اطّلعوا على ضميره لمقتوه و إنّ الله مطّلع على ضميره و هو له أشدّ مقتاً ، كما روي عن ذي النون أنّه قام و زعق ، فقام معه شيخ فرأى فيه أثر التكلّف فقال : ياشيخ اذكر الّذي يراك حين تقوم ، فجلس الشيخ ، و كلّ ذلك من أعمال المنافقين وقد جاء في الخبر « تعوّذوا بالله من خشوع النفاق »(١) و إنّما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع .

و من ذلك الاستغفار و الاستعاذة بالله من عذابه و غضبه فانّ ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكّر ذنب وتندّم عليه وقد يكون للمراءات . فهذه خواطر ترد على القلب متضادّة مترادفة متقاربة ، وهي مع تقاربها متشابهة ، فراقب قلبك في كلّ ما يخطر لك و انظر ما هو و من أين هو ؟ فان كان لله فامضه ، و احذر مع ذلك أن

(١) قال العراقي : أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر وفيه الحارث بن عبيد الايادي ضعفه أحمد وابن معين .

يكون قد خفي عليك شيءٌ من الرّياء الّذي هو كدبيب النمل ، و كن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم لا ، لخوفك على الإخلاص فيها ، واحذر أن يتجدّد لك خاطر الرّكون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإنّ ذلك ممّا يكثر جدًّا ، فإذا خطر لك فتفكّر في اطّلاع الله عليك ومقته لك ، و تذكّر ما قاله أحد الثلاثة النفر الّذين حاجّوا أيّوب إذ قالوا : يا أيّوب ! أما علمت أنّ العبد تضلّ عنه علانيته الّتي كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته ، و قول بعضهم : أعوذ بك أن يرى الناس أنّي أخشاك و أنت لي ماقت . و كان من دعاء عليّ بن الحسين عليهما السلام : « اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي وتقبح لك فيما أخلو سريرتي محافظاً على رئاء الناس من نفسي، ومضيّعاً لما أنت مطّلع عليه منّي ، اُبدي للناس أحسن أمري واُفضي إليك بأسوء عملي ، تقرّباً إلى الناس بحسناتي ، وفراراً منهم إليك بسيّئاتي فيحلّ بي مقتك ، و يجب عليّ غضبك ، أعذني من ذلك يا ربّ العالمين » وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيّوب عليه السلام : يا أيّوب ألم تعلم أنّ الّذين حفظوا علانيتهم و أضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرّحمن تسودّ وجوههم بالردّ . فهذه جمل آفات الرّياء فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ، و في الخبر « أنّ للرّياء سبعين باباً » (١) و قد عرفت أنّ بعضه أغمض من بعض حتّى أنّ بعضه مثل دبيب النمل ، وبعضه أخفى من دبيب النمل ، و كيف يدرك ما هو أخفى من دبيب النمل ، إلّا بشدة المراقبة و التفقّد ، و ليس يدرك إلّا بعد بذل المجهود (٢) فكيف يطمع في إدراكه

(١) قال العراقي : هكذا ذكر المصنف هذا الحديث هنا و كانه تصحف عليه أوعلى من نقله من كلامه أنه « الرياء » بالمثناة وانما هو « الربا » بالموحدة والمرسوم كتابته بالواو ، والحديث رواه ابن ماجه من حديث ابى هريرة بلفظ « الربا سبعون حوبا أيسرها أن ينكح الرجل امه » وفي اسناده ابومعشر و اسمه نجيح مختلف فيه ، و روى ابن ماجه أيضا من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه و آله قال : « الربا ثلاثة و سبعون بابا » واسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ « الربا بضع وسبعون بابا و الشرك مثل ذلك » و هذه الزيادة قد يستدل بها على أنه « الرياء » بالمثناة لاقترانه مع الشرك . والله أعلم .

(٢) في الاحياء « وليته أدرك بعد بذل المجهود » .

من غير تفقّد للقلب و امتحان للنفس و تفتيش عن خدعها ؟

(بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم قلبه قبل العمل وبعده وفيه)

إعلم أنّ أولى ما يلزم المريد قلبه في ساير أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ، ولايقنع بعلم الله إلّا من لايخاف إلّاالله ولا يرجو إلّاالله ، فأمّا من خاف غيره و ارتجاه اشتهى اطّلاعه على محاسن أحواله ، فإن كان في هذه الرّتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل و الإيمان لما فيه من خطر التعرّض للمقت و ليراقب قلبه عند الطاعات العظيمة الشاقّة الّتي لا يقدر عليها غيره فإنّ النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء و تقول : مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك فما في الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلّك ، و ينكرون قدرك ، ويحرمون الاقتداء بك ؟ ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه ويتذكّر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة و نعيم الجنّة و دوامها أبد الآباد و عظم غضب الله و مقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده ، و يعلم أنّ إظهاره لغيره محبّب إليه و سقوط عندالله وإحباط للعمل العظيم ، فيقول : وكيف أبيع هذا العمل بحمد الخلق و هم عاجزون لايقدرون لي على رزق ولاأجل ، فيلزم ذلك قلبه و لا ينبغي أن ييأس عنه فيقول : إنّما يقدر على الإخلاص الأقوياء فأمّا المخلطون فليس ذلك من شأنهم فيترك المجاهدة في الإخلاص ، لأنّ المخلط إلى ذلك أحوج من المتّقي ، لأنّ المتّقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامّة ، و المخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان و الحاجة إلى الجبران بالنوافل فإن لم تسلم صار مأخوذاً بالفرائض و هلك به ، فالمخلط إلى الإخلاص أحوج ، و قد روى تميم الدّاريّ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: « يحاسب العبد يوم القيامة فإن نقص فرضه قيل : انظروا هل له من تطوّع ، فإن كان له تطوّع أكمل به فرضه ، و إن لم يكن له تطوّع أخذ بطرفيه فألقي في النار »(١) فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة ، فاجتهاده في

(١) أخرجه أبوداود ج ١ ص ٢٠٠ وابن ماجه تحت رقم ١٤٢٥ مع اختلاف يسير .

جبر الفرائض و تكفير السيّئات ولا يمكن ذلك إلّا بخلوص النوافل ، وأمّا المتّقي فجهده في زيادة الدّرجات فإن حبط تطوّعه بقي من حسناته ما يترجّح به على سيّئاته فيدخل الجنّة .

فإذن ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطّلاع غير الله عليه لتصحّ نوافله ، ثمّ يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتّى لا يتحدّث به ولا يظهره ، فإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلاً من عمله خائفاً أنّه ربّما داخله من الرّياء الخفيّ ما لم يقف عليه فيكون شاكّاً في قبوله وردّه ، مجوّزاً أن يكون الله قد أحصى عليه من نيّته الخفيّة ما مقته بها وردّ عمله بسببها و يكون هذا الشكّ و الخوف في دوام عمله وبعده إلّا في ابتداء العقد ، بل ينبغي أن يكون متيقّناً في الابتداء أنّه مخلص ما يريد بعمله إلّا الله حتّى يصحّ عمله فإذا شرع و مضت لحظة يمكن فيها الغفلة و النسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفيّة أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به ، ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنّه استيقن أنّه دخل بالإخلاص و شكّ في أنّه هل أفسده برياء ؟ فيكون رجاء القبول أغلب ، وبذلك تعظم لذّته في المناجاة و الطاعات. فالإخلاص : يقين ، و الرّياء : شكّ . و خوفه لأجل ذلك الشكّ أجدر بأن يكفر خاطر الرّياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه .

و الّذي يتقرّب إلى الله بالسعي في حوائج الناس و إفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ، و رجاء الثواب على عمل المتعلّم بعلمه فقط ، دون شكر ومكافأة و حمد و ثناء من المتعلّم و المنعم عليه ، فإنّ ذلك يحبط الأجر . فمهما توقّع من المتعلّم مساعدة في شغل و خدمة ، أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه ، أو تردّداً منه في حاجته فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره ، نعم إن لم يتوقّع هو و لم يقصد إلّا الثواب على عمله بعلمه الّذي علّمه ليكون له مثل أجره ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته ، فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره و لا يريده منه و لا يستبعده منه لو قطعه ، ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون ذلك حتّى أنّ بعضهم وقع في بئر فجاء

قوم وأدلوا حبلاً ليرفعوه فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من كتاب الله أو سمع منه حديثاً خيفة من أن يحبط ذلك أجره. فإذن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط، ويجب على المتعلّم أن يلزم قلبه طلب حمدالله تعالى وثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند المعلّم و عند الخلق، وربّما يظنّ أنّ له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلّم رتبة فيتعلّم منه و هو خطأ لأنّ إرادته غير الله بطاعته خسران في الحال، و العلم ربّما يفيده و ربّما لا يفيده، فكيف يخسر في الحال عملاً نقداً على توهّم علم وذلك غير جايز، بل ينبغي أن يتعلّم لله تعالى ويعبدالله تعالى ويخدم المعلّم لله لايكون له فيقلبه منزلة إن كان يريد أن يكون تعلّمه طاعة. فإنّ العباد اُمروا بأن لا يعبدوا إلّا الله و لا يريدوا بطاعتهم غيره، وكذلك كلّ من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلّا من حيث أنّ رضا الله في رضا الوالدين و لا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فإنّ ذلك معصية في الحال و سيكشف الله تعالى عن ريائه و تسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضاً.

و أمّا الزّاهد المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله و القناعة بعلمه، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده و استعظامهم محلّه، فإنّ ذلك يغرس الرّياء فيصدره حتّى تتيسّر عليه العبادات في خلوته به، وإنّما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله و استعظامهم لمحلّه، وهو لايدري أنّه المخفّف للعمل عليه.

و قال إبراهيم بن أدهم: تعلّمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان، دخلت عليه في صومعته فقلت: يا سمعان منذ كم أنت في صومعتك هذه؟ فقال: منذ سبعين سنة فقلت: فما طعامك؟ فقال: يا حنيفي و ما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم، قال: في كلّ ليلة حمّصة، قلت: فما الّذي يهيج في قلبك حتّى تكفيك هذه الحمّصة؟ قال: ترى الدّير الّذي بحذائك؟ قلت: نعم قال: إنّهم يأتوني في كلّ سنة يوماً واحداً فيزيّنون صومعتي ويطوفون حولها و يعظّموني، فكلّما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عزّ تلك الساعة فأنا أحتمل جهد سنة لعزّ ساعة،

فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعزّ الأبد، فوقر في قلبي المعرفة، فقال: حسبك أو أزيدك؟ فقلت: بلى قال: أنزل عن الصومعة فنزلت فأدلى لي ركوة فيهاعشرون حمّصة، فقال لي: ادخل إلى الدّير فقد رأوا ما أدليت إليك فلمّا دخلت الدّير اجتمعت النصارى عليّ فقالوا: يا حنيفي ما الّذي أدلى إليك الشيخ قلت: من قوته قالوا: وما تصنع به ونحن أحقّ به ثمّ قالوا: ساوم، قلت: عشرون ديناراً، فأعطوني عشرين ديناراً، فرجعت إلى الشيخ فقال: يا حنيفي ماالّذي صنعت؟ قلت: بعته منهم، قال: بكم؟ قلت: بعشرين ديناراً، قال: أخطأت لوساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك، هذا عزّ من لا تعبده فانظر كيف يكون عزّ من تعبده؟ يا حنيفي أقبل على ربّك ودع الذّهاب والجيئة.

المقصود أنّ استشعار النفس عزّ العظمة في القلوب يكون باعثاً في الخلوة، وقد لايشعر العبد به، فينبغي أن يلزم نفسه الحذرمنه، وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلوتغيّروا له من اعتقادهم له لم يجزع ولم يضق به ذرعاً إلّا كراهية ضعيفة إن وجدها في قلبه فيردّها في الحال بعقله و إيمانه فإنّه لوكان في عبادة فاطّلع الناس كلّهم عليه لم يزده ذلك خشوعاً، و لم يداخله سرورٌ بسبب اطّلاعهم عليه، فإن دخل سرور يسيرٌ فهو دليل ضعفه ولكن إذا قدر على ردّه بكراهة العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السّرور بالركون إليه فيرجى له أن لايخيب سعيه إلّا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع و الانقباض كيلاينبسطوا إليه، فذلك لا بأس به و لكن فيه غرور إذ النفس قد تكون شهوتها الخفيّة إظهار الخشوع وتتعلّل بطلب الانقباض، فليطالبها في دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ وهو أنّه لوعلم أنّ انقباضهم عنه إنّما حصل بأن يعدو كثيراً أويضحك كثيراً أو يأكل كثيراً فتسمح نفسه بذلك، فإذا لم تسمح به وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك إلّا من تقرّر في قلبه أنّه ليس في الوجود أحدٌ سوى الله تعالى، فيعمل عمل من لوكان على وجه الأرض وحده لكان يعمله، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلّا خطرات ضعيفة لايشقّ عليه إزالتها، فإذا كان كذلك لم يتغيّر بمشاهدة

الخلق ، و من علامات الصدق فيه أنّه لو كان له صاحبان أحدهما غنيّ و الآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغنيّ زيادة هزّة في نفسه لإكرامه إلّا إذا كان في الغنيّ زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرماً له لذلك الوصف لا بالغنى ، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طمّاع و إلّا فالنظر إلى الفقراء يزيد في رغبة الآخرة و يحبّب إلى القلب المسكنة ، و النظر إلى الأغنياء بخلافه ، فكيف استروح إلى الغنيّ أكثر ممّا استروح إلى الفقير ، نعم لك زيادة إكرام الغنيّ إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حقّ و صداقة سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لاتقدّم الغنيّ عليه في إكرام و توقير البتّة ، فإنّ الفقير أكرم على الله من الغنيّ ، فإيثارك له لا يكون إلّا طمعاً في غناه و رياء له ، ثمّ إذا سوّيت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة و الخشوع للغنيّ أكثر ممّا تظهره للفقير ، و إنّما ذلك لرياء خفيّ أو طمع خفيّ كما قال ابن السماك لجارية له : مالي إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة ، قالت : الطمع يشحذ لسانك (١). و قد صدقت فإنّ اللّسان ينطلق عند الغنيّ بما لا ينطلق به عند الفقير ، و كذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضر عند الفقير ، و مكائد النفس و خفاياها في هذا الفنّ لاتنحصر ، و لا ينجيك منها إلّا بأن تخرج ما سوى الله من قلبك ، وتتجرّد بالشفقة على نفسك بقيّة عمرك ، ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغّصة في أيّام متقاربة منقضية ، و تكون في الدّنيا كملك من ملوك الدّنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللّذّات ، ولكن في بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه في كلّ ساعة لو اتّسع في الشهوات و علم أنّه لو احتمى و جاهد شهوته عاش ودام ملكه ، فلمّا عرف ذلك جالس الأطبّاء و حارف الصيادلة ، و عوّد نفسه شرب الأدوية المرّة فصبر على بشاعتها (٢) و هجر جميع اللّذّات و صبر على مفارقتها ، فبدنه كلّ يوم يزداد نحولاً لقلّة أكله ، و لكن سقمه كلّ يوم يزداد نقصاناً لكثرة

(١) شحذ السكين ونحوه : أحده .

(٢) البشع : المر .

احتمائه، فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكّر في توالي الآلام والأوجاع عليه وأدّاه ذلك إلى الموت المفرّق بينه و بين مملكته الموجب لشماتة أعدائه به ومهما اشتدّ عليه شرب دواء تفكّر فيما يستفيده منه من الشفاء الّذي هو سبب التمتّع بملكه و نعيمه في عيش هنيء و بدن صحيح و قلب رخيّ و أمر نافذ، فيخفّ عليه مهاجرة اللّذّات و مصابرة المكروهات. فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كلّ مهلك له في آخرته وهي لذّات الدّنيا و زهرتها فاجتزي منها بالقليل واختار الذّبول و النحول والوحشة والحزن والخوف وترك المؤانسة بالخلق جميعاً خوفاً من أن يحلّ عليه غضب من الله فيهلك و رجاء أن ينجو من عذابه، فخفّ ذلك كلّه عليه عند شدّة يقينه و إيمانه بعاقبة أمره و بما أعدّ له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد، ثمّ علم أنّ الله رحيم لم يزل بعباده المريدين لمرضاته عوناً و بهم رؤوفاً و عليهم عطوفاً، ولوشاء لأغناهم عن التّعب والنصب، ولكن أراد أن يبلوهم و يعرف صدق إرادتهم حكمة منه و عدلاً، ثمّ إذا تحمّل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحطّ عنه الأعياء و سهّل عليه الصبر، و حبّب إليه الطّاعة و رزقه فيها من لذّة المناجاة ما يلهيه ذلك عن سائر اللّذّات و يقوّيه على إماتة الشهوات ويتولّى سياسته و تقويته و أمدّه بمعونته فإنّ الكريم لايضيّع سعي الرّاجي و لا يخيب أمل المحبّ، و هو الّذي يقول: «من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً» و يقول: «لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي و إنّي إلى لقائهم لأشدّ شوقاً» فليظهر العبد في البداية جدّه و صدقه و إخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللّائق بجوده و كرمه و رأفته و رحمته و لله الحمد و المنّة.

هذا آخر كتاب ذمّ الجاه و الرّياء من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء.

و يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب ذمّ الكبر والعجب والحمدلله أوّلاً وآخراً.

كتاب ذمّ الكبر والعُجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الاحياء.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق الباری، المصوّر العزيز الكبير الجبّار المتكبّر العليّ الّذي لا يضعه عن مجده واضع، الجبّار الّذي كلّ جبّار له ذليل خاضع، و كلّ متكبّر في جناب عزّه مسكين متواضع، فهو القاهر الّذي لا يدفعه عن مراده دافع، الغنيّ الّذي ليس له في ملكه شريكٌ ولا منازع، القادر الّذي بهر [1] أبصار الخلايق جلاله و بهاؤه، و قهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه، وحصر ألسن النبيّين وصفه و ثناؤه، وارتفع عن حدّ قدرتهم احصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجز عن صفة كنه جلاله ملائكته و أنبياؤه، و كسر ظهور الأكاسرة عزّه و علاؤه، و قصر أيدي القياصرة عظمته و كبرياؤه، فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه، و من نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه، جلّ جلاله، و تقدّست أسماؤه.

والصّلاة على محمّد الّذي اُنزل معه النور المنتشر ضياؤه، حتّى أشرقت بنوره أكناف العالم و أرجاؤه، وعلى آله وأصحابه الّذين هم أحبّاء الله و أولياؤه، وخيرته و أصفياؤه، و سلّم تسليماً كثيراً.

أمّا بعد فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته» [2].

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ثلاثٌ مُهلكاتٌ: شحٌّ مُطاعٌ، و هوًى متّبعٌ، و إعجابُ المرء

(١) أي غلب وفاق و فضل.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ج١ ص٦١ دون ذكر «العظمة» وقال: صحيح على شرط مسلم.

بنفسه » [1] فالكبر والعجب داءان مهلكان ، والمتكبّر والمعجب سقيمان مريضان ، وهما عندالله ممقوتان بَغيضان [2].

و إذا كان القصد في هذا الرّبع من الكتاب شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فإنّهما من قبائح المرديات ، ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين : شطر في الكبر ، و شطر في العجب إن شاء الله تعالى .

الشطر الأوّل من الكتاب في الكبر ، و فيه بيان ذمّ الكبر ، و بيان ذمّ الاختيال ، و بيان فضيلة التواضع ، وبيان حقيقة التكبّر وآفته ، وبيان من يتكبّر عليه ، و درجات الكبر ، و بيان ما به الكبر ، وبيان البواعث على التكبّر ، وبيان أخلاق المتواضعين و ما فيه يظهر الكبر ، و بيان علاج الكبر ، و بيان إمتحان النّفس في خلق الكبر ، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه .

✿(بيان ذمّ الكبر)✿

قد ذمّ الله تعالى الكبر في مواضع من كتابه و ذمّ كلّ جبّار متكبّر فقال تعالى : « سأصرف عن آياتي الّذين يتكبّرون في الأرض بغير الحقّ » [3].

و قال تعالى : « كذلك يطبع الله على كلّ قلب متكبّر جبّار » [4].

و قال تعالى : « واستفتحوا وخاب كلّ جبّار عنيد » [5].

و قال تعالى : « إنّه لا يحبّ المستكبرين » [6].

و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر ، و لا يدخل النّار من كان في قلبه مثقال حبّة من إيمان » [7].

---

(١) تقدم مرات عديدة .

(٢) البغيض: الشديد البغض ، تقول : «ما أبغضه الي» تخبر أنه مبغض عندك ، يعني صار عندالله مبغوضاً .

(٣) الاعراف : ١٤٣ .

(٤) المؤمن : ٣٨ .

(٥) ابراهيم : ١٩ .

(٦) النحل : ٢٦ .

(٧) أخرجه مسلم ج ١ ص ٦٥ من حديث عبدالله بن مسعود .

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنّم ولا اُبالي » (١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يزال الرّجل يذهب بنفسه حتّى يكتب في الجبّارين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب » (٢).

و قال سليمان بن داود عليهما السلام يوماً للطّير والجنّ والإنس والبهائم: «اخرجوا فخرجوا في مائتي ألف من الإنس و مائتي ألف من الجنّ ، فرفع حتّى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السّماوات ثمّ خفض حتّى مسّت قدماه في البحر فسمع صوتاً يقول : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرّة من كبر لخسفت به أبعد ممّا رفعته ».

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يخرج من النار عنق له اُذنان يسمعان وعينان يبصران ولسان ينطق يقول : وكّلت بثلاثة : بكلّ جبّار عنيد ، وبكلّ من دعا مع الله إلهاً آخر ، و بالمصوّرين » (٣).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يدخل الجنّة جبّارٌ ولا بخيل ولا سيّيء الملكة » (٤).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « تحاجّت الجنّة والنّار ، فقالت النّار : اُوثرت بالمتكبّرين والمتجبّرين ، و قالت الجنّة : مالي لا يدخلني إلّا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم ، فقال الله تعالى للجنّة : إنّما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنّار : إنّما أنت عذابي اُعذّب بك من أشاء ولكلّ واحدة منكما ملؤها » (٥).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « بئس العبد عبد تجبّر واعتدى ونسي الجبّار الأعلى ، بئس

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٧٤ . و ابو داود ج ٢ ص ٣٨٠ بلفظ « قذفته في النار » .

(٢) أخرجه الترمذى في ذيل حديث عن سلمة بن الاكوع عن ابيه عن النبى (ص) و حسنه .

(٣) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٤٤ من حديث ابى هريرة وقال حسن غريب صحيح وهكذا رواه البغوى في المصابيح ج٢ ص١٣٠ وقد رواه بعضهم عن عطية عن أبى سعيد الخدرى .

(٤) تقدم سابقاً .

(٥) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥١ وفيه « وسقطهم وغرتهم » .

العبد عبد تجبّر و اختال و نسي الكبير المتعال ، بئس العبد عبد غفل و سها و لها و نسي المقابر والبلى ، بئس العبد عبد عتا و بغى و نسي المبتدء و المنتهى »(١).

و عن ثابت أنّه قال : بلغنا أنّه قيل : يارسول الله ما أعظم كبر فلان ، فقال : « أليس بعده الموت »(٢).

و عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أنّ نوحاً لمّا حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال : إنّي آمركما باثنتين و أنهاكما عن الشرك والكبر ، وآمركما بلا إله إلّا الله ؟ فإنّ السماوات و الأرضين و ما فيهنّ لو وضعت في كفّة الميزان و وضعت « لا إله إلّا الله » في الكفّة الاُخرى لكانت أرجح منهما و لو أنّ السّماوات والأرضين و مافيهنّ كانتا حلقة فوضعت « لا إله إلّا الله » عليها لقصمتها ، وآمركما بسبحان الله و بحمده فإنّهما صلاة كلّ شيء و بها يرزق كلّ شيء »(٣).

و قال عيسى عليه السلام : « طوبى لمن علّمه الله كتابه ثمّ لم يمت جبّاراً ».

و قال نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أهل النّار كلّ جعظريّ و كلّ جوّاظ مستكبر جمّاع منّاع ، وأهل الجنّة الضّعفاء المقلّون »(٤).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ أحبّكم إلينا وأقربكم منّا في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً ، و إنّ أبغضكم إلينا و أبعدكم منّا في الآخرة الثرثارون المتشدّقون المتفيهقون ، قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثّرثارين المتشدّقين ، فمن المتفيهقون ؟ قال : المتكبّرون »(٥).

(١) أخرجه البغوى في المصابيح ج٢ ص ١٦٨ بتقديم وتأخير. وقال : غريب ضعيف.

(٢) قال العراقى : أخرجه البيهقى في الشعب هكذا مرسلا بلفظ « تجبر ».

(٣) أخرجه احمد في المسند ج ٢ ص ١٧٠ من حديث ابن عمر.

(٤) أخرجه الحاكم ج ١ ص ٦١ من حديث سراقة بن مالك بسند صحيح بتقديم و تأخير وفيه « المغلوبون » مكان « المقلون » ودون ذكر « جماع مناع ». والجعظرى : الغليظ المتكبر (النهاية).

(٥) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٧٥ من حديث جابر والثرثار : هو الكثير الكلام تكلفاً. والمتشدق : هو المتكلم بملء شدقيه تفاصحاً و تعاظماً واستعلاء على غيره و هو معنى المتفيهق أيضاً.

و قال ﷺ : « يحشر المتكبّرون يوم القيامة في مثل صور الذّرّ تطؤهم الناس ذرّاً في مثل صور الرّجال يعلوهم كلّ شيء من الصّغار ثمّ يساقون إلى سجن في جهنّم يقال له : بولس ، يعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال و عصارة أهل النّار » (١).

وعنه ﷺ « يحشر الجبّارون المتكبّرون يوم القيامة في صور الذّرّ يطؤهم النّاس لهوانهم على الله تعالى »(٢).

وعنه ﷺ « أنّ في جهنّم وادياً يقال له : هَبْهَبُ ، حقّ على الله سبحانه أن يسكن فيه كلّ جبّار » (٣).

وعنه ﷺ : « إنّ في النّار قصراً يجعل فيه المتكبّرون ويطبق عليهم »(٤).

وقال ﷺ : « اللّهمّ إنّي أعوذ بك من نفخة الكبرياء » (٥).

وقال ﷺ : « من فارق روحه جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنّة : الكبر ، والدّين ، والغلول » (٦).

وسئل سلمان عن السيّئة الّتي لا تنفع معها حسنة فقال : الكبر .

---

(١) أخرجه احمد ج ٢ ص ١٧٩ .

(٢) أخرجه البزار هكذا مختصراً دون قوله : « الجبارون » وإسناده حسن . (المغني)

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٥٩٧ وسنده ضعيف .

(٤) قال العراقي : أخرجه البيهقي في شعب الايمان من حديث أنس وقال : « توابيت » مكان « قصراً » وقال : « فيقفل » مكان « يطبق » وفيه أبان بن ابي عياش وهو ضعيف .

(٥) ماعثرت على اصل له الآ على ماأخرجه ابن ماجه في كتاب (اقامة الصلاة باب الاستعاذة في الصلاة) رقم ٨٠٧ في حديث : « اللهمّ اني اعوذ بك من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » . وقال عمرو : همزه الموتة ، و نفثه الشعر ، ونفخه الكبر . انتهى ، والموتة نوع من الجنون و الصرع يعتري الانسان ، فاذا أفاق عاد اليه كمال العقل كالسكران .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٤١٢ من حديث ثوبان . أقول : قال العراقي : رواه ابن الجوزي في جامع المسانيد عن الدار قطني قال : انما هو الكنز (بالنون والزاي) مكان « الكبر » و كذلك أيضاً ذكر ابن مردويه الحديث في تفسير « والذين يكنزون الذهب و الفضة » .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الكبر رداء الله والمتكبّر ينازع الله رداءه»(١).

و عنه عليه السلام: «العزّ رداء الله والكبر إزاره، فمن تناول شيئاً منه أكبّه الله في جهنّم»(٢).

و عنه، وعن أبي عبدالله عليهما السلام قالا: «لا يدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر»(٣).

و عن محمّد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام قال: «لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من الكبر، قال: فاسترجعت فقال: مالك تسترجع؟ قلت: لما سمعت منك، فقال: ليس حيث تذهب إنّما أعني الجحود، إنّما هو الجحود»(٤).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الكبر أن تغمص النّاس وتسفه الحقّ»(٥).

و عنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: إنّ أعظم الكبر غمص الخلق و سفه الحقّ، قال: قلت: ما غمص الخلق وسفه الحقّ؟ قال: يجهل الحقّ ويطعن على أهله، فمن فعل ذلك فقد نازع الله رداءه»(٦).

و عنه عليه السلام قال: «إنّ في جهنّم لوادياً للمتكبّرين يقال له: سقر، شكا إلى الله شدّة حرّه و سأله أن يأذن له أن يتنفّس، فتنفّس فأحرق جهنّم»(٧).

وعنه عليه السلام قال: «إنّ المتكبّرين يجعلون في صور الذّرّ يتوطّأهم النّاس حتّى يفرغ الله من الحساب»(٨).

وعن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّني آكل الطعام الطيّب و أشمّ الرّيح الطيّبة و أركب الدّابّة الفارهة و يتبعني الغلام فترى في هذا شيئاً

---

(١) الى (٦) المصدر باب الكبر ج ٢ ص ٣٠٩ تحت رقم ٤ و٣ و٦ و٧ و٨ و٩ والغمص - بالمعجمة ثم المهملة: الاحتقار والاستصغار. و السفه: الجهل و أصله الخفّة والطيش، ومعنى سفه الحق الاستخفاف به وأن لا يراه على ما هو عليه من الرجحان والرزانة.

(٧) و (٨) الكافي ج ٢ ص ٣١٠ تحت رقم ١٠ و ١١.

من التجبّر فلا أفعله ؟ فأطرق أبو عبدالله عليه السلام (*) ثمّ قال : « إنّما الجبّار الملعون من غمص الناس و جهل الحقّ » قال عمر : فقلت : أمّا الحقّ فلا أجهله والغمص لا أدري ما هو ؟ قال : « من حقّر الناس و تجبّر عليهم فذلك الجبّار » (١).

وعنه عليه السلام قال : « إنّ يوسف عليه السلام لمّا قدم عليه الشيخ يعقوب عليه السلام دخله عزّ الملك فلم ينزل إليه فهبط عليه جبرئيل فقال : يا يوسف أبسط راحتك (*) فخرج منها نور ساطع فصار في جوّ السّماء فقال يوسف : ياجبرئيل ماهذا النور الّذي خرج من راحتي ؟ قال : نزعت النبوّة من عقبك عقوبة لما لم تنزل إلى الشيخ يعقوب فلا يكون من عقبك نبيّ » (٢).

وعنه عليه السلام قال : « ما من عبد إلّا و في رأسه حكمة (٣) و ملك يمسكها فإذا تكبّر قال له : اتّضع وضعك الله ، فلا يزال أعظم الناس في نفسه و هو أصغر الناس في أعين النّاس ، فإذا تواضع رفعها الله ثمّ قال له : انتعش نعشك الله (٤) فلا يزال أصغر الناس في نفسه و أرفع الناس في أعين الناس » (٥).

و عنه عليه السلام قال : « ما من أحد يتيه (٦) إلّا من ذلّة يجدها في نفسه » وفي لفظ

(*) لعل اطراقه وسكوته عليه السلام للاشعار بانها في محل الخطر وملتزمة للتكبر .

(١) الكافي ج ٢ ص ٣١١ تحت رقم ١٣ . (*) الراحة باطن الكف .

(٢) الكافي ج٢ ص٣١١ تحت رقم١٥ . والنزول اما عن الدابة اوعن السرير و كلاهما مرويان وينبغي حمله على أن مادخله لم يكن تكبراً وتحقيراً لوالده لكون الانبياء منزهين عن امثال ذلك ، بل راعى فيه المصلحة لحفظ عزّته عند عامّة الناس لتمكنه من سياسة الخلق وترويج الدين اذ كان نزول الملك عندهم لغيره موجباً لذله وكان رعاية الادب للاب مع نبوّته ومقاساة الشدائد لحبّه أهم و اولى من رعاية تلك المصلحة ، فكان هذا منه عليه السلام تركاً للاولى ، فلذا عوتب عليه وخرج نور النبوة من صلبه ، لانّهم لرفعة شأنهم وعلو درجتهم يعاتبون بأدنى شيء ، فهذا كان شبيهاً بالتكبر ولم يكن تكبراً ، وقوله : «فصار الى جو السماء» أي استقر هناك أو ارتفع الى السماء . قاله العلامة المجلسي - رحمه الله - في مرآة العقول.

(٣) الحكمة - محركة - : اللجام أو ما احاط بحنكي الفرس من لجامه وفيها العذران .

(٤) اى ارتفع رفعك الله والامر فيه وفي « اتضع » تكويني او تشريعي .

(٥) الكافي ج ٢ ص ٣١٢ تحت رقم ١٦ . (٦) اى ما يتكبر .

آخر « ما من أحد تكبّر أو تجبّر إلّا لذلّة وجدها في نفسه » (١).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ثلاثة لا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان و ملك جبّار و مقلٌ مختال » (٢).

✿(بيان ذم الاختيال واظهار آثار الكبر في المشي و جر الثياب)✿

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « لا ينظر الله إلى رجل يجرّ إزاره بطراً » (٣).

و قال صلى الله عليه وآله : « بينما رجلٌ يتبختر في بردته و قد أعجبته نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » (٤).

و قال صلى الله عليه وآله : « من جرّ إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » (٥).

و قال صلى الله عليه وآله : « إذامشت اُمّتي المطيطاء وخدمتهم فارس والرّوم سلّط الله بعضهم على بعض » (٦) قال ابن الأعرابيّ : هي مشية فيها اختيال .

و قال صلى الله عليه وآله : « من تعظّم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان » (٧).

و روي أنّ عمر بن عبدالعزيز حجّ قبل أن يستخلف فنظر إليه طاؤوس و هو

---

(١) المصدر ج ٢ ص ٣١٢ تحت رقم ١٧ و المعنى واضح اى ماتكبر من الناس أحد الا من أيقن بضعف أوذلة كامنة في نفسه ولذلك يتكبر لكي يجبرها و يدفع عن نفسه تلك الخسة والذلّة ويحتمل أن يكون اللام لام الصيرورة أو الذلّة سبب للتكبر .

(٢) الكافي ج ٢ ص ٣١١ تحت رقم ١٤ والمقل الفقير والمختال : المتكبر .

(٣) أخرجه مسلم ج٦ص١٤٧ . ورواه البغوي في المصابيح ج ٢ ص ١١٩ واللفظ له .

(٤) أخرجه ابو يعلى والطبراني والبزار من حديث العباس بن عبدالمطلب . ومتفق عليه في الصحيحين من حديث أبي هريرة .

(٥) أخرجه البغوي في المصابيح ج ٢ ص ١١٩ واللفظ له من حديث ابن عمر .

(٦) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ١١٨ . وفيه « المطيطياء » وفي النهاية « المطيطاء » وذكر أنها بالمد والقصر وهي مشية فيها تبختر ومداليدين .

(٧) أخرجه احمد والبخاري في الادب المفرد من حديث عبدالله بن عمر بسند حسن كما في الجامع الصغير .

يختال في مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثمّ قال : ليست هذه مشية من في بطنه خرء فقال عمر : كالمعتذر يا عمّ لقدضرب كلّ عضو منّي على هذه المشية حتّى تعلّمتها .

و يروى أنّ مطرف بن عبدالله بن الشخّير رأى المهلّب و هو يتبختر في جبّة خزّ ، فقال له : يا عبدالله هذه مشية يبغضها الله و رسوله ، فقال له المهلّب : أما تعرفني ؟ فقال : بلى أعرفك أوّلك نطفة مذرة[1] وآخرك جيفة قذرة ، وتحمل بين جنبيك العذرة ، فمضى المهلّب و ترك مشيته تلك .

و قال مجاهد في قوله تعالى : « ثمّ ذهب إلى أهله يتمطّى » أي يتبختر .

و إذ ذكرنا ذمّ الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع .

(بيان فضيلة التواضع)

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ما زاد الله عبداً بعفو إلّا عزّاً ، و ما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله »[2] .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ما من أحد إلّا و معه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها ، فان هو رفع نفسه جبذاها ثمّ قالا : اللّهمّ ضعه ، وإن وضع نفسه قالا : اللّهمّ ارفعه »[3]

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ، وأنفق مالاً جمعه من غير معصية ، و رحم أهل الذّلّة والمسكنة ، و خالط أهل الفقه والحكمة »[4] .

و عن أبي سلمة المديني ، عن أبيه ، عن جدّه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عندنا بقباء وكان صائماً فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن و جعلنا فيه شيئاً من عسل فلمّا رفعه فذاقه وجدفيه حلاوة العسل ، فقال : ماهذا ؟ قلنا : يا رسول الله جعلنا فيه شيئاً

---

(١) المذر : الفاسد والخبيث . (٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ من حديث أبي هريرة .

(٣) قال العراقي : أخرجه العقيلي في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابي هريرة وأيضاً من حديث ابن عباس و كلاهما ضعيف انتهى ، اقول : ورواه الطبراني والبزار بنحوه من حديث أبي هريرة واسنادهما حسن كما في الترغيب للمنذري ج ٣ ص ٥٦١ . ومرّ من الكافي آنفاً بسند حسن .

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ والبغوي والباوردي وابن قانع والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ركب المصري بسند حسن كما في الجامع الصغير .

من عسل ، فوضعه ، و قال : أما إنّي لا اُحرِّمه ، و من تواضع لله رفعه الله ، و من تكبّر وضعه الله ، و من اقتصد أغناه الله ، و من بذّر أفقره الله ، و من أكثر ذكر الله أحبّه الله » (١).

و روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب و به زمانة تنكره بها ، فأذن له فلمّا دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وآله على فخذه ثمّ قال له : اطعم ، وكان رجل من قريش اشمأزّ منه و يكرهه فما مات ذلك الرّجل حتّى كانت به زمانة مثلها (٢).

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « خيّرني ربّي بين أمرين : أكون عبداً رسولاً أوملكاً نبيّاً فلم أدرأيّهما أختار وكان صفيّي من الملائكة جبرئيل فرفعت رأسي فقال : تواضع لربّك فقلت : عبداً رسولاً »(٣).

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : « إنّما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ، ولم يتعاظم على خلقي ، وألزم قلبه خوفي وقطع النهار بذكري و كفّ نفسه عن الشهوات من أجلي » .

و قال صلى الله عليه وآله : « الكرم التقوى ، والشرف التواضع ، واليقين الغنى »(٤).

و قال عيسى عليه السلام : « طوبى للمتواضعين في الدّنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة ، طوبى للمصلحين بين الناس في الدّنيا هم الّذين يرثون الفردوس يوم القيامة ، طوبى للمطهّرة قلوبهم في الدّنيا هم الّذين ينظرون إلى الله عزّ وجلّ يوم القيامة » .

(١) أخرجه البزار من رواية طلحة بن عبيدالله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه الاقوله « و من اكثر ذكر الله احبه الله » و لم يقل بقباء . قال الذهبي انه خبر منكر (المغنى) وأخرجه الكليني ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) قال العراقي : لم أجده أصلاً والموجود حديث أكله مع المجذوم رواه ابوداود والترمذي ج ٨ ص ١١ من حديث جابر وقال الترمذي : غريب .

(٣) أخرجه أبو يعلى من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف السند كما في المغني ، وأخرجه الكليني ج ١ ص ١٢٢ تحت رقم ٥ .

(٤) أخرجه ابن ابي الدنيا في اليقين عن يحيى بن أبي كثير مرسلا كما في الجامع الصغير .

و قال بعضهم : بلغني أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا هدى الله عبداً للإسلام و حسّن صورته و جعله في موضع غير شائن له و رزقه مع ذلك تواضعاً فذلك من صفوة الله » (١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أربع لا يعطيهنّ الله إلّا من يحبّ : الصمت وهو أوّل العبادة والتوكّل على الله ، والتواضع ، والزّهد في الدّنيا » (٢).

و قال ابن عبّاس : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السّماء السابعة » (٣).

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « التواضع لا يزيد العبد إلّا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله » (٤).

و روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كان يطعم فجاء رجل أسود به جُدَريّ قد تقشّر فجعل لا يجلس إلى جنب أحد إلّا قام من جنبه فأجلسه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى جنبه» (٥).

---

(١) أخرجه الطبراني موقوفاً على ابن مسعود نحوه وفيه المسعودي مختلف فيه (المغني) .

(٢) ماعثرت على اصل له نعم روى الحاكم و الطبراني من حديث أنس « أربع لايصبن الا بعجب : الصمت وهو اوّل العبادة ، والتواضع ، وذكر الله ، وقلة الشيء » و صححه الحاكم لكن أورده المقدسي في تذكرة الموضوعات و قال : هو من كلام الحسن البصري وفيه العوام بن جويرية وقال ابن حبان : يروى الموضوعات .

(٣) أخرج البيهقي في الشعب نحوه وفيه زمعة بن صالح ضعفه الجمهور كما في المغني .

(٤) كذا و أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب و فيه « يرفعكم الله» وهكذا رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٢١ .

(٥) تقدم أن العراقي قال : لم اجده هكذا والمعروف أكله مع المجذوم رواه ابوداود والترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر ، والجدري - بالضم - والفتح لغة فيه - مايقال له بالفارسية : آبله وهو بثور يظهر على البدن لدفع من الطبيعة المدبرة لبدن الانسان فضلات طمثية منبثة في البدن عن اغتذائه بها ولذلك قيل : ان هذا المرض لابد أن يعرض لكل شخص غير أن تلك الفضلات تبقى في البدن الى حين يحصل المحرك فينهض القوة الدافعة لدفعها ومن الناس من يجدر مرتين ولذلك هند من لم يقو الطبيعة على دفع المادة في سن الصبي بل يبقى شيء منها ثم يتفق أسباب مسخنة مرطبة فيحرك المادة و يحرك الطبيعة لدفعها مرة ثانية (بحر الجواهر) .

و قال صلى الله عليه وآله: «إنّه ليعجبني أن يحمل الرّجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه» (١).

و قال صلى الله عليه وآله لأصحابه: «مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة، قالوا: و ما حلاوة العبادة؟ قال: التواضع» (٢).

و قال صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم المتواضعين من اُمّتي فتواضعوا لهم، و إذا رأيتم المتكبّرين فتكبّروا عليهم فإنّ ذلك لهم مذلّة و صغار» (٣).

أقول: ومن طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أرسل النجاشيّ إلى جعفر بن أبي طالب (٤) وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت له جالس على التراب و عليه خلقان الثياب، قال: فقال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلمّا رأى مابنا و تغيّر وجوهنا قال: الحمدلله الّذي نصر محمّداً وأقرّ عينه، ألا اُبشّركم؟ فقلت: بلى أيّها الملك فقال: إنّه جاءني الساعة من نحو أرضكم عينٌ من عيوني هناك فأخبرني أنّ الله تعالى قد نصر نبيّه محمّداً صلى الله عليه وآله و أهلك عدوّه وأسر فلان و فلان التقوا بواد يقال له: بدر، كثير الأراك لكأنّي أنظر إليه حيث كنت أرعى لسيّدي هناك وهو رجلٌ من بني ضمرة فقال له جعفر: أيّها الملك فما لي أراك جالساً على التراب وعليك هذه الخلقان؟ فقال: ياجعفر إنّا نجد فيما أنزل الله على عيسى عليه السلام أنّ من حقّ الله تعالى على عباده أن يحدثوا له تواضعاً عندما

---

(١) و (٢) قال العراقي: كلاهما غريب.

(٣) كسابقيه.

(٤) النجاشي بفتح النون وتخفيف الجيم المعجمة لقب ملك الحبشة والمراد هنا الذى أسلم وآمن بالنبى (ص) و اسمه اصحمة بن بحر، أسلم قبل الفتح و مات قبله صلى عليه النبى (ص) لماجاءه خبر موته. وجعفر بن ابى طالب هو أخو اميرالمؤمنين عليه السلام وكان اكبر منه بعشر سنين وهو من كبار الصحابة ومن الشهداء الاولين وهو صاحب الهجرتين الحبشة وهجرة المدينة واستشهد يوم مؤتة سنة ثمان وله احدى و اربعون سنة فوجد فيما اقبل من جسده تسعون ضربة مابين طعنة برمح وضربة بسيف وقطعت يداه فى الحرب فأعطاه الله جناحين يطير بهما فى الجنة فلقب ذا الجناحين.

يحدث لهم من نعمة ، فلمّا أحدث الله لي نعمة محمّد صلى الله عليه وآله أحدثت لله هذا التواضع ، فلمّا بلغ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : إنّ الصدقة تزيد صاحبها كثرة فتصدّقوا يرحمكم الله ، وإنّ التواضع يزيد صاحبه رفعة فتواضعوا يرفعكم الله ، و إنّ العفو يزيد صاحبه عزّاً فاعفوا يعزّكم الله » (١).

وعنه عليه السلام : « إنّ في السماء ملكين موكّلين بالعباد فمن تواضع رفعاه ، ومن تكبّر وضعاه » (٢).

وعنه عليه السلام قال : أفطر رسول الله صلى الله عليه وآله عشيّة خميس في مسجد قُباء فقال : هل من شراب فأتاه اُوس بن خولي الأنصاريّ بعسّ مخيض (*) بعسل ، فلمّا وضعه على فيه نحّاه ثمّ قال : شرابان يكتفي بأحدهما من صاحبه لاأشربه ولا اُحرّمه ولكن أتواضع لله فإنّه من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبّر خفضه الله ، ومن اقتصد في معيشته رزقه الله ، ومن بذّر حرمه الله ، ومن أكثر ذكر الموت أحبّه الله » (٣). و في رواية « من أكثر ذكر الله أظلّه الله في جنّته » (٤).

و عن أبي جعفر عليه السلام « أنّه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله ملك فقال : إنّ الله تعالى يخيّرك أن تكون عبداً رسولاً أو ملكاً رسولاً - قال : فنظر إلى جبرئيل عليه السلام أومأ بيده (٥) أن تواضع - فقال : عبداً رسولاً ، فقال الرسول : (٦) مع أنّه لاينقصك ممّا عند ربّك شيئاً قال : و معه مفاتيح خزائن الأرض » (٧).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال : « أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أنّ يا موسى

(*) العس - بالضم - : القدح ، والمخيض : الزبد الذي يؤخذ من اللبن .
(١) الى (٤) الكافي ج ٢ ص ١٢١ و ١٢٢ .
(٥) كأنه يستشيره وهذه الجملة ومابعدها معترضة ولهذا لم يقل « فأومأ » بالفاء .
(٦) يعني قال الملك .
(٧) يعني قال أبوجعفر عليه السلام : وكان مع الملك عند تبليغ هذه الرسالة المفاتيح ويحتمل أن يكون ضمير « قال » راجعاً الى الملك ومفعول القول محذوفاً ، والواو في قوله « ومعه » للحال اى قال ذلك ومعه المفاتيح ، وقيل : راجع الى الرسول اى قال صلى الله عليه وآله : لاأقبل وان كان معه المفاتيح ولايخفى مافيه . والخبر في الكافي ج ٢ ص ١٢٢ .

أتدري لم اصطفيتك بكلامي دون خلقي ؟ قال : يا ربّ ولم ذاك ؟ قال : فأوحى الله تعالى إليه يا موسى إنّي قلبت لعبادي ظهراً لبطن فلم أجد فيهم أحداً أذلّ لي نفساً منك ، ياموسى إنّك إذا صلّيت وضعت خدّك على التّراب - أوقال : على الأرض »(١).

وعنه عليه السلام قال : « مرّ عليّ بن الحسين عليهما السلام على المجذمين و هو راكبٌ حماره وهم يتغدّون ، فدعوه إلى الغداء ، فقال : أما إنّي لولا أنّي صائم لفعلت ، فلمّا صار إلى منزله أمر بطعام فصنع و أمر أن يتنوّقوا فيه ، ثمّ دعاهم فتغدّوا عنده وتغدّى معهم » (٢).

وعنه عليه السلام « أنّه نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً و هو يحمله فلمّا رآه الرّجل استحيى منه فقال له أبو عبدالله عليه السلام : اشتريته لعيالك و حملته إليهم ، أما والله لولا أهل المدينة لأحببت أن أشتري لعيالي الشيء ثمّ أحمله إليهم » (٣).

وعنه عليه السلام قال : « فيما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود كما أقرب النّاس إلى الله المتواضعون كذلك أبعد النّاس من الله المتكبّرون » (٤).

وعنه عليه السلام « من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس ، و أن تسلّم على من تلقى ، وأن تترك المراء وإن كنت محقّاً ، ولاتحبّ أن تحمد على التقوى » (٥).

وعنه عليه السلام « إنّ من التواضع أن يجلس الرّجل دون شرفه » (٦).

وعن أبي بصير قال : دخلت على أبي الحسن موسى عليه السلام في السنّة الّتي قبض فيها أبوعبدالله عليه السلام فقلت له : جعلت فداك ذبحت كبشاً ونحر فلان بدنة (٧) فقال : « يا أبا محمّد إنّ نوحاً كان في السّفينة و كان فيها ماشاء الله وكانت السفينة مأمورة فطافت البيت و هو طواف النّساء و خلّى سبيلها نوح فأوحى الله تعالى إلى الجبال أنّي واضع سفينة نوح عبدي على جبل منكنّ فتطاولت وشمخت و تواضع الجودي

(١) و (٢) الكافي ج ٢ ص ١٢٣ تحت رقم ٧ و ٨ و تنوقوا أي تكلفوا .
(٣) الى (٦) المصدر ج ٢ص ١٢٣ .
(٧) البدنة : الناقة او البقرة والجمع بدن - بضمتين - و بدن - باسكان الدال - .

و هو جبل عندكم فضربت السّفينة بجؤجؤها الجبل (١) قال : فقال نوح عند ذلك : « يا ماري أتقن » و هو بالسّريانيّة ربّ أصلح ، قال فظننت : أنّ أباالحسن عليه السلام عرّض بنفسه »(٢).

وعن أبي الحسن عليه السلام قال : « التواضع أن تعطي النّاس ما تحبّ أن تعطاه »(٣)

و في حديث آخر قال : « التّواضع درجات : منها أن يعرف الرّجل قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحبّ أن يأتي إلى أحد إلّامثل مايؤتى إليه ، إن رأى سيّئة درأها بالحسنة ، كاظم الغيظ ، عاف عن النّاس ، و الله يحبّ المحسنين »(٤) .

وفي كتاب مصباح الشريعة (٥) قال الصّادق عليه السلام : « التواضع أصل كلّ شرف نفيس ومرتبة رفيعة ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقايق مافي مخفيّات العواقب ، والتواضع ما يكون لله و في الله و ما سواه مكر ، و من تواضع لله شرّفه الله على كثير من عباده ، و لأهل التّواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الأرض من العارفين ، قال الله عزّوجلّ : « و على الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم »(٦) وأصل التواضع من إجلال الله و هيبته و عظمته و ليس لله عزّوجلّ عبادة يرضاها ويقبلها إلّا وبابها التواضع ولايعرف مافي حقيقة التواضع إلّاالمقرّبون من عباده المتّصلين بوحدانيّته ، قال الله عزّوجلّ : « و عِبادُ الرّحمنِ الّذين يمشون على الأرض هوناً و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً »(٧) و قد أمر الله عزّوجلّ خيرخلقه و سيّد بريّته محمداً صلى الله عليه وآله فقال عزّوجلّ : « واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين » (٨) والتواضع مزرعة الخشوع والخضوع والخشية والحياء ، وإنّهنّ

(١) الجؤجؤ ـ كهدهد ـ : الصدر .

(٢) يعني أراد بهذه الحكاية أن يتبين أنه انما تواضع بذبح الشاة دون أن ينحر البدنة ليجبر الله تواضعه ذلك بالرفعة في قدره في الدنيا و الاخرة كما قاله المؤلف في الوافي ، والخبر مروي في الكافي ج٢ ص١٢٤ .

(٣) و(٤) المصدر ج ٢ ص ١٢٤ . (٥) الباب الثامن و الخمسون .

(٦) الاعراف : ٤٤ . (٧) الفرقان : ٦٤ .

(٨) الشعراء : ٢١٥ .

لا يأتين إلّا منها ولا يسلم الشّرف التامّ الحقيقيّ إلّا للمتواضع في ذات الله تعالى ».

و في تفسير الإمام أبي محمّد الحسن بن عليّ العسكريّ عليهما السلام « أعرف الناس بحقوق إخوانه وأشدّهم قضاء لهم أعظمهم عندالله شأناً ، ومن تواضع في الدّنيا لإخوانه فهو عندالله من الصدّيقين و من شيعة عليّ بن أبي طالب عليه السلام حقّاً ».

و قيل : ورد على أمير المؤمنين عليه السلام إخوان له مؤمنان أبٌ وابن فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر مجلسه وجلس بين أيديهما ثمّ أمر بطعام فاُحضر فأكلا منه ثمّ جاء قنبر بطست و إبريق خشب و منديل لييبس وماء ليصبّ على يد الرّجل فوثب أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ الإبريق ليصبّ على يد الرّجل فتمرّغ الرّجل في التراب و قال : يا أمير المؤمنين الله يراني و أنت تصبّ على يدي قال : اقعد واغسل فإنّ الله عزّوجلّ يراك و أخوك الّذي لا يتميّز منك ولا يتفضّل عليك يريد بذلك في خدمته في الجنّة مثل عشرة أضعاف أهل الدّنيا و على حسب ذلك في ممالكه فيها ، فقعد الرّجل فقال عليّ عليه السلام : أقسمت عليك بعظيم حقّي الّذي عرفته و بجلّته و تواضعك لله تعالى حتّى جازاك عنه بأن ندبني لما شرّفك به من خدمتي لك لمّا غسلت مطمئناً كما كنت تغفل لو كان الصّابّ عليك قنبر ، ففعل الرّجل ذلك فلمّا فرغ ناول الإبريق محمّد بن الحنفيّة ، وقال : يا بنيّ لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه لصببت على يده ولكنّ الله عزّوجلّ يأبى أن يساوي بين ابن وأبيه إذا جمعهما مكان لكن قد صبّ الأب على الأب فليصبّ الابن على الابن ، فصبّ محمّد بن الحنفيّة على الابن ، قال الحسن بن علي عليهما السلام فمن اتّبع عليّاً عليه السلام فهو الشّيعي حقّاً

فصل

قال أبو حامد : الآثار : سئل الفضيل عن التواضع فقال : هو أن تخضع للحقّ و تنقاد له ولو سمعته من صبيّ قبلته منه و لو سمعته من أجهل الناس قبلته منه .

و قال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدّنيا حتّى تعلمه أنّه ليس لك عليه بدنياك فضل و أن ترفع نفسك عمّن هو فوقك في

الدّنيا حتّى تعلمه أنّه ليس له بدنياه عليك فضل .

و قال قتادة : من أعطى مالاً أوجمالاً أو ثياباً أو علماً ثمّ لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة .

و قيل : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلنها بالاستكانة أتممتها عليك .

وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفّح وجوه الأغنياء والأشراف حتّى يجيىء إلى المساكين فيقعد معهم و يقول : مسكين مع مساكين .

و قال بعضهم : كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدّون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة .

و قيل : أرفع ما يكون العبد المؤمن عند الله أوضع مايكون عند نفسه وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه .

وعن أبي الفتح بن شخرف قال : رأيت عليّ بن أبي طالب عليه السلام في المنام فقلت له : يا أباالحسن عظني فقال : ماأحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله تعالى وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عزّ وجلّ .

وقال أبوسليمان : لا يتواضع العبد حتّى يعرف نفسه .

و قال أبو يزيد : ما دام العبد يظنّ أنّ في الخلق من هو شرّ منه فهو متكبّر ، فقيل : متى يكون متواضعاً ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً ، وتواضع كلّ إنسان على قدر معرفته بربّه عزّ وجلّ و معرفته بنفسه .

و قال عروة بن الورد : التواضع أحد مصايد الشرف ، وكلّ نعمة محسودٌ عليها صاحبها إلّا التواضع .

و قال يحيى بن خالد البرمكيّ : الشريف إذا تنسّك تواضع والسفيه إذا تنسّك تعاظم .

و قال يحيى بن معاذ : التكبّر على ذوي التكبّر عليك بماله تواضع .

و يقال : التواضع في الخلق كلّهم حسن و في الأغنياء أحسن ، والتكبّر في

الخلق كلّهم قبيح وفي الفقراء أقبح .

ويقال : لا عزّ إلّا لمن تذلّل لله عزّ وجلّ ولا رفعة إلّا لمن تواضع لله ، ولا أمن إلّا لمن خاف الله ، ولا ربح إلّا لمن ابتاع نفسه من الله عزّ وجلّ .

وعن عمرو بن شيبة قال : كنت بمكّة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكباً بغلة و بين يديه غلمان وإذاهم يعنّفون الناس ، قال : ثمّ عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت يوماً على الجسر فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال : فجعلت أنظر إليه و أتأمّله فقال لي : مالك تنظر إليّ ؟ فقلت له : شبّهتك برجل رأيته بمكّة و وصفت له الصفة ، فقال : أنا ذلك الرّجل ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : إنّي ترفّعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفّع فيه الناس .

وتفاخرت قريش عند سلمان - رضي الله عنه - يوماً فقال سلمان : لكنّني خلقت من نطفة قذرة ثمّ أعود جيفة منتنة ثمّ آتي الميزان فإن ثقل فأنا كريم و إن خفّ فأنا لئيم .

☼(بيان حقيقة الكبر و آفته)☼

إعلم أنّ الكبر ينقسم إلى ظاهر وباطن والباطن هو خلق في النفس والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح واسم الكبر بالخلق الباطن أحقّ ، و أمّا الأعمال فإنّها ثمرات لذلك الخلق وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال : تكبّر و إذا لم يظهر يقال : في نفسه كبر ، فالأصل هو الخلق الّذي في النفس وهو الاسترواح والرّكون إلى رؤية النّفس فوق المتكبّر عليه فإنّ الكبر يستدعي متكبّراً عليه و متكبّراً به ، وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتي فإنّ العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلّا وحده تصوّر أن يكون معجباً و لا يتصوّر أن يكون متكبّراً إلّا أن يكون مع غيره و هو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبّراً ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبّراً فإنّه قد يستعظم نفسه ولكن يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبّر عليه ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنّه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبّر و لو

رأى غيره مثل نفسه لم يتكبّر بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة و لغيره مرتبة ، ثمّ يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره [١] ، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر لا أنّ هذه الرؤية هي الكبر بل هذه الرُّؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد و هزّة و فرح و ركون إلى ما اعتقده ، و عزّ في نفسه بسبب ذلك فتلك العزّة والهزّة والرُّكون إلى المعتقد هو خلق الكبر ، و لذلك قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: « أعوذ بك من نفخة الكبرياء » [٢] ولذلك قال بعض خلفاء النبيّ صلّى الله عليه وآله : أخشى أن تنتفخ حتّى تبلغ الثريّا . للّذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصّبح . و كأنّ الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين و هو الاستعظام كبر وانتفخ وتعزّز ، فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات ، و تسمّى أيضاً عزّة و تعظّماً ، و لذلك قال ابن عبّاس في قوله تعالى : « إن في صدورهم إلّا كبر ماهم ببالغيه » [٣] فقال : عظمة لم يبلغوها ففسّر الكبر بتلك العظمة ثمّ هذه العزّة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمراته و يسمّى ذلك تكبّراً فإنّه مهما عظم عنده قدر نفسه بالإضافة إلى غيره حقّر من دونه و ازدراه و أقصاه عن نفسه و أبعده و ترفّع عن مجالسته ومواكلته ورأى أنّ حقّه أن يقوم ماثلاً بين يديه إن اشتدّ كبره ، فإن كان كبره أشدّ من ذلك استنكف عن استخدامه و لم يجعله أهلاً للقيام بين يديه و لا لخدمة عتبته فإن كان دون ذلك فيأنف من مساواته ، ويتقدّم عليه في مضائق الطرق ، وارتفع عليه في المحافل ، وانتظر أن يبدأه بالسّلام ، و استبعد إن قصّر في قضاء حوائجه ، و تعجّب منه ، وإن حاجّ أو ناظر أنف أن يردّ عليه ، وإن وُعظ استنكف من القبول ، وإن وَعَظ عنف في النّصح ، وإن رُدّ عليه شيء من قوله غضب ، وإن علّم لم يرفق بالمتعلّمين و استذلّهم وانتهرهم وامتنّ عليهم و استخدمهم ، و ينظر إلى العامّة كأنّه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً ، والأعمال الصّادرة عن خلق

---

(١) فيه نظر لانه ينافي ما قال الصادق عليه السلام : « مامن رجل تكبر او تجبر الالذلة وجدها في نفسه » .

(٢) تقدم سابقاً . (٣) المؤمن : ٥٨ .

الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنّها مشهورة فهذا هو الكبر و آفته عظيمة و غائلته هائلة ، و فيه يهلك الخواصّ من الخلق ، و قلّما ينفكّ عنه العبّاد والزّهاد والعلماء فضلاً عن عوامّ النّاس و كيف لا تعظم آفته وقد قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر »(١) و إنّما صار حجاباً عن الجنّة لأنّه يحول بين العبد و بين أخلاق المؤمنين كلّها و تلك الأخلاق هي أبواب الجنّة والكبر و عزّ النّفس يغلق تلك الأبواب كلّها لأنّه لا يقدر على أن يحبّ للمؤمنين ما يحبّ لنفسه و فيه شيء من العزّ ، ولا يقدر على التواضع و هو رأس أخلاق المتّقين وفيه العزّ ، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العزّ ، ولا يقدر على ترك الحقد و فيه العزّ ، ولا يقدر أن يدوم على الصّدق و فيه العزّ ، ولا يقدر على ترك الحسد و فيه العزّ ، ولا يقدر على ترك الغضب و فيه العزّ ، ولا يقدر على النصح اللّطيف وفيه العزّ ، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العزّ ، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم و فيه العزّ ، ولا معنى للتطويل ، فما من خلق ذميم إلّا وصاحب العزّ والكبر مضطرّ إليه ليحفظ به عزّه ، و ما من خلق محمود إلّا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزّه فمن هذا لم يدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرّة منه والأخلاق الذّميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لامحالة ، و شرّ أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم و قبول الحقّ والانقياد له وفيه وردت الآيات الّتي فيها ذمّ المتكبّرين قال الله تعالى : « والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ـ إلى قوله : ـ و كنتم عن آياته تستكبرون »(٢) ـ ثمّ قال ـ : « ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبّرين »(٣).

---

(١) رواه الطبراني باسناد حسن والاصبهاني كما في الترغيب والترهيب ج٣ص٥٦٦.

(٢) الانعام : ٩٤ .

(٣) النحل : ٣١ وظاهر قوله « ثم قال » أنها في سياق الاية السابقة لكن ليس كذلك وفي سورة النحل هكذا « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي انفسهم فالقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون فادخلوا ابواب جهنم ـ الاية » و هكذا فيما يلي .

ثمّ أخبر أنّ أشدّ أهل النّار عذاباً أشدّهم عتيّاً على الله فقال: «ثمّ لننزعنّ من كلّ شيعة أيّهم أشدّ على الرّحمن عتيّاً»[1].

و قال: «فالّذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون»[2].

و قال: «يقول الّذين استضعفوا للّذين استكبروا لولا أنتم لكنّا مؤمنين»[3].

و قال: «إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين»[4].

و قال: «سأصرف عن آياتي الّذين يتكبّرون في الأرض بغير الحقّ»[5] قيل في التفسير: سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت، و قال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكّروا فيها و يعتبروا بها، و لذلك قال عيسى عليه السلام: «إنّ الزّرع ينبت في السهل و لا ينبت على الصّفا كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبّر، ألا ترون أنّه من يتشمّخ برأسه إلى السقف شجّه و من يطأطئ أظلّه وأ كنّه» فهذا مثل ضربه للمتكبّرين و إنّهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله جحود الحقّ في حدّ الكبر والكشف عن حقيقته. وقال: «من سفه الحقّ وغمص الناس»[6].

☆(بيان المتكبر عليه وأقسامه ودرجاته وثمرات الكبر فيه)☆

إعلم أنّ المتكبّر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر الخلق وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً، فتارة يتكبّر على الخلق، وتارة يتكبّر على الخالق، فإذن التكبّر باعتبار المتكبّر عليه ثلاثة أقسام:

الأوّل: التكبّر على الله وذلك هو أفحش أنواع الكبر ولا مثار له إلّا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود فإنّه كان يحدث نفسه بأن يقاتل ربّ السماء و كما يحكى عن جماعة من الجهلة بل ما يحكى عن كلّ من ادّعى الرّبوبيّة مثل

(١) مريم: ٧٠ و العتى ههنا مصدر كالعتو وهو التمرد والعصيان (المجمع).

(٢) النحل: ٢٣. (٣) السبأ: ٣١.

(٤) المؤمن: ٦٢ وفى القاموس دخر: صغر وذل.

(٥) الاعراف: ١٤٣. (٦) مر آنفاً.

فرعون وغيره فإنّه لتكبّره قال: «أنا ربّكم الأعلى» إذ استنكف أن يكون عبدالله ولذلك قال تعالى: «إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين».

و قال الله تعالى: «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون ومن يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ۞ فأمّا الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات فيوفّيهم اُجورهم و يزيدهم من فضله و أمّا الّذين استنكفوا و استكبروا فيعذّبهم عذاباً أليماً و لا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً»[1].

و قال تعالى: «و إذا قيل لهم اسجدوا للرّحمن قالوا وما الرّحمن أنسجد لما تأمرنا و زادهم نفوراً»[2].

القسم الثّاني: التكبّر على الرسل من حيث تعزّز النفس وترفّعها عن الانقياد لبشر مثل سائر النّاس وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد و هو ظانّ أنّه محقّ فيه و تارة يمتنع مع المعرفة إذ لا تطاوعه نفسه للانقياد للحقّ و التواضع للرّشد كما حكى الله تعالى عن قولهم «أنؤمن لبشرين مثلنا»[3] و «إن أنتم إلّا بشر مثلنا»[4] «ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنّكم إذاً لخاسرون»[5] «وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لو لا اُنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا لقد استكبروا في أنفسهم و عتوا عتوّاً كبيراً»[6] وقالوا: «لولا اُنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً»[7]. و قال فرعون فيما أخبر الله عنه: «أو جاء معه الملائكة مقترنين»[8] و قال الله تعالى: «و استكبر هو و جنوده في الأرض بغير الحقّ»[9] فتكبّر هو على الله تعالى وعلى رسوله جميعاً. قال وهب: قال له موسى عليه السلام: يا فرعون آمن ولك ملكك، قال: حتّى اُشاور هامان، فشاور هامان فقال له هامان: بينما أنت ربّ تعبد إذ صرت عبداً تعبد واستنكف عن عبوديّة الله

---

(١) النساء: ١٧٢ و ١٧٣.
(٢) الفرقان: ٦١.
(٣) المؤمنون: ٤٩.
(٤) ابراهيم: ١١.
(٥) المؤمنون: ٣٦.
(٦) الفرقان: ٢٢.
(٧) الفرقان: ٨.
(٨) الزخرف: ٥٤.
(٩) القصص: ٣٩.

عزّ وجلّ ومن اتّباع موسى عليه السلام ، وقالت قريش : « لو لانزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »(١) قال قتادة : عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة و أبو مسعود الثقفي طلبوا من هو أعظم رئاسة من النبيّ صلى الله عليه وآله إذ قالوا غلامٌ يتيمٌ كيف بعثه الله إلينا فقال تعالى : « أهم يقسمون رحمت ربّك » (٢) و قال تعالى : « ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا »(٣) أي استحقاراً لهم واستبعاداً لتقدّمهم . وقالت قريش : كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء ؟ أشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم ، و تكبّروا عن مجالستهم فأنزل الله تعالى « ولاتطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة و العشيّ يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شيء ومامن حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » (٤) .

وقال : « ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحيوة الدّنيا » (٥) .

ثمّ أخبر الله تعالى عن تعجّبهم حين دخلوا جهنّم إذلم يروا الّذين استرذلوهم فقالوا : « مالنا لا نرى رجالاً كنّا نعدّهم من الأشرار »(٦) قيل : يعنون عمّاراً و بلالاً وصهيباً و المقداد .

ثمّ كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وآله محقّاً ومنهم من عرف ذلك ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى : « فلمّا جاءهم ماعرفوا كفروا به »(٧) وقال : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً »(٨) وهذا الكبر قريب من التكبّر على الله وإن كان دونه ولكنّه تكبّر عن قبول أمر الله و التواضع لرسوله صلى الله عليه وآله .

القسم الثالث : التكبّر على العباد وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفّع عليهم فيزدريهم و يستصغرهم و يأنف من مساواتهم و هذا و إن كان دون الأوّل والثاني فهو أيضاً عظيمٌ من وجهين : أحدهما

---

(١) و (٢) الزخرف : ٣٢ و ٣٣ . (٣) و (٤) الانعام : ٥٤ و ٥٣ .
(٥) الكهف : ٢٩ . (٦) سوره ص : ٦٢ .
(٧) البقرة : ٩٠ . (٨) النمل : ١٤ .

أنّ الكبر والعزّ والعظمة والعلاء لايليق إلّا بالملك القادر فأمّا العبد المملوك الضعيف العاجز الّذي لايقدر على شيء فمن أين يليق به الكبر، فمهما تكبّر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لاتليق إلّا بجلاله و مثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه و يجلس على سريره، فما أعظم استحقاقه للمقت، وما أعظم تهدّفه للخزي والنكال، وما أشدّ استجراؤه على مولاه، وما أقبح ما تعاطاه، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: «العظمة إزاري و الكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته»(١) أي أنّه خاصّ صفتي ولايليق إلّا بي و المنازع فيه منازعٌ في صفة من صفاتي. وإذا كان الكبر على عباده لايليق إلّا به فمن تكبّر على عباده فقد جنى عليه إذ الّذي يسترذل خواصّ غلمان الملك ويستخدمهم ويترفّع عليهم ويستأثر بما حقّ الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره وإن لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه، فالخلق كلّهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم، فمن تكبّر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقّه، نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون ماهو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم و بين منازعته في أصل المملكة.

الوجه الثاني: الّذي تعظم به رذيلة الكبر أنّه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره لأنّ المتكبّر إذا سمع الحقّ من عبد من عباد الله استنكف من قبوله و تشمّر لجحده و لذلك ترى المناظرين في مسائل الدّين يزعمون أنّهم يتباحثون عن أسرار الدّين ثمّ إنّهم يتجاحدون تجاحد المتكبّرين ومهما اتّضح الحقّ على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله ويتشمّر لجحده واحتال لدفعه بمايقدر عليه من التلبيس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال: «وقال الّذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلّكم تغلبون»(٢) فكلّ من يناظر للغلبة والإفحام لاليغتنم الحقّ إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق و كذلك يحمل ذلك على

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ١ ص ٦١ وقد تقدم.

(٢) فصلت: ٢٦.

الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى : « و إذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم » (١) وقال ابن مسعود : كفى بالرّجل إثماً إذا قيل له : اتّق الله قال : عليك بنفسك .

و قال ﷺ لرجل : « كل بيمينك ، فقال : لا أستطيع ، فقال النبيّ ﷺ لا استطعت فما منعه إلّا كبره فقيل : مارفعها بعد ذلك » (٢) أي اعتلّت يده فإذن تكبّره على الخلق عظيم لأنّه سيدعوه إلى التكبّر على أمر الله وإنّما ضرب إبليس مثلاً لهذا وما حكاه من أحواله إلّا ليعتبر به فإنّه قال : « أنا خيرٌ منه » وهذا الكبر بالنسب لأنّه قال : « خلقتني من نار و خلقته من طين » (٣) فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الّذي أمره الله تعالى به فكان مبدؤه الكبر على آدم و الحسد له فجرّه ذلك على التكبّر على أمر الله فكان ذلك سبب هلاكه أبدالآباد ، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ولذلك شرح رسول الله ﷺ الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شمّاس فقال : يا رسول الله إنّي امرؤ قد حبّب إليّ من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو ؟ فقال ﷺ : لا ، و لكن الكبر من بطر الحقّ وغمص النّاس » (٤) أي ازدرأهم و استحقرهم وهم عباد الله أمثاله وخير منه ، وهذه الآفة الأولى ، و قوله : « سفه الحقّ » هو ردّه به وهي الآفة الثانية فكلّ من رأى أنّه خيرٌ من أخيه و احتقر أخاه فازدرأه و نظر إليه بعين الاستصغار أو ردّ الحقّ وهو يعرفه فقد تكبّر فيما بينه و بين الخلق و من أنف من أن يخضع لله تعالى و يتواضع له بطاعته و اتّباع رسله فقد تكبّر فيما بينه و بين الله تعالى و الرّسل .

✡ (بيان مابه التكبر) ✡

إعلم أنّه لا يتكبّر إلّا من استعظم نفسه ولا يستعظمها إلّا و هو يعتقد لها صفة

(١) البقرة : ٢٠٦ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٦ ص ١٠٩ و قال النووي : هذا الرجل بسر بن راعي العير الاشجعي كذا ذكره ابن منده . (٣) الاعراف : ١٢ .

(٤) تقدم غير مرة بلفظ « من سفه الحق ».

من صفات الكمال و مجامع ذلك يرجع إلى كمال دينيّ أو دنيويّ ، فالدّينيّ هو العلم و العمل ، و الدّنيويّ هو النسب والجمال و القوّة و المال وكثرة الأنصار ، فهذه سبعة أسباب .

الأوّل : العلم وما أسرع الكبر إلى العلماء و لذلك قال ﷺ : « آفة العلم الخيلاء » [1] فلا يلبث العالم أن يتعزّز بعزّ العلم و يستشعر في نفسه جمال العلم وكماله و يستعظم نفسه و يستحقر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم : يستجهلهم ويتوقّع أن يبدؤوه بالسلام فإن بدأ أحداً منهم بالسلام أو ردّه عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها ، واعتقد أنّه أكرمهم وفعل بهم مالا يستحقّون من مثله ، وأنّه ينبغي أن يرقّوا له ويخدموه شكراً له على صنيعه بل الغالب أنّهم يبرّونه فلا يبرّهم ويزورونه فلا يزورهم ، ويعودونه فلا يعودهم ، و يستخدم من خالطه منهم و يستسخره في حوائجه فإن قصّر فيها استنكره كأنّهم عبيده أو اُجراؤه وكأنّ تعليمه العلم صنيعة منه إليهم و معروف لديهم و استحقاق حقّ عليهم ، هذا فيما يتعلّق بالدّنيا وأمّا في أمر الآخرة فتكبّره عليهم بأن يرى نفسه عندالله أعلى و أفضل منهم فيخاف عليهم أكثر ممّا يخافه على نفسه و يرجو لنفسه أكثر ممّا يرجولهم وهذا بأن يسمّى جاهلاً أولى من أن يسمّى عالماً بل العلم الحقيقيّ هو الّذي يعرف الإنسان به نفسه و ربّه و خطر الخاتمة و حجّة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم و هذه العلوم تزيد خوفاً و تواضعاً وتخشّعاً ويقتضي أن يرى أنّ كلّ الناس خير منه لعظم حجّة الله تعالى عليه بالعلم و تقصيره في القيام بشكر نعمة العلم و لهذا قال أبوالدّرداء : من ازداد علماً ازداد خوفاً وهو كما قال .

---

(١) قال العراقي : هكذا ذكره المصنف والمعروف « آفة العلم النسيان و آفة الجمال الخيلاء » هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي بسند ضعيف . و روى عنه أبومنصور الديلمي في مسند الفردوس « آفة الجمال الخيلاء » وفيه الحسن بن الحميد الكوفي لايدرى من هو ، حدث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان . انتهى

فإن قلت : فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً ؟ فاعلم أنّ له سببين : أحدهما أن يكون اشتغاله بما يسمّى علماً وليس بعلم حقيقيّ و إنّما العلم الحقيقيّ مايعرف العبد به نفسه و ربّه و خطر أمره في لقاء الله و الحجاب عنه ، وهذا يورث الخشية و التواضع دون الكبر والأمن قال الله تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » [1] فأمّا ما وراء ذلك كعلم الطبّ والحساب واللّغة والشعر والنحو وفصل الخصومات و طرق المجادلات فإذا تجرّد الإنسان لها حتّى امتلأ به امتلأ كبراً و نفاقاً و هذه بأن تسمّى صناعات أولى من أن تسمّى علوماً . بل العلم هو معرفة العبوديّة و الرّبوبيّة و طريق العبادة و هذا يورث التواضع غالباً .

السبب الثاني : أن يخوض العبد في العلم و هو خبيث الدّخلة رديء النفس سيّىء الأخلاق فلم يشتغل أوّلاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربّه فبقي خبيث الجوهر فإذا خاض في العلم أيّ علم كان صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره و لم يظهر في الخير أثره ، و قد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال : العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوّله على قدر طعومها ، فيزداد المرّ مرارة والحلو حلاوة ، فكذلك العلم يحفظه الرّجال فتحوّله على قدر هممهم وأهوائهم ، فيزيد المتكبّر كبراً والمتواضع تواضعاً وهذا لأنّ من كانت همّته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبّر به فازداد كبراً ، وإذا كان الرّجل خائفاً مع جهله فإذا ازداد علماً علم أنّ الحجّة قد تأكّدت عليه فيزداد خوفاً و إشفاقاً وتواضعاً ، فالعلم من أعظم ما يتكبّر به ومن أجل ذلك قال الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله : « واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين » [2] وقال : « ولو كنت فظّاً غليظ القلب لا نفضّوا من حولك » [3] و وصف أولياءه فقال تعالى : « أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين » [4] ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله فيما رواه العبّاس : « يكون قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد

(١) فاطر : ٢٨ . (٢) الشعراء : ٢١٥ .
(٣) آل عمران : ١٥٩ . (٤) المائدة : ٥٩ .

قرأنا القرآن فمن أقرأ منّا و من أعلم منّا، ثمّ التفت إلى أصحابه فقال: أولئك منكم أيّها الأمّة، أولئك هم وقود النّار»[1] و لذلك قيل: «لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم. و صلّى حذيفة بقوم فلمّا سلّم قال: لتلتمسنّ إماماً غيري أو لتصلّنّ وحداناً إنّي رأيت في نفسي أنّه ليس في القوم أفضل منّي.

فإذا كان مثله لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخّري هذه الأمّة فما أعزّ على بسيط الأرض عالم يستحقّ أن يقال: إنّه عالمٌ، ثمّ إنّه لا يحرّكه عزّ العلم و خيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صدّيق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلاً عن الاستفادة من أنفاسه و أحواله، لو عرفنا ذلك و لو في أقصى الصّين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته و تسري إلينا سيرته و سجيّته و هيهات فأنّى يسمح آخر الزّمان بمثلهم فهم أرباب الإقبال و أصحاب الدّول و قد انقرضوا في القرن الأوّل و من يليهم بل يعزّ في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة، فذلك أيضاً إمّا معدوم و إمّا عزيزٌ و لو لا بشارة رسول الله ﷺ بقوله: «سيأتي زمانٌ على الناس من تمسّك بعشر ما أنتم عليه نجا»[2] لكان جديراً بنا أن نقتحم - والعياذبالله - ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا و من أين لنا أيضاً بالتمسّك بعشر ما كانوا عليه وليتنا تمسّكنا بعشر عشره، فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله و أن يستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه فضله و كرمه.

الثّاني العمل والعبادة و ليس يخلو عن رذيلة العزّ والكبر و استمالة قلوب الناس الزّهّاد والعبّاد ويترشّح الكبر منهم في الدّنيا والدّين أمّا الدّنيا فهوأنّهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى من أنفسهم بزيارة غيرهم و يتوقّعون قيام الناس بقضاء حوائجهم و توقيرهم والتوسّع لهم في المجالس و ذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ إلى جميع ما ذكرناه في حقّ العلماء و كأنّهم يرون

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق كما في المغني.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ج ٥ ص ١٥٥ من حديث رجل من أبي‌ذر.

عبادتهم منّة على الخلق ، وأمّا في الدّين فهو أن يرى الناس هالكين و يرى نفسه ناجياً و هو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك قال النبيّ ﷺ : « إذا سمعتم الرّجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم »[1] و إنّما قال : ذلك لأنّ هذا القول يدلّ على أنّه مزدر لخلق الله ، مغترّ بالله ، آمن من مكره ، غير خائف من سطوته ، و كيف لا يخاف ويكفيه شرّاً احتقاره لغيره ، قال رسول الله ﷺ : « كفى بالمرء شرّاً أن يحقر أخاه المسلم » ، و كم من الفرق بينه و بين من يحبّه لله و يعظمه لعبادته و يستعظمه و يرجو له مالا يرجو لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إيّاه لله فهم يتقرّبون إلى الله بالدّنوّ منه و هو يتمقّت إلى الله بالتنزّه والتباعد منهم كأنّه مرتفع عن مجالستهم ، فما أجدرهم إذا أحبّوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل و ما أجدره إذا ازدرأهم بعينه أن ينقله الله إلى حدّ الإهمال كما روي أنّ رجلاً في بني إسرائيل - يقال له : خليع بني إسرائيل لكثرة فساده - مرّ برجل آخر يقال له : عابد بني إسرائيل وكانت على رأس العابد غمامة تظلّه فلمّا مرّ الخليع به فقال الخليع في نفسه : أنا خليع بني إسرائيل و هذا عابد بني إسرائيل فلو جلست إليه لعلّ الله يرحمني فجلس إليه فقال العابد في نفسه : أنا عابد بني إسرائيل و هذا خليع بني إسرائيل كيف يجلس إليّ فأنف منه و قال له : قم عنّي فأوحى الله إلى نبيّ ذلك الزّمان مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد ، وفي حديث آخر فتحوّلت الغمامة إلى رأس الخليع . وهذا يعرفك أنّ الله تعالى إنّما يريد من العبيد قلوبهم ، فالجاهل العاصي إذا تواضع و ذلّ هيبة لله وخوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه فهو أطوع لله من العالم المتكبّر والعابد المعجب ، و كذلك روي أنّ رجلاً في بني إسرائيل أتى عابداً من بني إسرائيل فوطىء على رقبته و هو ساجد فقال له : إرفع فوالله لا يغفر الله لك ، فأوحى إليه أيّها المتألّي عليّ بل أنت لا يغفر الله لك ، و لذلك قيل : وحتّى أنّ صاحب الصوف أشدّ كبراً من صاحب المطرف الخزّ أي أنّ صاحب الخزّ يذلّ لصاحب الصّوف و يرى الفضل له و صاحب الصوف يرى الفضل

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٣٦ من حديث أبي هريرة .

لنفسه ، و هذه الآفة أيضاً قلّما ينفكّ عنها العباد و هو أنّه لواستخفّ به مستخفّ أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشكّ في أنّه صار ممقوتاً عندالله ولو آذى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهوجهل وجمع بين العجب والكبر والاغترار بالله و قد ينتهي الحمق والغباوة لبعضهم إلى أن يتحدّى و يقول : سترون ما يجري عليه ، وإذا أُصيب بنكبة زعم أنّ ذلك من كراماته وأنّ الله ماأراد به إلّا شفاء غلّته والانتقام له منه مع أنّه يرى طبقات من الكفّار يسبّون الله ورسوله وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من ضربهم و منهم من قتلهم ، ثمّ إنّ الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدّنيا بل ربّما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدّنيا ولا في الآخرة ، ثمّ إنّ الجاهل المغرور يظنّ أنّه أكرم على الله من أنبيائه و أنّه قد انتقم له بما لاينتقم لأنبيائه ، ولعلّه في مقت الله بإعجابه و كبره وهوغافل عن هلاك نفسه . فهذه عقيدة المغترّين و أمّا الأكياس من العبّاد فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كانت تهبّ ريح أوتقع صاعقة : ما يصيب الناس مايصيبهم إلّا بسببي ولومات عطاء لاستراح الناس ، وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات : كنت أرجو الرّحمة لجميعهم لولا كوني فيهم ، فانظر إلى الفرق بين الرّجلين هذا يتّقي الله ظاهراً و باطناً وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه و ذلك ربّما يضمر من الرّياء والكبر والحسد والغلّ ما هو ضحكة للشياطين به ثمّ إنّه يمتنّ على الله بعمله ، و من اعتقد جزماً أنّه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله فإنّ الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعّد العبد عن الله ، وحكمه لنفسه بأنّه خيرٌ من غيره جهل محض وأمن من مكر الله تعالى « و لا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون » و لذلك روي أنّ رجلاً ذكر بخير للنبيّ صلى الله عليه وآله فأقبل ذات يوم فقالوا : يا رسول الله هذا الّذي ذكرناه لك ، فقال : إنّي أرى في وجهه سفعة من الشيطان فسلّم و وقف على النبيّ صلى الله عليه وآله و أصحابه ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « أسألك بالله حدّثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك ؟ فقال : اللّهمّ نعم » (١) فرأى رسول الله صلى الله عليه وآله بنور النبوّة ما

(١) أخرجه احمد والبزار و الدار قطني من حديث أنس كما في المغني .

استكنّ في قلبه سفعة في وجهه وهذه آفة لا ينفكّ عنها أحدٌ من العبّاد إلّا من عصمه الله. لكن العلماء والعبّاد في آفة الكبر على ثلاث درجات :

الدرجة الاُولى أن يكون الكبر مستقرّاً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره إلّا أنّه يجتهد و يتواضع و يفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه و هذا قد رسخت في قلبه شجرة الكبر و لكنّه قطع أغصانها بالكلّيّة .

الثانية أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفّع في المجالس والتقدّم على الأقران وإظهار الإنكار على مَن يقصر في حقّه و أدنى ذلك في العالم أن يصعّر خدّه للناس كأنّه معرض عنهم وفي العابد أن يعبس وجهه و يقطب جبينه كأنّه متنزّه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم ، وليس يعلم المسكين أنّ الورع ليس في الجبهة حتّى يقطبها و لا في الوجه حتّى يعبس و لا في الخدّ حتّى يصعر و لا في الرّقبة حتّى يطأطأ ولا في الذيل حتّى يضمّ إنّما الورع في القلوب قال صلى الله عليه وآله : «التقوى ههنا »[1] و أشار إلى صدره ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله أكرم الخلق و أتقاهم و كان أوسعهم خلقاً و أكثرهم بشراً و تبسّماً وانبساطاً ، و لذلك قال الحارث بن جزء الزّبيديّ صاحب رسول الله : يعجبني من القرّاء كلّ طليق مضحاك فأمّا الّذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمنّ عليك بعمله فلا أكثر الله في المسلمين مثله ولو كان الله يرضى ذلك لما قال لنبيّه صلى الله عليه وآله : « و اخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين »[2] و هؤلاء الّذين يظهرون أثر الكبر على شمائلهم و أحوالهم أخفّ حالاً ممّن هو في الرّتبة

الثالثة وهو الّذي يظهر الكبر على لسانه حتّى يدعوه إلى الدّعوى والمفاخرة و المباهاة و تزكية النّفس و حكاية الأحوال و المقامات و التشمير لغلبة الغير في العلم و العمل ، أمّا العابد فإنّه يقول في معرض التّفاخر لغيره من العبّاد : مَن هو و ما عمله ؟ و من أين زهده ، فيطيل اللّسان فيهم بالتنقّص ثمّ يثني على نفسه و يقول : إنّي لم أفطر منذ كذا ولا أنام باللّيل و أختم القرآن كلّ يوم و فلان ينام سحراً ولا يكثر القراءة ، وما يجري مجراه و قد يزكّي نفسه ضمناً فيقول : قصدني

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة و قد تقدم . (٢) الشعراء : ٢١٥ .

فلان بسوء فهلك ولده و اُخذ ماله أو مرض ، ومايجري مجراه هذا يدّعي الكرامة لنفسه ، وأمّا مباهاته فهو أنّه لو وقع مع قوم يصلّون باللّيل قام وصلّى أكثر ممّا كان يصلّي ، و إن كانوا يصبرون على الجوع فيكلّف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر لهم قوّته وعجزهم و كذلك يشتدّ في العبادة خوفاً من أن يقال : غيره أعبد منه وأقوى منه في دين الله ، و أمّا العالم فإنّه يتفاخر و يقول : أنا متفنّن في العلوم ومطّلع على الحقائق رأيت من الشيوخ فلاناً وفلاناً ، ومن أنت ؟ و ما فضلك ومن لقيته و ما الّذي سمعت من الحديث ؟ كلّ ذلك ليصغّره ويعظّم نفسه ، وأمّا مباهاته فهو أنّه يجتهد في المناظرة أن يغلب و لا يغلب و يسهر طول اللّيل والنهار في تحصيل علوم يتجمّل بها في المحافل كالمناظرة والجدل و تحسين العبارة وتسجيع الألفاظ و حفظ العلوم الغريبة ليغرب بها عن الأقران و يتعظّم عليهم ويحفظ الأحاديث وألفاظها وأسانيدها حتّى يردّ على من أخطأ فيها فيظهر فضله و نقصان أقرانه و يفرح مهما أخطأ واحدٌ منهم ليردّ عليه و يسوءه إذا أصاب و أحسن خيفة من أن يرى أنّه أحسن منه و أعظم منه فهذا كلّه أخلاق الكبر و آثاره الّتي يثمرها التعزّز بالعلم والعمل و أين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه ، يا ليت شعري من عرف هذه الأخلاق من نفسه و سمع قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر » (١) كيف يستعظم نفسه و يتكبّر على غيره و رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : هو من أهل النّار و إنّما العظيم من خلا عن هذا ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظّم و تكبّر ، والعالم هو الّذي فهم أنّ الله عزّ وجلّ قال له : إنّ لك عندنا قدراً مالم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لها قدراً فلا قدر لك عندنا ، و من لم يعلم هذا من الدّين فاسم العالم عليه كذب ومن علمه لزمه أن لايتكبّر ولايرى لنفسه قدراً فهذا هو التكبّر بالعلم والعمل.

الثالث التكبّر بالنسب والحسب فالّذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً و علماً و قد يتكبّر بعضهم فيرى أنّ الناس له موال و عبيد و يأنف من مجالستهم و مخالطتهم وثمرته على اللّسان التفاخر به فيقول

(١) تقدم أول هذا الكتاب .

لغيره : يانبطيّ ويا هنديّ ويا روميّ مَن أنت ومن أبوك ؟ وأنافلان بن فلان وأنّى لمثلك أن يكلّمني أو ينظر إليّ و مع مثلي تتكلّم ؟ و ما يجري مجراه و ذلك عرق دفين في النفس لا ينفكّ عنه نسيب وإن كان صالحاً أو عاقلاً إلّا أنّه قدلايترشّح منه عند اعتدال الأحوال ، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته و ترشّح منه كما روي عن أبي ذرّ أنّه قال : قاولت رجلاً عندالنبيّ صلى الله عليه وآله : فقلت له : ياابن السوداء فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « يا أبا ذرّ طف الصّاع طف الصّاع ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضلٌ » قال أبو ذرّ : فاضطجعت و قلت للرّجل : قم فطأ على خدّي » (١) فانظر كيف نبّهه رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه رأى نفسه فضلاً بكونه ابن بيضاء و إنّ ذلك خطأ وجهل فانظر كيف تاب و كيف قلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبّر عليه إذ عرف أنّ العزّ لا يقمعه إلّا الذلّ .

و من ذلك ما روي أنّ رجلين تفاخرا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت لا اُمّ لك ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان حتّى عدّ تسعة ، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام قل للّذي افتخر : كلّ التسعة من أهل النّار وأنت عاشرهم »(٢).

و قال صلى الله عليه وآله : « ليدعنّ قومٌ الفخر بآبائهم و قد صاروا فحماً في جهنّم أو ليكوننّ أهون على الله من الجعلان الّتي تدرف بآنافها القذر »(٣).

الرابع التفاخر بالجمال و ذلك يجري أكثره بين النساء و يدعو ذلك إلى التنقّص والثلب و الغيبة و ذكر عيوب الناس ، و من ذلك ما روي عن عائشة أنّها

(١) قال العراقي : أخرجه ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف ولا حمد من حديثه أن النبي صلى الله عليه و آله قال له : انظر فانك لست بخير من أحمر ولااسود الاتفضله بتقوى راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٨٤ .

(٢) أخرجه عبدالله بن احمد في زوائد المسند من حديث ابي بن كعب بسند موثق كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٨٥ ، و رواه صاحب الجعفريات دون ذكر موسى عليه السلام ص ١٦٤ من حديث علي عليه السلام . وفي الكافي ج ٢ ص٣٢٩ عن أبي‌عبدالله عليه السلام .

(٣) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٦٢٤ وأخرجه ابن ماجه أيضاً .

قالت : دخلت امرأة على النبيّ صلى الله عليه وآله فلمّا خرجت فقلت بيدي - هكذا - أي أنّها قصيرة ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله « قداغتبتها »(١) وهذا منشاؤه خفيّ الكبر لأنّها لوكانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر فكأنّها أعجبت بقامتها و استقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت .

الخامس الكبر بالمال و ذلك يجري بين الملوك في الخزائن ، و بين التجّار في بضائعهم ، و بين الدّهاقين في أراضيهم ، و بين المتجمّلين في لباسهم و خيولهم و مراكبهم فيستحقر الغنيّ الفقير ويتكبّر عليه و يقول له : أنت مكدّ و مسكين وأنالو أردت لاشتريت مثلك و استخدمت من هو فوقك ، و من أنت وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك ، و أنا أنفق في اليوم مالا تأكله في السنة و كلّ ذلك لاستعظامه للغنى ، و استحقاره للفقر و كلّ ذلك جهل منه بآفة الغنى و فضيله الفقر ، و إليه الاشارة بقوله تعالى : « فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً و أعزّ نفراً »(٢) حتّى أجابه وقال : « إن ترن أنا أقلّ منك مالاً وولداً فعسى ربّي أن يؤتين خيراً من جنّتك و يرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً » وكان ذلك تكبّر أمنه بالمال والولد ثمّ بيّن الله عاقبة أمره وهو قوله : « ياليتني لم أشرك بربّي أحداً » (٣) .

ومن ذلك تكبّر قارون إذ قال تعالى : « فخرج على قومه في زينته» حتّى قال قومه : « ياليت لنا مثل ما اُوتي قارون - الآية - » (٤) .

السادس الكبر بالقوّة و شدّة البطش والتكبّر به على أهل الضعف .

السابع التكبّر بالأتباع والأنصار و التلامذة والغلمان و العشيرة والأقارب والبنين ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين ، و بالجملة فكلّ ماهو نعمة و أمكن أن يعتقد كمالاً و إن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبّر به ، حتّى أن المخنّث ليتكبّر على أقرانه بزيادة قدرته ومعرفته

(١) تقدم في آفات اللسان .

(٢) و (٣) الكهف : ٣٣ و ٤٠ . (٤) القصص : ٨٠ .

في صنعة المخنّثين لأنّه يرى ذلك كمالاً فيفتخر به و إن لم يكن فعله إلّا نكالاً ، و كذلك الفاسق قديفتخر بكثرة الشرب و كثرة الفجور بالنّسوان و الغلمان ويتكبّر به لظنّه أنّ ذلك كمال وإن كان مخطئاً فيه .

فهذه مجامع مايتكبّر به العباد بعضهم على بعض فيتكبّر من يدلي بشيء منه على من لايدلي به أوعلى من يدلي بماهو دونه في اعتقاده ، و ربمّا كان مثله أوفوقه عندالله تعالى كالعالم الّذي يتكبّر بعلمه على من هو أعلم منه لظنّه أنّه هو الأعلم و لحسن اعتقاده في نفسه .

✡ (بيان البواعث على التكبّر وأسبابه المهيّجة له) ✡

إعلم أنّ الكبر خلق باطن و أمّا مايظهر من الأخلاق و الأفعال فهي ثمرتها و نتيجتها و ينبغي أن تسمّى تكبّراً و يخصّ اسم الكبر بالمعنى الباطل الّذي هو استعظام النفس و رؤية قدرها فوق قدر الغير ، و هذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الّذي يتعلّق بالمتكبّر كما سيأتي معناه ، فانّه إذا أعجب بنفسه و بعلمه و عمله أو بشيء من أسبابه استعظم نفسه و تكبّر ، و أمّا الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة : سبب في المتكبر ، و سبب في المتكبّر عليه ، وسبب يتعلّق بغيرهما ، أماالسبب الّذي في المتكبّر فهو العجب ، والّذي يتعلّق بالمتكبّر عليه هو الحقد والحسد ، و الّذي يتعلّق بغيرهما هو الرّياء فتصير الأسباب بهذا الإعتبار أربعة : العجب والحقد و الحسد والرّياء .

أمّا العجب فقد ذكرنا أنّه يورث الكبر الباطن والكبر الباطن يثمر التكبّر الظاهر في الأعمال و الأقوال والأحوال .

و أمّا الحقد فانّه قد يحمل على التكبّر من غيرعجب ،كالّذي يتكبّر على من يرى أنّه مثله أو فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب قد سبق منه فأورثه الغضب حقداً و رسخ في قلبه بغضه فهو لذلك لاتطاوعه نفسه أن يتواضع له و إن كان عنده مستحقاً للتواضع فكم من رذل لاتطاوعه النفس على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه ولبغضه له ويحمله ذلك على ردّ الحقّ إذا جاءه من جهته و على الأنفة

من قبول نصحه و على أن يجتهد في التقدّم عليه ، و إن علم أنّه لايستحقّ ذلك وعلى أنّه لايستحلّه و إن ظلمه ، و لا يعتذر إليه و إن جنى عليه ، ولا يسأله ممّا هو جاهل به .

و أمّا الحسد فإنّه أيضاً يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء و سبب يقتضي الغضب و الحقد و يدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحقّ حتّى يمنع من قبول النّصح و تعلّم العلم ، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم و قد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسداً و بغياً عليه ، فهو يعرض عنه و يتكبّر عليه مع معرفته بأنّه يستحقّ التواضع لفضل علمه ولكنّ الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبّرين وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه .

و أمّا الرّياء فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبّرين حتّى أنّ الرّجل ليناظر من يعلم أنّه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولامحاسدة ولاحقد ولكن يمتنع من قبول الحقّ منه ولايتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس : إنّه أفضل منه فيكون باعثه على التكبّر عليه الرّياء المجرّد ولو خلا معه بنفسه لكان لايتكبّر عليه ، وأمّا الّذي يتكبّر بالعجب أو الحسد أو الحقد فيتكبّر أيضاً عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث و كذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذباً وهو يعلم أنّه كاذب ثمّ يتكبّر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب و يترفّع عليه في المجالس و يتقدّم عليه في الطريق ولايرضى بمساواته في الكرامة و التوقير وهو عالم باطناً بأنّه لايستحقّ ذلك ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنّه كاذب في دعوى النسب ولكن يحمله الرّياء على أفعال المتكبّرين و كان اسم المتكبّر إنّما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار وهذا إن سمّي متكبّراً فلأجل التشبّه بأفعال الكبر .

✿ (بيان أخلاق المتواضعين ومجامع مايظهر فيه أثر التواضع والتكبّر) ✿

اعلم أنّ التكبّر يظهر في شمائل الرّجل كصعر في وجهه و نظره شزراً (١)

(١) صعر ـ كعلم ـ وجهه : مال الى أحد الشقين فهو أصعر . وشزر ـ من باب ضرب ـ الرجل و اليه : نظر اليه بجانب عينه مع اعراض أو غضب .

و إطراقه رأسه وجلوسه متربّعاً أومتّكئاً و في أقواله حتّى في صوته ونغمته وصيغته في الايراد ، و يظهر في مشيته و تبختره و قيامه و جلوسه و حركاته و سكناته ، و في تعاطيه لأفعاله ، وفي سائر تقلّباته في أحواله و أقواله وأعماله ، فمن المتكبّرين من يجمع ذلك كلّه و منهم من يتكبّر في بعض و يتواضع في بعض فمنها التكبّر بأن يحبّ قيام الناس له أو بين يديه . و قد قال عليّ عليه السلام : « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد و بين يديه قومٌ قيام ».

وقال : أنس لم يكن شخص أحبَّ إليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وكانوا إذا رأوه لايقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك .

و منها أن لايمشي إلّا ومعه غيره يمشي خلفه . قال : أبوالدرداء لايزال العبد يزداد من الله بعداً مامشي خلفه . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدّم و يمشي في غمارهم » (١) .

و منها أن لايزور غيره و إن كان يحصل من زيارته خيرٌ لغيره في الدّين وهو ضدّ التواضع .

ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلّا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه ، قال أنس : « كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله ولاينزع يده منها حتّى تذهب به حيث شاءت » (٢) .

و منها أن يتوقّى مجالسة المرضى و المعلولين و يتحاشى عنهم ، وهو كبر ، دخل رجلٌ على رسول الله صلى الله عليه وآله و عليه جدريٌ قد تقشّر و عنده ناس من أصحابه يأكلون فماجلس عند أحد إلّا قام من جنبه ، فأجلسه النبيّ صلى الله عليه وآله إلى جنبه (٣) .

---

(١) أخرجه ابومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي امامة بسند ضعيف جداً أنه صلى الله عليه وآله يمشي الى البقيع فتبعه أصحابه فوقف وأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال : « اني سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر ».

وقال : هو منكر وفيه جمع من الضعفاء .

(٢) تقدم سابقاً ج ٤ ص ١٢٩ و رواه ابن ماجه تحت رقم ٤١٧٧ .

(٣) تقدم آنفاً .

و منها أن لايتعاطى بيده شغلاً في بيته والتواضع خلافه.

و منها أن لايأخذ متاعاً و يحمله إلى بيته، و هذا خلاف عادة المتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفعل ذلك[1] وقال: علي عليه السلام: «لا ينقص الرّجل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله. و قال بعضهم: رأيت علياً اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين؟ قال: «لأبوالعيال أحقّ أن يحمل»[2].

و منها اللّباس إذ يظهر به التكبّر و التواضع، وقد قال: رسول الله صلى الله عليه وآله «البذاذة من الإيمان»[3] قيل: هي الدون من اللّباس.

و عوتب علي عليه السلام في إزار مرقوع فقال: «يقتدي به المؤمن و يخشع له القلب»[4]. و قال: عيسى عليه السلام جودة الثياب خيلاء القلب.

و قال: رسول الله صلى الله عليه وآله: «من ترك زينة لله و وضع ثياباً حسنة تواضعاً لله و ابتغاء وجهه كان حقاً على الله أن يدّخر له عبقريّ الجنّة»[5].

فإن قلت: فقدقال: عيسى عليه السلام جوده الثياب خيلاء القلب، وقد سئل نبينا صلى الله عليه وآله عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال: «لا ولكن الكبر من سفه الحقّ و غمص الناس»[6] فكيف طريق الجمع بينهما؟.

فاعلم أنّ الثوب الجيّد ليس من ضرورته أن يكون من التكبّر في حقّ كلّ

---

(١) حديث حمله المتاع الى بيته أخرجه أبويعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل و حمله و قد تقدم في المجلد الرابع.

(٢) البحار ج ٩ ص ٥٢٠ و فيه هكذا.

لاينقص الكامل من كماله ✿ ما جر من نفع الى عياله

(٣) أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي أمامة الحارثي والحاكم في المستدرك أيضاً بسند صحيح كما في الجامع الصغير وأخرجه ابوداود وابن ماجه تحت رقم ٤١١٨.

(٤) أورده الشريف الرضي في النهج أبواب الحكم تحت رقم ١٠٣.

(٥) أخرجه ابوسعيد الماليني في مسند الصوفية، و ابونعيم في الحلية من حديث ابن عباس وفي اسناده نظر كما في المغني.

(٦) تقدم غير مرة وهوحديث ثابت بن قيس الآتي.

أحد في كلّ حال وهو الّذي أشار إليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو الّذي عرّفه رسول الله صلّى الله عليه وآله من حال ثابت بن قيس إذ قال : إنّي امرؤٌ حبّب إليّ من الجمال ماترى فعرّفه أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لاليتكبّر على غيره فإنّه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر ، وقد يكون ذلك من الكبر كما أنّ الرّضا بالثوب الدّون قد يكون من التواضع ، فإذا انقسمت الأحوال ينزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أنّ قوله : خيلاء القلب يعني قد يورث خيلاء في القلب ، وقول نبيّنا صلّى الله عليه وآله : « إنّه ليس من الكبر » يعني أنّ الكبر لايوجبه ، ويجوز أن لايوجبه الكبر ثمّ يكون هو مورثاً للكبر ، وبالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحمود الوسط من اللّباس الّذي لايوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة ، وقد قال صلّى الله عليه وآله : « كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا في غير سرف ولامخيلة »[1] « إنّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده »[2].

و قال بكر بن عبدالله المزنيّ : البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية . و إنّما خاطب بهذا قوماً يطلبون التكبّر بثياب أهل الصلاح .

و قال عيسى عليه السلام : « مالكم تأتوني و عليكم ثياب الرّهبان و قلوبكم قلوب الذّئاب الضواري البسوا ثياب الملوك و أميتوا قلوبكم بالخشية » .

ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سُبّ واُوذي واُخذ حقّه فذلك هو الأفضل ، وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد ، وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله فيه ، فينبغي أن يقتدى به و منه ينبغي أن يتعلّم .

وقد قال أبو سلمة قلت لأبي سعيد الخدريّ : ماترى فيما أحدث الناس من الملبس و المشرب و المركب و المطعم ؟ فقال : يا ابن أخي كل لله ، و اشرب لله ، و البس لله و كلّ شيء من ذلك دخله زهوٌ أو مباهاةٌ أو رياء أو سمعة فهو معصية و سرف ، و عالج

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٦٠٥ والنسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده و قد جعل في المتن هذين الحديثين حديثاً واحداً و هو الصحيح .

في بيتك من الخدمة ماكان رسول الله صلى الله عليه وآله يعالج في بيته كان يعلف الناضح، ويعقل البعير، و يقم البيت، و يحلب الشاة ويخصف النعل، ويرقّع الثوب، ويأكل مع خادمه، و يطحن عنه إذا أعيا، و يشتري الشيء من السوق و لا يمنعه الحياء أن يعلّقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه فينقلب إلى أهله، يصافح الغنيّ و الفقير والصغير و الكبير و يسلّم مبتدئاً على كلّ من استقبله من صغير أو كبير، أسود أو أحمر، حرّ أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حلّة لمدخله و حلّة لمخرجه، لايستحي من أن يجيب إذا دعي و إن كان أشعث أغبر، ولا يحقر مادعي إليه و إن لم يجد إلّا حشف الدّقل، لايرفع غداء لعشاء ولاعشاء لغداء، هيّن المؤونة لين الخلق كريم الطبيعة، جميل المعاشرة طليق الوجه، بسّاماً من غير ضحك محزوناً من غير عبوس، شديداً في غير عنف، متواضعاً في غير مذلّة، جواداً من غير سرف، رحيماً بكلّ ذي قربى، قريباً من كلّ ذمّي و مسلم، رقيق القلب، دائم الإطراق، لم يبشم قطّ من شبع، ولايمدّ يده إلى طمع، قال أبوسلمة: قد خلت على عائشة فحدّثتها كلّ هذا عن أبي سعيد، فقالت: ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر إذ ما أخبرك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يمتلي قطّ شبعاً ولم يبثّ إلى أحد شكوى وأن كانت الفاقة أحبّ إليه من اليسار والغنى و أن كان ليظلّ جائعاً يلتوي ليلته حتّى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولوشاء أن يسال ربّه فيؤتى بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارقها ومغاربها لفعل، و ربّما بكيت رحمة له ممّا اُوتي من الجوع فأمسح بطنه بيدي فأقول: نفسي لك الفداء لوتبلّغت من الدّنيا بقدر مايقوتك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: ياعائشة إخواني من أولي العزم من الرّسل قد صبروا على ماهو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربّهم فأكرم مآبهم و أجزل ثوابهم فأجدني أستحي أن ترفّهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم، فأصبر أيّاماً يسيرة أحبّ إليّ من أن ينقص حظّي غداً في الآخرة، وما من شيء أحبّ إليّ من اللّحوق بإخواني و أخلّائي، فقالت عائشة: فوالله مااستكمل بعد ذلك جمعة حتّى قبضه الله تعالى» (١).

(١) قال العراقي: لم أقف له على اسناد. أقول: يوجد بعض فصوله في الاخبار متفرقاً عن غير أبي سلمة راجع المجلد الرابع وسنن ابن ماجه كتاب الزهد ومجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣١٢.

فما نقل من أخلاقه صلى الله عليه وآله يجمع جملة أخلاق المتواضعين ، فمن طلب التواضع فليقتد به و من رأى نفسه فوق محلّه صلى الله عليه وآله ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشدّ جهله فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله أعظم خلق الله تعالى منصباً في الدّنيا والدّين ، فلا عزّ ولا رفعة إلّا في الاقتداء به ولذلك لمّا عوتب بعض الصحابة في بذاذة هيئته قال : إنّا قوم أعزّنا الله تعالى بالإسلام فلانطلب العزّ في غيره .

وقال أبو الدّرداء : إعلم أنّ لله عباداً يقال لهم : الأبدال ، خلف من الأنبياء ، هم أوتاد الأرض فلمّا انقضت النبوّة أبدل الله تعالى مكانهم قوماً من أمّة محمّد صلى الله عليه وآله لم يفضّلوا الناس بكثرة صلاة ولا صوم ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع و حسن النيّة و سلامة الصدر لجميع المسلمين و النصح لهم ابتغاء مرضات الله بصبر من غير تجبّن ، وتواضع في غير مذلّة ، وهم قوم اصطفاهم الله تعالى واستخلصهم لنفسه وهم أربعون صدّيقاً أوثلاثون رجلاً قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرّحمن عليه السلام لايموت الرّجل منهم حتّى يكون الله تعالى قد أنشأمن يخلفه . واعلم يا أخي أنّهم لايلعنون شيئاً ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحداً ولا يحرصون على الدّنيا هم أطيب الناس خيراً ، وألينهم عريكة ، وأسخاهم نفساً ، علامتهم السخاء ، و سجيّتهم البشاشة ، وصفتهم السلامة ، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر ، وهم فيما بينهم و بين ربّهم لاتحرّكهم الرّياح العواصف ولا الخيل المجراة ، قلوبهم تصعد ارتياحاً إلى الله و اشتياقاً إليه و قدماً في استباق الخيرات « أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون » فقال الرّاوي : فقلت : يا أبا الدّرداء ما سمعت بصفة أشدّ عليّ من هذه الصفة و كيف لي أن أبلغها ؟ فقال : مابينك وبين أن تكون في أوسعها إلّا أن تكون تبغض الدّنيا ، فانّك إذا أبغضت الدّنيا أقبلت على حبّ الآخرة و بقدر حبّك للآخرة تزهد في الدّنيا ، وقدر ذلك تبصر ما ينفعك ، فاذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد ، و اكتنفه بالعصمة ، واعلم يا ابن أخي أنّ ذلك في كتاب الله المنزل « إنّ الله مع الّذين اتّقوا والّذين هم محسنون » وقال يحيى بن كثير : فنظرنا في ذلك فما تلذّذ المتلذّذون

بمثل حبّ الله تعالى و طلب مرضاته .

✿ (بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع) ✿

إعلم أنّ الكبر من المهلكات ولا يخلو أحدٌ من الخلق عن شيء منه وإزالته فرض عين ولايزول بمجرد التمنّي بل بالمعالجة و استعمال الأدوية القامعة له و في معالجته مقامان أحدهما استئصال أصله من سنخه(١) وقلع شجرته من مغرسها في القلب، و الثاني دفع العارض منه بالأسباب الخاصّة الّتي بها يتكبّر الإنسان على غيره .

المقام الأوّل في استئصال أصله وعلاجه علميٌ وعمليٌ ولا يتمّ الشفاء إلّا بمجموعهما .

أمّا العلميّ فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربّه ويكفيه ذلك في إزالة الكبر فإنّه مهما عرف نفسه حقّ المعرفة علم أنّه أذلّ من كلّ ذليل و أقلّ من كلّ قليل بذاته ، وأنّه لايليق به إلّا التواضع والذلّة و المهانة و إذا عرف ربّه علم أنّه لاتليق العظمة و الكبرياء إلّا بالله ، أمّا معرفته ربّه وعظمته و مجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم الصدّيقين ، أمّا معرفته نفسه فكذلك أيضاً يطول ولكنّا نذكر منه ماينفع في اثارة التواضع و المذلّة و يكفيه أن يعرف معنى آية واحدة من كتاب الله تعالى فانّ في القرآن علم الأوّلين و الآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال : « قتل الانسان ماأكفره ✿ من أيّ شيء خلقه ✿ من نطفة خلقه فقدّره ✿ ثمّ السبيل يسّره ✿ ثمّ أماته فأقبره ✿ ثمّ إذاشاء أنشره »(٢) فقد أشارت الآية إلى أوّل خلق الانسان وإلى آخر أمره و إلى وسطه فلينظر الانسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أمّا أوّل الانسان فهو أنّه لم يكن شيئاً مذكوراً وقد كان ذلك في كتم العدم دهوراً بل لم يكن لعدمه أوّل فأيّ شيء أخسّ و أقلّ من المحو و العدم ، وقد كان كذلك في القدم ، ثمّ خلقه الله تعالى من أرذل الأشياء ، ثمّ من أقذرها إذخلقه من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة ، ثمّ جعله عظماً ثمّ كسى العظام لحماً ، فقد كان هذا بداية وجوده حيث صار شيئاً مذكوراً ، فما صار مذكوراً إلّا و هو على أخسّ الأوصاف و النعوت إذلم يخلق في ابتدائه كاملاً بل خلقه جماداً ميتاً لايسمع ولايبصر ولايحس

(١) اى أصله و منبته . (٢) عبس ١٧ الى ٢٢ .

ولايتحرّك ولاينطق ولايبطش ولايدرك ولا يعلم ، فبدأ بموته قبل حيوته ، و بضعفه قبل قوّته ، وبجهله قبل علمه ، وبعماه قبل بصره ، وبصممه قبل سمعه ، وببكمه قبل نطقه ، و بضلالته قبل هداه ، وبفقره قبل غناه ، وبعجزه قبل قدرته فهذا معنى قوله تعالى « من أيّ شيء خلقه ۞ من نطفة خلقه فقدّره » ومعنى قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً ۞ إنّا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه » (١) كذلك خلقه أوّلاً ، ثمّ امتنّ عليه فقال : « ثمّ السبيل يسّره » و هذه إشارة إلى ما تيسّر له في مدّة حياته إلى الموت و لذلك قال : « من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ۞ إنّا هديناه السبيل » و معناه إنّه أحياه بعد أن كان جماداً ميتاً تراباً أوّلاً و نطفة ثانياً و أسمعه بعد ماكان أصمّ و بصّره بعد ماكان فاقد البصر ، وقوّاه بعد الضعف ، و علّمه بعد الجهل ، و خلق له الأعضاء بما فيها من العجائب و الآيات بعد الفقد لها ، وأغناه بعد الفقر ، و أشبعه بعد الجوع ، و كساه بعد العرى ، وهداه بعد الضلال ، فانظر كيف دبّره وصوّره و إلى السبيل كيف يسّره ، وإلى طغيان الانسان ما أكفره ، وإلى جهل الانسان كيف أظهره ، فقال تعالى : « أو لم ير الانسان أنّا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين »(٢) « و من آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون » (٣) فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك القلّة و الذّلّة والخسّة والقذارة إلى هذه الرّفعة والكرامة ، فصار موجوداً بعد العدم ، وحيّاً بعد الموت ، وناطقاً بعد البكم ، و بصيراً بعد العمى ، و قويّاً بعد الضعف ، و عالماً بعد الجهل ، و مهديّاً بعد الضلالة ، و قادراً بعد العجز ، و غنيّاً بعد الفقر ، فكان في ذاته لاشيء و أيّ شيء أخسّ من لاشيء و أيّ قلّة أقلّ من العدم المحض ، ثمّ صار بالله شيئاً و إنّما خلقه من التراب الذّليل والنطفة القذرة بعد العدم المحض ليعرّفه خسّة ذاته فيعرف به نفسه وإنّما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربّه ويعلم بها عظمته و جلاله ، وأنّه لايليق الكبرياء إلّا به و لذلك امتنّ

---

(١) الدهر : ١ و ٢ . (٢) يس : ٧٧ .

(٣) الروم : ٢٠ .

عليه فقال تعالى : «ألم نجعل له عينين ✿ ولساناً وشفتين ✿ وهديناه النجدين»[1] وعرّفه خسّته أوّلاً فقال : «ألم يك نطفة من منيّ يمنى ✿ ثمّ كان علقة - ثمّ ذكر منّته عليه فقال : - فخلق فسوّى ✿ فجعل منه الزّوجين الذكر والأنثى»[2] ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده ابتداء بالاختراع ، فمن كان هذا بدؤه و هذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر و الخيلاء وهو على التحقيق أخسّ الأخسّاء ، و أضعف الضعفاء نعم لو أكمله و فوّض إليه أمره و أدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى و ينسى المبدء و المنتهى و لكنّه سلّط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة و الآفات المختلفة و الطبايع المتضادة من المرّة و البلغم و الرّيح و الدّم يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى ، رضي أم سخط ، فيجوع كرهاً و يعطش كرها ، ويمرض كرهاً و يموت كرهاً ، لايملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا خيراً ولا شرّاً ، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلايغفل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى مايهمّه فيجول في أودية الوساوس و الأفكار بالاضطرار فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه ، و يشتهي الشيء وربّما يكون هلاكه فيه ويكره الشيء وربّما تكون حياته فيه ، يستلذّ الأطعمة فتهلكه وترديه ، ويستبشع الأدوية و هي تنفعه و تحييه ، لايأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه و بصره و علمه و قدرته ، وتفلج أعضاؤه ، و يختلس عقله ، ويختطف روحه ، و يسلب جميع مايهواه في دنياه ، فهو مضطرّ ذليل ، إن ترك مابقي ، و إن اختطف فني ، عبدٌ مملوكٌ لايقدر على شيء من نفسه ولا من غيره ، فأيّ شيء أذلّ منه لو عرف نفسه و أنّى يليق الكبر به لولا جهله ؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمّله ، وأمّا آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: «ثمّ أماته فأقبره ✿ ثمّ إذا شاء أنشره» و معناه أنّه يسلب روحه و سمعه و بصره وعلمه و قدرته و حسّه وإدراكه و حركته فيعود جماداً كما كان أوّل مرّة لايبقى إلّا شكل أعضائه و صورته لاحسّ فيه ولاحركة ، ثمّ يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأوّل نطفة

(١) البلد : ٩ الى ١١. (٢) القيامة : ٣٨ الى ٤٠.

مَذِرة ثمّ تبلى أعضاؤه وصورته وتتفتّت أجزاؤه وتنخر عظامه ، فيصير رميماً و رفاتاً ، ويأكل الدّود أجزاءه فيبتدي بحد قتيه فيقلعهما ، و بخدّيه فيقطعهما ، و بسائر أجزائه فيصير روثاً في أجواف الديدان ، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كلّ إنسان ، ويهرب منه لشدّة الانتان ، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير تراباً يعمل منه الكيزان ويعمر منه البنيان ، فيصير مفقوداً بعدما كان موجوداً ، و صار كأن لم يغن بالأمس حصيداً كما كان أوّل أمره أمداً مديداً .

وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك تراباً لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شدائد البلاء ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرّقة ، و يخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة ، و سماء ممزّقة مشقّقة ، و أرض مبدّلة ، و جبال مسيّرة ، و نجوم منكدرة ، و شمس منكسفة ، و أحوال مظلمة ، و ملائكة غلاظ شداد ، و جحيم تزفر ، وجنّة ينظر إليها المجرم فيتحسّر ، ويرى صحائف منشورة فيقال له : اقرأ كتابك ، فيقول : و ما هو ؟ فيقال : كان قد وكّل بك في حياتك الّتي كنت تفرح بها وتتكبّر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل و كثير و نقير وقطمير و أكل و شرب و قيام و قعود وقد نسيت ذلك و أحصاه الله عليك ، فهلمّ إلى الحساب واستعدّ للجواب أو تساق إلى دار العذاب فيتقطّع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب من قبل أن تنشر الصحف ويشاهد ما فيها من مخازيه فإذا شاهدها قال : « يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها » فهذا آخر أمره وهو معنى قوله عزّ وجلّ : « ثمّ إذا شاء أنشره » فما لمن هذه حاله والتكبّر والتعظّم ؟! بل ماله وللفرح في لحظة واحدة فضلاً عن البطر والتجبّر ، فقد ظهر له أوّل حاله ووسطه ولو ظهر آخره - والعياذ بالله - ربّما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً ، و إن كان عند الله مستحقّاً للنار فالخنزير أشرف منه و أطيب و أرفع إذ أوّله التراب و آخره التراب و هو بمعزل عن الحساب والعذاب ، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق و لو رأى أهل الدّنيا العبد المذنب في النّار لصعقوا من وحشة خلقته و قبح

صورته ، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ولو وقعت قطرة من شرابه الّذي يسقى منه في بحار الدّنيا لصارت أنتن من الجيف فمن هذا حاله في العاقبة - إلّا أن يعفو عنه و هو على شكّ من العفو - فكيف يفرح و يبطر ؟ و كيف يتكبّر و يتجبّر ؟ و كيف يرى نفسه شيئاً حتّى يعتقد لها فضلاً ؟ وأيّ عبد لم يذنب ذنباً استحقّ به العقوبة إلّا أن يعفو الكريم بفضله ، أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحقّ به ألف سوط فحبس في السجن و هو منتظر أن يخرج إلى العرض و تقام عليه العقوبة على ملاء من الخلق وليس يدري أيعفى عنه أم لا كيف يكون ذلّه في السجن أفترى أنّه يتكبّر على من معه في السّجن ؟! و ما من عبد مذنب إلّا والدّنيا سجنه وقد استحقّ العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون أمره فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً و إشفاقاً ومهانة وذلّاً فهذا هو العلاج العلميّ القامع لأصل الكبر .

وأمّا العلاج العمليّ فهو التواضع لله تعالى بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه و حكيناه من أحوال الصالحين و من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى أنّه كان يأكل على الأرض ويقول : « إنّما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » (١). و قيل لسلمان : لم لا تلبس ثوباً جديداً فقال : إنّما أنا عبد فإذا اعتقت يوماً لبست . أشار به إلى العتق في الآخرة .

ولا يتمّ التواضع بعد المعرفة إلّا بالعمل و لذلك اُمر العرب الّذين تكبّروا على الله و رسوله بالإيمان و بالصّلاة جميعاً . و قيل : الصّلاة عماد الدّين وفي الصّلاة أسرار لأجلها كانت عماداً و من جملة ما فيها التواضع بالمثول قائماً و بالرّكوع و السجود ، و قد كانت العرب قديماً يأنفون من الانحناء فكان ربّما يسقط من يد أحد سوطه فلا ينحني لأخذه ، و ينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه ، حتّى قال حكيم بن حزام : بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله على أن لا أخرّ إلّا قائماً فبايعه النبيّ صلى الله عليه وآله على ذلك ثمّ فقه و كمل إيمانه بعد ذلك » (٢) فلمّا

(١) تقدم في باب سيرته في المأكل والمشرب وكتاب آداب المعيشة .
(٢) أخرجه أحمد مقتصراً يعني الى قوله : « أن لا أخر الا قائماً » و فيه ارسال خفي» (المغني) .

كان السجود عندهم هو منتهى المذلّة والضعة اُمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ، و يزول به كبرهم ، ويستقرّ التواضع في قلوبهم ، واُمر به سائر الخلق فإنّ الرّكوع والسجود والمثول قائماً هو العمل الّذي يقتضيه التواضع ، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كلّ ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضها حتّى يصير التواضع له خلقاً فإنّ القلوب لا تتخلّق بالأخلاق المحمودة إلّا بالعلم والعمل جميعاً وذلك لخفاء العلاقة بين القلب والجوارح و سرّ الارتباط الّذي بين عالم الملك و عالم الملكوت ، والقلب من عالم الملكوت .

المقام الثّاني فيما يعرض من التكبّر بالأسباب السبعة المذكورة ، وقد ذكرنا في كتاب ذمّ الجاه أنّ الكمال الحقيقيّ هو العلم والعمل فأمّا ما عداه ممّا يفنى بالموت فكمال وهميّ فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبّر ولكنّا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة .

السبب الأوّل : النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين : أحدهما أنّ هذا جهل من حيث أنّه تعزّز بكمال غيره ولذلك قيل :

لئن فخرت بآباء ذوي شرف ٭ لقد صدقت ولكن بئس ماولدوا

فالمتكبّر بالنسب إن كان خسيساً في صفات ذاته فمن أين يجبر خسّته بكمال غيره ، بل لو كان الّذي ينتسب إليه حيّاً لكان له أن يقول : الفضل لي ومن أنت إنّما أنت دودة خلقت من بولي ، أفترى أنّ الدّودة الّتي خلقت من بول إنسان أشرف من الدّودة الّتي من بول فرس ؟ هيهات بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدّودة .

الثاني هو أن يعرف نسبه الحقيقيّ فيعرف أباه و جدّه ، فإنّ أباه القريب نطفة قذرة وجدّه البعيد تراب ذليل و قد عرّفه الله تعالى نسبه فقال : « الّذي أحسن كلّ شيء خلقه و بدأ خلق الإنسان من طين ٭ ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين » (١) فمن أصله من التّراب المهين الّذي يداس بالأقدام ثمّ خمّر طينه حتّى

(١) السجدة : ٧ و ٨ والمهين الضعيف و« نسله » أي ذريته بالنسل لانها تنسل منه أي تنفصل .

صار حمأ مسنوناً كيف يتكبّر، و أخسّ الأشياء ماإليه نسبه إذ يقال : يا أذلّ من التراب و يا أنتن من الحمأ و يا أقذر من المضغة ، فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول : افتخر بالقريب دون البعيد ، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب فليحتقر نفسه بهما ، ثمّ إن كان ذلك يوجب رفعة بالأب لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته ، فإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرّفعة لولده فإذن أصله من التراب و فصله من النطفة ، فلاأصل له ولا فصل له و هذه غاية خسّة النسب والأصل يوطأ بالأقدام والفصل تغسل منه الأبدان . فهذا هو النسب الحقيقيّ للإنسان و من عرفه لم يتكبّر بالنسب ، و يكون مثاله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم و قد أخبره بذلك والداه فلم تزل فيه نخوةالشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدولٌ لا يشكّ في قولهم أنّهابن هنديّ حجّام يتعاطى القاذورات و كشفوا له وجهالتلبيس عليه فلم يبق له شكّ في صدقهم أفترى أنّ ذلك يبقى شيئاً من كبره لابل يصير عند نفسه أحقر الناس و أذلّهم فهو من استشعار الخزي لخسّته في شغل عن أن يتكبّر على غيره ، فهذه حال البصير إذا تفكّر في أصله وعلمأنّه من النطفة والمضغة والتراب ، إذ لوكان أبوه ممّن يتعاطى نقل التراب أويتعاطىالدّم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسّة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدّم فكيف إذا عرف أنّه في نفسه من التراب والدّم والأشياء القذرة الّتي يتنزّه عنها هو فينفسه .

السّبب الثّاني : الكبر بالجمال و دواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم و مهما نظر إلى باطنه رأى من الفضايح ما يكدر عليه التعزّز بجماله ، فإنّه وكّل به الأقذار فيجميع أجزائهالرّجيع فيأمعائه ، والبول في مثانته ، والمخاط في أنفه ، و البصاق في فيه . والوسخ في اُذنه والدّم في عروقه ، والصديد تحتبشرته ، والصنان تحت إبطه[1] يغسلالغائط كلّ يومدفعةأو دفعتين بيده يتردّدإلىالخلاء كلّ يوممرّةأومرّتينليخرج منباطنه مالو رآه بعينهلاستقذره فضلاً

(١) الصنان ـ بضم الصاد المهملة ـ : ذفرالابط ، والنتنعموماً .

عن أن يمسّه أو يشمّه كلّ ذلك يعرف قذارته و ذلّه هذا في حال توسّطه و في أوّل أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور من النطفة و دم الحيض و أخرج من مجاري الأقذار إذ خرج من الصلب ، ثمّ من الذّكر مجرى البول ، ثمّ من الرّحم مفيض دم الحيض ، ثمّ خرج من مجرى القذر ، هذا أوّله و وسطه ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهّدها بالتنظيف و الغسل لثارت منه الأنتان والأقذار و صار أقذر و أنتن من الدّواب المهملة الّتي لاتتعهّد نفسها قطّ ، فإذا نظر أنّه خلق من أقذار وأسكن في أقذار و سيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار لم يفتخر بجماله الّذي هو كخضراء الدّمن وكلون الأزهار في البوادي ، فبينما هو كذلك إذا صار هشيماً تذروه الرّياح ، كيف ولوكان جماله باقياً وعن هذه القبايح خالياً لكان يجب أن لايتكبّر به على القبيح إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه ولا كان جمال الجميل إليه حتّى يحمد عليه ، كيف ولابقاء له بل هو في كلّ حال يتصوّر أن يزول بمرض أوجدري أو قرحة أو سبب من الأسباب ، فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأمّلها .

السبب الثالث التكبّر بالقوّة والأيدي ويمنعه من ذلك أن يعلم ماسلّط عليه من العلل و الأمراض و أنّه لو توجّع عرق واحد من بدنه لصار أعجز من كلّ عاجز و أذلّ من كلّ ذليل ، وأنّه لوسلبه الذّباب شيئاً لم يستنقذه منه ، و أنّ بقّة لو دخلت في أنفه أونملة دخلت في اُذنه لقتلته ، وأنّ شوكة لودخلت رجله لأعجزته وأنّ حمّى يوم تحلّل من قوّته مالاينجبر في مدّة فمن لايطيق شوكة ولايقاوم بقّة ولايقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلاينبغي أن يفتخر بقوّته ، ثمّ إنّ قوى الانسان لايكون أقوى من حمار أو فيل أو جمل أو بقر وأيّ افتخار في صفة تسبقك البهائم فيها .

السبب الرابع و الخامس الغنى و كثرة المال و في معناه كثرة الأتباع والأنصار و التكبّر بولاية السلاطين و التمكّن من جهتهم ، و كلّ ذلك تكبّر بمعنى خارج عن ذات الانسان كالجمال والقوّة و العلم ، و هذا أقبح أنواع الكبر فإنّ المتكبّر بماله كأنّه متكبّر بفرسه وداره ولومات فرسه و انهدمت داره لعاد ذليلاً

والمتكبّر بتمكين السلطان و ولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشدّ غلياناً من القدر، فإن تغيّر عليه كان أذلّ الخلق و كلّ متكبّر بأمر خارج من ذاته فهو ظاهر الجهل كيف و المتكبّر بالغنى لو تأمّل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى و الثروة و التجمّل، فأفّ لشرف يسبقك اليهود به، و أفّ لشرف يأخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً، فهذه أسباب ليست في ذاته، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة و بال و نكال فالتفاخر به غاية الجهل، و كلّ ما ليس إليك فليس لك و شيء من الأمور ليس إليك بل إلى واهبها[1] إن أبقاها بقيت وإن استرجعها زالت عنك وما أنت إلّا عبدٌ مملوك لا تقدر على شيء، فمن عرف ذلك فلا بدّ أن يزول كبره و مثاله أن يفخر الغافل بقوّته و جماله و ماله و حرّيته و استقلاله وسعة منازله و كثرة خيوله و غلمانه إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنّه رقيق لفلان و أنّ أبويه كانا مملوكين له فعلم ذلك و حكم به الحاكم فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يديه وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه في أمواله و تقصيره في طلب مالكه ليعرف أنّ له مالكاً، ثمّ نظر العبد فرأى نفسه محبوساً في منزل قد أحدقت به الحيّات والعقارب و الهوامّ وهو في كلّ حال على وجل من كلّ واحدة منها وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقاً في الخلاص البتّة، أفترى أنّ من هذه حاله هل يفتخر بقدرته و ثروته و ماله و قوّته و كماله؟ أم يذلّ في نفسه و يخضع؟ و هذا حال كلّ عاقل بصير فإنّه يرى نفسه كذلك فإنّه لا يملك رقبته وبدنه و أعضاءه و ماله وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض و أسقام هي كالعقارب والحيّات يخاف منها الهلاك فمن هذه حاله لا يتكبّر بقدرته و قوّته إذ يعلم أنّه لا قدرة له ولا قوّة.

فهذا طريق علاج التكبّر بالأسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبّر بالعلم والعمل فإنّهما كمالان في النفس جديران بأن يفرح بهما ولكن في التكبّر بهما

(١) كذا. والضمائر راجع الى الامور. و في الاحياء «الى واهبه» وكذا الضمائر التي تأتي.

أيضاً نوع من الجهل خفي كما سنذكره .

السبب السادس الكبر بالعلم وهذا أعظم الآفات و أغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلّا بشدّة شديدة وجهد جهيد ، و ذلك لأنّ قدر العلم عظيم عندالله ، عظيم عند الناس ، وهو أعظم من قدر المال و الجمال و غيرهما بل لاقدر لهما أصلاً إلّا إذا كان معهما علم و علم ، و لذلك قيل : العلم طغيان كطغيان الماء ، و قيل : العالم إذا زلّ زلّ بزلّته عالم كثير . فيعجز العالم عن أن لايستعظم نفسه بالاضافة إلى الجاهل لكثرة مانطق الشرع بفضائل العلم ، ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلّا بمعرفة أمرين أحدهما أن يعلم أنّ حجّة الله على أهل العلم آكد و أنّه يحتمل من الجاهل مالايحتمل عشره من العالم وأنّه عصى الله عن معرفة وعلم فجنايته أفحش إذ لم يقض حقّ نعمة الله عليه في العلم و لذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرّحا فيطيف أهل النّار فيقولون : مالك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولاآتيه و أنهى عن الشرّ و آتيه [1] » .

وقد مثّل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولايعمل بالحمار و الكلب فقال : « مثل الّذين حمّلوا التورية ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » [2] أراد به علماء اليهود . و قال تعالى في بلعم بن باعورا : « واتل عليهم نبأ الّذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ۞ ولوشئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض و اتّبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » [3] أي سواء آتيته الحكمة أولم اُوته فلا يدع شهوته ، فيكفي العالم هذا الخطر فأيّ عالم لم يتبع شهوته و أيّ عالم لم يأمر بالخير الّذي لايأتيه ، فمهما خطر للعالم عظم قدره بالاضافة إلى الجاهل فليتفكّر في الخطر العظيم الّذي هو بصدده فإنّ خطره أعظم

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد من حديث اسامة بن زيد بلفظ « يجاء بالرجل و تقدم في العلم .

(٢) الجمعة : ٥ . (٣) الاعراف : ١٧٤ و ١٧٥ .

من خطر غيره كما أنّ قدره أعظم من قدر غيره فهذا بذلك ، وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنّه إذا اُخذوقهر اشتهى أن يكون قدكان فقيراً ، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهّال و العياذ بالله فهذا الخطر يمنع التكبّر لأنّه إن كان من أهل النّار فالخنزير أفضل منه فكيف يتكبّر من هذا حاله ، فلا ينبغي أن يكون العالم أكبر عند نفسه من الصحابة ؟ و قد كان بعضهم يقول : ياليتني لم تلدني أمّي ، و يأخذ الآخر تبنة من الأرض و يقول : ياليتني كنت هذه التبنة ، و يقول الآخر : ياليتني كنت طيراً ، كلّ ذلك خوفاً من خطر العاقبة فكانوا يرون أنفسهم أسوء حالاً من الطير ومن التراب ومهما أطال فكره في الخطر الّذي هو بصدده زال بالكلّية كبره و رأى نفسه كأنّه شرّ الخلق . و مثاله مثال عبد أمره سيّده بأُمور فشرع فيها و ترك بعضها و أدخل النقصان في بعضها و شكّ في بعضها أنّه هل أدّاها كما يرتضيه مولاه أم لا فأخبر مخبر أنّ مولاه مرسل إليه رسولاً يخرجه من كلّ ماهو فيه عرياناً ذليلاً ويلقيه على بابه في الشمس والحرّ زماناً طويلاً حتّى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به الجهد أمر برفع حسابه و فتّش عن جميع أعماله قليلها و كثيرها ثمّ أمر به إلى سجن ضيق و عذاب دائم لايروح عنه ساعة ، وقد علم أنّ سيّده قدفعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفى عن بعضهم وهو لايدري في أيّ الفريقين يكون فإذا تفكّر في ذلك انكسرت نفسه و ذلّ وبطل عزّه و كبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبّر على أحد من الخلق بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب ، فكذلك العالم إذا تفكّر فيما ضيّعه من أوامر ربّه بجنايات على جوارحه و بذنوب في باطنه من الرّياء و الحقد و الحسد و العجب و النفاق و غيره وعلم بمّاهو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لامحالة .

الأمر الثاني أنّ العالم يعلم أنّ الكبر لايليق إلّا بالله جلّ وعزّ وحده وأنّه إذا تكبّر صار ممقوتاً عندالله بغيضاً وقد أحبّ الله منه أن يتواضع و قال له : إنّ لك عندي قدراً مالم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لنفسك قدراً فلاقدر لك عندي فلابدّ أن يكلّف نفسه مايحبّ مولاه منه فهذا يزيل التكبّر عن قلبه وإن كان يستيقن أنّه لاذنب له

مثلاً إن تصوّر ذلك و بهذا زال الكبر عن الأنبياء إذ علموا أنّ من نازع الله في رداء الكبرياء قصمه وقد أمرهم بأن يصغّروا أنفسهم حتّى يعظم عندالله محلّهم ، فهذا أيضاً ممّا يبعثه على التواضع لامحالة .

فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق و للمبتدع ؟ و كيف يرى نفسه دونهم و هو عالم عابد ؟ و كيف يجهل فضل العلم و العبادة عندالله عزّ وجلّ ؟ و كيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أنّ خطر الفاسق و المبتدع أكثر؟

فاعلم أنّ ذلك إنّما يمكن بالتفكّر في خطر الخاتمة ، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبّر عليه إذ يتصوّر أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان و يضلّ هذا العالم فيختم له بالكفر، والكبير من هو كبير عندالله في الآخرة و الكلب والخنزير أعلى رتبة ممّن هو عندالله من أهل النّار و هو لايدري ذلك ، فالعواقب مطويّة عن العباد ولا ينظر العاقل إلّا إلى العاقبة و جميع الفضائل في الدّنيا إنّما تراد للعاقبة فإذن من حقّ العبد أن لايتكبّر على أحد ، بل إن نظر إلى جاهل قال : إنّه عصى الله بجهل و أنا عصيت الله بعلم فهو أعذر منّي ، وإن نظر إلى عالم فيقول : إنّه قد علم مالم أعلم فكيف أكون مثله ، و إن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنّاً قال : هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله ، و إن نظر إلى صغير قال : إنّي عصيت الله قبله فكيف أكون مثله ، و إن نظر إلى مبتدع أو كافر قال : ما يدريني لعلّه يختم له بالإسلام و يختم لي بماهو عليه الآن فليس دوام الهداية إليّ كما لم يكن ابتداؤها إليّ فبملاحظة الخاتمة يقدر أن ينفي الكبر عن نفسه و كلّ ذلك بأن يعلم أنّ الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله لافيما يظهر في الدّنيا ممّا لابقاء له ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبّر و المتكبّر عليه ولكن حقّ على كلّ واحد أن يكون مصروف الهمّ إلى نفسه ، مشغول القلب بخوفه لعاقبته لا أن يشتغل بخوف غيره ،فإنّ الشفيق بسوء الظنّ مولع وشفقة كلّ إنسان على نفسه ، فإذا حبس جماعة في جناية و أو عدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرّغوا لتكبّر بعضهم على بعض وإن عمّهم الخطر ، اذ شغل كلّ واحد منهم همّ نفسه عن الالتفات إلى همّ غيره حتّى كان كلّ

واحد هو وحده في مصيبته و خطره .

فإن قلت : فكيف لاأبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد اُمرت ببغضهما ثمّ مع ذلك أتواضع لهما ؟ والجمع بينهما متناقض ؟ فاعلم أنّ هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق إذيمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال بالعلم و الورع ، فكم من عابد جاهل و عالم مغرور إذا رأى فاسقاً جلس بجنبه أزعجه من عنده و تنزّه عنه بكبر باطن في نفسه وهوظانّ أنّه قد غضب لله كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم ، و ذلك لأنّ الكبر على المطيع ظاهر كونه شرّاً و الحذر عنه ممكن و الكبر على الفاسق و المبتدع يشبه الغضب لله و هو خير فإنّ الغضبان أيضاً يتكبّر على من غضب عليه و المتكبّر يغضب و أحدهما يثمر الآخر و يوجبه وهما ممتزجان ملتبسان لايميز بينهما إلّا الموفّقون ، و الّذي يخلّصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أوالفاسق إذا أمرتها بالمعروف و نهيتها عن المنكر ثلاثة اُمور :

أحدها التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك و خطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك .

والثاني أن تكون ملاحظتك لماأنت متميّز به من العلم واعتقاد الحقّ والعمل الصالح من حيث أنّها نعمة من الله عليك فله المنّة فيه لالك فترى ذلك منه حتّى لاتعجب بنفسك و إذا لم تعجب لم تتكبّر .

و الثالث ملاحظة إبهام عاقبتك و عاقبته أنّه ربما يختم له بالخير و يختم لك بالسوء حتّى يشغلك الخوف عن التكبّر عليه .

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول : تغضب لمولاك وسيّدك إذ أمرك بأن تغضب لا لنفسك و أنت في غضبك لاترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة ، و أعرفك ذلك بمثال لتعلم أنّه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبّر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره ، فأقول : إذا كان للملك غلامٌ

وولدٌ هو قرّة عينه وقد وكّل الغلام بالولد ليراقبه وأمره بأن يضربه مهما أساء أدبه ، واشتغل بما لايليق به ويغضب عليه ، فإن كان الغلام مطيعاً محبّاً لمولاه فلا يجد بدّاً من أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب ، وإنّما يغضب عليه لمولاه ولأنّه يريد التقرّب بامتثال أمره إليه ، ولأنّه جرى من ولده مايكره مولاه فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبّر له عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه لأنّ الولد أعزّ لامحالة من الغلام فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبّر و عدم التواضع ، فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع و الفاسق و تظنّ أنّه ربما كان قدرهما عندالله في الآخرة أعظم لما سبق لهما من الحسنى في الأزل و لما سبق لك من سوء القضاء في الأزل و أنت غافلٌ عنه و مع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبّة لمولاك إذا جرى مايكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عندالله أقرب منك في الآخرة فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضمّ إليه الخوف والتواضع ، وأمّا المغرور فإنّه يتكبّر ويرجو لنفسه أكثر ممّا يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة و ذلك غاية الغرور فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه و مجانبته بحكم الأمر .

السّبب السّابع التكبّر بالورع والعبادة و ذلك أيضاً فتنةٌ عظيمة على العبّاد ، و سبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أنّ من يتقدّم عليه بالعلم لاينبغي أن يتكبّر عليه كيف ماكان لما عرفه من فضيلة العلم وقد قال الله تعالى « هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لايعلمون » (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » (٢) إلى غير ذلك ممّا ورد في فضل العالم ، فإن قال : العابد ذلك لعالم العامل بعلمه وهذا عالم فاجر ؟ فيقال له : أما علمت أنّ الحسنات يذهبن السيئات وكما أنّ العلم يمكن أن يكون حجّة على العالم فيمكن أن يكون وسيلة له و كفّارة لذنوبه و كلٌّ واحد منهما ممكن ، وقد وردت

---

(١) الزمر : ٩ .

(٢) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ١٥٧ من حديث أبي امامة الباهلي و قد تقدم في كتاب العلم .

الأخبار بما يشهد لذلك وإذا كان هذا الأمر غائباً عنه لم يجز له أن يحتقر عالماً بل يجب عليه أن يتواضع له.

فإن قلت: فإن صحّ هذا فينبغي أن يكون العالم يرى نفسه فوق العابد بقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»؟ فاعلم أنّ ذلك ممكن لو علم العالم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشدّ من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هيّناً وهو عند الله عظيم وقد مقته به وإذا كان هذا ممكناً كان على نفسه خائفاً فإذا كلّ واحد من العالم والعابد خائف على نفسه وقد كلّف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حقّ نفسه الخوف وفي حقّ غيره الرّجاء وذلك يمنعه من التكبّر بكلّ حال، فهذا حال العابد مع العالم فأمّا مع غير العالم فهم منقسمون في حقّه إلى مستورين وإلى مكشوفين فينبغي أن لا يتكبّر على المستور فلعلّه أقلّ منه ذنباً وأكثر منه عبادة وأشدّ منه حبّاً لله. وأمّا المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذّنوب إلّا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبّر عليه ولا يمكن أن تقول هو أكثر منّي ذنباً لأنّ عدد ذنوبك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتّى تعلم الكثرة من القلّة، نعم يمكن أن يعلم أنّ ذنوبه أشدّ كما لو رأيت منه القتل والشرب والزنا، ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبّر عليه، إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرّياء والغلّ واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله وتخيّل الخطأ فيه كلّ ذلك شديد عند الله، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذّنوب ما صرت به عند الله ممقوتاً، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حبّ الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه وقد كفّر بذلك سيّئاته فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً عندك، وإن كنت مشفقاً على نفسك فلا تتفكّر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقّك فإنّه لا تزر وازرة وزر اُخرى وعذاب غيرك لا يخفّف شيئاً من عذابك فإذا تفكّرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن

التكبّر و عن أن ترى نفسك فوق غيرك ، وقد قال وهب بن منبّه : ما تمّ عقل عبد حتّى تكون فيه عشر خصال فعدّ تسعة حتّى بلغ العاشرة فقال : العاشرة وما العاشرة بها ساد مجده وبها علا ذكره أن يرى الناس كلّهم خيراً منه وإنّما الناس عنده فرقتان فرقة هي أفضل منه و أرفع و فرقة هي شرّ منه و أدنى فهو يتواضع للفرقتين جيماً بقلبه إن رأى من هو خير منه سرّه و تمنّى أن يلحق به . وإن رأى من هو شرّ منه قال : لعلّ هذا ينجو و اُهلك أنا فلا يراه شرّاً منه خائفاً من العاقبة ، و يقول : لعلّ برّ هذا باطن فذلك خير له ، ولا أدري لعلّ فيه خُلق كريم بينه و بين الله فيرحمه الله و يتوب عليه و يختم له بأحسن الأعمال و برّي ظاهر فذلك شرّ لي لا آمن فيما أظهر من الطاعة أن تكون دخلها الآفات فأحبطتها ، ثمّ قال : فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه فهذا كلامه ، و بالجملة من جوّز أن يكون عند الله شقيّاً وقد سبق القضاء الأزليّ بشقوته فماله سبيل إلى أن يتكبّر بحال من الأحوال ، نعم إذا غلبه الخوف رأى كلّ أحد خيراً من نفسه و ذلك هو الفضيلة كما روي أنّ عابداً أوى إلى جبل فقيل له في النوم : ائت فلاناً الاسكاف فسله أن يدعو لك فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنّه يصوم النهار و يكتسب و يتصدّق ببعضه ويطعم عياله ببعضه فرجع وهو يقول : إنّ هذا لحسن ولكن ليس هذا كالتفرّغ لطاعة الله فأتى في النوم ثانياً فقيل : له ائت الاسكاف فقل له : ما هذا الصفار الّذي بوجهك فأتاه فسأله ، فقال له : ما رأيت أحداً من الناس إلّا وقع لي أنّه سينجو و اُهلك أنا ، فقال العابد بهذه .

و الّذي يدلّ على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى : « و الّذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم و جلة » (١) اي يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها .

و قال : « إنّ الّذين هم من خشية ربّهم مشفقون » (٢) .

و قال : « إنّا كنّا قبل في أهلنا مشفقين » (٣) وقد وصف الله الملائكة مع تقدّسهم عن الذّنوب و مواظبتهم على العبادات على الدّؤوب بالاشفاق فقال : « يسبّحون

---

(١) المؤمنون : ٦٢ . (٢) المؤمنون : ٥٩ .

(٣) الطور : ٢٧ .

اللّيل و النهار لا يفترون » (١) « و هم من خشيته مشفقون » (٢) فمتى زال الاشفاق والحذر ممّا سبق به القضاء في الأزل و ينكشف عند خاتمة الأجل غلب الأمن من مكر الله و ذلك يوجب الكبر و هو سبب الهلاك ، فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك ، والتواضع دليل الخوف وهو مسعد ، فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنّظر إليهم بعين الاستصغار أكثر ممّا يصلحه بظاهر الأعمال ، فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لاغير ، إلّا أنّ النّفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة فإذا وقعت الواقعة عادت النّفس إلى طبعها و نسيت وعدها فمن هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرّد المعرفة بل ينبغي أن يكمل المعرفة بالعمل و يجرّب نفسه بأعمال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النّفس و بيانه أن يمتحن النّفس بخمس امتحانات هي أدلّة على استخراج ما في الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة .

الامتحان الاوّل أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه فإن ظهر شيء من الحقّ على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه و تعريفه و إخراجه الحقّ فذلك يدلّ على أنّ فيه كبراً دفيناً فليتّق الله فيه و ليشتغل بعلاجه إمّا من حيث العلم فبأن يذكّر نفسه خسّة نفسه و خطر عاقبته و أنّ الكبر لا يليق إلّا بالله تعالى ، و إمّا من حيث العمل فبإن يكلّف نفسه ما يثقل عليه من الاعتراف بالحقّ فيطلق اللّسان بالحمد والثّناء و يقرّ على نفسه بالعجز و يشكره على الاستفادة و يقول : ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نبّهتني له فالحكمة ضالّة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دلّه عليها ، فإذا واظب على ذلك مرّات متواليه صار ذلك له طبعاً وسقط ثقل الحقّ عن قلبه و طاب له قبوله ، و مهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة و يثقل في الملأ فليس فيه كبر و إنّما فيه رياء فليعالج الرّياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن النّاس و يذكّر القلب بأن منفعته

(١) الانبياء : ٢١ . (٢) الانبياء : ٢٩ .

في كماله في ذاته و عندالله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرّياء و إن ثقل عليه ذلك في الخلوة والملأ جميعاً ففيه الكبر والرّياء جميعاً ولاينفعه الخلاص من أحدهما مالم يتخلّص من الثاني فليعالج كلا الدّاءين فإنّهما جميعاً مهلكان .

الامتحان الثاني أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل و يقدّمهم على نفسه و يمشي خلفهم و يجلس في الصّدور تحتهم ، فإن ثقل ذلك عليه فهو متكبّر فليواظب عليه تكلّفاً حتّى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر، و ههنا للشيطان مكيدة و هي أن يجلس في صفّ النّعال أو يجعل بينه و بين الأقران بعض الأرذال فيظنّ أنّ ذلك تواضع وهو عين الكبر فإنّ ذلك يخفّ على نفوس المتكبّرين إذ يوهمون أنّهم إنّما تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضّل فيكون قدتكبّر ، وتكبّر باظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغي أن يقدّم أقرانه و يجلس تحتهم ولاينحطّ عنهم إلى صفّ النعال فذلك هو الّذي يخرج خبث الكبر من الباطن .

الامتحان الثالث أن يجيب دعوة الفقير و يمرّ إلى السّوق في حاجة الرّفقاء والأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر فإنّ هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل فنفور النّفس عنها ليس إلّا لخبث في الباطن فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكّر جميع ما ذكرناه من المعارف الّتي تزيل داء الكبر .

الامتحان الرّابع أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله و رفقائه من السّوق إلى البيت فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أورياء فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلوّ الطريق فهو كبر فإن كان لا يثقل إلّا عند مشاهدة الناس فهو رياء ، و كلّ ذلك من أمراض القلب و علله المهلكة له إن لم تتدارك . .

أقول: ليس كلّ رياء مذموماً بل قد يكون مستحبّاً بل واجباً إذ يجب على المؤمن صيانة عرضه وأن لا يفعل ما يعاب عليه فلا يليق بذوي المروّات أن يرتكبوا الامور الخسيسة بأنفسهم عند مشاهدة الناس وإن جاز لهم في الخلوة إلّا أنّ ذلك يختلف باختلاف الأزمنة والبلاد والأشخاص فلابدّ من مراعاةذلك روي في الكافي(١)

(١) المصدر ج ٢ ص ١٢٣ تحت رقم ١٠ .

عن الصّادق عليه السلام « أنّه نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً و هو يحمله فلمّا رآه الرّجل استحيى منه فقال عليه السلام : اشتريته لعيالك وحملته إليهم أما والله لولا أهل المدينة لأحببت أن أشتري لعيالي الشيء ثمّ أحمله إليهم » أراد عليه السلام لولا مخافة أن يعيبوا على ذلك ، مع أنّ جدّه أمير المؤمنين عليه السلام كان يفعل مثله إلّا أنّه لمّا لم يعيبوا عليه بمثله في زمانه وفي شأنه جازله أن يرتكبه وكان منقبة له و تعليماً .

قال أبوحامد : و قد أهمل النّاس طبّ القلوب واشتغلوا بطبّ الأجساد مع أنّ الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة والقلوب لا تدرك السعادة إلّا بسلامتها إذ قال الله تعالى : « إلّا من أتى الله بقلب سليم »(١).

و يروى عن عبدالله بن سلام أنّه حمل حزمة حطب فقيل له : يا أبا يوسف قد كان في غلمانك و بنيك من يكفيك ، قال : أجل ولكن أردت أن اُجرّب نفسي هل تنكر ذلك ، فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتّى جرّبها أهي صادقة أم كاذبة وفي الخبر « من حمل الفاكهة أو الشيء فقدبرىء من الكبر »(٢).

الامتحان الخامس أن يلبس ثياباً بذلة فإنّ نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء و في الخلوة كبرٌ ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من اعتقل البعير و لبس الصوف فقد بريء من الكبر »(٣).

و قال صلى الله عليه وآله : « إنّما أنا عبد آكل بالأرض و ألبس الصّوف وأعقل البعير وألعق أصابعي واُجيب دعوة المملوك فمن رغب عن سنّتي فليس منّي »(٤).

---

(١) الشعراء : ٩٠ .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الايمان من حديث أبي امامة بسند ضعيف كما في الجامع الصغير وفي لفظه « من حمل سلعته » .

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي اسناده القاسم اليمري ضعيف جداً كما في المغني .

(٤) مضمون مأخوذ من جملة من الاحاديث و ليس هو حديث واحد . راجع سنن ابن ماجه وغيره باب الكبر و باب الزهد وقد مر في كتاب أخلاق النبوة .

و هذه مواضع يجتمع فيها الرّياء والكبر فما يختصّ بالملأ فهو الرّياء و ما يكون في الخلوة فهو الكبر ، فليعرف فإنّ مَن لا يعرف الشرّ لا يتّقيه و من لا يدرك المرض لا يداويه .

✿(بيان غاية الرّياضة في خلق التواضع)✿

إعلم أنّ هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان و واسطة فطرفه الّذي يميل إلى الزيادة يسمّى تكبّراً و طرفه الّذي يميل إلى النقصان يسمّى تخاسساً و مذلّة والوسط يسمّى تواضعاً والمحمود أن يتواضع في غير مذلّة و من غير تخاسس ، فإنّ كلا طرفي قصد الاُمور ذميمٌ وأحبّ الاُمور إلى الله تعالى أوساطها فمن يتقدّم على أمثاله فهو متكبّر و من يتأخّر عنهم فهو متواضع أي أنّه وضع شيئاً من قدره الّذي يستحقّه والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحّى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثمّ تقدّم وسوّى له نعله و غدا إلى الباب خلفه فقد تخاسس وتذلّل وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند الله العدل و هو أن يعطي كلّ ذي حقّ حقّه ، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأمثاله و لمن يقرب منه درجته ، فأمّا تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام و الرّفق في السؤال و إجابة دعوته و السعي في حاجته و أمثال ذلك ، و أن لا يرى نفسه خيراً منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره و هو لا يعرف خاتمة أمره و خاتمته ، فإذن سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران و لمن دونهم حتّى يخفّ عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه ، فإن خفّ عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع و إن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلّف لا متواضع ، بل الخُلق مايصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير رويّة ، فإن خفّ ذلك و صار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتّى أحبّ التملّق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن يذلّ نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الّذي هو الصراط المستقيم و ذلك غامضٌ في هذا الخلق و سائر الأخلاق والميل عن الوسط إلى طرف النقصان و هو التملّق أهون من الميل إلى طرف الزّيادة بالتكبّر كما أنّ الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند

الناس من الميل إلى طرف البخل ، فنهاية التبذير و نهاية البخل مذمومان و أحدهما أفحش من الآخر ، وكذلك نهاية التكبّر و نهاية التبصبص[1] والتذلّل مذمومان و أحدهما أقبح من الآخر والمحمود المطلق هو العدل و وضع الأمور في مواضعها ، و على ما يجب و على ما يعرف من ذلك بالشرع والعادة ولنقتصر على هذا من بيان خلق الكبر .

☼(الشطر الثاني من الكتاب في العُجْب)☼

وفيه بيان ذمّ العُجْب وآفته ، و بيان حقيقة العُجْب والإدلال وحدّهما ، و بيان علاج العجب على الجملة ، و بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه .

☼(بيان ذم العُجْب و آفته)☼

إعلم أنّ العجب مذموم في كتاب الله تعالى و سنّة نبيّه محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم قال الله تعالى : « و يوم حُنَين إذ أعجبتكم كثرتكم »[2] و ذكر ذلك في معرض الإنكار .

و قال الله تعالى : « و ظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله فأتيهم الله من حيث لم يحتسبوا »[3] فردّ على الكفّار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم .

و قال تعالى : « وهم يَحْسبون أنّهم يُحْسنون صنعاً »[4] و هذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل و قد يعجب الإنسان بعمل هو مخطىء فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه .

و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ثلاثٌ مهلكات شُحٌّ مطاعٌ وهوًى مُتَّبَع وإعجاب المرء بنفسه »[5].

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمّة فقال : « إذا رأيت شحّاً مطاعاً و هوى مُتَّبعاً وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه فعليك نفسك »[6].

---

(١) في الاحياء « نهاية التنقص » .

(٢) التوبة : ٢٦ .　(٣) الحشر : ٢ .

(٤) الكهف : ١٤٠ .　(٥) قد مر عن البيهقي رواه في الشعب .

(٦) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه و قد تقدم .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك : العجب العجب » [١].

و قال ابن مسعود : « الهلاك في اثنتين القنوط والعجب » و إنّما جمع بينهما لأنّ السعادة لاتنال إلّابالسعي والطلب والجدّ والتشمّر ، والقانط لايسعى ولا يطلب والمعجب يعتقد أنّه قد سعد و ظفر بمراده فلا يسعى والموجود لا يطلب والمحال لا يطلب والسّعادة في اعتقاد المعجب حاصلة له و مستحيلة في اعتقاد القانط فبهذاجمع بينهما و قد قال تعالى : « فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى » [٢] .

قال ابن جريج : معناه إذا عملت خيراً فلا تقل عملت . و قال زيدبن أسلم : لا تبرّوها أي لا تعتقدوا أنّها بارّة ، وهو معنى العجب .

و قال تعالى : « لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى » [٣] والمنّ نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هوالعجب فظهر من هذا أنّ العجب مذموم جدّاً .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي باسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « إنّ الله تعالى علم أنّ الذّنب خيرٌ للمؤمن من العجب ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب أبداً » [٤].

و عنه عليه السلام قال : « من دخله العجب هلك » [٥].

و عنه عليه السلام قال : « إنّ الرّجل ليذنب الذّنب فيندم عليه ويعمل العمل فيسرّه ذلك فيتراخى عن حاله تلك فلأن يكون على حاله تلك خيرٌ له ممّا دخل فيه » [٦].

و عنه عليه السلام قال : « أتى عالم عابداً فقال له : كيف صلاتك ؟ فقال : مثلي يسأل عن صلاته ؟! وأنا أعبدالله منذ كذا و كذا ، قال : فكيف بكاؤك ؟ قال : أبكي حتّى تجري دموعي ، فقال العالم : إنّ ضحكك وأنت خائفٌ أفضل من بكائك وأنت مدلٌ

(١) أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أنس وقال العراقي : فيه سلام بن أبي الصهباء ، قال البخاري : منكر الحديث أقول : وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد و قال : رواه البزار من حديث أنس باسناد جيد .

(٢) النجم : ٣٤ . (٣) البقرة : ٢٦٦ .

(٤) الى (٦) المصدر ج ٢ ص ٣١٣ رقم ١ و٢ و٤ .

إنّ المدلّ لا يصعد من عمله شيء »[1].

و عن أحدهما عليهما السلام قال : « دخل رجلان المسجد أحدهما عابدٌ والآخر فاسق فخرجا من المسجد والفاسق صدّيق [2] والعابد فاسق ، و ذلك أنّه يدخل العابد المسجد مدلاً بعبادته يدلّ بها فتكون فكرته في ذلك و تكون فكرة الفاسق في الذّم على فسقه و يستغفر الله ممّا صنع من الذّنوب » .

و عنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : بينما موسى عليه السلام جالس إذ أقبل إبليس و عليه برنس ذو ألوان فلمّا دنا منه خلع البرنس و قام إلى موسى عليه السلام فسلّم عليه فقال له موسى عليه السلام : من أنت فقال : أنا إبليس ، قال : أنت فلا قرّب الله دارك [3] قال : إنّي إنّما جئت لاُسلّم عليك لمكانك من الله تعالى قال : فقال له موسى عليه السلام : فما هذا البرنس ؟ قال : أختطف به قلوب بني آدم[4] فقال له موسى : فأخبرني بالذّنب الّذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه [5] فقال : إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه »[6].

و قال : قال الله تعالى لداود عليه السلام : « يا داود بشّر المذنبين و أنذر الصدّيقين قال : كيف اُبشّر المذنبين واُنذر الصدّيقين ؟ قال : يا داود بشّر المذنبين أنّي أقبل التوبة و أعفو عن الذّنب ، وأنذر الصدّيقين ألّا يعجبوا بأعمالهم فإنّه ليس عبد أنصبه للحساب إلّا هلك »[7].

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٣١٣ تحت رقم ٥ والمدل : المنبسط المسرور الذي لاخوف له من التقصير في العمل .

(٢) أي مؤمن صادق في ايمانه كثير الصدق والتصديق قولا و فعلا . و الخبر في الكافي ج ٢ ص ١١٤ رقم ٦ .

(٣) أي لا قربك الله تعالى منا أو من أحد .

(٤) أي استلب به قلوب الادميين و كأن الالوان في البرنس كانت صورة شهوات الدنيا و زينتها .

(٥) استحواذ الشيطان على بني آدم : غلبته واستمالته الى مايريد منه .

(٦) و (٧) الكافي ج ٢ ص ٣١٤ تحت رقم ٨ .

وفي مصباح الشريعة (١) قال الصادق عليه السلام: «العجب كلّ العجب ممّن يعجب بعمله وهو لا يدري بما يختم له فمن أعجب بنفسه و فعله فقد ضلّ عن نهج الرّشاد و ادّعى ما ليس له والمدّعي من غير حقّ كاذبٌ وإن خفي دعواه و طال دهره. فإنّه أولى ما يفعل بالمعجب نزع ما أعجب به ليعلم أنّه عاجزٌ فقيرٌ و يشهد على نفسه لتكون الحجّة عليه أوكد كما فعل بإبليس، والعجب نبات حبّها الكفر، و أرضها النفاق، و ماؤها البغي، و أغصانها الجهل، و ورقها الضّلالة، و ثمرها اللّعنة و الخلود في النّار، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر و زرع النفاق، و لابدّ من أن يثمر».

﴿ بيان آفات العجب ﴾

إعلم أنّ آفات العجب يدعو إلى الكبر لأنّه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولّد من العجب الكبر و من الكبر الآفات الكثيرة الّتي لا تحصى. هذا مع العباد فأمّا مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذّنوب و إهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقّدها لظنّه أنّه مستغن عن تفقّدها فينساها و ما يتذكّره منها فيستصغره و لا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه و تلافيه، بل يظنّ أنّه يغفر له. و أمّا العبادات والأعمال فإنّه يستعظمها ويتبجّح بها ويمنّ على الله بفعلها، و ينسى نعمة الله عليه بالتوفيق و التمكين منها، ثمّ إذا أعجب بها عمي عن آفاتها، و من لم يتفقّد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضايعاً، فإنّ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقيّة عن الشوائب قلّما تنفع و إنّما يتفقّد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب و المعجب يغترّ بنفسه و بربّه و يأمن مكر الله وعذابه ويظنّ أنّه عندالله بمكان وأنّ له عندالله منّة وحقّاً بأعماله الّتي هي نعمة من نعمه وعطيّة من عطاياه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه و يحمدها و يزكّيها، فإن أعجب برأيه و علمه و عقله منعه ذلك من الاستفادة و من الاستشارة والسؤال فيستبدّ بنفسه و برأيه و يستنكف من سؤال من هو أعلم منه، و ربّما يعجب بالرأي الخطأ الّذي خطر له فيفرح بكونه

(١) الباب الاربعين.

من خواطره ولا يفرح بخاطر غيره فيصرّ عليه ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال و يصرّ على خطائه فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقّق فيه وإن كان في أمر ديني لا سيّما فيما يتعلّق بأُصول العقائد فيهلك به ، و لواتّهم نفسه و لم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن ، و استعان بعلماء الدّين ، و واظب على مدارسة العلم ، و تابع سؤال أهل البصيرة ، لكان ذلك يوصله إلى الحقّ فهذا و أمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات و من أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنّه أنّه قد فاز واستغنى و هو الهلاك الصريح الّذي لا شبهة فيه .

(بيان حقيقة العُجب والإدلال وحدّهما)

إعلم أنّ العجب إنّما يكون بوصف هو كمال لا محالة و للعالم بكمال نفسه في علم و عمل و مال وغيره حالتان إحداهما أن يكون خائفاً على زواله ، مشفقاً على تكدّره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب ، والأُخرى أن لا يكون خائفاً من زواله لكن يكون فرحاً به من حيث أنّه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه و هذا أيضاً ليس بمعجب ، وله حالة ثالثة هي العجب وهو أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحاً به مطمئناً إليه و يكون فرحه به من حيث أنّه كمال ونعمة و رفعة و خير لا من حيث أنّه عطية من الله تعالى و نعمة منه فيكون فرحه به من حيث أنّه صفته و منسوب إليه بأنّه له لا من حيث أنّه منسوب إلى الله بأنّه منه فمهما غلب على قلبه أنّه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه ، فإذن العجب هو إعظام النعمة والرّكون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم فإن انضاف إلى ذلك إن غلب على نفسه أنّ له عند الله حقّاً وأنّه منه بمكان حتّى يتوقّع بعمله كرامة له في الدّنيا واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعاداً يزيد على استبعاده ما يجري على الفسّاق سمّي هذا إدلالاً بالعمل فكأنّه يرى لنفسه على الله دالّة وكذلك قد يعطي غيره شيئاً فيستعظمه و يمنّ عليه فيكون معجباً فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلّفه عن قضاء حقوقه كان مدلّاً عليه .

قال قتادة في قوله تعالى : «و لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِر»[١]: أي لاتدلّ بعملك . و في الخبر «أنّ صلاةالمدلّ لا ترفع فوق رأسه»[٢] و لأن تضحك و أنت معترف بذنبك خير من أن تبكي و أنت مدلّ بعملك ، والإدلال وراء العجب فلا مدلّ إلّا و هو معجب ، وربّ معجب لايدلّ إذالعجب يحصل بالاستعظام ونسيان النّعمةدون توقّع جزاء عليه والإدلال لا يتمّ إلّا مع توقّع جزاء ، فإن توقّع إجابة دعوته و استنكر ردّها بباطنه و تعجّب منها كان مدلّاً بعمله فإنّه لا يتعجّب من ردّ دعاء الفسّاق و يتعجّب من ردّ دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب و الإدلال و هو من مقدّمات الكبر و أسبابه .

أقول: و في الكافي عن عليّ بن سويد عن أبي الحسن عليه السلام قال : سألته عن العجب الّذي يفسد العمل فقال : «العجب درجات منها أن يزيّن للعبد سوء عمله فيراه حسناً و يحسب أنّه يحسن صنعاً ، و منها أن يؤمن العبد بربّه فيمنّ على الله و لله عليه فيه المنّة»[٣].

✿ (بيان علاج العجب على الجملة) ✿

إعلم أنّ علاج كلّ علّة هومقابلة سببها بضدّها وعلّة العجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفةالمضادّة لذلك الجهل فقط ، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبدكالعبادة والصدقة و الغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم ، فإنّ العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال و القوّة و النسب و مالا يدخل تحت اختياره ولايراه من نفسه فنقول : الورع والتقوى والعبادة والعمل الّذي به يعجب إمّا أن يعجب به من حيث أنّه فيه وهو محلّه و مجراه أو من حيث أنّه منه وبسببه و قدرته و قوّته فإن كان يعجب به من حيث أنّه فيه وهومحلّه ومجراه ، يجري فيه و عليه من جهة غيره فهذا جهل لأنّ المحلّ مسخّر ومجرى لامدخل له في الإيجاد و التحصيل فكيف يعجب

(١) المدثر : ٧ .

(٢) قال العراقي : لم أجدله أصلا . وفي النهاية «مدلاأي منبسطا لا خوف عليه» .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٣١٣ .

بما ليس إليه و إن كان يعجب به من حيث هو منه و إليه و باختياره حصل وبقدرته و قوّته تمّ ، فينبغي أن يتأمّل في قدرته و إرادته و أعضائه و سائر الأسباب الّتي بها تمّ عمله أنّها من أين كانت له ، فإن كان علم أنّ جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حقّ سبق له و من غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله تعالى و كرمه وفضله إذ أفاض عليه مالايستحقّه وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فمهما برز الملك لغلمانه و نظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لالصفة فيه ولالوسيلة ولالجمال ولالخدمة فينبغي أن يتعجّب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه و إيثاره له من غير استحقاق فإعجابه بنفسه من أين وما سببه ولاينبغي أن يعجب هو بنفسه نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك حكم عدل لايظلم ولايقدّم ولايؤخّر إلّالسبب فلولاأنّه تفطن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة لما آثرني بها فيقال : و تلك الصفة هي أيضاً من خلعة الملك و عطيته الّتي خصّصك بها من غيرك من غير وسيلة أوهي عطيّة غيره ، فإن كانت من عطيّة الملك أيضاً لم يكن لك أن تعجب بها بل كان كما لو أعطاك فرساً فلم تعجب به فأعطاك غلاماً فصرت تعجب به و تقول إنّما أعطاني غلاماً لأنّي صاحب فرس و أمّا غيري فلافرس له ، فيقال : وهو الّذي أعطاك الفرس ، فلا فرق بين أنّ يعطيك الفرس و الغلام معاً أو يعطي أحدهما بعد الآخر ، فإذا كان الكلّ منه فينبغي أن يعجبك جوده و فضله لانفسك ، وأمّا إن كانت تلك الصفة من غيره فلايبعد أن تعجب بتلك الصفة و هذا يتصوّر في حقّ الملوك و لا يتصوّر في حقّ الجبّار ملك الملوك ، المنفرد باختراع الجميع ، المتفرّد بإيجاد الموصوف و الصفة ، فإنّك إن أعجبت بعبادتك و قلت وفّقني للعبادة لحبّي له فيقال : ومن خلق الحبّ في قلبك ؟ فستقول : هو ، فيقال : فالحبّ و العبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لاوسيلة لك ولا علاقة فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك و وجود صفاتك و بوجود أعمالك و أسباب أعمالك فإذا لا معنى لعجب العابد بعبادته ، وعجب العالم بعلمه ، و عجب الجميل بجماله ، و عجب الغنيّ بغناه لأنّ كلّ ذلك من فضل الله

و إنّما هو محلّ لفيضان فضل الله وجوده و المحلّ أيضاً من جوده و فضله .

فان قلت : لايمكنني أن أجهل أعمالي ؟ و إنّي أنا عملتها و إنّي أنتظر عليها ثواباً ولولا أنّها عملي لما انتظرت الثواب فان كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب وإن كانت الأعمال منّي وبقدرتي فكيف لا أعجب بها ؟.

فاعلم أنّ جوابك من وجهين : أحدهما وهو صريح الحقّ و الآخر فيه مساحمة .

أمّا صريح الحقّ فهو أنّك وقدرتك وإرادتك و حركتك و جميع ذلك من خلق الله و اختراعه فما عملت إذ عملت و ما صلّيت إذ صلّيت ، قال الله تعالى : «و ما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى »[1] هذا هو الحقّ الّذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إبصار العين ، بل خلقك ، و خلق أعضاءك ، و خلق فيها القوّة والقدرة و الصحّة ، و خلق لك العقل و العلم ، و خلق لك الإرادة ولو أردت أن تنفي شيئاً من ذلك عن نفسك لم تقدر عليه ، ثمّ خلق الحركات في أعضائك مستبدّاً باختراعه من غير مشاركة له من جهتك معه في الاختراع إلّا أنّه خلقها على ترتيب فلم يخلق الحركة مالم يخلق في العضو قوّة و في القلب إرادة ولم يخلق إرادة مالم يخلق علماً بالمراد ، ولم يخلق العلم مالم يخلق القلب الّذي هو محلّ العلم فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الّذي خيّل إليك أنّك أوجدت عملك وقد غلطت ، وإيضاح ذلك وكيفيّة الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتي تقريره في كتاب الشكر فانّه أليق به فارجع إليه ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الّذي فيه مساحمة مّا .

وهو أن تحسب أنّ العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ولا يتصوّر العمل إلّا بوجودك و بوجود علمك و إرادتك و قدرتك و سائر أسباب عملك وكلّ ذلك من الله تعالى لامنك ، فان كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه و هذا المفتاح بيد الله تعالى ومهمالم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل ، فالعبادات خزائن بها يتوصّل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لامحالة ، أرأيت أنّك لورأيت خزائن الدّنيا مجموعة في قلعة حصينة و مفتاحها بيد خازن ولو جلست على بابها

(١) الانفال : ١٧ .

و حول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار ممّا فيها و لو أعطاك المفتاح لأخذته من قرب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلّطك عليها ومكّنك منها فمددت اليد وأخذتها أكان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مدّ اليد إليه وأخذه ؟ فلا تشكّ في أنّك ترى ذلك نعمة من الخازن لأنّ المؤونة في تحريك اليد إليه لأخذ المال قريبة وإنّما الشأن كلّه في تسليم المفاتيح فكذلك مهما خلقت القدرة وسلّطت الإرادة الجازمة و حرّكت الدّواعي و البواعث و صرفت عنك الموانع والصوارف حتّى لم يبق صارف إلّا دفع ولا باعث إلّا وكّل بك فالعمل هيّن عليك ، وتحريك البواعث و صرف العوائق و تهيئة الأسباب كلّها من الله تعالى ليس شيء منها إليك فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب ممّن إليه الأمر كلّه ولا تعجب بجوده و فضله و كرمه في إيثاره إيّاك على الفسّاق من عباده إذ سلّط دواعي الفساد على الفسّاق و صرفها عنك وسلّط أقران السوء و دعاة الشرّ عليهم و صرفهم عنك و مكّنهم من أسباب الشهوات و اللّذات و زواها عنك و صرف عنهم بواعث الخير و دواعيه و سلّطها عليك حتّى تيسّر لك الخير و تيسّر لهم الشرّ ، فعل ذلك كلّه بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي بل آثرك وقدّمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي و أشقاه بعدله فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك فإذن لا تنصرف قدرتك إلى المقدور إلّا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلاً إلى مخالفتها فكأنّه الّذي اضطرّك إلى الفعل إن كنت فاعلاً تحقيقاً فله الشكر والمنّة لا لك . وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكّل من بيان تسلسل الأسباب والمسبّبات ما تستبين به أنّه لا فاعل إلّا الله ولا خالق سواه ، و العجب ممّن يتعجّب إذا رزقه الله عقلاً و أفقره ممّن أفاض الله عليه المال من غير علم فيقول : كيف منعني قوت يومي و أنا العاقل الفاضل وأفاض عليه نعيم الدّنيا وهو الجاهل الغافل حتّى يكاد يرى هذا ظلماً ولا يدري المغرور أنّه لو جمع له بين العقل و المال جميعاً لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال إذ يقول الجاهل الفقير : يا ربّ لم جمعت له بين العقل والغنى و منعتني و حرمتني منهما ؟ فهلّا جمعتهما لي ؟ و هلا رزقتني أحدهما ؟ و إلى هذا

أشار عليّ عليه السلام حيث قيل له: مابال العقلاء فقراء؟ فقال: «إنّ عقل الرّجل محسوب عليه من رزقه» والعجب أنّ العاقل الفقير ربّما يرى الجاهل الغنيّ أحسن حالاً من نفسه ولو قيل له: هل تؤثر جهله وغناه عوضاً من عقلك وفقرك لامتنع عنه فإذن ذلك يدلّ على أنّ نعمة الله عليه أكبر فلم يتعجّب منه والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحليّ و الجواهر على الدّميمة القبيحة فتتعجّب وتقول: كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزّينة و يخصّص به مثل هذا القبيح ولا تدري المغرورة أنّ الجمال محسوب عليها من رزقها وأنّها لو خيّرت بين الجمال مع الفقر وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال فإذاً نعمة الله عليها أكبر. وقول الحكيم العاقل الفقير بقلبه يارب لم حرمتني الدّنيا وأعطيتها الجهّال كقول من أعطاه الملك فرساً فيقول: أيّها الملك لم لاتعطيني الغلام وأنا صاحب فرس فيقول: كنت لاتتعجّب من هذا لو لم أعطك الفرس فهب أنّي ماأعطيتك فرساً أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجّة تطلب بها نعمة اُخرى فهذه أوهام لاتخلو الجهّال عنها و منشؤ جميع ذلك الجهل و يزال ذلك بالعلم المحقّق بأنّ العبد وعمله و أوصافه كلّ ذلك من عند الله نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق و هذا ينفي العجب و الإدلال و يورث الخضوع والشكر و الخوف من زوال النعمة و من عرف هذا لم يتصوّر أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أنّ ذلك من الله تعالى ولذلك لمّا اتّكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يوم حنين على قوّتهم و كثرتهم ونسوا فضل الله عليهم قالوا: لانغلب اليوم من قلّة. و كلوا إلى أنفسهم فقال تعالى: «ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثمّ ولّيتم مدبرين»(١).

و روى ابن عيينة أنّ أيّوب عليه السلام قال: إلهي إنّك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد عليّ أمرٌ إلّا آثرت هواك على هواي فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت يا أيّوب أنّى لك ذلك؟ - أي من أين لك ذلك - قال: فأخذ رماداً فوضعه على رأسه وقال: «منك

(١) الاية في سورة التوبة: ٢٦ وأخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع أن رجلا قال: يوم حنين لن نغلب من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله فأنزل الله عزوجل: «ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم» راجع الدر المنثور ج٣ ص٢٢٤.

يا ربّ منك يارب » فرجع عن نسيانه و أضاف ذلك إلى الله تعالى و لهذا قال الله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم و رحمته مازكى منكم من أحد أبداً » (١).

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله لاصحابه : « مامنكم من أحدٍ ينجيه عمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله برحمته » (٢) فإذن هذا هو العلاج القاطع لمادّة العجب من القلب و مهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها . فكم من مؤمن قد ارتدّ و مطيع قد فسق وختم له بالسوء و هذا لايبقى معه عجب بحال .

✡ (بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه) ✡

إعلم أنّ الإنسان قديعجب بالأسباب الّتي بها يتكبّر كما ذكرناه وقديعجب بما لايتكبّر به كعجبه بالرأي الخطأ الّذي يزيّن له بجهله فما به العجب ثمانية أقسام الأوّل أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحّته وقوّته وتناسب أشكاله وحسن صوته وبالجملة تفصيل خلقته فيلتفت إلى جمال نفسه و ينسى أنّه نعمة من الله و هو معرضة للزوال في كلّ حال و علاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال و هو التفكّر في أقذار باطنه و في أوّل أمره و آخره و في الوجوه الجميلة و الأبدان الناعمة أنّها كيف تمزّقت في التراب و أنتنت في القبور بحيث استقذرتها الطّباع ، الثاني القوّة و البطش كما حكي عن قوم عادحين قالوا : فيما أخبر الله عنهم « من أشدّ منّا قوّة » (٣) و كما اتّكل عوج على قوّته فأعجب بها فاقتلع جبلاً ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل حتّى صارت في عنقه وقديتّكل المؤمن أيضاً على قوّته كما روي عن سليمان عليه السلام أنّه قال : لأطوفنّ اللّيلة على مائة امرأة تلد كلّ امرأة غلاماً الحديث (٤) ولم يقل إن شاء الله فحرم ما أراد من الولد

---

(١) النور : ٢١ .

(٢) أخرجه البخاري و مسلم ج ٨ ص ١٤١ من حديث عائشة .

(٣) فصلت : ١٥ .

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

و يورث العجب بالقوّة الهجوم في الحروب و إلقاء النفس في التهلكة و المبادرة إلى الضرب والقتل لمن قصده بالسوء وعلاجه ما ذكرناه وهوأن يعلم أنّ حمّى يوم تضعف قوّته وأنّه إذا أعجب بهاربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلّطها عليه.

الثالث العجب بالعقل و الكياسة والتفطّن لدقائق الاُمور من مصالح الدّين و الدّنيا و ثمرته الاستبداد بالرأي و ترك المشورة و استجهال الناس المخالفين له و لرأيه و يخرج إلى قلّة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي و العقل و استحقاراً لهم وإهانة وعلاجه أن يشكر الله على ما رزق من العقل ويتفكّر أنّه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس و يجنّ بحيث يضحك الناس منه ، ولا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره ، و ليستقصر عقله و علمه وليعلم أنّه ما اوتي من العلم إلّا قليلاً وإن اتّسع علمه وأنّ ماجهله ممّا عرفه الناس أكثر ممّا علمه فكيف بمالم يعرفه الناس من علم الله تعالى و أن يتّهم عقله و ينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم و يضحك الناس منهم ، فيحذر أن يكون منهم وهو لايدري فإنّ قاصر العقل قطّ لايعلم قصور عقله فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لامن نفسه و من أعدائه لامن أصدقائه ، فإنّ من يداهنه يثني عليه فيزيده عجباً وهو لايظنّ بنفسه إلّا الخير ولايفطن بجهل نفسه فيزداد به عجباً.

الرابع العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشميّة حتّى يظنّ بعضهم أنّه ينجو بسبب شرف نسبه و نجاة آبائه و أنّه مغفور له و يتخيّل بعضهم أنّ جميع الخلق له موال و عبيد وعلاجه أن يعلم أنّه مهما خالف آباءه في أفعالهم و أخلاقهم فظنّ أنّه ملحق بهم فقد جهل وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف و الإزراء على النفس و استعظام الخلق ومذمّة النفس ولقد شرّفوا بالطاعة والعلم والخصال المحمودة لا بالنسب فليتشرّف بما شرّفوا به وقد ساواهم في النسب و شاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله ، فكانوا عندالله شرّاً من الكلاب وأخسّ من الخنازير ، و لذلك قال الله تعالى : « يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر و اُنثى » اي لاتفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد ، ثمّ ذكر فائدة النسب فقال :

« وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » ثمّ بيّن أنّ الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال : « إنّ أكرمكم عندالله أتقيكم »[1] ولمّا قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : من أكرم الناس ؟ من أكيس الناس ؟ لم يقل من ينتمي إلى نسبي ولكن قال : « أكثرهم للموت ذكراً و أشدّهم له استعداداً »[2] و إنّما نزلت هذه الآية حين أذّن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحارث بن هشام و سهيل بن عمرو وخالدبن اُسيد : هذا العبد الأسود يؤذّن فقال تعالى : « إنّ أكرمكم عندالله أتقيكم »[3] .

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّ الله قد أذهب عنكم عُبّيّة الجاهليّة - أي كبرها - كلّكم بنو آدم وآدم من تراب »[4] .

و قال صلى الله عليه وآله : « يامعشر قريش يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتوني بالدّنيا تحملونها على رقابكم وتقولون : يا محمّد يا محمّد فأقول : هكذا »[5] أي أعرض عنكم فبيّن أنّهم أنْ مالوا إلى الدّنيا لم ينفعهم نسب قريش .

ولمّا نزل قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين »[6] ناداهم بطناً بعد بطن حتّى

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) أخرج ابن ماجه في السنن تحت رقم ٤٢٥٩ بسند مجهول عن ابن عمر أنه قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله فجاءه رجل من الانصار . فسلم على النبي صلى الله عليه وآله . ثم قال : يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقا» قال : فأي المؤمنين اكيس ؟ قال : « أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم لما بعده استعداداً اولئك الاكياس » وبهذه الزيادة رواه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت آخر الكتاب .

(٣) أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن أبي مليكة قال : لما كان يوم الفتح رقي بلال فأذن على الكعبة فقال : بعض الناس هذا العبد الاسود يؤذن على ظهر الكعبة و قال : بعضهم ان يسخط الله هذا يغيره فنزلت « يا أيها الناس - الاية - » راجع الدر المنثور ج ٦ ص ٩٨.

(٤) أخرجه أبوداود ج٢ ص ٦٢٤ والعبية - كالمنية - : الكبر والنخوة والفخر .

(٥) أخرجه الطبراني من حديث عمران بن حصين الا أنه قال : «يامعشر بني هاشم» و سنده ضعيف .

(٦) الشعراء : ٢١٧.

قال : يافاطمة بنت محمّد ياصفيّة بنت عبدالمطلب عمّة رسول‌الله إعملا لأنفسكما فإنّي لا أُغني عنكما من الله شيئاً »[١] .

فمن عرف هذه الأُمور و علم أنّ شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع فإن اقتدى بهم في التقوى والتواضع و إلّا كان طاعناً في نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى إليهم ولم يشبههم في التواضع و التقوى و الخوف و الإشفاق .

فإن قلت : فقد قال رسول الله صلى الله عليه و آله بعد قوله لفاطمة وصفيّة : « إنّي لا أُغني عنكما من الله شيئاً إلّا أنّ لكما رحماً سأبلّها ببلالها »[٢] . و قال صلى الله عليه و آله : « أترجو سليم شفاعتي و لا يرجوها بنو عبد المطّلب »[٣] و ذلك يدلّ على أنّه سيخصّ قرابته بالشفاعة . فاعلم أنّ كلّ مسلم منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه و آله و النسب أيضاً جدير بأن يرجوها و لكن بشرط أن يتّقي الله و يخاف أن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته فإنّ الذّنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلايؤذن في الشفاعة فيه و إلى مايعفى عنه بسبب الشفاعة كالذّنوب عند ملوك الدّنيا فإنّ كلّ ذي مكانة عندالملك لايقدر على الشفاعة في من اشتدّ عليه غضب الملك فمن الذّنوب ما لاينجي منه الشفاعة و عنه العبارة بقوله تعالى : « ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى »[٤] وبقوله : « من ذا الّذي يشفع عنده إلّا بإذنه »[٥] و بقوله : « لا تنفع الشفاعة إلّا من أذن له الرّحمن و رضي له قولاً »[٦] و بقوله : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين »[٧] و إذا انقسمت الذّنوب إلى مايشفع فيه و إلى ما لايشفع فيه وجب

(١) أخرجه أحمد و مسلم و الترمذى و ابن جرير وابن مردويه عن عائشة راجع الدرالمنثور ج ٥ ص ٩٥ .

(٢) قوله : « سأبلها ببلالها » أى أصلكم فى الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئاً والبلال جمع بلل وقيل : كلما بل الحلق من ماء أو لبن أو غيره (النهاية) وهذا تتمة الخبر السابق .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الاوسط من حديث عبدالله بن جعفر (المغنى) .

(٤) الانبياء : ٢٩ .

(٥) البقرة : ٢٥٧ .

(٦) طه : ١٠٨ .

(٧) المدثر : ٥٠ .

الخوف و الإشفاق لامحالة ، ولوكان كلّ ذي ذنب يقبل منه الشفاعة لما أمر قريشاً بالطاعة ولمانهاهم عن المعصية فالانهماك في الذّنوب وترك التقوى اعتماداً على الشفاعة يضاهي إنهماك المريض في شهواته اعتماداً على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أوغيره وذلك جهل فإنّ سعي الطبيب وهمّته وجدّه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلّها فلايجوز ترك الحمية مطلقاً اعتماداً على مجرّد الطبّ بل للطبّ أثر على الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء و الصلحاء للأقارب و الأجانب فإنّه كذلك قطعاً وذلك لايزيل الخوف و الحذر .

الخامس العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين و العلم ، وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكّر في مخازيهم وماجرى لهم من الظلم على عباداللّه و الفساد في دين اللّه وأنّهم ممقوتون عنداللّه ، ولو نظر إلى صورهم في النّار وأنتانهم و أقذارهم لاستنكف منهم و لتبرّأ من الانتساب إليهم ولأنكر على من نسبه إليهم استقذاراً لهم و استحقاراً ولو انكشف له ذلّهم يوم القيامة وقد تعلّق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرّونهم على وجوههم إلى جهنّم في مظالم العباد لتبرّأ إلى اللّه منهم ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحسن إليه من الانتساب إليهم فحقّ أولاد الظلمة إن عصمهم اللّه من ظلمهم أن يشكروا اللّه على سلامة دينهم و يستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين ، فأمّا العجب بنسبهم فجهل محض .

السادس العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب و الأنصار و الأتباع كما قال الكافرون : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً »[1] كما قال المؤمنون يوم حنين « لانغلب اليوم من قلّة »[2] وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكّر في ضعفه وضعفهم و أنّ كلّهم عبيد عجزة ، لايملكون لأنفسهم ضرّاً ولانفعاً « و كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه » ثمّ كيف يعجب بهم وأنّهم سيفترقون عنه إذامات فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده لايرافقه ولد ولاأهل ولاقريب ولاحميم

(١) السبأ : ٣٥ . (٢) تقدم آنفاً .

ولاعشير ، فيسلّمونه إلى البلى و إلى الحيات و العقارب و الدّيدان ولا يغنون عنه شيئاً وهو أحوج أوقاته إليهم و كذلك يهربون منه يوم القيامة « يوم يفرّ المرء من أخيه . وأُمّه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكلّ امرء منهم يومئذ شأنٌ يغنيه»[1] فأيّ خير فيمن يفارقك في أشدّ أحوالك ويهرب منك و كيف تعجب ولاينفعك في القبر والقيامة و على الصراط إلّا عملك و فضل الله تعالى فكيف تتّكل على من لاينفعك و تنسى نعم من يملك ضرّك و نفعك و موتك و حياتك ؟!!.

السابع العجب بالمال كما قال الله تعالى إخباراً عن صاحب الجنّتين إذ قال : «أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً » ورأى رسول الله صلّى الله عليه وآله رجلاً غنيّاً جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه فقال صلّى الله عليه وآله : « أخشيت أن يعدو إليك فقره »[2] وذلك للعجب بالغنى و علاجه أن يتفكّر في آفات المال و كثرة حقوقه و عظم غوائله ، و إلى فضيلة الفقراء و سبقهم إلى الجنّة في القيامة ، وإلى أنّ المال غاد و رائح ولا أصل له ، و إلى أنّ في اليهود من يزيد عليه في المال ، و إلى قوله صلّى الله عليه وآله : « بينما رجلٌ يتبختر في حلّة له قد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »[3] أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله و نفسه ، و جميع ماذكرناه في كتاب الزّهد و كتاب ذمّ الدّنيا و كتاب ذمّ المال يبين حقارة الأغنياء و شرف الفقراء عند الله ، فكيف يتصوّر من المؤمن أن يعجب بثروته ؟ بل لا يخلو المؤمن عن الخوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حلّه و وضعه في حقّه ، و من لايفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله ؟!.

الثامن العجب بالرأي الخطأ قال تعالى : « أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً »[4] وقال : « وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً »[5] .

---

(١) عبس : ٣٥.

(٢) رواه أحمد في الزهد .

(٣) أخرجه مسلم ج ٦ ص ١٤٨ من حديث أبي هريرة .

(٤) فاطر : ٩ . (٥) الكهف : ١٠٤ .

وقد أخبر رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّ ذلك يغلب على آخر هذه الأمّة و بذلك هلك الأمم السالفة إذافترقت فرقاً(١) و كلّ معجب برأيه و كلّ حزب بمالديهم فرحون وجميع أهل البدع والضلال إنّما أصرّوا عليها بعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى و الشهوة مع ظنّ كونه حقّاً و علاج هذا العجب أشدّ من غيره لأنّ صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطائه ، ولو عرفه لتركه ولا يعالج الدّاء الّذي لايعرف ، والجهل داء لايعرف فتعسّر مداواته جدّاً لأنّ العارف يقدر على أن يبيّن للجاهل جهله و يزيله عنه إلّا إذاكان معجباً برأيه و جهله فإنّه لايصغى إلى العارف ويتّهمه فقد سلّط الله عليه بليّة تهلكه وهويظنّها نعمة فكيف يمكن علاجه و كيف يطلب الهرب ممّا هو سبب سعادته في اعتقاده و إنّما علاجه على الجملة أن يكون متّهماً لرأيه أبداً لايغترّ به إلّا أن يشهدله قاطع من كتاب الله أو سنّة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلّة ، و لن يعرف الإنسان أدلّة الشرع و العقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلّا بقريحة تامّة وعقل ثاقب وجدّ وتشمّر في الطلب وممارسة للكتاب و السنّة و مجالسته لأهل العلم طول العمر ومدارسة العلوم ، و مع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الاُمور والصواب لمن لم يتفرّغ لاستغراق عمره في العلم أن لايخوض في المذاهب ولا يصغي إليها ولا يسمعها ولكن يعتقد أنّ الله واحد لاشريك له و أنّه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير و أنّ رسوله صادق فيما أخبر به ويتّبع سنّة السلف .

أقول : بل يتبع سنّة أئمّة الهدى من أهل بيت النبيّ صلوات الله وسلامه عليه و عليهم خاصّة دون غيرهم من السلف كما عرفت غير مرّة .

قال : و يؤمن بجملة ماجاء به الكتاب و السنّة من غير بحث وتفتيش وسؤال عن تفصيل بل يقول : آمنّا وصدّقنا ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات و الشفقة على المسلمين و سائر الأعمال ، فإن خاض في المذاهب و البدع و التعصّب في العقائد هلك من حيث لايشعر . هذا حقّ كلّ من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء

(١) تقدم كراراً وهو جزء من حديث أبي ثعلبة « اذا رأيت شحاً مطاعاً الحديث».

غير العلم.

فأمّا الّذي عزم على التجرّد للعلم فأوّل مهمّ له معرفة الدّليل و شروطه و ذلك ممّا يطول الأمر فيه، و الوصول إلى المعرفة واليقين في أكثر المطالب شديد لايقدر عليه إلّا الأقوياء المؤيّدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدّاً.

فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهّال.

هذا آخر كتاب ذمّ الكبر و العجب من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء، و يتلوه إن شاء الله كتاب ذمّ الغرور منه.

والحمدلله أوّلاً و آخراً و ظاهراً وباطناً.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

كتاب ذمّ الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمدلله الّذي بيده مقاليد الأُمور ، و بقدرته مفاتيح الخيرات و الشرور ، مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه و رطات الغرور ، والصلاة على محمّد مخرج الخلائق من الديجور ، و على آله وأصحابه الّذين لم تغرّهم الحياة الدّنيا ولم يغرّهم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على مرّ الدّهور و كرّ الساعات و الشهور .

أمّا بعد فمفتاح السعادة التيقّظ و الفطنة و منبع الشقاوة الغرور و الغفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة و لا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم « كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزّجاجة كأنّها كوكبٌ درّيٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقيّة ولا غربيّة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء » والمغترّون قلوبهم « كظلمات في بحر لجّيّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها و من لم يجعل الله له نوراً فماله من نور » والأكياس هم الّذين أراد الله تعالى أن يهديهم فشرح صدورهم للاسلام والهدى ، و المغترّون هم الّذين أراد أن يضلّهم فجعل صدورهم ضيّقاً حرجاً كأنّما يصّعّد في السماء ، و المغرور هو الّذي لم ينفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً وبقي في العمى فاتّخذ الهوى قائداً والشيطان دليلاً « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى و أضلّ سبيلاً » وإذا عرف أنّ الغرور هو أمّ الشقاوات ومنبع المهلكات فلابدّ من شرح مداخله و مجاريه و تفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد

معرفته فيتّقيه فالموفّق من العباد من عرف مداخل الآفات و الفساد فأخذ منها حذره ، و بنى على الحزم و البصيرة أمره .

ونحن نشرح أجناس مجاري الغرور و أصناف المغترّين من العلماء والصالحين الّذين اغترّوا بمبادي الاُمور الجميلة ظواهرها ، القبيحة سرائرها ، و نشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها فإنّ ذلك وإن كان أكثر من أن يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الاستقصاء . و فرق المغترّين كثيرة ولكن يجمعهم أربعة أصناف : الصنف الأوّل من العلماء ، الصنف الثاني من العبّاد ، الصنف الثالث من المتصوّفة ، الصنف الرّابع من أرباب الأموال ، والمغترّون من كلّ صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة فمنهم من رأى المنكر معروفاً كالّذي يتّخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام ، و منهم من لم يميّز بين مايسعى فيه لنفسه و بين مايسعى فيه لله كالواعظ الّذي غرضه القبول والجاه ، ومنهم من يترك الأهمّ و يشتغل بغيره ، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة ، ومنهم من يترك اللّباب و يشتغل بالقشر كالّذي يكون همّه في الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج الحروف ، إلى غير ذلك من المداخل الّتي لاتتّضح إلاّ بتفصيل الفرق و ضرب الأمثلة ولنبدء أوّلا بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذمّ الغرور و بيان حقيقته و أمثلته .

✿(بيان ذم الغرور و حقيقته وأمثلته)✿

إعلم أنّ قوله تعالى : « فلاتغرّنكم الحيوة الدّنيا ولايغرّنّكم بالله الغرور »[١].

وقوله عزّ وجلّ : « ولكنّكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانيّ حتّى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور »[٢] كاف في ذمّ الغرور .

وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « حبّذا نوم الأكياس و فطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى و اجتهادهم ، ولمثقال ذرّة من صاحب تقوى و يقين أفضل من ملء الأرض من المغترّين »[٣] .

---

(١) لقمان : ٣٣ . (٢) الحديد : ١٤ .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول أبي الدرداء بنحوه و في بعض الروايات أبي الورد موضع أبي الدرداء و قال العراقي : لم أجده مرفوعاً .

و قال ﷺ : « الكيّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت ، و الأحمق من أتبع نفسه هواها و تمنّى على الله الأمانيّ »[1].

و كلّ ماورد في فضل العلم وذمّ الجهل فهو دليل على ذمّ الغرور لأنّ الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء و يراه على خلاف ماهو به ، و الغرور هو الجهل إلّا أنّ كلّ جهل ليس بغرور بل يستدعي الغرور مغروراً فيه مخصوصاً ، ومغروراً به وهوالّذي يغرّه ، فمهماكان المجهول المعتقد شيئاً يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة و مخيلة فاسدة يظنّ أنّها دليل ولا يكون دليلاً سمّي الجهل الحاصل به غروراً ، فالغرور هوسكون النفس إلى مايوافق الهوى و يميل إليه الطبع عن شبهة و خدعة من الشيطان ، فمن اعتقد أنّه على خير إمّا في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهومغرور ، وأكثر الناس يظنّون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه فأكثر الناس إذاً مغرورن و إن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم حتّى كان غرور بعضهم أظهر و أشدّ من بعض ، و أظهرها و أشدّها غروراً غرور الكفّار و غرور العصاة و الفسّاق ، فنورد ههنا أمثلة لحقيقة الغرور .

المثال الأوّل غرور الكفّار فمنهم من غرّته الحياة الدّنيا ، و منهم من غرّه بالله الغرور ، أمّا الّذين غرّتهم الحياة الدّنيا فهم الّذين قالوا : النقد خير من النسيئة و الدّنيا نقد و الآخرة نسيئة فاذن هي خير فلابدّ من إيثارها . و قالوا : اليقين خير من الشكّ و لذّات الدّنيا يقين ولذّات الآخرة شكّ فلايترك اليقين بالشكّ . فهذه أقيسة فاسدة يشبه قياس إبليس حيث قال : «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى : «اُولئك الّذين اشتروا الحيوة الدّنيا بالآخرة فلايخفّف عنهم العذاب ولاهم ينصرون »[2] وعلاج هذا الغرور إمّا بتصديق الإيمان و إمّا بالبرهان ، أمّا التصديق بمجرّد الإيمان فهو أن يصدّق الله تعالى في قوله :

---

(١) أخرجه الترمذي والحاكم وأحمد وابن ماجه تحت رقم ٤٢٦٠ من حديث شداد ابن اوس بسند صحيح .

(٢) البقرة : ٨١ .

« ما عندكم ينفد و ما عندالله باق » (١) و في قوله : « و ما عندالله خيرٌ و أبقى » (٢) و قوله : « و الآخرة خيرٌ و أبقى » (٣) و قوله : « و ما الحيوة الدّنيا إلّا متاع الغرور » (٤) و قوله : « فلا تغرّنّكم الحيوة الدّنيا ولا يغرّنّكم بالله الغرور » (٥).

وقد أخبر رسول‌الله صلّى الله عليه و آله طوائف من الكفّار بذلك فقلّدوه وصدّقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان (٦) ومنهم من قال : نشدتك الله أبعثك الله رسولاً فكان يقول : نعم فيصدّق (٧) و هذا إيمان العامّة و هو يخرج من الغرور و ينزل هذا منزلة تصديق الصبيّ و الده في أنّ حضور المكتب خير من حضور الملعب مع أنّه لايدري وجه كونه خيراً ، وأمّا المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الّذي نظمه في قلبه الشيطان فإنّ كلّ مغرور فلغروره سبب و ذلك السبب هو دليلٌ و كلّ دليل فهو نوع قياس يقع في النفس و يورث السكون إليه و إن كان صاحبه لايشعر به ولايقدر على نظمه بألفاظ العلماء ، فالقياس الّذي نظمه الشيطان فيه أصلان : أحدهما أنّ الدّنيا نقد و الآخرة نسيئة ، و هذا صحيح ، و الآخر أنّ النقد خيرٌ من النسيئة ، وهذا محلّ التلبيس فليس الأمر كذلك ، بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار و المقصود فهو خيرٌ و إن كان أقلّ منها فالنسيئة خيرٌ فإنّ الكافر المغرور يبذل في تجارته درهماً ليأخذ عشرة نسيئة و لا يقول النقد خيرٌ من النسيئة فلا أتركه ، و إذا حذّره الطبيب الفواكه و لذائذ الأطعمة تركها في الحال خوفاً من ألم المرض في المستقبل وقد ترك النقد ورضي بالنسيئة ، والتجّار كلّهم يركبون البحار و يتعبون في الأسفار نقداً لأجل الرّاحة و الربح نسيئة ، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيراً من واحد في الحال فأنسب لذّة الدّنيا من حيث مدّتها إلى مدّة الآخرة فإنّ أقصى عمر الإنسان مائة سنة و ليس هو عشر عشير جزء من ألف ألف

---

(١) النحل : ٩٩ . (٢) القصص : ٦١ .
(٣) الاعلى : ١٨ . (٤) آل عمران : ١٨٣ .
(٥) فاطر : ٦ . (٦) كايمان الانصار و جلة أهل المدينة .
(٧) كايمان ضمام بن ثعلبة أخرجه احمد ج ١ ص ٢٦٤ و راجع اسدالغابة ج ٣ ص ٤٣ .

جزء من الآخرة ، فكأنّه ترك واحداً ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ ما لانهاية له ، ولا حدّ و إن نظر من حيث النوع رأى لذّات الدّنيا مكدّرة مشوبة بأنواع المنغّصات ، ولذّات الآخرة صافية غير مكدّرة ، فإذن قد غلط في قوله « النقد خيرٌ من النسيئة » و هذا غرور منشؤه قبول لفظ عامّ مشهوراً طلق واُريد به خاصّ ، فغفل المغرور عن خصوص معناه فإنّ من قال : « النقد خيرٌ من النسيئة » أراد به خيرٌ من نسيئة هي مثله و إن لم يصرّح به ، و عند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر و هو أنّ اليقين خيرٌ من الشكّ والدّنيا يقين والآخرة شكّ ، و هذا القياس أكثر فساداً من الأوّل لأنّ كلا أصليه باطلٌ إذ اليقين خيرٌ من الشكّ إذا كان مثله و إلّا فالتاجر في تعبه على يقين و في ربحه على شكّ ، والمتفقّه في اجتهاده على يقين و في إدراكه رتبة العلم على شكّ ، و الصيّاد في تردّده في المقتنص على يقين و في اقتناصه الظفر بالصيد على شكّ ، و كذلك الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكلّ ذلك ترك لليقين بالشكّ ، ولكنّ التاجر يقول : إنّي إن لم أتّجر بقيت جائعاً و عظم ضرري و إن اتّجرت كان تعبي قليلاً وربحي كثيراً و كذلك المريض يشرب الدّواء البشع الكريه و هو من الشفاء على شكّ و من مرارة الدّواء على يقين ولكن يقول : ضرر مرارة الدّواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت . وكذلك من شكّ في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيّام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالاضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة ، فإن كان ماقيل فيه كذباً فما يفوتني إلّا التنعّم أيّام حياتي وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لاأتنعّم فأحسب أنّي بقيت في العدم و إن كان ما قيل صدقاً فأبقى في النار أبد الآباد و هذا لا يطاق ، و لذلك قال عليّ عليه السلام لبعض الملحدين : « إن كان ما قلته حقّاً فقد تخلّصت و تخلّصنا و إن كان ما قلناه حقّاً فقد تخلّصنا و هلكت » (١) و ما قال : هذا عن شكّ منه في الآخرة ولكن كلّم الملحد على قدر عقله و بيّن له أنّه و إن لم يكن متيقّناً فهو مغرور ، و أمّا الأصل الثّاني من كلامه و هو أنّ الآخرة شكّ فهو أيضاً خطأ بل ذلك يقين عند

(١) راجع الكافي ج ١ ص ٧٨ مروى نحوه عن الصادق والرضا (ع) جواباً للزنديق .

المؤمنين و ليقينه مدركان : أحدهما الايمان والتصديق تقليداً للأنبياء والعلماء و ذلك أيضاً يزيل الغرور و هو مدرك يقين العوام وأكثر الخواصّ ، و مثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علّته و قد اتّفق الأطبّاء و أهل الصّناعة من عند آخرهم على أنّ دواءه النبت الفلاني فإنّه تطمئنّ نفس المريض إلى تصديقهم ولايطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين ، بل يثق بقولهم و يعمل به و لو بقي سواديّ أو معتوه يكذّبهم في ذلك و هو يعلم بالتواتر و قرائن الأحوال أنّهم أكثر منه عدداً و أغزر منه فضلاً و أعلم بالطبّ منه ، بل لا علم له بالطبّ فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ولا يغترّ في علمه بسببه ولواعتمد على قوله وترك قول الأطبّاء كان معتوهاً مغروراً ، فكذلك من نظر إلى المقرّين بالآخرة والمخبرين عنها و القائلين بأنّ التّقوى هو الدّواء النافع في الوصول إلى سعادتها وجدهم خير خلق الله و أعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل ، فهم الأنبياء و الأولياء والحكماء و العلماء و اتّبعهم عليه الخلق على أصنافهم و شذّ منهم آحاد من البطّالين ، غلبت عليهم الشهوة ، و مالت نفوسهم إلى التمتّع ، فعظم عليهم ترك الشهوات و عظم عليهم الاعتراف بأنّهم من أهل النّار فجحدوا الآخرة و كذّبوا الأنبياء ، فكما أنّ قول الصبيّ وقول السواديّ لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتّفق عليه الأطبّاء ، فكذلك قول هذا الغبيّ الّذي استرقته الشهوات لا يشكّك في صحّة أقوال الأنبياء والعلماء ، وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق و هو يقين جازم مستحثّ على العمل لا محالة والغرور يزول به .

وأمّا المدرك الثاني لمعرفة الآخرة فهو الوحي و الإلهام فالوحي للأنبياء و الإلهام للأولياء و لا تظننّ أنّ معرفة النبيّ لأمر الآخرة و لأمور الدّين تقليد لجبرئيل بالسماع منه كما أنّ معرفتك تقليد للنبيّ صلّى الله عليه وآله حتّى تكون معرفتك كمعرفته و إنّما يختلف المقلّد فقط ، وهيهات فإنّ التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون و معنى معرفتهم أنّه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها و شاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع و تقليد و ذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الرّوح و أنّه من

أمر الله و ليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الّذي يقابل النّهي لأنّ ذلك الأمر كلام والرّوح ليس بكلام وليس المراد به الأمر الّذي هو الشأن حتّى يكون المراد به أنّه من خلق الله فقط لأنّ ذلك عامّ في جميع المخلوقات ، بل العالم عالمان عالم الأمر و عالم الخلق ، و لله الخلق والأمر فالأجسام ذوات الكمّيّة والمقادير من عالم الخلق ، إذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللّسان ، و كلّ موجود منزّه عن الكمّيّة و المقدار فانّه من عالم الأمر ، و شرح ذلك يستدعي كشف سرّ الرّوح و لا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسرّ القدر الّذي منع من إفشائه ، فمن عرف بسرّ الرّوح فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربّه وإذا عرف نفسه و ربّه عرف أنّه أمر ربّانيّ بطبعه و فطرته ، و أنّه في العالم الجسمانيّ غريب ، و أنّ هبوطه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته ، وذلك العارض الغريب ورد على آدم عليه السلام و عبّر عنه بالمعصية و هي الّتي حطّته عن الجنّة الّتي هي أليق بمقتضى ذاته فانّها في جوار الرّبّ تعالى و أنّه أمر ربّانيّ و حنينه إلى جوار الرّبّ تعالى له طبعيّ ذاتيّ إلّا أن تصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربّه و مهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له : « ولا تكونوا كالّذين نسوا الله فأنسيهم أنفسهم اُولئك هم الفاسقون » أي الخارجون عن مقتضى طبعهم و مظنّة استحقاقهم يقال : فسقت الرّطبة عن كمامها إذا خرجت عن معدنها الفطريّ وهذه إشارة إلى أسرار يهتزّ لاستنشاق روائحها العارفون ويشمئزّ من سماع ألفاظها القاصرون فانّها تضرّبهم كما تضرّ رياح الورد بالجُعل ، وتبهر أعينهم الضّعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش ، وانفتاح هذا الباب من سرّ القلب إلى عالم الملكوت يسمّى معرفة و ولاية ، ويسمّى صاحبها وليّاً و عارفاً و هي مبادي مقامات الأنبياء وآخر مقامات الأولياء أوّل مقامات الأنبياء ، ولنرجع إلى الغرض .

فالمقصود أنّ غرور الشيطان بأنّ الآخرة شكّ يدفع إمّا بيقين تقليدي و إمّا ببصيرة و مشاهدة من جهة الباطن ، والمؤمنون بألسنتهم و بعقائدهم إذا ضيّعوا أوامر الله و هجروا الأعمال الصّالحة و لابسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون

للكفّار في هذا الغرور لأنّهم آثروا الحياة الدّنيا على الآخرة، نعم و أمرهم أخفّ لأنّ أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار، و لو بعد حين و لكنّهم أيضاً مغرورون فإنّهم اعترفوا بأنّ الآخرة خير من الدّنيا و لكنّهم مالوا إلى الدّنيا و آثروها و مجرّد الإيمان لا يكفي للفوز قال الله تعالى: «وإنّي لغفّار لمن تاب و آمن و عمل صالحاً ثمّ اهتدى» (١) و قال: «إنّ رحمة الله قريب من المحسنين» (٢) و قال النبيّ صلّى الله عليه و آله للأعرابيّ: «الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه» (٣) و قال تعالى: «والعصر إنّ الإنسان لفي خسر * إلاّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات» (٤). فوعد المغفرة في جميع كتاب الله منوط بالإيمان والعمل الصّالح جميعاً لا بالإيمان وحده فهؤلاء أيضاً مغرورون أعني المطمئنّين إلى الدّنيا، الفرحين بها، المترفين بنعيمها، المحبّين لها، الكارهين للموت خيفة فوات لذّات الدّنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده، فهذا مثال المغرور بالدّنيا من الكفّار والمؤمنين جميعاً.

و لنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين فأمّا غرور الكفّار بالله فمثاله قول بعضهم في أنفسهم و بألسنتهم أنّه إن كان لله من معاد فنحن أحقّ به من غيرنا ونحن أوفر حظّاً فيه وأسعد حالاً كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرّجلين المتحاورين إذ قال: «و ما أظنّ السّاعة قائمة و لئن رددت إلى ربّي لأجدنّ خيراً منها منقلباً» (٥) وجملة أمرهما كما نقل في التفسير أنّ الكافر منهما بنى قصراً بألف دينار واشترى بستاناً بألف دينار، واشترى خدماً بألف دينار و تزوّج امرأة على ألف دينار و في ذلك كلّه يعظه المؤمن و يقول: اشتريت قصراً يخرب و يفنى ألا اشتريت قصراً في الجنّة، و اشتريت بستاناً يخرب و يفنى ألا اشتريت بستاناً في الجنّة لا تفنى، و خدماً لا يفنون و لا يموتون، و زوجة من الحور العين لا تموت، و في كلّ ذلك يردّ عليه الكافر و يقول: ما هناك شيء و ما قيل من ذلك فهو أكاذيب و إن كان

---

(١) طه: ٨٥. (٢) الاعراف: ٥٥.

(٣) أخرجه البخاري ج ٦ ص ١٤٤ وقد تقدم في المجلد الاول.

(٤) العصر: ١ الى ٣. (٥) الكهف: ٣٥.

فليكونن لي في الآخرة خير من هذا ، وكذلك وصف الله قول العاص بن وائل (١) إذ يقول : « لأوتين مالاً و ولداً » فقال الله تعالى ردّاً عليه « أطّلع الغيب أم اتّخذ عند الرّحمن عهداً كلاّ ».

و روي عن خبّاب بن الأرتّ (٢) أنّه قال : كان لي على العاص بن وائل دين

(١) عاص بن وائل السهمي فهو الشقي الابتر شانيء النبيّ (ص) الذى نزلت فيه « ان شانئك هو الابتر » و هو من المعادين للنبي صلى الله عليه وآله والمستهزئين به و هو الذى لقب ذي الاسلام بالابتر لقوله « سيموت هذا الابتر غدا فينقطع ذكره » يعني رسول الله صلى الله عليه وآله . و هو من الذين روّعوا زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله في هودجها حتى اجهضت جنيناً ميتاً فلما بلغه (ص) لعنهم . وهو أبو عمرو بن العاص المعروف الذى كشف عن سوءته يوم صفين وكفى أباه بهذا الابن فخراً و بالعكس أيضاً !!!.

(٢) خباب - كشداد - ابن الارت - بالراء المهملة والتاء المثناة المشددة - صحابي بدري من فضلاء المهاجرين الاولين ، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان قديم الاسلام ممن عذب في الله وصبر على دينه نزل الكوفة و مات بها سنة ٣٧ أو سنة ٣٩ . روى أن قريشاً أوقدت له ناراً وسحبوه عليها فما أطفأوها الا ودك ظهره ، وكان أثر النار ظاهراً عليه في جسده ولما رأى عمر ظهره قال : ما رأيت كاليوم ظهر رجل مثله وفي اسد الغابة : انهم البسوه الدرع الحديد و صهروه في الشمس فبلغ منه الجهد ولم يعط الكفار ما سألوه و روى أن فيه وفي سلمان وأبي ذر و عمار أنزل الله تعالى : « و لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » . وعن ابن عبد البر في الاستيعاب وابن أبي الحديد في شرح النهج أنه شهد صفين والنهروان ولكن يظهر من نصر بن مزاحم أنه لم يشهد صفين ولا النهروان بل مات بالكوفة وأمير المؤمنين عليه السلام كان بصفين فلما رجع من صفين رأى قبره بظاهر الكوفة . و روى أنه كان في سفر فشكت بنيته الى النبي صلى الله عليه وآله نفاد النفقة ، قال النبي صلى الله عليه وآله : ايتيني بشويه لكم فمسح يده على ضرعها فكانت تدر الى انصراف خباب . و قال الطبرسي : كان خباب رجلا غنياً وله على العاص بن وائل دين فأتاه يتقاضاه فقال : لا اقضيك حتى تكفر بمحمد قال : لن أكفر به حتى تموت و تبعث . و في المناقب باع خباب بن الارت سيوفاً من العاص بن وائل فجاءه يتقاضاه فقال : اليس يزعم محمد أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب وفضة و ثياب وخدم ؟ قال : بلى ، قال : « فأنظرني أقضك هناك حقك فوالله لا تكون هناك و أصحابك عندالله آثر مني فنزلت « أفرأيت الذى كفر بآياتنا - الى قوله - ».

فجئت أتقاضاه فلم يقض لي ، فقلت : إنّي آخذه في الآخرة ، فقال لي : إذاصرت في الآخرة فإنّ لي هناك ولداً ومالاً فأقضيك منه ، فأنزل الله تعالى « أفرأيت الّذي كفر بآياتنا وقال لأُوتينّ مالاً و ولداً - الآيات - » (١) و قال الله تعالى : « و لئن أذقناه رحمة منّا من بعد ضرّاء مسّته ليقولنّ هذالي و ما أظنّ الساعة قائمة و لئن رجعت إلى ربّي - الآية - » (٢).

و هذا كلّه من الغرور بالله و سببه قياس من أقيسة إبليس و ذلك لأنّهم ينظرون مرّة إلى نعم الله عليهم في الدّنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة ، و ينظرون إلى تأخير الله العذاب عنهم ، فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى : « و يقولون في أنفسهم لولا يعذّبنا الله بما نقول حسبهم جهنّم يصلونها فبئس المصير » (٣)

← فرداً » و في اعلام الورى ص ٥٧ عن خباب قال : اتيت رسول الله صلى الله عليه و آله و هو متوسد برده و هو في ظل الكعبة و قد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله ، فقعد وهو محمر وجهه فقال : لقدكان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، و يوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه ، و ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ما يخاف الا الله أو الذئب على غنمه . رواه البخاري [ج ٥ ص ٥٦] و قال ابن أبي الحديد : خباب من فقراء المسلمين وخيارهم وكان في الجاهلية قيناً يعمل السيوف وهو قديم الاسلام انتهى . و قدكان خباب في أول أمره غنياً كما قال الطبرسي - ره - فلما أسلم أخذت كفار قريش أمواله ففر بدينه و هاجر الى المدينة فصار من فقراء المسلمين راجع سفينة البحار ج ١ ص ٣٧٢ . روى أن أمير المؤمنين عليه السلام لما أقبل من صفين دخل الكوفة فجاز دوربني عوف فرأى قبوراً سبعة أو ثمانية فقال : ما هذه القبور ؟ فقيل : ان خباب بن الارت توفى بعد مخرجك فأوصى أن يدفن في الظهر وكان الناس يدفنون في دورهم و أفنيتهم فدفن الناس الى جنبه ، فقال : « رحم الله خباباً فقد أسلم طائعاً و عاش مجاهداً وابتلى في جسده أحوالا ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا » ، ثم جاء حتى وقف عليهم و قال : « السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة من المؤمنين - الى آخر ما قال عليه السلام - ».

(١) مريم : ٨٠ ، والخبر رواه البخاري ج ٦ ص ١١٩ .
(٢) فصلت : ٥٠ . (٣) المجادلة : ٩ .

و مرّة ينظرون إلى المؤمنين و هم فقراء شعث غبر، فيزدرون بهم ويستحقرونهم فيقولون : «أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا»(١) و يقولون : «لوكان خيراً ماسبقونا إليه»(٢) و ترتيب القياس الّذي نظمه الشيطان في قلوبهم أنّهم يقولون : قد أحسن الله إلينا بنعيم الدّنيا و كلّ محسن فهو محبّ و كلّ محبّ فإنّه يحسن في المستقبل، أيضاً كما قال الشاعر :

كما أحسن الله فيما مضى ✿ كذلك يحسن فيما بقي

فإنّما يقيس المستقبل على الماضي برابطة الكرامة والحبّ إذ يقول : لولا أنّي كريم عند الله ومحبوب لما أحسن إليّ، والتلبيس تحت ظنّه أنّ كلّ محسن محبّ لابل تحت ظنّه أنّ إنعامه عليه في الدّنيا إحسان، فقد أغترّ بالله إذ يظنّ أنّه كريم عنده بدليل لايدلّ على الكرامة بل عند ذوي البصائر يدلّ على الهوان، ومثاله أن يكون عند الرّجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحبّ الآخر فالّذي يحبّه يمنعه من اللّعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلّمه الأدب، و يمنعه من الفواكه وملاذّ الأطعمة الّتي تضرّه ويسقيه الأدوية الّتي تنفعه، والّذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولا يدخل المكتب و يأكل كلّ ما يشتهي فيظنّ هذا العبد المهمل أنّه عند سيّده محبوب كريم لأنّه مكّنه من شهواته و لذّاته و ساعده على جميع أغراضه فلم يمنعه و لم يحجر عليه، و ذلك محض الغرور، و هكذا نعيم الدّنيا و لذّاتها فإنّها مهلكات و مبعدات من الله تعالى وإنّ الله يحمي عبده من الدّنيا و هو يحبّه كما يحمي أحدكم مريضه الطعام و الشراب و هو يحبّه. هكذا ورد في الخبر (٣) وكان أرباب البصائر إذ أقبلت عليهم الدّنيا حزنوا و قالوا : ذنب عجّلت عقوبته و رأوا ذلك أمارة المقت والاهمال، و إذا أقبل عليهم الفقر قالوا : مرحباً بشعار الصالحين، والمغرورون إذا أقبلت الدّنيا عليهم ظنّوا أنّها كرامة من الله و إذا صرفت عنهم ظنّوا أنّه هوان كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال : «فأمّا الانسان إذا ما ابتليه ربّه فأكرمه و نعّمه ✿ فيقول ربّي أكرمن

---

(١) الانعام : ٥٣. (٢) الاحقاف : ١٠.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم ج٤ص٣٠٩ وصححه من حديث قتادة بن النعمان.

وأمّا إذا ما ابتليه فقدر عليه رزقه * فيقول ربّي أهانن - فأجاب الله عن ذلك - كلاّ »(١) بيّن أنّ ذلك غرور، قيل: كذّبهما جميعاً بقوله: « كلاّ » يقول: ليس هذا بكرامتي و لا هذا بهواني ولكن الكريم من أكرمته بطاعتي غنيّاً كان أو فقيراً، والمهان من أهنته بمعصيتي غنيّاً كان أو فقيراً وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان، إمّا بالبصيرة، وإمّا بالتقليد، أمّا بالبصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدّنيا مبعداً عن الله تعالى، و وجه كون التباعد عنها مقرّباً إلى الله تعالى، ويدرك ذلك بالإلهام في منازل العارفين والأولياء، و شرحه في جملة علوم المكاشفة و لا يليق بعلم المعاملة. و أمّا معرفته بطريق التقليد والتصديق فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدّق رسوله صلّى الله عليه وآله، وقد قال تعالى: « أيحسبون أنّما نمدّهم به من مال و بنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون »(٢).

و قال تعالى: « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون »(٣) و قال: « فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتّى إذا فرحوا بما اُوتوا أخذناهم بغتة فإذاهم مبلسون »(٤).

وفي تفسير قوله: « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » إنّهم كلّما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم.

و قال تعالى: « إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً »(٥) وقال تعالى: « ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظّالمون. إنّما نؤخّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتدّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء »(٦) إلى غير ذلك ممّا ورد في كتاب الله تعالى و سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله، فمن آمن به خلص و نجا من هذا الغرور فإنّ منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فإنّ من عرفه لا يأمن مكره ولا يغترّ بأمثال هذه الخيالات الفاسدة و ينظر إلى فرعون وقارون وإلى ملوك الأرض و كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثمّ دمّرهم تدميراً، و قد حذّر الله مكره و استدراجه فقال: « فلا

---

(١) الفجر: ١٥ الى ١٨.
(٢) المؤمنون: ٥٨.
(٣) الاعراف: ١٨٢.
(٤) الانعام: ٤٤.
(٥) آل عمران: ١٧٣.
(٦) ابراهيم: ٤٥.

يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون » [١].

و قال تعالى : « و مكروا مكراً ومكرنامكراً وهم لا يشعرون» [٢] و قال : « و مكروا و مكرالله والله خيرالماكرين»[٣] وقال : «إنّهم يكيدون كيداً ۞ وأكيد كيداً ۞ فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً » [٤].

وكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدلّ باهمال السيّد إيّاه وتمكينه من النعم على حبّ السيّد بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكراً منه ، مع أنّ السيّد لم يحذّره مكر نفسه فبأن يحبّ ذلك في حقّ الله مع تحذيره باستدراجه أولى فاذن من أمن مكر الله فهو مغترّ ، ومنشؤ هذا الغرور أنّه استدلّ بنعيم الدّنيا على أنّه كريم عند المنعم ، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان و لكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه و هو التصديق بدلالته على الكرامة و هذا هو حدّ الغرور .

المثال الثاني هو غرور العصاة من المؤمنين بالله بقولهم : إنّ الله كريم وإنّا نرجو عفوه ، و إتّكالهم على ذلك و إهمالهم الأعمال ، و تحسين ذلك بتسميتهم تمنّيهم واغترارهم رجاءً ، و ظنّهم أنّ الرّجاء مقام محمود في الدّين ، فإنّ نعمة الله واسعة و رحمته شاملة و كرمه عميم ، و أين معاصي العباد في بحار رحمته و إنّا موحّدون ومؤمنون فنرجوه بوسيلة الايمان ، وربّما كان مستند رجائهم التمسّك بصلاح الآباء و علوّ رتبتهم كاغترار العلويّة بنسبهم و مخالفتهم سيرة آبائهم في الخوف والتّقوى والورع ، وظنّهم أنّهم أكرم على الله من آبائهم ، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون[٥] و ذلك نهاية الاغترار

(١) الاعراف : ٩٩. (٢) النمل : ٥٢ .

(٣) آل عمران : ٤٨ . (٤) الطارق : ١٧ .

(٥) روى الصدوق ـ رحمه الله ـ في عيون أخبار الرضا عليه السلام باسناده عن الوشاء قال : كنت بخراسان مع علي بن موسى عليهما السلام في مجلسه و زيد بن موسى حاضر قدأقبل على جماعة في المجلس يفتخر عليهم و يقول : « نحن ونحن نقول » و أبوالحسن عليه السلام مقبل على قوم يحدثهم فسمع مقالة زيد فالتفت اليه و قال : يا زيد أغرك قول ناقلى ←

بالله تعالى ، فقياس الشيطان للعلويّة أنّ من أحبّ إنساناً أحبّ أولاده ، و أنّ الله قد أحبّ آباءكم فيحبّكم فلا تحتاجون إلى الطاعة ، وينسى المغرور أنّ نوحاً صلوات الله عليه أراد أن يستصحب ولده في السّفينة فقال : « ربّ إنّ ابني من أهلي » فقال: « إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح » وإن إبراهيم استغفر لأبيه فلم ينفعه ذلك فهذا أيضاً اغترار بالله لأنّ الله تعالى يحبّ المطيع و يبغض العاصي فكما أنّه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحبّ الولد العاصي بحبّه للأب المطيع ولو كان الحبّ يسري من الأب إلى الولد لا شكّ أن يسري البغض أيضاً ، بل الحقّ أن « لا تزروا زرة وزر اُخرى » و من ظنّ أنّه ينجو بتقوى أبيه كان كمن ظنّ أنّه يشبع بأكل أبيه ، و يروى بشرب أبيه ، ويصير عالماً بتعلّم أبيه ، و يصل إلى الكعبة و يراها بمشي أبيه . فالتقوى فرض عين فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئاً و كذا العكس ، و عندالله جزاء التقوى « يوم يفرّ المرء من أخيه و اُمّه و أبيه و صاحبته وبنيه » إلّا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتدّ غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له كما سبق في كتاب الكبر والعجب .

فإن قلت : فأين الغلط في قول العصاة و الفجّار « إنّ الله كريم و إنّما نرجو

← الكوفة « ان فاطمة احصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار فوالله ما ذاك الا للحسن والحسين و ولد بطنها خاصة فاما أن يكون موسى بن جعفر عليهما السلام يطيع الله و يصوم نهاره و يقوم ليله ، و تعصيه أنت ثم تجيئان يوم القيامة سواء لانت اعز على الله عزوجل منه ، ان على بن الحسين عليهما السلام كان يقول : «لمحسننا كفلان من الاجر و لمسيئنا ضعفان من العذاب » قال الحسن الوشاء : ثم التفت الي وقال لي : يا حسن كيف تقرؤون هذه الاية « قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح » فقلت : من الناس من يقرء « انه عمل غير صالح » [على صيغة المصدر] و منهم من يقرء « أنه عمل غير صالح» [على صيغة فعل الماضي] فمن قرء «أنه عمل غير صالح» [على صيغة المصدر] فقد نفاه عن أبيه ، فقال ﷺ : كلا لقد كان ابنه ولكن لما عصى الله عزوجل نفاه عن أبيه ، كذا من كان منا لم يطع الله عز وجل فليس منا و أنت اذا اطعت الله عز وجل فأنت منا أهل البيت .

مغفرته و رحمته » وقد قال : « أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي خيراً » (١) فما هذا إلّا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب .

فاعلم أنّ الشيطان لايغوي الانسان إلّا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ، ولو لاحسن ظاهره لما انخدعت به القلوب ولكنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله كشف ذلك فقال : « الكيّس من دان نفسه ، و عمل لمابعد الموت ، و الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله »(٢) وهذا هو التمنّي على الله غيّر الشيطان اسمه فسمّاه رجاء حتّى خدع به الجهّال ، وقد شرح الله تعالى الرّجاء فقال : « إنّ الّذين آمنوا والّذين هاجروا و جاهدوا في سبيل الله اُولئك يرجون رحمة الله » (٣) يعني أنّ الرجاء بهم يليق وهذا لأنّه ذكر أنّ ثواب الآخرة أجر و جزاء على الأعمال قال تعالى : « جزاءً بما كانوا يعملون » (٤) وقال تعالى : « إنّما توفّون اُجوركم يوم القيامة » (٥) أفترى أنّ من استؤجر على إصلاح أوان و شرط له أجرة عليها وكان الشارط كريماً يفي بالوعد مهما و عد ولايخلف بل يزيده فجاء الأجير و كسر الأواني وأفسد جميعها ثمّ جلس ينتظر الأجر ويزعم أنّ المستأجر كريم أفيراه العقلاء في انتظاره متمنّياً مغروراً أو راجياً ، وهذا للجهل بالفرق بين الرّجاء والغرّة ، فإنّ من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه(٦) ، و كما أنّ الّذي يرجو في الدّنيا ولداً وهو بعد لم ينكح أو

---

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط و أبو نعيم في الحلية من حديث واثلة بن الاسقع بسند صحيح هكذا « ان الله يقول : أنا عند ظن عبدي بي ان خيراً فخير وان شراً فشر » .

(٢) رواه ابن ماجه في السنن تحت رقم ٤٢٦٠ كما تقدم .

(٣) البقرة : ٢١٦ . (٤) الواقعة : ٢٤ .

(٥) آل عمران . ١٨٣ .

(٦) في الكافي مسنداً عن أبي عبدالله عليه السلام قيل له : قوم يعملون بالمعاصي ويقولون نرجو فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت فقال : « هؤلاء قوم يترجحون في الاماني ، كذبوا ليسوا براجين ، ان من رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شيء هرب منه » . وفيه أيضاً قيل له عليه السلام : ان قوماً من مواليك يلمون بالمعاصي و يقولون نرجو ، فقال : « كذبوا ليسوا لنا بموال ، اولئك قوم ترجّحت بهم الاماني ، من رجا شيئاً عمل له و من خاف من شيء هرب منه » .

نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل فهو معتوه، فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحاً أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور، و كما أنّه إذا نكح و وطىء و أنزل بقي متردّداً في الولد يخاف و يرجو فضل الله في خلق الولد و دفع الآفات عن الرّحم وعن الأمّ إلى أن يتمّ فهو كيّس فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات و ترك السيّئات و بقي متردّداً بين الخوف و الرّجاء يخاف أن لايقبل منه وأن لايثاب عليه وأن يختم له بالسوء ويرجو من فضل الله أن يثبته بالقول الثابت في الحياة الدّنيا و في الآخرة و يحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتّى يموت على التوحيد و يحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقيّة عمره حتّى لايميل إلى المعاصي فهو إذن كيّس، و من عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله و سوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلّ سبيلاً و لتعلمنّ نبأه بعد حين، و عند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم: « ربّنا أبصرنا و سمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنّا موقنون »(١) أي علمنا أنّه كما لا يولد ولد إلّا بوقاع ونكاح، ولاينبت زرع إلّا بحراثة و بثّ بذر، فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب و أجر إلّا بعمل صالح، فارجعنا نعمل صالحاً فقد علمنا الآن صدقك في قولك: « و أن ليس للإنسان إلّا ماسعى وأنّ سعيه سوف يرى »(٢) و « كلّما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير »(٣) أي ألم نسمعكم سنّة الله في عباده وأنّه « توفّى كلّ نفس ما كسبت »؟ و أنّ « كلّ نفس بما كسبت رهينة » فما الّذي غرّكم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم؟ « قالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير ٭ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير »(٤).

فإن قلت: فأين مظنّة الرّجاء و موضعه المحمود؟ فاعلم أنّه محمود في موضعين: أحدهما في حقّ العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان: وأنّى تقبل توبتك؟ فيقنطه من رحمة الله فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكّر

---

(١) السجدة: ١٢.

(٢) النجم: ٤٠. (٣) و (٤) الملك: ٨ و١٠.

أنّ الله كريمٌ يقبل التوبة عن عباده و أنّ التوبة طاعة تكفّر الذّنوب قال تعالى : « قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذّنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم ۞ و أنيبوا إلى ربّكم و أسلموا له » (١) أمرهم بالإنابة و قال : « و إنّي لغفّارٌ لمن تاب و آمن و عمل صالحاً ثمّ اهتدى » (٢) فإذا توقّع المغفرة مع التوبة فهو راج و إن توقّع المغفرة مع الإصرار فهو مغرورٌ ، كما أنّ من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان : إنّك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك فكذّب الشيطان و قام يعدو وهو يرجو إدراك الجمعة فهو راج و إن استمرّ على التجارة و أخذ يرجو تأخير الإمام الصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب الّتي لا يعرفه فهو مغرور لا محالة .

و الثاني أن تفتر نفسه من فضائل الأعمال و يقتصر على الفرائض فيرجّي نفسه نعيم الله تعالى و ما وعد الله به الصالحين حتّى ينبعث من الرّجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل و يتذكّر قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون ۞ الّذين هم في صلوتهم خاشعون - إلى قوله - اُولئك هم الوارثون ۞ الّذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »(٣) فالرّجاء الأوّل يقمع القنوط المانع من التوبة و الرّجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط و التشمّر ، فكلّ توقّع حثّ على توبة أو على تشمّر في العبادة فهو رجاء و كلّ توقّع أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرّة كما إذا خطر له أن يترك الذنب و يشتغل بالعمل فيقول له الشيطان : مالك و إيذاء نفسك و تعذيبها ولك ربٌّ كريمٌ غفور رحيم فيفتر به عن التوبة و العبادة فهي الغرّة و عند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوّف نفسه بغضب الله و عظيم عقابه ويقول : إنّه مع أنّه غافر الذّنب و قابل التوب شديد العقاب . وإنّه مع أنّه كريمٌ خلّد الكفّار في النار أبد الآباد مع أنّه لم يضرّه كفرهم بل سلّط العذاب و المحن

---

(١) الزمر : ٥٣ و ٥٤ .　　(٢) طه : ٨٢ .

(٣) المؤمنون ١ الى ١٢ .

و الأمراض و العلل و الفقر و الجوع على جملة من عباده في الدّنيا و هو قادر على إزالتها فمن هذه سنّته في عباده وقد خوّفني عقابه فكيف لا أخافه وأغترّ به، فالخوف و الرّجاء قائدان و سائقان يبعثان على العمل، فما لا يبعث على العمل فهو تمنّ و غرور، و رجاء كافّة الخلق هو سبب فتورهم و سبب إقبالهم على الدّنيا و سبب إعراضهم عن الله وإهمالهم السعي للآخرة فذاك غرور وقد أخبر النبيّ ﷺ وذكر أنّ الغرور سيغلب على آخر هذه الأمّة [1] وقد كان ماوعد به ﷺ.

فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات و يؤتون ما آتوا و قلوبهم و جلة أنّهم إلى ربّهم راجعون، يخافون على أنفسهم و هو طول اللّيل و النهار في طاعة الله يبالغون في التقوى و الحذر من الشهوات و الشبهات و يبكون على أنفسهم في الخلوات، و أمّا الآن فترى الناس آمنين مسرورين مطمئنّين غير خائفين، مع إكبابهم على المعاصي و انهماكهم في الدّنيا و إعراضهم عن الله تعالى، زاعمين أنّا واثقون بكرم الله و فضله و راجون لعفوه و مغفرته كأنّهم يزعمون أنّهم عرفوا من كرم الله و فضله مالم يعرفه الأنبياء و السلف الصالحون فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى و ينال بالهوينا فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم و قد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الرّجاء و الخوف. وقد قال رسول الله ﷺ فيمارواه معقل بن يسار: «يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرّجال كما تخلق الثياب على الأبدان، أمرهم كلّه يكون طمعاً لا خوف معه، إن أحسن أحدهم قال: يتقبّل منّي، و إن أساء قال: يغفرلي» [2] فأخبر أنّهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه. وبمثله أخبرعن النصارى إذ قال: «فخلف من بعدهم خلف و رثوا الكتاب (أي علماء) يأخذون عرض هذا الأدنى (أي شهواتهم من الدّنيا حلالاً كان أو حراماً) و يقولون سيغفر

---

(١) في حديث أبي ثعلبة وقد تقدم.

(٢) قال العراقي: أخرجه أبومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس بنحوه بسند فيه جهالة. ولم أره من حديث معقل.

لنا » (١) وقال تعالى : « ذلك لمن خاف مقامي و خاف وعيد » (٢) و القرآن من أوّله إلى آخره تحذيرٌ و تخويفٌ لايتفكّر فيه متفكّرٌ إلّا و يطول حزنه و يعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه وترى الناس يهذّونه هذّاً ، يخرجون الحروف من مخارجها و يتناظرون على رفعها و خفضها و نصبها و كأنّهم يقرؤون شعراً من أشعار العرب لايهمّهم الالتفات إلى معانيه و العمل بما فيه . وهل في العالم غرور يزيد على هذا ؟ فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرّجاء والغرور ، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص إلّا أنّ معاصيهم أكثروهم يتوقّعون المغفرة ويظنّون أنّه تترجّح كفّة حسناتهم مع أنّ ما في كفّة السيّئات أكثر و هذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدّق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون مايتناول من أموال المسلمين و الشبهات أضعافه و لعلّ ما تصدّق به من أموال المسلمين وهو يتّكل عليه ويظنّ أنّ أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدّق بعشرة من الحلال أو الحرام و ما هو إلّا كمن وضع عشرة دراهم في كفّة ميزان و في الكفّة الاُخرى ألف و أراد أن يميل الكفّة الثقيلة بالكفّة الخفيفة وذلك غاية الجهل ، نعم ومنهم من يظنّ أنّ طاعاته أكثر من معاصيه لأنّه لايحاسب نفسه ولايتفقّد معاصيه وإذا عمل طاعة حفظها واعتدّ بها كالّذي يستغفر الله بلسانه أويسبّح الله في اليوم مائة مرّة ثمّ يغتاب المسلمين ويمزّق أعراضهم و يتكلّم بمالايرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد و يكون نظره إلى عدد سبحته وأنّه استغفر مائة مرّة و غفل عن هذيانه طول نهاره الّذي لو كتبها لكان مثل تسبيحه مائة مرّة أو ألف مرّة وقد كتبه الكرام الكاتبون وأوعدالله العقاب على كلّ كلمة وقال : « مايلفظ من قول إلّا لديه رقيبٌ عتيد » (٣) فهو أبداً يتأمّل في فضائل التسبيحات والتهليلات ولايلتفت إلى ماورد في عقوبة المغتابين والكذابين والنّمامين ، والمنافقين يظهرون من الكلام مالايضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللّسان وذلك محض الغرور ولعمري لوكان الكرام الكاتبون يطلبون منه اُجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه

---

(١) الاعراف ١٦٩ . (٢) ابراهيم : ١٤

(٣) سورة ق : ١٧ .

الّذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكفّ لسانه حتّى عن جملة من مهمّاته وما نطق به في فتراته كان يعدّه و يحسبه و يوازنه بتسبيحاته حتّى لا يفضل عليه اُجرة نسخه، فياعجباً لمن يحاسب نفسه و يحتاط خوفاً على قيراط يفوته في الاُجرة على النسخ ولا يحتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى و نعيمه، ما هذه إلّا مصيبة عظيمة لمن تفكّر فيها وقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنّا من الكفرة الجاحدين وإن صدقنا به كنّا من الحمقى المغرورين فما هذه أعمال من يصدّق بما جاء به القرآن و إنّا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفر، فسبحان من صدّنا عن التنبّه و اليقين مع هذا البيان و ما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة و الغرور على القلوب أن يخشى و يتّقي ولا يغترّ به اتّكالاً على أباطيل المنى و تعاليل الشيطان و الهوى.

✿ (بيان أصناف المغترّين و أقسام فرق كلّ صنف من الاصناف) ✿

الصنف الأوّل أهل العلم والمغترّون منهم فرق: ففرقة منهم أحكموا العلوم الشرعيّة و العقليّة و تعمّقوا فيها و اشتغلوا بها و أهملوا تفقّد الجوارح وحفظها عن المعاصي و إلزامها الطاعات، و اغترّوا بعلمهم، و ظنّوا أنّهم عندالله بمكان، و أنّهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لايعذّب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم، و أنّه لايطالبهم بذنوبهم و خطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون، فإنّهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أنّ العلم علمان علم معاملة و علم مكاشفة وهو العلم بالله تعالى و بصفاته المسمّى بالعادة علم المعرفة، فأمّا العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال و الحرام و معرفة أخلاق النفس المذمومة و المحمودة و كيفيّة علاجها والفرار منها فهي علم لاتراد إلّا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، و كلّ علم يراد للعمل فلاقيمة له دون العمل، فمثال هؤلاء كمريض به علّة لايزيلها إلّا دواء مركب من أخلاط كثيرة لايعرفها إلّا حذّاق الأطباء فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتّى عثر على طبيب حاذق فعلّمه الدواء وفصّل له الأخلاط و أنواعها و مقاديرها ومعادنها الّتي منها تجتلب و علّمه كيفيّة دقّ كلّ واحد منها و كيفيّة الخلط والعجن، فتعلّم ذلك منه فكتب منه نسخة حسنة بخطّ حسن ورجع

إلى بيته وهو يكرّرها و يقرؤها و يعلّمها المرضى ولم يشتغل بشربها و استعمالها ، أفترى أنّ ذلك يغني عنه من مرضه شيئاً ؟ هيهات هيهات لو كتب منه ألف نسخة وعلّمه ألف مريض حتّى شفي بجميعهم و كرّره كلّ ليلة ألف مرّة لم يغنه ذلك من مرضه شيئاً إلّا أن يزن الذّهب و يشتري الدّواء و يخلطه كما تعلّم و يشربه و يصبر على مرارته و يكون شربه في وقته وبعد تقديم الاحتماء و جميع شروطه ، و إذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف إذا لم يشربه أصلاً ، فمهما ظنّ أنّ ذلك يكفيه و يشفيه فقد ظهر غروره ، و هكذا الفقيه الّذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها ، و أحكم علم المعاصي ولم يجتنبها ، و أحكم علم الأخلاق المذمومة ولم يزكّ نفسه منها ، و أحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتّصف بها فهو مغرور إذ قال الله تعالى : « قد أفلح من زكّيها » (١) ولم يقل قد أفلح من تعلّم كيفية تزكيتها و كتب علمها و علّمها الناس ، وعند هذا يقول له الشيطان : لا يغرّنك هذا المثال فإنّ العلم بالدّواء لا يزيل المرض و إنّما مطلبك القرب من الله تعالى و ثوابه و العلم يجلب الثواب ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضل العلم ، فإن كان المسكين معتوهاً مغروراً وافق ذلك مراده و هواه فاطمأنّ إليه و أهمل العمل و إن كان كيّساً فيقول للشيطان : أتذكّرني فضائل العلم و تنسيني ماورد في العالم الفاجر الّذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى : « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث » (٢) و كقوله تعالى : « مثل الّذين حمّلوا التورية ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » (٣) فأيّ خزي أعظم من التمثيل بالكلب و الحمار ؟! وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله تعالى إلّا بعداً » (٤) .

وقال صلّى الله عليه وآله : « يلقى العالم في النّار فتندلق أقتابه فيدوربها في النّار كما يدور الحمار في الرّحى » (٥) .

---

(١) الشمس : ١٠ . (٢) الاعراف . ١٧٦ .

(٣) الجمعة : ٥ . (٤) تقدم في المجلد الاول ابواب العلم .

(٥) تقدم آنفاً عن أحمد رواه في مسنده .

وقال ﷺ : « شرّ الناس العلماء السوء » (١) وقال ﷺ : «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » (٢) فهذا و أمثاله ممّا أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى إلّا أنّ هذا فيما لا توافق هوى العالم الفاجر و ما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه و ذلك عين الغرور فانّه إن نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه وإن نظر بعين الإيمان فالّذي أخبره بفضيلة العلم هو الّذي أخبره بذمّ العلماء السوء وأنّ حالهم عند الله تعالى أشدّ من حال الجهّال فبعد ذلك اعتقاده أنّه على خير مع تأكّد حجّة الله عليه غاية الغرور . و أمّا الّذي يدّعي علوم المكاشفة كالعلم بالله و صفاته و أسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيّع أمر الله تعالى وحدوده فغروره أشدّ ، ومثاله كمن أراد خدمة ملك فعرف الملك و عرف أخلاقه و أوصافه ولونه و شكله و طوله وعرضه وعادته ومجالسه ولم يتعرّف مايحبّه ويكرهه ومايغضب عليه وما يرضى به أو عرف ذلك إلّا أنّه قصد خدمته وهو ملابس بجميع مايغضب به وعاطل عن جميع مايحبّه من زيّ وهيئة و كلام وحركة وسكون ، فورد على الملك و هو يريد التقرّب منه و الاختصاص به متلطّخاً بجميع مايكرهه الملك ، عاطلاً عن جميع مايحبّه ، متوسّلاً إليه بمعرفته له و لنسبه و اسمه و بلده و شكله وصورته و عادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيّته ، فهذا مغرورٌ جدًّا إذ لو ترك جميع ماعرفه واشتغل بمعرفته فقطّ و معرفة ما يحبّه ويكرهه لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه والاختصاص به ، بل تقصيره في التقوى و اتّباعه للشهوات يدلّ على أنّه لم ينكشف له من معرفة الله تعالى إلّا الأسامي دون المعاني ، إذ لو عرف الله تعالى حقّ معرفته لخشيه واتّقاه قال الله تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » (٣) و فاتحة الزّبور « رأس الحكمة خشية الله » . وقال ابن مسعود : « كفى بخشية الله

---

(١) أخرجه البزار من حديث معاذ هكذا « شرار الناس شرار العلماء في الناس » باسناد حسن كما في الجامع الصغير وقد تقدم .

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير و فيه عثمان البري قال الفلاس : صدوق لكنه كثير الغلط و ضعفه أحمد و النسائي والدار قطني كما في مجمع الزوائد ج ١ ص ١٨٥ .

(٣) فاطر : ٢٨ .

علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً » .

فإذن الفقيه من فقه عن الله أمره و نهيه و علم من صفاته ما أحبّه وما كرهه ، فهو العالم بالحقيقة « و من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدّين » فإذا لم يكن بهذا الصفة فهو من المغرورين .

وفرقة اُخرى أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي إلّا أنّهم لم يتفقّدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عندالله تعالى من الكبر و الحسد و الرّياء و طلب الرّئاسة و العلاء و إرادة السوء للأقران و النظراء و طلب الشهرة في البلاد والعباد و ربّما لم يعرف بعضهم أنّ ذلك مذموم فهو مكبٌّ عليها غير محترز عنها ولا يلتفت إلى قوله صلّى الله عليه وآله : « أدنى الرّياء شرك » [1] و إلى قوله : « لايدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر » [2] و إلى قوله : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » [3] و إلى قوله : « حبّ المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » [4] إلى غير ذلك من الأخبار الّتي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة ، فهؤلاء زيّنوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم و نسوا قوله صلّى الله عليه وآله : « إنّ الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم و إنّما ينظر إلى قلوبكم و أعمالكم » [5] فتعهّدوا الأعمال وما تعهّدوا القلوب والقلب هو الأصل إذلاينجو إلّا من أتى الله بقلب سليم ، و مثال هؤلاء كبئر الحشّ ظاهرها جصٌّ و باطنها نتن ، أو كقبور الموتى ظاهرها مزيّنة و باطنها جيفة ، أو كبيت مظلم باطنه ووضع السراج على ظاهره حتّى استنار ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل قصد ضيافة الملك إلى داره فجصّص باب داره و ترك المزابل في صدر داره ، ولايخفى أنّ ذلك غرورٌ بل أقرب مثال إليه رجل زرع زرعاً فنبت و نبت معه حشيش يفسده فأمر

(١) تقدم في كتاب ذم الجاه و الرياء .

(٢) تقدم في كتاب الكبر والعجب .

(٣) تقدم في كتاب الغضب و الحقد و الحسد .

(٤) تقدم في كتاب ذم الدنيا .

(٥) تقدم في كتاب عجائب القلب ظاهراً .

بتنقية الزّرع عن الحشيش بقلعه من أصله فأخذ يجزّ رأسه وأطرافه فلايزال يقوى أصله و ينبت ، لأنّ مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب فمن لايطهّر القلب منها لم تتمّ له الطاعات الظاهرة إلّا مع الآفات الكثيرة بل هو كمريض ظهر به الجرب وقدأُمر بالطلاء و شرب الدّواء ، فالطلاء ليزيل ما على ظهره و الدّواء ليقلع مادّته من باطنه فقنع بالطلاء و ترك الدّواء و بقي يتناول مايزيد في المادّة فلا يزال يطلي الظاهر و الجرب دائم به ينفجّر من المادّة الّتي في الباطن .

وفرقة أُخرى علموا هذه الأخلاق الباطنة ، وعلموا أنّها مذمومة من جهة الشرع إلّا أنّهم لعجبهم بأنفسهم يظنّون أنّهم منفكّون عنها و أنّهم أرفع عندالله من أن يبتليهم بذلك و إنّما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم ، فأمّا هو فأعظم عندالله من أن يبتليه ، ثمّ إذا ظهر عليه مخائل الكبر و الرئاسة و طلب العلوّ و الشرف قال : ماهذا كبرٌ و إنّما هذا طلب عزّ الدّين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله و إرغام أنف المخالفين من المبتدعين . فإنّي لو لبست الدّون من الثياب وجلست في الدّون من المجالس لشمتت بي أعداء الدّين وفرحوا به وكان ذلّي ذلّاً على الإسلام و نسي المغرور أنّ عدوّه الّذي حذّره مولاه منه هو الشيطان و أنّه يفرح بمايفعله ويسخر به ، ونسي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله بماذا نصر الدّين وبماذا أرغم الكافرين ، و نسي ما روي عن السلف من التواضع و التبذّل و القناعة بالفقر و المسكنة حتّى عوتب بعضهم في بذاذة زيّه فقال : إنّا قومٌ أعزّنا الله بالإسلام فلا نطلب العزّ في غيره . ثمّ هذا المغرور يطلب عزّ الدّين بالثياب الرّقيقة من القصب الدّبيقي و الأبريسم المحرم و الخيول و المراكب و يزعم أنّه يطلب به عزّ الدّين و شرف العلم و كذلك مهما أطلق اللّسان بحسد في أقرانه أو في من ردّ عليه شيئاً من كلامه لم يظنّ بنفسه أنّ ذلك حسدٌ ولكن قال : إنّماهذا غضب للحقّ و ردّ على المبطل في عدوانه و ظلمه . ولم يظنّ بنفسه أنّ ذلك من الحسد حتّى يعتقد أنّه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رئاسة و زوحم فيها هل كان غضبه و عداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله أم لا يغضب مهما طعن في عالم آخر و منع

بل ربّما يفرح به فيكون غضبه لنفسه ، و حسده لأقرانه من خبث باطنه و هكذا يرائي بأعماله و بعلومه ، و إذاخطر له خاطر الرّياء قال : هيهات إنّما غرضي من إظهار العلم و العمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا إلى دين الله و يتخلّصوا من عقاب الله ولا يتأمّل المغرور أنّه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما بفرح باقتدائهم به فلوكان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان ، كمن له عبيد مرضى يريدمعالجتهم لم يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر ، وربّما يذكر هذا له فلا يخلّيه الشيطان أيضاً بل يقول : إنّما ذاك لأنّهم إذا اهتدوا بي كان الأجر و الثواب لي فإنّما فرحي بثواب الله تعالى لابقبول الخلق ، هذا ما يظنّه بنفسه والله يطّلع من ضميره على أنّه لو أخبره نبيّ بأنّ ثوابه في الخمول و إخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار ، و حبس مع ذلك في سجن و قيّد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن و حلّ السلاسل حتّى يرجع إلى موضعه الّذي به يظهر رئاسته من تدريس أو وعظ أو غيره ، و كذلك يدخل على السلطان و يتودّد إليه و يثني عليه و يتواضع له ، و إذا خطر له أنّ التواضع للسلاطين الظلمة حرامٌ قال له الشيطان : هيهات إنّما ذلك عند الطمع في مالهم وأمّا أنت فغرضك أن تتشفّع للمسلمين وتدفع الضرّ عنهم و تدفع شرّ أعدائك عن نفسك والله يعلم من باطنه أنّه لوظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفّعه في كلّ مسلم حتّى يدفع الضرر عن جميع المسلمين لثقل ذلك عليه ، ولو قدر على أن يقبّح حاله عندالسلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل ، و كذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم و إذا خطر له أنّه حرامٌ قال له الشيطان : هذا مال لامالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين و عالمهم وبك قوام دين الله أفلا يحلّ لك أن تأخذ قدر حاجتك ؟ فيغترّ بهذا التلبيس في ثلاثة اُمور : أحدها في أنّه مال لا مالك له و أنّه يعرف أنّه يأخذ الخراج من المسلمين و أهل السّواد والّذين اُخذ منهم أحياء قيام و أولادهم و ورثتهم أحياء ، و نهاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم و من غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها فلا خلاف في أنّه مال حرام و لا يقال : هو مال لا مالك له و يجب أن يقسّم بين

العشرة و يردّ إلى كلّ واحد عشرة وإن كان مال كلّ واحد قد اختلط بمال الآخر. الثاني في قوله : إنّك من مصالح المسلمين و بك قوام الدّين و لعلّ الّذين فسد دينهم و استحلّوا أموال السّلاطين و رغبوا في طلب الدّنيا والاقبال على الرّئاسة و الاعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الّذين زهدوا في الدّنيا و رفضوها و أقبلوا على الله ، فهو على التحقيق دجّال الدّين و قوام منهب الشياطين لا إمام الدّين إذ الإمام هو الّذي يقتدى به في الاعراض عن الدّنيا والاقبال على الله كالأنبياء و متابعيهم ، والدّجّال هو الّذي يقتدى به في الاعراض عن الله والاقبال على الدّنيا و لعلّ موت مثل هؤلاء أنفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنّه قوام الدّين و مثله كما قال عيسى عليه السلام للعالم السّوء : « إنّه كصخرة وقعت على فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزّرع ».

وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخّرة خارجة عن الحصر ، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير .

وفرقة اخرى أحكموا العلوم وطهّروا الجوارح و زيّنوها بالطاعات واجتنبوا ظاهر المعاصي و تفقّدوا أخلاق النفس و صفات القلب من الرّياء والحسد و الكبر والحقد و طلب العلوّ و جاهدوا أنفسهم في التبرّي منها و قلعوا من القلوب منابتها الجليّة القويّة و لكنّهم بعد مغرورون إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكائد الشيطان و خبايا خدايع النّفس مادقّ وغمض مدركه فلم يفطّنوا لها و أهملوها و إنّما مثاله من يريد تنقية الزّرع من الحشيش فدارعليه وفتّش عن كلّ حشيش رآه فقلعه إلّا أنّه لم يفتّش عمّالم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض وظنّ أنّ الكلّ قد ظهر وبرز ، وكان قدنبت من اُصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأهملها و هو يظنّ أنّه قد اقتلعها فاذا هوبها في غفلته وقدنبتت وقويت وأفسدت اُصول الزّرع من حيث لا يدري ، فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقّد للدّقائق فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم و ترتيبها و تحسين ألفاظها و جمع التصانيف فيها و هو يرى أنّ باعثه الحرص على إظهار دين الله و نشر شريعته

و لعلّ باعثه الخفيّ هو طلب الذّكر وانتشار الصيت في الأطراف و كثرة الرّحلة إليه من الآفاق وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزّهد والورع والعلم والتقديم له في المهمّات و إيثاره في الأغراض و الاجتماع حوله للاستفادة و التلذّذ بحسن الإصغاء عند حسن اللّفظ و الإيراد والتمتّع بتحريك الرّؤوس على كلامه والبكاء عليه والتعجّب منه و الفرح بكثرة الأصحاب و المستفيدين و السرور بالتخصّص بهذه الخاصيّة من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزّهد والتمكّن به من إطلاق لسان الطعن في الكافّة المقبلين على الدّنيا لا عن تفجّع بمصيبة الدّين و لكن عن إدلال بالتمييز و اعتداد بالتخصيص ، ولعلّ هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر و إمارة و عزّ و انقياد و توقير وحسن ثناء فلو تغيّرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزّهد بما يظهر من أعماله فعساه يتشوّش عليه قلبه و تختلط أوراده و وظائفه ، و عساه يعتذر بكلّ حيلة لنفسه و ربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه ، و عساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزّهد والورع و إن كان قد اعتقد فيه فوق قدره و ينبو قلبه عمّن عرف حدّ فضله و ورعه و إن كان ذاك على وفق حاله ، وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنّه يؤثره لتقدّمه في الفضل والورع وإنّما ذلك لأنّه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشدّ أصحابه إصغاء إليه و أحرص على خدمته ، و لعلّهم يستفيدون منه و يرغبون في العلم و هويظنّ أنّ قبولهم لإخلاصه و صدقه و قيامه بحقّ علمه فيحمد الله تعالى على ما يسّر على لسانه من منافع خلقه و يرى أنّ ذلك مكفّر لذنوبه و لم يتفقّد مع نفسه تصحيح النيّة فيه ، و عساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الخمول والعزلة و إخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده في العزلة والاختفاء لذّة القبول و عزّة الرّئاسة ولعلّ مثل هذا هو المراد بقول الشيطان : من زعم من ابن آدم أنّه بعلمه امتنع منّي فبجهله وقع في حبائلي . وعساه يصنّف ويجتهد فيه ظانّاً أنّه يجمع علم الله لينتفع به و إنّما يريد استطارة اسمه بحسن التصنيف فلو ادّعى مدّع تصنيفه و محا عنه اسمه و نسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأنّ ثواب الاستفادة من

التصنيف إنّما يرجع إلى المصنّف والله عالم بأنّه هو المصنّف لا من ادّعاه و لعلّه في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إمّا صريحاً بالدّعاوي الطويلة العريضة ، و إمّا ضمناً بالطعن في غيره ليستبين من طعنه في غيره أنّه أفضل ممّن طعن فيه و أعظم منه علماً و لقدكان في غُنية عن الطعن فيه و لعلّه يحكي من الكلام المزيّف ما يريد تزييفه فيعزيه إلى قائله و ما يستحسنه فلعلّه لا يعزيه إليه ليظنّ أنّه من كلامه فينقله بعينه كالسارق له أويغيّره أدنى تغيير كالّذي يسرق قميصاً فيتّخذه قباء حتّى لا يعرف أنّه مسروق و لعلّه يجتهد في تزيين ألفاظه و تسجيعها وتحسين نظمها كيلا ينسب إلى الرّكاكة و يرى أنّ غرضه ترويج الحكمة و تحسينها و تزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس . وعساه غافل عمّا روي أنّ بعض الحكماء وضع ثلاثمائة وستّين مصحفاً في الحكمة فأوحى الله إلى نبيّ زمانه قل له : قد ملأت الأرض نفاقاً و إنّي لا أقبل من نفاقك شيئاً . و لعلّ جماعة من هذا الصنف من المغترّين إذا اجتمعوا ظنّ كلّ واحد بنفسه السّلامة عن عيوب القلوب و خفاياها ، فلو افترقوا و أتبع كلّ واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كلّ واحد إلى كثرة من يتبعه وأنّه أكثر تبعاً أم غيره فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أنّ غيره أحقّ بكثرة الأتباع منه حسده ، ثمّ إذا تفرّقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا و تحاسدوا و لعلّ من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ثقل على قلبه و وجد في نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يهتزّ باطنه لإكرامه و لا يتشمّر لقضاء حوائجه كما كان يتشمّر من قبل ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى من قبل مع علمه بأنّه مشغول بالاستفادة ، ولعلّ التحيّز منه إلى فئة اُخرى كان أنفع له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة و سلامته منها في تلك الفئة ومع ذلك فلا تزول النفرة عن قلبه ، و لعلّ واحداً منهم إذا تحرّكت فيه مبادي الحسد لم يقدر على إظهاره فيعلّل بالطّعن في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك و يقول : إنّما غضبت لدين الله لا لنفسي ، و مهما ذكرت عيوبه بين يديه ربّما فرح به ، و إن أثني عليه ربّما ساءه و كرهه ، و ربّما قطب وجهه إذا ذكر عيوبه يظهر أنّه كاره لغيبة المسلمين و سرّ قلبه راض به و مريد له ، والله

مطّلع عليه في ذلك ، فهذا و أمثاله من خفايا العيوب لا يفطن لها إلّا الأكياس ، ولا يتنزّه عنها إلّا الأقوياء ، ولا مطمع فيها لأمثالنا من الضعفاء إلّا أنّ أقلّ الدّرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك و يكرهه ويحرص على إصلاحه ، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه ، و من سرّته حسنته و ساءته سيّئته فهو مرجوّ الحال و أمره أقرب من المغرور المزكّي لنفسه ، الممتنّ على الله تعالى بعلمه و عمله ، الظانّ أنّه من خيار خلقه فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار و من المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال ، و هذا غرور الّذين حصّلوا العلوم المهمّة و لكن قصّروا في العمل بالعلم . ولنذكر الآن غرور الّذين قنعوا من العلوم بما لا يهمّهم وتركوا المهمّ وهم به مغترّون إمّا لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم وإمّا لاقتصارهم عليه .

فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات و تفاصيل المعاملات الدّنيويّة الجارية بين الخلق لمصالح المعايش فخصّصوا اسم الفقه بها و سمّوه الفقه و علم المذهب ، و ربّما ضيّعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة ولم يتفقّدوا الجوارح ولم يحرسوا اللّسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرّجل عن المشي إلى السلاطين و كذا سائر الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والرّياء والحسد و سائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل و الآخر من حيث العلم ، أمّا العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه و أنّ مثالهم مثال المريض إذا تعلّم نسخة الدّواء و اشتغل بتكراره وحفظه وتعليمه ، لا بل مثالهم مثال من به علّة البواسير و البرسام و هو مشرف على الهلاك ، محتاج إلى تعلّم الدّواء و استعماله فاشتغل بتعلّم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلاً ونهاراً مع علمه بأنّه رجل لا يحيض و لا يستحاض و لكن يقول ربّما يقع علّة الاستحاضة لامرأة وتسألني عنها و ذلك غاية الغرور ، و كذلك المتفقّه المسكين قد تسلّط عليه حبّ الدّنيا و اتّباع الشهوات و الحسد و الكبر و الرّياء و سائر المهلكات الباطنة و ربّما يختطفه الموت قبل التوبة و التلافي فيلقى الله تعالى و هو عليه غضبان فترك ذلك كلّه واشتغل بعلم السلم والإجارة و الظهار و اللّعان و الجراحات و الدّيات و الدّعاوي و البيّنات و

بكتاب الحيض وهولا يحتاج إلى شيء من ذلك قطّ في عمره لنفسه وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والمال والرّئاسة و قد دهاه الشيطان و ما يشعر إذ يظنّ المغرور بنفسه أنّه مشغول بفرض كفاية دينيّة و ليس يدري أنّ الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ عن فرض العين معصية ، هذا لو كانت نيّته صحيحة كما قال ، و كان قد قصد بالفقه وجه الله تعالى فإنّه و إن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فروض عينه في جوارحه وقلبه ، فهذا غروره من حيث العمل ، و أمّا غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم الفتاوي وظنّ أنّه علم الدّين و ترك علم كتاب الله وسنّة نبيّه وربّما طعن على المحدّثين وقال : إنّهم نقلة أخبار و حملة أسفار لا يفقهون ، و ترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق و ترك الفقه عن الله بإدراك جلاله و عظمته و هو العلم الّذي يورث الخوف والهيبة و الخشوع و يحمل على التقوى فتراه آمناً من الله مغترّاً به متّكلاً على أنّه لابدّ و أن يرحمه فإنّه قوام دينه و إنّه لولم يشتغل بالفتاوي لتعطّل الحلال والحرام فقد ترك العلوم الّذي هي أهمّ وهو غافل مغرور و سبب غروره ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه و لم يدر أنّ ذلك الفقه هو الفقه عن الله و معرفة صفاته المخوّفة و المرجوّة ليستشعر القلب الخوف و يلازم التقوى إذ قال تعالى : « فلو لا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدّين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » (١) والّذي به يحصل الإنذار غير هذا العلم فإنّ مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات و حفظ الأبدان بالأموال و بدفع القتل والجراحات ، و المال في طريق الله تعالى آلة والبدن مركب وإنّما العلم المهمّ هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب الّتي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد و بين الله تعالى و إذا مات ملوّثاً بتلك الصّفات كان محجوباً عن الله تعالى ، فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحجّ على علم خرز الراوية و الخفّ و لا يشكّ في أنّه لو لم يكن لتعطّل الحجّ ولكنّ المقتصر عليه ليس من الحجّاج في شيء . وقد

(١) التوبة : ١٢٢ .

ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم . ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيّات ولم يهمّه إلّا تعلّم طريق المجادلة و الإلزام و إفحام الخصوم و دفع الحقّ لأجل الغلبة و المباهاة فهو طول اللّيل و النّهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب و التفقّد لعيوب الأقران و المتلقّف لأنواع التسبيبات المؤذية ، و هؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الإيذاء وهمّهم السفه ، ولايقصدون العلم إلّا لضرورة مايلزمهم لمباهاة الأقران ، فكلّ علم لايحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة و تبديلها بالمحمودة فإنّهم يستحقرونه ويسمّونه التزويق و كلام الوعّاظ و إنّما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة الّتي تجري بين المتصارعين في الجدل و هؤلاء قد جمعوا ما جمعه الّذين من قبلهم في علم الفتاوي لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضاً بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف . وأمّا أدلّة الأحكام فيشتمل عليها علم المذاهب وهو كتاب الله تعالى و سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وفهم معانيهما ، وأمّا حيل الجدل من الكسر والقلب و فساد الوضع والتركيب والتعدية فهي إنّما اُبدعت لإظهار الغلبة و الإفحام وإقامة سوق الجدل بها ، فغرور هؤلاء أشدّ كثيراً وأقبح من غرور من قبلهم .

وفرقة اُخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والردّ على المخالفين و تتبّع مناقضاتهم ، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة و اشتغلوا بتعلّم الطرق في مناظرة أولئك و إفحامهم و افترقوا في ذلك فرقاً كثيرة و اعتقدوا أنّه لايكون لعبد عمل إلّا بالإيمان ولايصحّ إيمان إلّا بأن يتعلّم جدلهم ومايسمّونه أدلّة عقائدهم وظنّوا أنّه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم وأنّه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلّم علمهم ودعت كلّ فرقة منهم إلى نفسها ثمّ هم فرقتان : ضالّة و محقّة ، والضالّة هي الّتي تدعو إلى غير السنّة ، و المحقّة هي الّتي تدعو إلى السنّة ، و الغرور شامل لجميعهم ، أمّا الضالّة فلغفلتها عن ضلالها و ظنّها بنفسها النجاة ، وهم فرق كثيرة يكفّر بعضهم بعضاً وإنّما اُتيت من حيث أنّها لم تتّهم رأيها ولم تحكم أوّلاً شروط الأدلّة ومنهاجها فرأى أحدهم الشبهة دليلاً والدّليل شبهة ، وأمّا الفرقة المحقّة

فإنّما اغترارها من حيث أنّها ظنّت بالجدل أنّه أهمّ الأمور و أفضل القربات في دين الله و زعمت أنّه لايتمّ لأحد دينه مالم يتفحّص ولم يبحث وإنّ من صدّق الله و رسوله من غيربحث وتحرير دليل فليس بمؤمن ولابكامل ولا مقرّب عندالله فلهذا النظر الفاسد قطعت أعمارها في تعلّم الجدل و البحث عن المقالات و هذيانات المبتدعة و مناقضاتهم و أهمل نفسه و قلبه حتّى عمى عليه ذنوبه و خطاياه الظاهرة والباطنة وهو يظنّ أنّ اشتغاله بالجدل أولى و أقرب عندالله و أفضل ولكنّه لالتذاذه بالغلبة والافحام ولذّة الرئاسة وعزّ الانتماء إلى الذّبّ عن دين‌الله عميت بصيرته ولم يلتفت إلى القرن الأوّل وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم شاهد لهم بأنّهم خيرالخلق و أنّهم قدأدركوا كثيراً من أهل‌البدع والأهواء فماجعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للخصومات والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقّد قلوبهم و جوارحهم و أحوالهم ، بل لم يتكلّموا فيه إلّا حيث رأوا حاجة و توسّموا مخائل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدلّ الضالّ على ضلالته ، وإذا رأوامصرّاً على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر بل قالوا : إنّ الحقّ هو الدّعوة إلى السنّة و من السنّة ترك الجدال في الدّعوة إلى‌السنّة إذ روى أبوأمامة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « ما ضلّ قومٌ قطّ بعد هدى إلّا اُتوا الجدل و حرموا العمل » (١) .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً على أصحابه وهم يتجادلون و يختصمون فغضب عليهم حتّى كأنّه فقيء في وجهه حبّ الرّمّان حمرة من الغضب فقال : « ألهذا بعثتم أبهذا اُمرتم أن تضربوا كتاب‌الله بعضه ببعض ؟ انظروا إلى مااُمرتم به فاعملوا وإلى مانهيتم عنه فانتهوا » (٢) .

فقد زجرهم رسول‌الله صلى الله عليه وآله وسلم عن‌ذلك وكانوا أولى خلق‌الله بالحجاج والجدال،

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٨ و رواه احمد و الترمذي و الحاكم أيضاً بسند حسن وقد تقدم .

(٢) أخرجه البزار و الطبراني في‌الكبير بادنى تفاوت من حديث ابى سعيد بسند ضعيف وفي الاوسط من حديث أنس و رجاله ثقات اثبات كما في مجمع الزوائد ج ١ ص ١٥٦ .

ثمّ إنّهم رأوا النبيّ ﷺ وقد بعث إلى كافّة أهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لالزام وإفحام و تحقّق حجّة و دفع سؤال و إيراد إلزام ، فما جادلهم إلّا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه لأنّ ذلك يشوّش القلوب ويستخرج منها الإشكالات والشبه ، ثمّ لايقدر على محوها من قلوبهم وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقييسات ودقائق الأقيسة ولم يعلّم أصحابه كيفيّة الجدل والإلزام .

ولكنّ الأكياس و أهل الحزم لم يغترّوا بهذا وقالوا : لونجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ، ولو نجونا و هلكوا لم يضرّنا هلاكهم ، و ليس علينا في المجادلة أكثر ممّاكان على الصحابة مع اليهود و النصارى وأهل الملل ، وماضيّعوا العمر بتحرير مجادلتهم فمالنانضيّع العمر ولانصرفه إلىما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا ولِمَ نخوض فيمالانأمن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله ثمّ نرى أنّ المبتدع ليس يترك بدعته بجدالنا بل يزيده التعصّب و الخصومة تشدّداً في بدعته فاشتغالي بمخاصمة نفسي و مجاهدتها ومجادلتها لتترك الدّنيا للآخرة أولى ، هذا لوكنت لم اُنه عن الجدل والخصومة فكيف وقد نهيت عنه فكيف أدعو إلى السنّة بترك السنّة فالأولى لي أن أتفقّد نفسي وأنظر من صفاتها مايبغضه الله تعالى لأتنزّه عمّا يبغضه وأتمسّك بما يحبّه .

وفرقة اُخرى اشتغلوا بالوعظ و أعلاهم رتبة من يتكلّم في أخلاق النفس و صفات القلب من الخوف و الرّجاء و الصبر والشكر و التوكّل و الزّهد و اليقين و الإخلاص و الصدق و نظائره ، وهم مغرورون يظنّون بأنفسهم أنّهم إذا تكلّموا بهذه الصفات و دعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفكّون عنها عندالله إلّا عن قدر يسير لاينفكّ عنه عوام المسلمين ، وغرور هؤلاء أشدّ الغرور لأنّهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ويظنّون أنّهم ماتبحّروا في علم المحبّة إلّا وهم محبّون لله وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلّا وهم مخلصون وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلّا وهم عنها منزّهون ولولا أنّه مقرّب عندالله لماعرّفه معنى القرب و البعد وعلم السلوك إلى الله وكيفيّة قطع المنازل في طريق الله ، فالمسكين

بهذه الظنّون یری أنّه من الخائفین وهو آمن من مکر الله ، و یری أنّه من الرّاجین وهو من المغترّین المضیّعین ، و یری أنّه من الرّاضین بقضاء الله عزّ وجلّ وهو من الساخطین ، و یری أنّه من المتوکّلین علی الله وهو من المتّکلین علی العزّ و الجاه و المال و الأسباب ، و یری أنّه من المخلصین وهو من المرائین ، بل یصف الإخلاص فیترك الإخلاص فی الوصف ، ویصف الرّیاء و یذکره وهو یرائي بذکره لیعتقد فیه أنّه لولا أنّه مخلص لما اهتدی إلی دقائق الرّیاء ، و یصف الزهد فی الدّنیا لشدّة حرصه علی الدّنیا وقوّة رغبته فیها ، فهو یظهر الدّعاء إلی الله وهو منه فارّ ، ویخوّف بالله وهو منه آمن ، و یذکّر بالله وهو له ناس ، و یقرّب إلی الله و هو منه متباعد ، ویحثّ علی الإخلاص و هو غیر مخلص ، و یذمّ الصفات المذمومة و هو بها متّصف ، و یصرف الناس عن الخلق و هو علی الخلق أشدّهم حرصاً ، لو منع عن مجلسه الّذي یدعو فیه الناس إلی الله تعالی لضاقت علیه الأرض بما رحبت [1] و یزعم أنّ غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق علیه و صلحوا علی یدیه لمات غمّاً و حسداً ، ولو أثنی أحدٌ من المتردّدین إلیه علی بعض أقرانه لکان أبغض خلق الله إلیه ، فهؤلاء أعظم الناس غرّة ، وأبعدهم عن التنبّه و الرّجوع إلی السداد لأنّ المرغّب فی الأخلاق المحمودة والمنفّر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها و هذا قد علم ذلك ولم ینفعه ، وشغله حبّ دعوة الخلق عن العمل به فبعد ذلك بماذا یعالج و کیف سبیل تخویفه نفسه وإنّما المخوّف ما یتلوه علی عباد الله فیخافون وهو لیس بخائف نعم لوظنّ بنفسه أنّه موصوف بهذه الصفات المحمودة یمکن أن یدلّ علی طریق الامتحان والتجربة وهو أنّه یدّعي مثلاً حبّ الله تعالی فما الّذي ترکه من محابّ الدّنیا لأجله ؟ و یدّعي الخوف فما الّذي امتنع منه بالخوف ؟ و یدّعي

---

(١) ای بما اتسعت والرحب : سعة المکان ومنه رحبة المسجد ، ورحبت الدار اتسعت ، واستعیر للواسع الجوف فقیل رحب البطن ، ولواسع الصدر کما استعیر الضیق لضده قال الله تعالی : « وضاقت علیهم الارض بما رحبت » ویقال رحیب الفناء لمن کثرت غاشیته . وقولهم مرحباً و اهلا ای وجدت مکاناً رحباً . (قاله الراغب فی مفرداته) .

الزّهد ؟ فما الّذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ؟ ويدّعي الاُنس بالله ، فمتى طابت له الخلوة ؟ ومتى استوحش من مشاهدة الخلق ؟ لا بل يرى قلبه يمتلي بالحلاوة إذا أحدق به المريدون وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى ، فهل رأيت محبّاً يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلى غيره ؟! الأكياس يمتحنون أنفسهم في هذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزويق بل بموثق من الله غليظ ، والمغترّون يحسنون بأنفسهم الظنون ، و إذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون ، بل يطرحون في الآخرة في النار فتندلق أقتابهم فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر [1]، لأنّهم يأمرون بالخير ولا يأتونه و ينهون عن الشرّ و يأتونه ، و إنّما وقع الغرور لهؤلاء لأنّهم يصادفون من قلوبهم شيئاً ضعيفاً من اُصول هذه المعاني وهو حبّ الله تعالى و الخوف منه و الرّضا بفعله ، ثمّ قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني فظنّوا أنّهم ما قدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها إلّا لاتّصافهم بها وذهب عليهم [2] أنّ القبول للكلام ، و الكلام للمعرفة ، و جريان اللّسان والمعرفة للعلم ، و أنّ كلّ ذلك غير الاتّصاف بالصفة ، فلم يفارق آحاد المسلمين في الاتّصاف بصفة الحبّ والخوف بل في القدرة على الوصف ، بل ربّما زاد أمنه و قلّ خوفه و ظهر إلى الخلق ميله ، وضعف في قلبه حبّ الله تعالى ، و إنّما مثاله مثال مريض يصف المرض و يصف دواءه بفصاحته و يصف الصحّة والشفاء ، و غيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحّة و الشفاء و أسبابه و درجاته وأصنافه ، فهؤلاء يفارقهم في صفة المرض والاتّصاف به ، وإنّما يفارقه في الوصف و العلم بالطبّ فظنّه عند علمه بحقيقة الصحّة أنّه صحيح غاية الجهل فكذلك العلم بالخوف والحبّ والتوكّل والزّهد و سائر هذه الصفات غير الاتّصاف بحقائقها ، و من التبس عليه وصف الحقائق بالاتّصاف بالحقائق فهو مغرورٌ ، فهذه حالة الوعّاظ الّذين لا عيب في كلامهم ، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن

(١) تقدم غير مرة في هذا الكتاب .

(٢) ذهب عليهم أى خفى فلم يدركوا .

و الأخبار .

وفرقة اُخرى منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ وهم وعّاظ أهل هذا الزّمان كافّة إلّامن عصمه الله على الندور في بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه فاشتغلوا بالطامات والشطح[1] وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلباً للاغراب ، وطائفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر همّهم في الاسجاع و الاستشهاد بأشعار الوصال و الفراق و غرضهم أن تكثر في مجلسهم الزّعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الإنس ضلّوا وأضلّوا عن سواء السبيل فإنّ الأوّلين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم و صحّحوا كلامهم و وعظهم ، و أمّا هؤلاء فإنّهم يصدّون عن السبيل ويجرّون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرّجاء فيزيدهم كلامهم جرأة على المعاصي و رغبة في الدّنيا لاسيّما إذا كان الواعظ متزيّناً بالثياب والخيل والمركب فإنّه تشهد هيئته من قرنه إلى قدمه بشدّة حرصه على الدّنيا فما يفسده هذا المغرور أكثر ممّا يصلحه بل لا يصلح أصلاً و يضلّ خلقاً كثيراً فلا يخفى وجه كونه مغروراً .

وفرقة اُخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزّهّاد و أحاديثهم في ذمّ الدّنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها و يؤدّونها من غير إحاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك

---

(١) « طامات » في اصطلاح العرفاء والمتصوّفة هي المعارف التي تصدر عن لسان السالك في أوّل سلوكه . و في رسائل خواجه عبدالله الانصاري ما لفظه :

« طامات سخني باشد نا مفهوم يا كنايتي نا معلوم و عبارت از داشتن يا نشان از نداشتن است ، كه خلق از آن عاجز باشند وعقل در آن معجز باشد و فؤاد در آن متفكر گردد و تفكر در آن متحير گردد ، يا سخني باشد از عيان بي شرح و بيان ، بشناسد آنكه با راه باشد يا از آن معني آگاه باشد ، و سخني باشد كه از وجدى صادر شود و گوينده نه حاضر باشد » اه . و الشطحة : الخرجة عن الاحكام المقررة و في اصطلاح المتصوفة الشطحات عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة و غلبة شهود الحق تعالى عليهم بحيث لايشعرون حينئذ بغير الحق كقول بعضهم « اناالحق » و « ليس في الجبة غير الله » قال في التاج : في مادة بهصم « لازم الخلوة وكانت له أحوال و شطحات » .

على المنابر و بعضهم في المحاريب و بعضهم في الأسواق مع الجلساء و كلّ منهم يظنّ أنّه إذا تميّز بهذا القدر عن السوقيّة والجنديّة ـ إذ حفظ كلام الزّهّاد وأهل الدّين دونهم ـ فقد أفلح ونال الفرض وصار مغفوراً له و أمن من عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره و باطنه عن الآثام ولكنّه يظنّ أنّ حفظه لكلام الزّهّاد من أهل الدّين يكفيه و غرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم.

وفرقة أخرى استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث أعني في سماعه وجمع الرّوايات الكثيرة منها و طلب الأسانيد الغريبة العالية، و همّة أحدهم أن يدور في البلاد و يرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان وقد لقيت فلاناً و معي من الأسانيد ما ليس مع غيري. وغرورهم من وجوه منها أنّهم كحملة الأسفار فإنّهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنّة فعلمهم قاصر وليس معهم إلّا النقل ويظنّون أنّ ذلك يكفيهم. و منها أنّهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بما فيها وقد يفهم بعضهم أيضاً فلا يعملون بها. و منها أنّهم يتركون العلم الّذي هو فرض عينهم وهو معرفة معالجة القلوب و يشتغلون بكثرة الاستنادات و طلب الأسانيد العالية ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك. و منها و هو الّذي أكبّ عليه أهل الزّمان أيضاً أنّهم لا يقومون بشرط السماع فإنّ السماع بمجرّده و إن لم تكن له فائدة و لكنّه مهمّ في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث إذ التفهّم بعد الإثبات و العمل بعد التفهّم، فالأوّل السماع ثمّ التفهّم ثمّ الحفظ ثمّ العمل ثمّ النشر[1]، وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثمّ تركوا حقيقة السماع فترى الصبيّ يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبيّ يلعب ثمّ يكتب اسم الصبيّ في السماع فإذا كبر تصدّى ليسمع منه و البالغ الّذي يحضر ربّما يغفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط و ربّما يشتغل بحديث

(١) في الكافي ج ١ ص ٤٨ عن أبي عبدالله، عن آبائه عليهم السلام قال: جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله ما العلم؟ قال: الانصات، قال: ثم مه؟ قال: الاستماع، قال: ثم مه؟ قال: الحفظ، قال: ثم مه؟ قال: العمل به، قال: ثم مه يا رسول الله؟ قال: نشره.

أو نسخ والشيخ الّذي يقرأ عليه لو صحّف أو غيّر ما يقرأ عليه لم يشعر و لم يعرفه و كلّ ذلك جهل وغرور إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله فيحفظه كما يسمعه و يرويه كما حفظ فتكون الرّواية عن الحفظ والحفظ عن السماع فإن عجز... عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وآله سمعته من الصحابة أو التابعين و صار سماعك عن الرّاوي كسماع من يسمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو أن تصغى وتحفظ وتروي كما حفظت وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغيّر منه حرفاً ولو غيّر غيرك منه حرفاً أو أخطأ علمت خطأه ، و لحفظك طريقان أحدهما أن تحفظ بالقلب و تستديمه بالذّكر و التكرار كما تحفظ ماجرى على سمعك في مجاري الأحوال و الثاني أن تكتب كما تسمع و تصحّح المكتوب و تحفظ كتابك حتّى لا تصل إليه يد من يغيّره و يكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك فإنّه لو امتدّت إليه يد غيرك ربّما غيّره وإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكّراً لما سمعته و تأمن فيه من التغيير والتحريف فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غُفل وفارقت المجلس الّذي قرأت فيه ثمّ رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوّزت أن يكون ما فيه مغيّراً أو يفارق حرف منه من النسخة الّتي سمعتها لم يجز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب فإنّك لا تدري لعلّك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو في كلمة ، فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها فمن أين تعلم أنّك سمعت ذلك وقد قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم »(١) وقول الشيوخ كلّهم في هذا الزّمان إنّا سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الّذي ذكرناه فهو كذب صريح وأقلّ شروط السماع أن يجري الجميع على سمعك مع نوع من الحفظ يشعر بالتغيير ، و لو جاز أن يكتب سماع الصبيّ و الغافل والنائم الّذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع الصبيّ في المهد و سماع المجنون ثمّ إذا بلغ الصبيّ و أفاق المجنون يسمع عليه و لا خلاف في عدم جوازه و لو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبيّ في المهد

---

(١) الاسراء : ٣٦ .

لأنّه لا يفهم ولا يحفظ، فالصبيّ الّذي يلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ، و هل للسماع مستند إلّا قول رسول الله ﷺ: «نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها»[1] وكيف يؤدّي كما سمعها مَن لا يدري ما سمعه فهذا هو أفحش أنواع الغرور و قد بلي به أهل الزّمان و لو احتاط أهل الزّمان لم يجدوا شيوخاً إلّا الّذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة إلّا أنّ للمحدّثين في ذلك جاهاً و قبولاً، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقلّ من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم وتقلّ أيضاً أحاديثهم الّتي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربّما عدموا ذلك وافتضحوا فاصطلحوا على أنّه ليس يشترك إلّا أن يقرع سمعه دمدمة و إن كان لا يدري ما يجري وصحّة السماع لاتعرف من قول المحدّثين لأنّه ليس من علمهم بل من علم علماء أصول الفقه و ما ذكرناه مقطوع به في قوانين اُصول الفقه، فهذا غرور هؤلاء ولو سمعوا على الشرط لكانوا مغرورين في اقتصارهم على النقل و في إفناء أعمارهم في جمع الرّوايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمّات الدّين و معرفة معاني الأخبار، بل الّذي يقصد من الحديث سلوك طريق الله تعالى ربّما يكفيه الحديث الواحد عمراً كما روي عن بعض الشيوخ أنّه حضر مجلس السماع فكان أوّل حديث روي قوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه»[2] فقام وقال: يكفيني هذا حتّى أفرغ منه ثمّ أسمع غيره فهكذا كان سماع الأكياس الّذين يحذرون الغرور.

وفرقة اُخرى اشتغلوا بعلم النحو و اللّغة والشعر و غريب اللّغة واغترّوا به وزعموا أنّهم قد غفر لهم و أنّهم من علماء الأمّة إذ قوام الدّين بالكتاب والسنّة وقوام الكتاب والسنّة بعلم اللّغة و النحو فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو و في صناعة الشعر و في غريب اللّغة و مثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلّم الخطّ و تصحيح

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٣٦ من حديث أنس و تحت رقم ٢٣٠ من حديث زيد بن حارث و غيره.

(٢) أخرجه الترمذي وابن مالك و قد تقدم.

الحروف و تحسينها و يزعم أنّ العلوم لا يمكن حفظها إلّا بالكتابة فلابدّ من تعلّمها و تصحيحها و لو عقل لعلم أنّه يكفيه أن يتعلّم أصل الخطّ بحيث يمكن أن يقرأ كيف ما كان والباقي زيادة على الكفاية ، وكذلك الأديب لو عقل لعرف أنّ لغة العرب كلغة الترك والمضيّع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيّع عمره في معرفة لغة الترك والهند وإنّما فارقتها لأجل ورود الشريعة بها فيكفي من اللّغة علم الغريبين في الأحاديث و الكتاب و من النحو ما يتعلّق بالكتاب و السنّة و أمّا التعمّق فيه إلى درجات لا تتناهى ففضول مستغنى عنه ، ثمّ لو اقتصر عليه و أعرض عن معرفة المعاني الشرعيّة و العمل بها فهو أيضاً مغرور ، بل مثاله مثال من ضيّع العمر في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه و هو غرور إذ المقصود من الحروف المعاني و إنّما الحروف ظروف و أدوات و من احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزيل ما بمعن الصّفراء فضيّع أوقاته في تحسين القدح الّذي يحفظ فيه السكنجبين فهو من الجهّال المغرورين ، فكذلك غرور أهل النحو واللّغة و الأدب و القراءة و التدقيق في مخارج الحروف مهما تعمّقوا فيها وتجرّدوا لها وعرّجوا عليها أكثر ممّا يحتاج إليه في تعلّم العلوم الّتي هي فرض عين فاللّبّ الأقصى هو العمل والّذي فوقه هو معرفة العلم و هو كالقشر للعمل ، وكاللّبّ بالاضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ و حفظها بطريق الرّواية و هو قشر بالاضافة إلى المعرفة و لبّ بالاضافة إلى ما فوقه و ما فوقه هو العلم باللّغة و النحو و فوق ذلك و هو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف ، والقانعون بهذه الدّرجات كلّهم مغرورون إلّا من اتّخذ هذه الدّرجات منازل فلم يعرّج عليها إلّا بقدر حاجته فيجاوزها إلى ما وراءها حتّى وصل إلى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه و جوارحه و رجى عمره في حمل النفس عليه ، و تصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه و قشور له ومنازل بالاضافة إليه و كلّ من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد و هذه العلوم لمّا كانت متعلّقة بعلوم الشرع أغترّ بها أربابها ، فأمّا علم الطبّ والحساب

والصناعات و ما يعلم أنّه ليس من علوم الشرع فلايعتقد أصحابها أنّهم ينالون المغفرة بها من حيث أنّها علوم و كان الغرور فيها أقلّ من الغرور بعلوم الشرع ، لأنّ العلوم الشرعيّة مشتركة في أنّها محمودة كما يشارك القشر اللّبّ في كونه محموداً و لكنّ المحمود منه بعينه هو المنتهى والباقي محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى فمن ظنّه مقصوداً و عرّج إليه فقد اغترّ به .

و فرقة اُخرى عظم غرورهم في فنّ الفقه و ظنّوا أنّ حكم العبد بينه و بين الله تعالى يتبع حكمه في مجلس القضاء فوضعوا الحيل في دفع الحقوق واساؤوا تأويل الألفاظ المبهمة و اغترّوا بالظواهر و أخطأوا فيها و هذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه و الخطأ في الفتوى ممّا يكثر ولكنّ هذا نوع عمّ الكافّة إلّا الأكياس منهم فنشير إلى أمثلة له فمن ذلك فتواهم بأنّ المرأة مهما أبرأت الزوج من الصداق برىء الزوج بينه و بين الله تعالى و ذلك خطأ بل الزّوج قديسيىء إلى الزّوجة بحيث يضيق عليها الاُمور بسوء الخلق فتضطرّ إلى طلب الخلاص فتبرىء الزّوج لتتخلّص منه و هو إبراء من غير طيبة نفس و قد قال تعالى : « فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً »(١) وطيبة النفس غير طيبة القلب فالقلب قد يريد مالا تطيب به النفس كالإنسان يريد الحجامة بقلبه و لكن تكرهها نفسه ، فإنّما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله حتّى إذا ردّدت بين ضررين اختارت أهونهما فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه الباطن نعم القاضي في الدّنيا لا يطّلع على القلوب و الأغراض فينظر إلى الإبراء الظاهر و إنّها لم تكره بسبب ظاهر والإكراه الباطن ليس يطّلع الخلق عليه و لكن مهما تصدّى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوباً ولا مفيداً في تحصيل الإبراء و كذلك لا يحلّ مال الإنسان أن يؤخذ إلّا بطيبة النفس منه فلو طلب من إنسان مالاً على ملاء من الناس فاستحيى من الناس أن لا يعطيه و كان يودّ أن يكون سؤاله في خلوة حتّى لا يعطيه و لكن خاف ألم مذمّة الناس ، و خاف ألم تسليم المال و ردد نفسه بينهما فاختار أهون الألمين و

(١) النساء : ٤ .

هو ألم التسليم فسلّمه فلا فرق بين هذا وبين المصادرة ، إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالسوط حتّى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الألمين والسؤال في مظنّة الحياء و الرّياء ضرب للقلب بالسوط و لا فرق بين ضرب الباطن و ضرب الظاهر عندالله ، فإنّ الباطن عندالله ظاهر و إنّما حاكم الدّنيا هو الّذي يحكم بظاهر قوله « وهبت » لأنّه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب و كذلك من يعطي اتّقاء لشرّ لسانه أو لشرّ سعايته فهو حرام عليه و كذلك كلّ ما يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام إذ طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيره إلّا إذا خلا الإنسان و اختياره حتّى تنبعث الدّواعي من ذات نفسه لا أن تضطرّ دواعيه إلى الحركة بالحيل والإلزام و من ذلك هبة الرّجل مال الزّكوة في آخر الحول من زوجته و اتّهابه مالها لإسقاط الزّكاة فالفقيه يقول : سقطت الزّكاة فإن أراد به أنّ مطالبة السلطان و الساعي قد سقطت عنه فقد صدق فإنّ مطمح نظرهم ظاهر الملك و قد زال ، و إن ظنّ أنّه يسلم في القيامة و يكون كمن لم يملك المال ، أو كمن باع لحاجته إلى المبيع لا على هذا القصد ، فما أعظم جهله بفقه الدّين و سرّ الزّكاة ، فإنّ سرّ الزّكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فإنّ البخل مهلك ، قال ﷺ : « ثلاث مهلكات شحّ مطاع » وإنّما صار شحّه مطاعاً بمافعله وقبله لم يكن مطاعاً فقد تمّ هلاكه بما يظنّ أنّ فيه خلاصه فإنّ الله مطّلع على قلبه وحبّه المال وحرصه عليه و إنّه بلغ على المال أن استنبط الحيل حتّى يسدّ على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل و الغرور . و من ذلك إباحة الله تعالى مال المصالح للفقيه و غيره بقدر الحاجة ، و الفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأماني و الفضول و الشهوات وبين الحاجات بل كلّ ما لا تتمّ رعونتهم إلّا به يرونه حاجة و هو محض الغرور ، بل الدّنيا خلقت للحاجة إليها في العبادة و سلوك طريق الله ، فكلّ ما تناوله العبد للاستعانة على الدّين و العبادة فهو حاجته ، وما عدا ذلك فهو فضوله و شهوته ، و لو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلّدات و الغرض التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب ، فإنّ ذلك يطول .

الصنف الثاني أرباب العبادة و العمل و المغرورون منهم فِرَق كثيرة .

فمنهم من غروره في الصّلاة و منهم في تلاوة القرآن و منهم في الحجّ و منهم في الصوم و منهم في الغزو و منهم في الزّهد و كذلك كلّ مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خالياً من غرور إلّا الأكياس و قليلٌ ماهم ، و منهم فرقة أهملوا الفرائض و اشتغلوا بالفضائل و النوافل و ربّما تعمّقوا في الفضائل حتّى خرجوا إلى العدوان و السرف كالّذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرتضي الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ويقدّر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة وإذا آل الأمر إلى الأكل الحلال قدّر الاحتمالات القريبة بعيدة و ربما أكل الحرام المحض ، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة ، ثمّ من هؤلاء من يخرج إلى الاسراف في صبّه الماء وذلك منهيّ عنه(١) ، وقد يطول الأمر حتّى يضيّع الصلاة و يخرجها عن وقتها وإن لم يخرجها عن وقتها أيضاً فهو مغرور لما فاته من فضيلة أوّل الوقت و إن لم يفته فهو مغرور لإسرافه في الماء و إن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الّذي هو أعزّ الاشياء فيماله مندوحة إلّا أنّ الشيطان يصدّ الخلق عن الله بطرق شتّى ولا يقدر على صدّ العباد إلّا بما يخيّل إليهم أنّه عبادة فيبعّدهم عن الله بمثل ذلك .

وفرقة اُخرى غلبت عليها الوسوسة في نيّة الصلاة فلا يدعه الشيطان حتّى يعقد نيّته صحيحة بل يشوّش عليه حتّى تفوته الجماعة و يخرج الصلاة عن الوقت وإن تمّ تكبيره فيكون في قلبه بعد تردّد في صحّة نيّته وقد يوسوسون في التكبير حتّى قد يغيّرون صيغة التكبير لشدّة الاحتياط فيه يفعلون ذلك في أوّل الصلاة ، ثمّ يغفلون في جميع الصلاة ولا يحضرون قلوبهم ويغترّون بذلك ويظنّون أنّهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النيّة في أوّل الصلاة و تميّزوا عن العامّة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربّهم .

وفرقة اُخرى تغلب عليها الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة و سائر الأذكار من مخارجها ، فلا يزال يحتاط في التشديدات و الفرق بين الضاد و الظاء و تصحيح

(١) راجع سنن ابن ماجه رقم ٤٢١ .

مخارج الحروف في جميع صلاته لايهمّه غيره ولا يتفكّر فيما سواه ذاهلاً عن معنى القرآن و الاتّعاظ به وصرف الهمّ إلى فهم أسراره ، وهذا من أقبح أنواع الغرور ، فانّه لم يكلّف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلّا بماجرت به عادتهم في الكلام ، ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان فأمر أن يؤدّيها على وجهها فأخذ يؤدّي الرّسالة و يتأنّق في مخارج الحروف و يكرّرها و يعيدها مرّة بعد اُخرى ، وهو في ذلك غافلٌ عن مقصود الرّسالة و مراعاة حرمة المجلس ، فما أحراه بأن تقام عليه السياسة فيردّ إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل .

وفرقة اُخرى اغترّوا بقراءة القرآن فيهذّونه هذّاً[1] ، و ربّما يختمون في اليوم واللّيلة مرّة ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردّد في أودية الأمانيّ إذ لايتفكّر في معاني القرآن لينزجر بزواجره ، ويتّعظ بمواعظه ، ويقف عند أوامره ونواهيه ، ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك ممّا ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة ، فهو مغرور يظنّ أنّ المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه ، و مثاله مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتاباً و أشار عليه فيه بالأوامر والنواهي فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه ، فهو مستمرّ على خلاف ماأمر به مولاه إلّا أنّه مكرّرٌ للكتاب بنغمته وصوته كلّ يوم مائة مرّة فهو مستحقّ للعقوبة ، ومهما ظنّ أنّ ذلك هو المراد منه فهو مغرور ، نعم تلاوته إنّما تراد لكيلا ينسى بعد ولحفظه و حفظه يراد لمعناه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه ، وقد يكون له صوت طيّب فهو يقرؤه ويتلذّذ به ويغترّ باستلذاذه ويظنّ أنّ ذلك لذّة مناجاة الله تعالى و سماع كلامه و إنّما هي لذّته في صوته و لو ردّد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذّ به ذلك الالتذاذ فهو مغرورٌ إذ لم يتفقّد قلبه فيعرف أنّ لذّته بكلام الله من حيث نظمه و معانيه أو بصوته .

---

(١) قال الزمخشري في الاساس : هذه هذّاً : أسرع قطعه . وسكين هذود ، ومن المجاز هذّ القرآن و هو يهذّه هذّاً اذا أسرع فيه و تابعه ، و منه قول رؤبة : « ضرباً هذاذيك و طعناً وخضا » .

وفرقة منهم اغترّوا بالصوم و ربّما صاموا الدّهر و صاموا الأيّام الشريفة وهم فيها لايحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرّياء و بطونهم عن الحرام عند الإفطار و ألسنتهم من الهذيان بأنواع الفضول طول النهار و هو مع ذلك يظنّ بنفسه الخير يهمل الفرض و يطلب النفل، ثمّ لايقوم بحقّه و ذلك غاية الغرور.

وفرقة اُخرى اغترّوا بالحجّ فيخرجون إلى الحجّ من غير خروج عن المظالم و قضاء الدّيون، واسترضاء الوالدين، وطلب الزّاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجّة الإسلام ويضيّعون في الطريق الصلاة والفرائض، ويعجزون عن طهارة الثوب و البدن و يتعرّضون لمكس الظلمة حتّى يؤخذ منهم ولا يحذرون في الطريق عن الرفث و الخصام، و ربّما جمع بعضهم الحرام و أنفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرّياء فيعصي الله في كسب الحرام أوّلاً وفي إنفاقه بالرّياء ثانياً، فلاهو أخذه من حلّه ولاهو وضعه في حقّه ثمّ يحضر البيت بقلب ملوّث برذائل الأخلاق و ذمائم الصفات، لم يقدم تطهير قلبه على حضور بيت ربّه، وهو مع ذلك يظنّ أنّه على خير من ربّه وهو مغرور.

وفرقة اُخرى أخذت في طريق الحسبة و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه فإذا أمرهم بالخير عنف و طلب الرّئاسة والعزّة و الجاه، وإذا باشر هو بنفسه منكراً فردّ عليه غضب، وقال: أنا المحتسب فكيف ينكر عليّ، وقد يجمع الناس إلى مسجده، و من تأخّر عنه أغلظ القول عليه و إنّما غرضه الرّياء و الرّئاسة ولو قام بتعهّد المسجد غيره لحرد عليه [1] بل منهم من يؤذّن لله ولوجاء غيره فأذّن في وقت غيبته قامت عليه القيامة، و قال: لِمَ أخذ حقّي و زحمني على مرتبتي، و كذلك قد يتقلّد إمامة مسجد و يظنّ أنّه على خير وإنّما غرضه أن يقال: إنّه إمام المسجد فلو تقدّم غيره ولوكان أورع منه وأعلم ثقل عليه.

وفرقة اُخرى جاوروا بمكّة والمدينة واغترّوا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم

(١) أى غضب عليه.

يطهّروا ظاهرهم وباطنهم ، قلوبهم معلّقة ببلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أنّ فلاناً مجاور بمكّة تراه يتحدّى و يقول : قدجاورت بمكّة كذا و كذاسنة و إذا سمع أنّ ذكرذلك قبيح ترك صريح التحدّي و أحبّ أن يعرفه الناس بذلك ، ثمّ إنّه يجاور و يمدّعين طمعه إلى أوساخ أموال الناس فإذا جمع من ذلك شيئاً شحّ عليه وأمسكه ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدّق بها على فقير فيظهر فيه الرّياء والبخل و الطمع وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ولكنّ حبّ المحمدة و أن يقال : إنّه من المجاورين ألزمه المجاورة ولكن مع التصنّع بهذه الرّذائل فهوأيضاً مغرورٌ ، وما من عمل من الأعمال ولاعبادة من العبادات إلّا و فيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها و اعتمد عليها بغير معرفة فهو مغرور ولايعرف شرح ذلك إلّا من جملة كتاب إحياء العلوم فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة ، و في الحجّ و الزكاة و سائر القربات من الكتب الّتي رتّبناها فيها ، و إنّما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ماسبق في الكتب .

وفرقة اُخرى تزهّدت وقنعت من اللّباس و الطعام بالدّون و من المسكن بالمساجد و ظنّت أنّها أدركت رتبة الزّهّاد وهو مع ذلك راغب في الرئاسة و الجاه إمّا بالعلم أو بالوعظ أوبمجرّد الزّهد فقدترك أهون الأمرين رياء بأعظم المهلكين فإنّ الجاه أعظم من المال ، ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب وهذا مغرور إذ ظنّ أنّه من الزّهّاد في الدّنيا ، وهو لم يعرف معنى الدّنيا ولم يدر أن منتهى لذّاتها الرئاسة ، وإنّ الراغب فيها لابدّ وأن يكون منافقاً وحسوداً ومتكبّراً و مرائياً و متّصفاً بجميع خبائث الأخلاق ، نعم وقد يترك الرئاسة و يؤثر الخلوة و العزلة وهو مع ذلك مغرور إذ يتطاول بذلك على الأغنياء و يخشن معهم الكلام و ينظر إليهم بعين الاستحقار ويرجو بنفسه أكثر ممّا يرجو لهم ويعجب بعمله ويتّصف بجملة من خبائث القلوب و هو لايدري و ربّما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال : بطل زهده ، ولو قيل له : إنّه حلالٌ فخذه في الظاهر وردّه في الباطن لم تسمح به نفسه خوفاً من ذمّ الناس فهوراغب في حمد الناس وهو من ألذّ أبواب الدّنيا ،

و يرى نفسه أنّه زاهد في الدّنيا و هو مغرور و مع ذلك فربّما لايخلو عن توقير الأغنياء و تقديمهم على الفقراء والميل إلى المريدين له و المثنين عليه و النفرة عن المائلين إلى غيره من الزّهاد و كلّ ذلك خدعة و غرور من الشيطان و في العباد من يشدّد على نفسه في أعمال الجوارح حتّى يصلّي في اليوم و اللّيلة مثلاً ألف ركعة و يختم القرآن فيه وهو مع ذلك لايخطر له مراعاة القلب و تفقّده و تطهيره من الرّياء والكبر والعجب وسائر المهلكات ، فلا يدري أنّ ذلك مهلك وإن علم ذلك فلا يظنّ بنفسه ذلك و إن ظنّ بنفسه ذلك فربّما توهّم أنّه مغفورٌ له بعمله الظاهر ، و أنّه غير مؤاخذ بأحوال القلب ، وإن توهّم فيظنّ أنّ العبادات الظاهرة تترجّح بها كفّة حسناته وهيهات و ذرّة من ذي تقوى وخُلق واحد من خُلق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح . ثمّ لايخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس و خشونته و تلوّث باطنه بالرّياء و حبّ الثناء فإذا قيل له : أنت من أوتاد الأرض و أولياء الله وأحبّائه فرح فرحاً شديداً و صدّق به وزاده ذلك غروراً و ظنّ أنّ تزكية الناس له دليلٌ على كونه مرضيّاً عندالله ولا يدري أنّ ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه .

و فرقة اُخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى أحدهم يفرح بصلاة اللّيل وسائر الرّواتب ولايجد للفريضة لذّة ولايشتدّ حرصه على المبادرة بها في أوّل الوقت وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربّه عزّوجلّ « ماتقرّب المتقرّبون إليّ بمثل أداء ماافترضت عليهم »(١) وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور ، بل قد يتعيّن على الإنسان فرضان أحدهما يفوت و الآخر لايفوت ، أو نفلان أحدهما يضيق وقته و الآخر يتّسع وقته فإن لم يحفظ الترتيب فيه فهو مغرور ، و نظائر ذلك أكثر من أن تحصى ، فإنّ المعصية ظاهرة و الطاعة ظاهرة ، و إنّما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلّها على النوافل ، و تقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات ، وتقديم فرض كفاية لاقائم به على ما قام به غيره ، و تقديم الأهمّ من فروض الأعيان على ما دونه ، وتقديم ما يفوت على مالايفوت ،

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

و هذا كما يجب أن يقدّم حاجة الوالدة على حاجة الوالد إذ سئل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقيل له : « مَن أبرّ ؟ قال : أُمّك ، ثمّ قال : ثمّ من ؟ قال : أُمّك ، قال : ثمّ من ؟ قال : أُمّك ، قال : ثمّ من ؟ قال : أباك ، قال : ثمّ من ؟ قال : أدناك ثمّ أدناك »(١) فينبغي أن يبدأ في الصّلة بالأقرب فالأقرب ، و إن استويا فبالأحوج ، فإن استويا فبالأتقى والأورع و كذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحجّ فربّما يحجّ فهو مغرورٌ بل ينبغي أن يقدّم حقّيهما على الحجّ وهذا من تقديم فرض أهمّ على فرض هو دونه و كذلك إذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت بالاشتغال بالوفاء بالوعد والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو في نفسه طاعة ، و كذلك تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسببه فالنجاسة محذورة وإيذاؤهما محذور ، فالحذر من الأذى أهمّ من الحذر من النجاسة ، و أمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر ، و من ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور ، و هذا غرور في غاية الغموض لأنّ المغرور فيه في طاعة إلّا أنّه لا يفطن بصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهمّ منها ، و من جملته الاشتغال بالمذهب و الخلاف من الفقه في حقّ من بقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلّقة بالجوارح والمتعلّقة بالقلب لأنّ مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في جوارحهم فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به إلّا أنّ حبّ الرّئاسة والجاه ولذّة المباهاة و القهر للأقران و التقدّم عليهم يعمي عليه حتّى يغترّ به مع نفسه و يظنّ أنّه مشغولٌ بمهمّ دينه .

الصنف الثالث المتصوّفة وما أغلب الغرور عليهم والمغترّون منهم فرق كثيرة ، ففرقة هم متصوّفة أهل الزّمان إلّا من عصمه الله اغترّوا بالزّيّ والمنطق والهيئة فساعدوا الصّادقين من الصّوفيّة في زيّهم و هيئتهم و في ألفاظهم و في آدابهم و مراسمهم و اصطلاحاتهم وفي أحوالهم الظاهرة في السّماع و الرقص والطهارة و الصّلاة والجلوس

(١) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ٩١ عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده و قال في الباب عن أبي هريرة و أبي الدرداء و عبدالله بن عمر و عائشة .

على السّجادات مع إطراق الرّأس وإدخاله في الجيب كالمتفكّر و في تنفّس الصعداء و في خفض الصّوت في الحديث إلى غيرذلك من الشمائل والهيئات .

أقول: و أيّ فضل و كرامة للصادقين من الصّوفيّة حتّى يكون للمتشبّهين بهم فضل و غرور ؟ فإنّ أكثرهم من أهل البدع من السّماع والرّقص و الجهر من القول في الدّعاء و غير ذلك .

قال : فلمّا تكلّفوا هذه الاُمور و تشبّهوا بهم فيهاظنّوا أنّهم أيضاً صوفيّة و لم يتعبوا أنفسهم قطّ في المجاهدة و الرّياضة و مراقبة القلب و تطهير الباطن و الظاهر من الآثام الخفيّة و الجليّة وكلّ ذلك من أوائل منازل التصوّف و لو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدّوا أنفسهم من الصوفيّة كيف و لم يحوموا قطّ حولها و لم يسوموا أنفسهم شيئاً منها ، بل يتكالبون على الحرام والشبهات و أموال السلاطين ، و يتنافسون في الرّغيف و الفلس والحبّة ، و يتحاسدون على النقير و القطمير ، و يمزّق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه و هؤلاء غرورهم ظاهر . و مثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أنّ الشجعان والأبطال من المقاتلين يثبت أسماؤهم في الدّيوان و يقطع كلّ واحد منهم قطراً من أقطارالمملكة فتاقت نفسها إلى أن يقطع لهامملكة فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً ، وتعلّمت من رجز الأبطال أبياتاً و تعوّدت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتّى تيسّرت عليها و تعلّمت كيفيّة تبخترهم في الميدان و كيف تحريكهم الأيدي و تلقّفت جميع شمائلهم في الزّيّ والمنطق و الحركات و السّكنات ثمّ توجّهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلمّا وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض و اُمرت بأن تجرّد عن المغفر و الدّرع و ينظر إلى ما تحته و تمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها في الشجاعة ، فلمّا جرّدت عن المغفر والدّرع فإذا هي عجوزة ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدّرع و المغفر فقيل لها : أجئت للاستهزاء بالملك و استحقاق أهل حضرته بالتلبيس عليه ؟! خذوها فألقوها إلى قدّام الفيل لسخفها ، فاُلقيت إلى الفيل ، و هكذا يكون حال المدّعين للتصوّف في القيامة إذا

كشف عنهم الغطاء و عرضوا على القاضي الأكبر الّذي لا ينظر إلى الزّيّ والمرقّع بل إلى سرّ القلب .

و فرقة أُخرى زادت على هؤلاء في الغرور إذ شقّ عليها الاقتداء بهم في بذاذة الثياب و الرّضاء بالدّون و أرادت أن تتظاهر بالتصوّف و لم تجد بدّاً من التزيّي بزيّهم فتركت الخزّ و الأبريسم و طلبت المرقّعات النفيسة و الفوط الرّقيقة و السجّادات المصبغة و لبست من الثياب ما هو أرفع قيمة من الخزّ و الأبريسم ، فظنّ أحدهم مع ذلك أنّه متصوّف بمجرّد لون الثوب و كونه مرقّعاً و نسي أنّهم إنّما لوّنوا الثياب لئلاّ يطول عليهم غسلها كلّ ساعة لإزالة الوسخ . و إنّما لبسوا المرقّع إذ كانت ثيابهم مخرقة و كانوا يرقّعونها ولا يلبسون الجديد ، فأمّا تقطيع الفوط الرّقيقة قطعة قطعة و خياطة المرقّعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه فهؤلاء أظهر حماقة من كافّة المغرورين فإنّهم يتنعّمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ، و يطلبون رغد العيش ، و يأكلون أموال السلاطين ، ولا يجتنبون المعاصي الظّاهرة فضلاً عن الباطنة ، و هم مع ذلك يظنّون بأنفسهم الخير . وشرّ هؤلاء ممّا يتعدّى إلى الخلق إذ يهلك من يقتدي بهم ومن لايقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التّصوّف كافّة إذ يظنّ أنّ جميعهم كانوا من جنسه فيطيل اللّسان في الصادقين منهم و كلّ ذلك من شؤم المتشبّهين و شرّهم .

و فرقة أُخرى ادّعت علم المعرفة ومشاهدة الحقّ ومجاوزة المقامات المحمودة و الأحوال و الملازمة في عين الشهود و الوصول إلى القرب ولايعرف هذه الأُمور إلّا بالأسامي و الألفاظ لأنّه تلقّف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يردّدها و يظنّ أنّ ذلك أعلى من علم الأوّلين و الآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء و المفسّرين والمحدّثين و أصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام ، حتّى أنّ الفلاّح ليترك فلاحته و الحائك يترك حياكته ويلازمهم أيّاماً معدودة و يتلقّف منهم تلك الكلمات المزيّفة فهو يردّدها كأنّه يتكلّم عن الوحي ، و يخبر عن سرّ الأسرار و يستحقر بذلك جميع العبّاد والعلماء فيقول في العبّاد : إنّهم أُجراء متعبون ، ويقول في العلماء :

إنّهم بالحديث عن الله محجوبون ، و يدّعي لنفسه أنّه الواصل إلى الحقّ وأنّه من المقرّبين، وهوعندالله من الفجّار المنافقين ، وعندأرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، ولم يحكم قطّ علماً ولم يهذّب خُلقاً ، ولم يرتّب عملاً ، ولم يراقب قلباً سوى اتّباع الهوى و تلقّف الهذيان وحفظه .

وفرقة اُخرى وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسوّوا بين الحلال والحرام ، فبعضهم يزعم أنّ الله مستغن عن عملي فلِمَ أتعب نفسي ، وبعضهم يقول : قد كلّفوا الناس تطهير القلوب عن الشهوات و عن حبّ الدّنيا و ذلك محال ، فقد كلّفوا ما لايمكن وإنّما يغترّ به من لم يجرّب وأمّا نحن فقد جرّبنا و أدركنا أنّ ذلك محال . ولايعلم الأحمق أنّ الناس لم يكلّفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل كلّفوا تأديبهما بحيث ينقاد كلّ واحد منهما لحكم العقل و الشرع ، و بعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لاوزن لها وإنّما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة إلى حبّ الله ، و واصلة إلى معرفة الله ، وإنّما نخوض في الدّنيا بأبداننا و قلوبنا عاكفة في الحضرة الرّبوبيّة فنحن مع الشهوات بالظواهر لابالقلوب ، ويزعمون أنّهم قد ترقّوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النّفس بالأعمال البدنيّة وإنّ الشهوات لاتصدّهم عن طريق الله تعالى لقوّتهم فيها ويرفعون درجتهم على درجة الأنبياء عليهم السلام إذ كان يصدّهم عن طريق الله تعالى خطيئة واحدة حتّى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية . و أصناف غرور أهل الإباحة من المتشبّهين بالصوفيّة لاتحصى ، و كلّ ذلك بناء على أغاليط و وساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدّين و العلم الصالح للاقتداء و إحصاء أصنافهم يطول .

وفرقة اُخرى جاوزت حدّ هؤلاء وأحسنت الأعمال وطلّقت الحلال واشتغلت بتفقّد القلب وصارت أحدهم تدّعي المقامات من الزّهد والتوكّل والرّضا والحبّ من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها و علاماتها وآفاتها ، فمنهم من يدّعي الوجد و الحبّ لله تعالى و يزعم أنّه والهٌ بالله ، و لعلّه قد تخيّل في الله تعالى خيالات هي بدعة أو كفر فيدّعي حبّ الله قبل معرفته ، ثمّ إنّه لايخلو عن مقارفة

ما يكره الله و عن إيثار هوى نفسه على أمر الله تعالى و عن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ولو خلا لماتركها حياء من الله تعالى وليس يدري أنّ كلّ ذلك يناقض الحبّ ، و بعضهم ربّما يميل إلى القناعة و التوكّل فيخوض البوادي من غير زاد ليصحّح دعوى التوكّل و ليس يدري أنّ ذلك بدعة لم تنقل عن السلف و الصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكّل منه فما فهموا أنّ التوكّل المخاطرة بالرّوح و ترك الزّاد بل كانوا يأخذون الزّاد وهم متوكّلون على الله تعالى لاعلى الزّاد و هذا ربّما يترك الزّاد و هو متوكّل على سبب من الأسباب واثق به ، و ما من مقام من المقامات المنجيات إلّا وفيه غرورٌ وقداغترّ به قومٌ وقدذكرنا مداخل الآفات في ربع المنجيات من الكتاب .

وفرقة اُخرى ضيّقت على نفسها في أمر القوت حتّى طلبت منه الحلال الخالص و أهملوا تفقّد القلوب و الجوارح في غير هذه الخصلة الوحدة ، و منهم من أهمل الحلال في مطعمه و ملبسه و مسكنه و أخذ يتعمّق في غير ذلك و لم يدر المسكين أنّ الله لم يرض من عبده بطلب الحلال فقطّ ولا رضي بسائر الأعمال دون طلب الحلال بل لايرضيه إلّا تفقّد جميع الطاعات و المعاصي ، فمن ظنّ أنّ بعض هذه الاُمور يكفيه و ينجيه فهو مغرور .

وفرقة اُخرى ادّعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدّوا لخدمة الصوفيّة فجمعوا قوماً و تكلّفوا بخدمتهم واتّخذوا ذلك شبكة للرئاسة و جمع المال ، و إنّما غرضهم التكبّر وهم يظهرون أنّ غرضهم الخدمة و التواضع و غرضهم الارتفاع وهم يظنّون أنّ غرضهم الإرفاق و غرضهم الاستتباع وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعيّة ، ثمّ إنّهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم ليكثر أتباعهم وينتشر بالخدمة اسمهم ، و بعضهم يأخذ أموال السلاطين وينفق عليهم وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحجّ على الصوفيّة ويزعم أنّ غرضه البرّ والإنفاق و باعث جميعهم الرّياء و السمعة و آية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله عليهم ظاهراً و باطناً و رضاهم بأخذ الحرام و الإنفاق منه ، ومثال من ينفق الحرام في طريق الحجّ لإرادة الخير كمن

يعمر مساجدالله فيطينها بالعذرة و يزعم أنّ قصده العمارة .

وفرقة اُخرى منهم اشتغلوا بالمجاهدة و تهذيب الأخلاق و تطهير النفس من عيوبها و صاروا يتعمّقون فيها فاتّخذوا البحث عن عيوب النفس و معرفة خدعها علماً و حرفة فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس باستنباط دقيق الكلام في آفاتها فيقولون : هذا في النفس عَيبٌ و الغفلة عن كونه عيباً عيبٌ و الالتفات إلى كونه عيباً عيبٌ و يشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الا وقات في تلفيقها و من جعل طول عمره في التفتيش عن العيوب و تحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحجّ و آفاته ولم يسلك طريق الحجّ فذلك لايغنيه .

وفرقة اُخرى جاوزوا هذه الرّتبة و ابتدأوا سلوك الطريق و انفتحت لهم أبواب المعرفة فكلّما تشمّموا من مبادي المعرفة رائحة تعجّبوا منها وفرحوا بها ، وأعجبتهم غرابتها فتقيّدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكّر فيها ، و في كيفيّة انفتاح بابها عليهم و انسداده على غيرهم ، و كلّ ذلك غرورٌ لأنّ عجائب طريق الله ليس له نهاية ، فلو وقف مع كلّ اُعجوبة و تقيّد بها قصرت خطاه وحرم عن الوصول إلى المقصد ، و كان مثاله مثال من قصد ملكاً فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها فوقف ينظر إليها ويتعجّب حتّى فاته الوقت الّذي يمكن فيه لقاء الملك .

وفرقة اُخرى جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى مايفيض عليهم من الأنوار في الطريق وإلى مايتيسّر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرّجوا على الفرح بها والالتفات إليها جادّين في السير حتّى قاربوا فواصلوا إلى حدّ القربة إلى الله تعالى و ظنّوا أنّهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا و غلطوا فإنّ لله سبعين حجاباً من نور لايصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلّا و يظنّ أنّه قد وصل . و إليه الإشارة بقول إبراهيم صلوات الله عليه إذ قال الله تعالى إخباراً عنه : « فلمّا جنّ عليه اللّيل رأى كوكباً قال هذا ربّي »[1] و ليس المعنيّ به هذه الأجسام المضيئة فإنّه كان

(١) الانعام : ٧٦ .

يراه في الصغر ويعلم أنّها ليست آلهة وهي كثيرة وليست بواحدة ، والجهّال يعلمون أنّ الكوكب ليس بإله فمثل إبراهيم لايغرّه الكوكب الّذي لايغرّ السوادية ولكن المراد به أنّه نور من الانوار الّتي هي من حجب الله عزّ وجلّ وهي على طريق السالك ولايتصوّر الوصول إلى الله إلّا بالوصول إلى هذه الحجب و هي حجب من النور بعضها أعظم من بعض وأصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه ، و أعظمها الشمس و بينهما رتبة القمر فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السماوات حيث قال عزّ وجلّ : « و كذلك نري إبراهيم ملكوت السموات و الأرض » (١) يصل إلى نور بعد نور ويتخيّل إليه في أوّل ماكان يلقاه أنّه قد وصل ثمّ كان يكشف له أنّ وراءه أمر فيترقّى إليه ويقول : قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتّى وصل إلى الحجاب الأقرب الّذي لا وصول إلّا بعده ، فقال : هذا أكبر فلمّا ظهر له أنّه مع عظمه غير خال عن الهوى في حضيض النقص و الانحطاط عن ذروة الكمال قال : «لا اُحبّ الآفلين إنّي وجّهت وجهي للّذي فطر السموات و الأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » و سالك هذا الطريق قد يغترّ في الوقوف على بعض هذه الحجب ، وقد يغترّ بالحجاب الأوّل وأوّل الحجاب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنّه أيضاً أمر ربّاني وهو نور من أنوار الله أعني سرّ القلب الّذي تتجلّى فيه حقيقة الحقّ كلّه حتّى أنّه ليتّسع لجملة العالم و يحيط به و تتجلّى فيه صورة الكلّ ، و عند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيماً إذ يظهر فيه الوجود كلّه على ماهو عليه ، وهو في أوّل الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له فإذا تجلّى نوره و انكشف فيه جمال القلب بعد إشراق نور الله تعالى عليه ربّما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه فربّما يسبق لسانه في هذه الدّهشة فيقول : أنا الحقّ فإن لم يتّضح له ماوراء ذلك اغترّ به ووقف عليه و هلك ، وكان قد اغترّ بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهيّة ولم يصل بعد إلى القمر فضلاً عن الشمس فهو مغرور و هذا محلّ الالتباس إذ المتجلّي يلتبس بالمتجلّى فيه كما يلتبس لون مايتراءى في المرآة بالمرآة ، فيظنّ أنّه لون المرآة و كما

(١) الانعام : ٧٥ .

يلتبس ما في الزّجاج بالزّجاج كما قيل:

رقّ الزّجاج و رقّت الخمر ✿ فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنّما خمر ولا قدح ✿ و كأنّما قدح ولا خمر

و بهذه العين نظر النصارى إلى المسيح فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكباً في المرآة أو في الماء فيمدّ اليد إليه ليأخذه وهو مغرور. و أنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله لاتحصى في مجلّدات ولاتستقصى إلّا بعد شرح جميع علوم المكاشفة وذلك ممّا لارخصة في ذكره ولعلّ القدر الّذي ذكرناه أيضاً كان الأولى تركه إذ السالك لهذا الطريق لايحتاج إلى أن يسمعه من غيره، والّذي لم يسلكه لاينتفع بسماعه بل ربّما يستضرّ به إذ يورث ذلك دهشة من حيث يسمع مالا يفهم ولكن في ذكره فائدة و هو إخراجه من الغرور الّذي هو فيه إذ ربّما يصدّق بأنّ الأمر أعظم ممّا يظنّه وممّا يتخيّله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجدله المزخرف ويصدّق أيضاً بما يحكى له من المكاشفات الّتي أخبر عنها أولياء الله تعالى، ومن عظم غروره ربّما أصرّ مكذّباً بما يسمعه الآن كما يكذّب بماسمعه من قبل والله أعلم.

الصنف الرابع أرباب الأموال و المغترّون منهم فرق كثيرة.

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد و المدارس و الرباطات و القناطر وما يظهر للناس كافّة ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلّد ذكرهم و يبقى بعد الموت أثرهم وهم يظنّون أنّهم قد استحقّوا المغفرة بذلك و قد اغترّوا فيه من وجهين أحدهما أنّهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب و الرّشى و الجهات المحظورة فهم قد تعرّضوا لسخط الله في كسبها و تعرّضوا لسخطه في إنفاقها و كان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها فإذا عصوا الله تعالى بكسبها كان الواجب عليهم التوبة والرّجوع إلى الله تعالى وردّها إلى ملّاكها إمّا بأعيانها أو ردّ بدلها عند العجز، فإن عجزوا عن الملّاك فكان الواجب ردّها إلى الورثة، فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهمّ المصالح، و ربّما يكون الأهمّ التفرقة على المساكين وهم لايفعلون ذلك خيفة من أن لايظهر ذلك للناس فيبنون الأبنية بالآجر وغرضهم

من بنائها الرّياء و جلب الثناء و حرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم بها لا لبقاء الخير. والوجه الثاني أنّهم يظنّون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية، ولو كلّف واحدٌ منهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع الّذي أنفق عليه لشقّ عليه ذلك ولم تسمح به نفسه، والله تعالى مطّلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب، فلو لا أنّه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك.

وفرقة أُخرى ربّما اكتسبت الأموال من الحلال وانفقت على المساجد وهي أيضاً مغرورة من وجهين أحدهما الرّياء و طلب الثناء فإنّه ربّما يكون في جواره أو في بلده فقير وصرف المال إليه أهمّ وأفضل من الصرف إلى المساجد و زينتها و إنّما يخفّ عليه الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس. والثاني أنّه يصرف إلى زخرفة المسجد و تزيينه بالنقوش الّتي هي منهيٌّ عنها(١) و شاغلةٌ لقلوب المصلّين و مختطفة أعينهم و المقصود من الصلاة الخشوع و حضور القلب و ذلك يفسد قلوب المصلّين و يحبط ثوابهم بذلك و وبال ذلك كلّه يرجع إليه وهو مع ذلك يغترّ به ويرى أنّه من الخيرات و يعدّ ذلك وسيلة إلى الله تعالى وهو بذلك تعرّض لسخط الله وهو يظنّ أنّه مطيع لله و ممتثل لأمره، وقد شوّش قلوب عباد الله بما زخرف من المسجد، وربّما شوّقهم به إلى زخارف الدّنيا فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم، و يشتغلون بطلبه و وبال ذلك كلّه في رقبته إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى. قيل: دخل رجلان مسجداً فوقف أحدهما على الباب وقال: مثلي لا يدخل بيت الله، فكتبه الملكان عند الله صدّيقاً، فبهذا ينبغي أن يعظم المساجد و هو أن يرى تلويث المسجد بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدّنيا منّة على الله تعالى.

و قال الحواريّون للمسيح عليه السلام: اُنظر إلى هذا المسجد ما أحسنه

(١) روى الراوندى فى لب اللباب كما فى مستدرك الوسائل ج ١ ص ٢٢٨ عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال: «لا تزخرفوا مساجدكم كما زخرفت اليهود و النصارى بيعهم».

فقال : اُمّتي اُمّتي بحق أقول لكم لايترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً على حجر إلّا أهلكه بذنوب أهله ، إنّ الله لايعبأ بالذّهب و الفضّة ولا بهذه الحجارة الّتي تعجبكم شيئاً ، وإنّ أحبّ الأشياء إلى الله القلوب الصالحة ، بها يعمر الله الأرض ، وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا زخرفتم مساجدكم و حلّيتم مصاحفكم فالدّمار عليكم » (١) روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبرئيل عليه السلام فقال : ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء لاتزخرفه ولاتنقّشه» (٢) فغرور هذا من حيث أنّه رأى المنكر معروفاً و اتّكل عليه .

• وفرقة اُخرى ينفقون الأموال في الصدقات ، و على الفقراء و المساكين و يطلبون به المحافل الجامعة ، و من الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ، ويكرهون التصدّق في السرّ ، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم و كفراناً ، و ربّما يحرصون على إنفاق المال في الحجّ فيحجّون مرّة بعد اُخرى ، و ربّما يتركون جيرانهم جائعين ، و لذلك قال ابن مسعود في آخر الزّمان يكثر الحاجّ بلا سبب يهون عليهم السفر و يبسط لهم في الرزق و يرجعون محرومين مسلوبين يهوي بأحدهم بعيره بين القفار والرّمال وجاره مأسور إلى جنبه لايواسيه ، و روى أبو نصر التمّار أنّ رجلاً جاء يودّع بشر بن الحارث وقال : عزمت على الحجّ فقام بشر فقال له : كم أعددت للنفقة ؟ فقال : ألفي درهم ، قال : فأيّ شيء تبتغي بحجّك نزهة أو اشتياقاً إلى البيت أو ابتغاء مرضات الله ؟ قال : ابتغاء مرضات الله قال : فإن أصبت رضا الله و أنت في منزلك و تنفق ألفي درهم و تكون على يقين من مرضاة الله أتفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فاذهب فأعطها عشرة أنفس مديون يقضي دينه و فقير يلمّ شعثه و معيل تغني عياله و مربّي يتيم تفرّحه ، و إن قوي قلبك أن تعطيها واحداً

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٢) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

فافعل فإنّ إدخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللّهفان وكشف الضرّ وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجّة بعد حجّة الإسلام ، قم فأخرجها كما أمرناك وإلاّ فقل لنا ما في قلبك فقال : يا أبانصر سفري أقوى في قلبي فتبسّم بشر وأقبل عليه فقال له : المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطراً فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله تعالى على نفسه أن لايقبل إلاّ عمل المتّقين .

وفرقة اُخرى من أرباب الأموال يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثمّ يشتغلون بالعبادات البدنية الّتي لايحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام اللّيل والختم القرآن وهم مغرورون لأنّ البخل المهلك قد استولى على باطنهم ، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال ، فقد اشتغلوا بطلب فضائل هم مستغنون عنها ، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حيّة وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ، ومن قتلته الحيّة فمتى يحتاج إلى السكنجبين ؟ .

وفرقة اُخرى غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلاّ بأداء الزكاة فقط ثمّ إنّهم يخرجون من المال الخبيث الرّدي الّذي يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردّد في خاجاتهم أومن يحتاجون إليه في المستقبل للاستسخار في خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض أو يسلّمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممّن يستظهر بحشمته لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته ، وكلّ ذلك مفسدات للنيّة ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ويظنّ أنّه يطيع الله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعباده الله عوضاً من غيره وهذا وأمثاله من غرور أرباب الأموال أيضاً لاتحصى وإنّما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور .

وفرقة اُخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال أو الفقراء اغترّوا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أنّ ذلك يغنيهم ويكفيهم واتّخذوا ذلك عادة ويظنّون أنّ لهم على مجرّد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتّعاظ أجر وهم مغرورون لأنّ فضل مجلس الذّكر لكونه مرغّباً في الخير فإن لم يهيّج الرغبة فلا خير فيه والرّغبة محمودة لحملها على العمل فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها ومايراد لغيره

فاذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلاقيمة له ، وربّما يغترّ أحدهم بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس و فضل البكاء ، و ربّما دخلته رقّة كرقّة النساء فيبكي ، و ربّما يسمع كلاماً مخوفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول : ياسلام سلّم أو نعوذ بالله أو سبحان الله و يظنّ أنّه قد أتى بالخير كلّه وهو مغرور ، و إنّما مثاله مثال المريض الّذي يحضر مجالس الأطبّاء فيسمع مايجري أو الجائع الّذي يحضر عند من يصف له الأطعمة اللّذيذة الشهيّة ثمّ ينصرف وذلك لايغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً ، فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لايغني من الله شيئاً . و كلّ وعظ لم يغيّر منك صفة تغييراً يغيّر أفعالك حتّى تُقبل على الله تعالى إقبالاً قويّاً أو ضعيفاً و تعرض عن الدّنيا فذلك الوعظ زيادة حجّة عليك فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغروراً .

فصل

فإن قلت : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لايتخلّص عنه أحدٌ ولايمكن الاحتراز عنه ، و هذا يوجب اليأس إذ لا يقوي أحدٌ من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات ؟.

فأقول : الإنسان إذا فترت همّته في شيء أظهر اليأس منه و استعظم الأمر فيه و استوعر الطريق و إذا صحّ منه الهوى اهتدى إلى الحيل و استنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض حتّى أنّ الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلّق في جوّ السّماء مع بعده عنه فأنزله ، وأراد أن يستصعد الحوت من أعماق البحار فأصعده و أراد أن يستخرج الذّهب و الفضّة من تحت الجبال فأخرجه ، و أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري فاقتنصها ، وأراد أن يستسخر السباع و الفيلة و عظيم الحيوانات فاستسخرها ، وأراد أن يأخذ الأفاعي و الحيّات ويعبث بها فأخذها و استخرج الترياق ، وأراد أن يتّخذ الدّيباج الملوّن المنقوش من ورق التوت فاتّخذه ، وأراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها فاستخرج بدقيق

الهندسة وهو مستقرّ على الأرض و كلّ ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات فسخّر الفرس للركوب و الكلاب للصيد و سخّر البازي لاقتناص الطيور ، و هيّأ الشبكة لاصطياد السمك إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدميّ ، كلّ ذلك لأنّه أهمّه أمر دنياه و ذلك معين له على دنياه. فلو أهمّه أمر آخرته فليس عليه إلّا شغل واحد و هو تقويم قلبه فعجز عن تقويم قلبه و تخاذل و قال : هذا محال و من ذا الّذي يقدر عليه ، و ليس ذلك بمحال ولو أصبح وهمّه هذا الهمّ الواحد احتال له ، بل هو كما يقال : «لو صحّ منك الهوى أرشدت للحيل» فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون و من اتّبعهم بإحسان فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته و قويت همّته بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدّنيا و نظم أسبابها .

فإن قلت : قد قرّبت الأمر فيه بعد أن أكثرت في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور ؟.

فاعلم أنّه ينجو عنه بثلاثة اُمور : بالعقل والعلم و المعرفة فهذه ثلاثة اُمور لابدّ منها أمّا العقل فأعني به الفطرة الغريزيّة والنور الأصلي الّذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء فالفطنة و الكيس فطرة والحمق والبلادة فطرة و البليد لا يقدر على التحفّظ عن الغرور فصفاء العقل و ذكاء الفهم لابدّ منه في أصل الفطرة ، و هذا إذا لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلّها العقل و الكياسة .

قال رسول الله ﷺ : « تبارك الله الّذي قسّم العقل بين عباده أشتاتاً إنّ الرّجلين ليستوي عملهما و برّهما و صومهما و صلاتهما و لكنّهما يتفاوتان في العقل كالذّرة في جنب أحد و ما قسّم الله لخلقه حظّاً هو أفضل من العقل واليقين »(١).

و عن أبي الدرداء أنّه قيل : يا رسول الله أرأيت الرّجل يصوم النهار و يقوم اللّيل و يحجّ و يعتمر و يتصدّق و يغزو في سبيل الله ويعود المرضى ويشيّع الجنائز

(١) قال العراقي : أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الاصول من رواية طاؤوس مرسلا و في أوله قصة واسناده ضعيف ورواه بنحوه من حديث أبي حميد وهو ضعيف أيضاً .

و يعين الضّعيف ما تعلم منزلته عندالله تعالى يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنّما يجزى على قدر عقله» (١).

و قد أُثني على رجل عند رسول صلى الله عليه وآله فقالوا خيراً ، فقال صلى الله عليه وآله : «كيف عقله ؟ فقالوا : يا رسول‌الله : نقول من عبادته وفضله و خلقه فقال : كيف عقله‌فإنّ الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر وإنّما يقرّب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم» (٢).

و قال أبو الدّرداء : «كان رسول الله صلى الله عليه وآله : «إذا بلغه عن رجل شدّة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا : حسن قال : أرجوه و إن قالوا غير ذلك قال : لن يبلغ ذلك» (٣). قال : وذكر له شدّة عبادة رجل فقال : كيف عقله ؟ قالوا : ليس بشيء ، قال : لن يبلغ صاحبكم حيث تظنّون» (٤).

أقول: و قد أسلفنا أخباراً من طريق أهل البيت عليهم السلام في ذلك في كتاب‌العقل من ربع العبادات .

قال : والذّكاء و شدّة غريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة فإن فاتت ببلادة و حماقة فلا تدارك لها .

الثاني المعرفة (٥) ، و أعني بهاأن يعرف أربعة أُمور : يعرف نفسه ، و يعرف ربّه ، و يعرف الدّنيا ، و يعرف الآخرة ، فيعرف نفسه بالعبوديّة والذّل و بكونه غريباً في هذا العالم و أجنبيّاً من هذه الشّهوات البهيميّة و هي مضرّة له ، و إنّما الموافق له طبعاً هو معرفة الله و النظر إلى وجهه فقط . و لا يتصوّر أن يعرف هذا مالم يعرف نفسه و لم يعرف ربّه وليستعن على هذا بما ذكرناه (٦) في كتاب‌المحبّة

(١) أخرجه الخطيب فى التاريخ وفى اسماء من روى عن مالك من حديث ابن‌عمر و ضعفه و قال العراقى : لم أره من حديث أبي الدرداء .

(٢) تقدم في‌أبواب العلم عن داود بن المحبر . وفي‌الكافي عن الصادق عليه السلام مثله .

(٣) و (٤) روى الطبراني في مسنده الكبير عن أبي‌الدرداء قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وآله اذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فان قالوا حسن قال أرجو له ، و ان قالوا غير ذلك قال : لا يبلغ صاحبكم حيث تظنون» و فيه مروان بن سالم متروك كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٨ . (٥) كذا . (٦) كذا ولم يجيء بعد.

و في كتاب شرح عجائب القلب و كتاب التفكّر و كتاب الشكر إذ فيها إشارات إلى وصف النفس ووصف جلال الله تعالى فيحصل به التنبّه على الجملة و كمال المعرفة وراءه فانّ هذا من علوم المكاشفة و لم نطنب في هذا الكتاب إلّا في علوم المعاملة ، و أمّا معرفة الدّنيا و الآخرة فيستعين عليه بما ذكرناه في كتاب ذمّ الدّنيا و في كتاب ذكر الموت ليتبيّن له أن لا نسبة للدّنيا إلى الآخرة . فإذا عرف نفسه و ربّه و عرف الدّنيا و الآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله تعالى حبّ الله و بمعرفة الآخرة شدّة الرّغبة فيها و بمعرفة الدّنيا الرّغبة عنها فيصير أهمّ اُموره ما يوصله إلى الله تعالى و ينفعه في الآخرة ، و إذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحّت نيّته في الاُمور كلّها ، فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة و صحّت نيّته واندفع عنه كلّ غرور محذور منشاؤه تجاذب الأغراض و النزوع إلى الدّنيا و الجاه والمال ، فإنّ ذلك هو المفسد للنيّة و ما دامت الدّنيا أحبّ إليه من الآخرة ، و هوى نفسه أحبّ إليه من رضا الله فلا يمكنه الخلاص من الغرور ، فإذا غلب حبّ الله على قلبه بمعرفته بالله و بنفسه الصادرة عن كمال عقله ، فيحتاج إلى المعنى الثالث و هو العلم أعني العلم بكيفيّة سلوك الطريق إلى الله و العلم بما يقرّبه من الله تعالى وما يبعّده عنه . والعلم بآفات الطريق و عقباته و غوائله و جميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدّين فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها و آفاتها فيتّقيها ، و من ربع العادات أسرار المعائش و ما هو مضطرّ إليه فيأخذه بإذن الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ، ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله ، فإنّ المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم و يعلم طريق علاجه ، و يعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة الّتي لابدّ وأن توضع خلفاً عن المذمومة بعد محوها فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر عن الأنواع الّتي أشرنا إليها من الغرور ، وأصل ذلك كلّه أن يغلب حبّ الله على القلب و يسقط حبّ الدّنيا منه حتّى تقوى به الإرادة وتصحّ فيه النيّة و لا يحصل ذلك إلّا بالمعرفة الّتي ذكرناها .

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك فما الّذي يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان و يدعوه إلى نصح الخلق و نشر العلم و دعوة النّاس إلى ماعرفه من دين الله عزّ وجلّ فإنّ المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب الأخلاق و راقب القلب حتّى صفاه عن جميع الكدورات و استوى على الصّراط المستقيم و صغرت الدّنيا في عينه و تركها و انقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ولم يبق له إلّاهمّ واحد وهو الله تعالى و التلذّذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه وقدعجز الشيطان عن إغوائه إذ يأتيه من جهة الدّنيا وشهوات النفس فلا يطيعه و يأتيه من جهةالدّين و يدعوه إلى الرّحمة على خلق الله والشفقة عليهم وعلى دينهم بالنصح بهم والدّعاء إلى الله ، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى في أمرهم سكارى في دينهم صمّاً عمياً قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون و فقدوا الطبيب و أشرفوا على العطب فغلب على قلبه الرّحمة لهم و قدكان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبيّن لهم ضلالهم و يرشدهم إلى سعادتهم و هو يقدر على ذكرها من غير تعب و مؤونة و لزوم غرامة ، و كان مثله كرجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه و قد كان لذلك يسهر ليله و يقلق نهاره لا يأكل و لا يشرب و لا يتحرّك و لا يتصرّف لشدّة ضربان الألم فوجد له دواءً عفواً صفواً من غير ثمن و لا تعب و لا مرارة في تناوله فاستعمله فبرأ و صحّ فطاب نومه باللّيل بعد طول سهره ، و هدأ بالنهار بعد شدّة القلق ، و طاب عيشه بعد نهاية الكدر و أصاب لذّة العافية بعد طول السّقام ثمّ نظر إلى عدد كثير من المسلمين و إذابهم تلك العلّة بعينها و قد طال سهرهم ، و اشتدّ قلقهم ، و ارتفع إلى السماء أنينهم ، فتذكّر أنّ دواءهم هو الّذي يعرفه و يقدر على شفائهم بأسهل ما يكون و في أسرع زمان يقدر ، فأخذته الرّحمة و الرّقّة ، و لم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم ، فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق و شفي من أمراض القلوب شاهد الخلق ، و قد مرضت قلوبهم ، و أعضل داؤهم ، و قرب هلاكهم و شقاؤهم ، و سهل عليه دواؤهم ، فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم و حرّضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجال

الفتنة ، فلمّا اشتغل به وجد الشيطان مجالاً للفتنة فدعاه إلى الرّئاسة دعاء خفيّاً أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد ، فلم يزل ذلك الدّبيب في قلبه حتّى دعاه إلى التصنّع و التزيّن للخلق بتحسين الألفاظ و النغمات و الحركات و التصنّع في الزّيّ و الهيئات ، فأقبل النّاس إليه يعظّمونه و يبجّلونه ويوقّرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك إذا رأوه شافياً لأدوائهم بمحض الشفقة و الرّحمة من غير طمع فصار أحبّ إليهم من آبائهم و اُمّهاتهم وأقاربهم فآثروه بأبدانهم و أموالهم فصاروا له خَوَلاً كالخدم و العبيد ، فخدموه وقدّموه في المحافل و حكّموه على الملوك و السّلاطين ، فعند ذلك انتشر الطبع و ارتاحت النفس و ذاقت لذّة يالها من لذّة ، و أصابت من الدّنيا شهوة يستحقر معها كلّ شهوة ، و كان قد ترك الدّنيا فوقع في أعظم لذّاتها ، و عند ذلك وجد الشيطان فرصة و امتدّت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كلّ مايحفظ عليه تلك اللّذّة ، و أمارة انتشار الطبع و ركون النفس إلى الشيطان أنّه لو أخطأ فرُدّ عليه بين يدي الخلق غضب ، فاذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان يخيّل إليه أنّ ذلك غضب لله لأنّه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور ، فربّما أخرجه ذلك إلى الوقيعة في من ردّ عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتّسع و وقع في الكبر الّذي هو تمرّد عن قبول الحقّ و الشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات ، و كذلك إذا سبقه الضحك أو فتر عن بعض الأوراد جزعت النفس أن يطّلعوا عليه فيسقط قبوله أتبع ذلك باستغفار وتنفّس الصعداء ، و ربّما زاد في الأعمال و الأوراد من أجلهم و الشيطان يخيّل إليه أنّك إنّما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله ، فيتركون الطريق بتركك لها ، و إنّما ذلك خدعة و غرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرّئاسة ، و لذلك لا تأبى نفسه من اطّلاعهم على مثل ذلك من أقرانه بل ربّما يحبّ ذلك و يستبشر به و لو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله و زاد أثر كلامه في القبول على كلامه شقّ ذلك عليه ، ولولا أنّ النفس قد استبشرت واستلذّت الرّئاسة لكان يغتنم ذلك إذ مثاله مثال من يرى جماعة من إخوانه

قد وقعوا في بئر و تغطّى رأس البئر بحجر كبير فعجزوا عن الرّقي من البئر بسببه فرقّ قلبه لإخوانه فجاء بدفع الحجر من رأس البئر و شقّ عليه فجاءه من أعانه على ذلك حتّى تيسّر عليه أو كفاه ذلك و نحّاه بنفسه فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النّار فإذا ظهر من أعانه أو كفاه فرح بذلك و لم يثقل عليه أرأيت لو اهتدوا جميعهم بأنفسهم لماكان ينبغي أن يثقل عليه ذلك إن كان غرضه هدايتهم فإذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه ، ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب و فواحش الجوارح و أهلكه ، فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ومن إعوجاج النفس بعد الاستواء .

فإن قلت : فمتى يصحّ له أن يشتغل بنصح الناس ؟ فأقول : إذا لم يكن له قصد سوى هدايتهم لله تعالى و كان يودّ لو وجد من يعينه أو لو اهتدوا بأنفسهم و انقطع بالكلّية طمعه عن ثنائهم و عن أموالهم ، فاستوى عنده حمدهم و ذمّهم ، فلم يبال بذمّهم إذا كان الله يحمده و لم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمدالله تعالى ، و نظر إليهم كما ينظر إلى السادات و إلى البهائم ، أمّا إلى السادات فمن حيث أنّه لايتكبّر عليهم ويرى كلّهم خيراً من نفسه لجهله بالخاتمة ، و أمّا إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم ، فإنّه لايبالي كيف تراه البهائم ، فلا يتزيّن لها ولايتصنّع ، بل راعي الماشية إنّما غرضه رعاية الماشية و دفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه بعين الحمد و الثناء ، فمالم ير سائر الناس كالماشية الّتي لايلتفت إلى نظرها ولايبالي بها لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم نعم ربّما يصلحهم ولكن يفسدنفسه بإصلاحهم فيكون كالشمع الّذي يضيىء لغيره و يحترق في نفسه .

فإن قلت : فلو ترك الوعّاظ الوعظ إلّا عند نيل هذه الدّرجة لخلت الدّنيا من الوعظ و خربت القلوب .

فأقول : وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله « حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة » (١) ولو

(١) أخرجه البيهقي في الشعب عن الحسن مرسلا كما في الجامع الصغير .

لم يحبّ الناس الدّنيا لهلك العالم وبطلت المعائش و هلكت القلوب والأبدان جميعاً ، إلّا أنّه ﷺ علم أنّ حبّ الدّنيا مهلكٌ و أنّ ذكر كونه مهلكاً لاينزع الحبّ من قلوب الأكثرين لا الأقلّين الّذين لا تخرب الدّنيا بتركهم فلم يترك النصح وذكر ما في حبّ الدّنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفاً من أن يترك نفسه بالشهوات الّتي سلّطت على الناس . فكذلك لاتزال ألسنة الوعّاظ مطلقة بحبّ الرئاسة ولايدعونها بقول من يقول إنّ الوعظ لحبّ الرئاسة حرام كما لايدع الخلق الشراب والزنى و السرقة و الرّياء و الظلم وسائر المعاصي بقول الله و بقول رسوله أنّ ذلك حرامٌ ، فانظر إلى نفسك وكن فارغ القلب عن حديث الناس فإنّ الله يصلح خلقاً كثيراً بإفساد شخص واحد و أشخاص « ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » (١) ، فإنّ الله يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر و أقوام لاخلاق لهم في الآخرة (٢) فإنّما يخشى أن ينسدّ باب طريق الاتّعاظ فأمّا أن تخرس ألسنة الوعّاظ و وراءهم باعث الرئاسة و حبّ الدّنيا فلا يكون ذلك أبداً .

فإن قلت : فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه و ترك النصح أو نصح وراعي شرط الصدق والإخلاص فيه فما الّذي يخاف عليه ؟ وما الّذي بقي بين يديه من الأخطار و حبائل الاغترار ؟

فاعلم أنّه بقي عليه أعظمها وهو أنّ الشيطان يقول له : قد أعجزتني وأفلتّ منّي بذكائك وكمال عقلك ، وقد قدرتُ على جملة من الأولياء والكبراء وماقدرتُ عليك ، فما أصبرك وماأعظم عندالله محلّك إذ قوّاك على قهري ومكّنك من التفطّن لجميع مداخل غروري فيصغي إليه و يصدّقه و يعجب بنفسه في فراره من الغرور كلّه فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر فالعجب أعظم من كلّ ذنب ، فلذلك قال الشيطان : ياابن آدم إذا ظننت أنّك بعلمك تخلّصت منّي فبجهلك قد وقعت في حبائلي .

---

(١) البقرة : ٢٥١ .

(٢) تقدم حديثه كراراً عن ابى عوانة و البخارى وغيره .

فإن قلت : فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أنّ ذلك من الله تعالى لامنه وإنّ مثله لايقوى على دفع الشيطان عنه إلّا بتوفيق الله ومعونته ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقلّ القليل فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنّه لم يقو عليه بنفسه بل بالله فما الّذي يخاف عليه بعد نفي العجب ؟.

فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه و الأمن من مكره حتّى يظنّ أنّه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل ولايخاف من الفترة والانقلاب ، فيكون حاله الاتّكال على فضل الله فقطّ دون أن يقارنه الخوف من مكره ، و من أمن مكر الله فهو خاسر جدّاً ، بل سبيله أن يكون مشاهداً لجملة ذلك من فضل الله ، ثمّ خائفاً على نفسه أن يكون قد سدّت عنه صفة من صفات قلبه من حبّ الدّنيا ورئاء وسوء خلق و التفات إلى عزّ وهو غافل عنه و يكون خائفاً أن يسلب حاله في كلّ طرفة عين غير امن من مكر الله ولاغافل عن خطر الخاتمة ، و هذا خطر لامحيص عنه و خوف لانجاة منه إلّا بعد مجاوزة الصّراط ، ولذلك لمّا ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع وكان قد بقي له نفس فقال له : أفلتّ منّي يافلان فقال لابعد ولذلك قيل : النّاس كلّهم هلكى إلّا العالمون ، و العالمون كلّهم هلكى إلّا العاملون ، و العاملون كلّهم هلكى إلّا المخلصون ، و المخلصون على خطر عظيم ، فإذن المغرور هالك والمخلص الفارّ من الغرور على خطر ، فلذلك لايفارق الخوف والحذر قلوب الأولياء أبداً ، نسأل الله تعالى حسن الخاتمة فإنّ الأمور بخواتيمها .

أقول : ولنختم الكتاب بكلام الصادق عليه السلام على ماروي عنه في كتاب مصباح الشريعة [1] قال عليه الصلوة و السلام : « المغرور في الدّنيا مسكين و في الآخرة مغبون لأنّه باع الأفضل بالأدنى ولاتعجب من نفسك حيث ربّما اغتررت بمالك و صحّة جسمك أن لعلّك تبقى ، و ربّما اغتررت بطول عمرك و أولادك و أصحابك لعلّك تنجو بهم . وربّما اغتررت بجمالك ومنيتك وأصابتك مأمولك وهواك ، فظننت أنّك صادق ومصيب ، وربّما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة و

(١) الباب السادس والثلاثين .

لعلّ الله تعالى يعلم من قلبك بخلاف ذلك ، و ربّما أقمت نفسك على العبادة متكلّفاً و الله يريد الإخلاص ، و ربّما افتخرت بعلمك و نسبك ، و أنت غافلٌ عن مضمرات ما في غيب الله ، و ربّما توهّمت أنّك تدعو الله وأنت تدعو سواه ، وربّما حسبت أنّك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك وأن تميلوا إليك ، وربّما ذممت نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة ، واعلم أنّك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمنّي إلّا بصدق الإنابة إلى الله و الإخبات له و معرفة عيوب أحوالك من حيث لا توافق العقل و العلم ولا يحتمله الدّين و الشريعة و سنن القدوة و أئمة الهدى ، و إن كنت راضياً بما أنت فيه ، فما أحد أشقى بعلمك منك وأضيع عمراً فأورثت حسرة يوم القيامة » .

هذا آخر الكلام في كتاب ذمّ الغرور وبتمامه تمّ ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء .

و يتلوه إن شاء الله تعالى في ربع المنجيات كتاب التوبة ، و الحمد لله أوّلاً و آخراً و ظاهراً و باطناً .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

﴿ فهرست ما في هذا المجلد ﴾

رقم الصفحة	الموضوع
٣	بيان المواعظ في ذمّ الدّنيا .
٩	بيان صفة الدّنيا بالأمثلة .
١٨	بيان حقيقة الدّنيا وماهيتها في حق العبد .
٢٧	بيان ماهية الدّنيا في نفسها .
٣٩	**كتاب ذم المال**
٤٠	بيان ذمّ المال و كراهة حبّه .
٤٤	بيان مدح المال و الجمع بينه و بين الذم .
٤٦	بيان تفصيل آفات المال و فوائده .
٥٠	بيان ذمّ الحرص و الطمع .
٥٤	بيان علاج الحرص والطمع .
٥٩	بيان فضيلة السخاء .
٦٥	حكايات الأسخياء .
٧٧	حكايات البخلاء .
٧٩	بيان الايثار و فضيلته .
٨٢	بيان حدّ السخاء و البخل و حقيقتهما .
٨٦	بيان علاج البخل .
٩٠	بيان مجموع الوظائف الّتي على العبد في ماله .

رقم الصفحة	الموضوع
٩١	بيان ذمّ الغنى و مدح الفقر .
١٠٦	**كتاب ذم الجاه و الرياء**
١٠٨	بيان ذمّ الشهرة وانتشار الصيت .
١٠٩	بيان فضيلة الخمول .
١١٢	بيان ذمّ حبّ الجاه .
١١٣	بيان معنى الجاه وحقيقته .
١١٥	بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع .
١٢١	بيان الكمال الحقيقي و الكمال الوهمي الّذي لا حقيقة له .
١٢٤	بيان مايحمد من حبّ الجاه وما يذمّ .
١٢٦	بيان السبب في حبّ المدح والثناء .
١٢٨	بيان علاج حبّ الجاه .
١٣١	بيان وجه العلاج لحبّ المدح و كراهة الذمّ .
١٣٣	بيان علاج كراهة الذمّ .
١٣٥	بيان اختلاف أحوال الناس في المدح و الذمّ .
١٣٨	طلب الجاه والمنزلة بالعبادات و هو الرّياء .
١٣٩	بيان ذم الرياء .
١٤٨	بيان حقيقة الرياء ومايراءى به .
١٥٢	**فصل** في أنّ الرّياء هل هو حرام أو مكروه أو مباح .
١٥٥	بيان درجات الرياء .
١٨٢	بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات .
١٨٥	بيان الرّخصة في كتمان الذنوب و كراهة اطلاع الناس عليها .

رقم الصفحة	الموضوع
١٩٠	بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء و دخول الآفات .
١٩٨	**فصل** في سؤال والجواب عنه .
٢٠٠	بيان مايصحّ من نشاط العبد للعبادة و مالايصحّ .
٢٠٥	بيان ماينبغي للمريد أن يلزم قلبه قبل العمل و بعده و فيه .
٢١١	**كتاب ذم الكبر والعجب**
٢١٢	بيان ذمّ الكبر .
٢١٨	بيان ذمّ الاختيال و إظهار آثار الكبر في المشي و جرّ الثياب .
٢١٩	بيان فضيلة التواضع .
٢٢٦	**فصل** في نقل الآثار .
٢٢٨	بيان حقيقة الكبر وآفته .
٢٣١	بيان المتكبّر عليه و أقسامه و درجاته و ثمرات الكبر فيه .
٢٣٥	بيان مابه التكبّر .
٢٤٥	بيان البواعث على التكبّر وأسبابه المهيّجة له .
٢٤٦	بيان أخلاق المتواضعين ومجامع مايظهر فيه أثر التواضع والتكبّر .
٢٥٢	بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع .
٢٧١	بيان غاية الرياضة في خلق التواضع .
٢٧٢	في العجب و ذمّه و آفته .
٢٧٢	الشطر الثاني من الكتاب في العجب .
٢٧٥	بيان آفات العجب .
٢٧٦	بيان حقيقة العجب و الإدلال و حدّهما .
٢٧٧	بيان علاج العجب على الجملة .
٢٨٢	بيان اقسام ما به العجب و تفصيل علاجه .

رقم الصفحة	الموضوع
٢٩٠	**كتاب ذم الغرور**
٢٩١	بيان ذم الغرور و حقيقته و أمثلته .
٣٠٩	بيان أصناف المغترّين .
٣٠٩	الصنف الأوّل أهل العلم والمغترّون منهم فرق .
٣٣٢	الصنف الثاني أرباب العبادة والعمل والمغترّون منهم فرق كثيرة .
٣٣٧	الصنف الثالث المتصوّفة والمغترّون منهم فرق كثيرة .
٣٤٤	الصنف الرابع أرباب الأموال والمغترّون منهم فرق .
٣٤٨	**فصل** في سؤال و جواب .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مصادر التعليق والتصحيح

١ - الاتقان للسيوطي .
٢ - الاحتجاج للطبرسي .
٣ - احياء علوم الدين للغزالي .
٤ - الاختصاص للشيخ المفيد الطبعة الاولى .
٥ - الارشاد « ط ١٣٧٧ .
٦ - آداب المتعلمين للمحقق الطوسي .
٧ - الاستبصار للشيخ الطوسي ط النجف .
٨ - الاستغاثة لاحمد بن موسى القمي .
٩ - الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الاصابة .
١٠ - اسد الغابة لابن أثير الجزري .
١١ - أسرار الصلاة للشهيد الثاني .
١٢ - الاصابة لابن حجر العسقلاني ط ١٣٥٩
١٣ - اعتقادات الصدوق .
١٤ - اعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسي ط ١٣٧٩ .
١٥ - الامالي للشيخ الصدوق .
١٦ - الامالي للشيخ الطوسي .
١٧ - الامالي للشيخ المفيد .
١٨ - [الا]مامة والسياسة لابن قتيبة ط ١٣٧٧ .
١٩ - الانساب للبلاذري .
٢٠ - بحار الانوار للمجلسي .
٢١ - بصائر الدرجات للصفار الطبع الحجري
٢٢ - البيان والتعريف لابن حمزة الحسيني ط الحلب .
٢٣ - التاج الجامع الاصول .
٢٤ - تاريخ الخطيب طبع مصر .
٢٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطي .
٢٦ - تاريخ الامم والملوك للطبري .
٢٧ - تاريخ الذهبي .
٢٨ - تحف العقول لابن شعبة ط ١٣٧٦ .
٢٩ - التذكرة لسبط ابن جوزي الطبع الحجري
٣٠ - الترغيب والترهيب للمنذري ط ١٣٧٣
٣١ - تفسير علي بن ابراهيم القمي ط ١٣١٣ .
٣٢ - التفسير الكبير لفخر الدين الرازي .
٣٣ - التوحيد للصدوق ط ١٣٢١ .
٣٤ - تفسير الانوار للبيضاوي .
٣٥ - التهذيب للشيخ الطوسي ط ١٣١٧ .
٣٦ - تيسير الوصول لابن الديبع الدمشقي .
٣٧ - ثواب الاعمال للصدوق ط ١٣٧٥ .
٣٨ - جامع الاخبار .
٣٩ - جامع الرواة للاردبيلي .
٤٠ - الجامع الصغير للسيوطي .
٤١ - الجعفريات والاشعثيات الطبع الحجري .
٤٢ - حلية الاولياء لابي نعيم .
٤٣ - الخصال للصدوق الطبعة الاولى .
٤٤ - الخصائص للنسائي طبع النجف .
٤٥ - الخرائج والجرائح .
٤٦ - الدر المنثور للسيوطي .

٤٧ - دلائل النبوة لابي نعيم .
٤٨ - رجال النجاشي .
٤٩ - الرجال للكشي .
٥٠ - الرسالة المعراجية لابن سينا .
٥١ - روضات الجنات للخوانساري الطبعة الثانية .
٥٢ - روضة الواعظين للفتال النيشابوري .
٥٣ - السرائر لابن ادريس .
٥٤ - سر العالمين .
٥٥ - سفينة البحار للمحدث القمي .
٥٦ - السنن الكبرى لابي بكر أحمد بن الحسين البيهقي .
٥٧ - السنن لابي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي .
٥٨ - السنن لابي عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني .
٥٩ - السنن لابي محمد عبدالله بن عبدالرحمن ابن الدارمي .
٦٠ - السنن لسليمان بن الاشعث السجستاني .
٦١ - السيرة النبوية لابن هشام .
٦٢ - الشافي للسيد الشريف المرتضى .
٦٣ - شرح احياء العلوم للزبيدي .
٦٤ - شرح النهج لابن أبي الحديد .
٦٥ - شرح النهج لابن ميثم البحراني .
٦٦ - الشمائل للترمذي .
٦٧ - الصحاح للجوهري .
٦٧ - الصحيح لابي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري .
٦٩ - الصحيح لابن عيسى محمد بن عيسى الترمذي الطبعة الاولى .
٧٠ - الصحيح لمحمد بن اسماعيل البخاري طبع محمد علي صبيح .
٧١ - صحيفة الرضا عليه السلام .
٧٢ - الصواعق المحرقة للهيتمي .
٧٣ - طبقات لابن سعد طبع ليدن .
٧٤ - الطرائف لابن طاؤوس .
٧٥ - عدة الداعي لابن فهد الحلي .
٧٦ - عقاب الاعمال للصدوق ط ١٣٧٥ .
٧٧ - علل الشرائع للصدوق ط ١٣١١ .
٧٨ - علم اليقين للمؤلف (الفيض) .
٧٩ - عيون اخبار الرضا عليه السلام للصدوق .
٨٠ - عيون الاخبار لابن قتيبة .
٨١ - الغدير للعلامة الاميني طبع طهران .
٨٢ - الغيبة للنعماني .
٨٣ - الفقيه (من لا يحضره الفقيه) ط ١٣٧٦ .
٨٤ - الفهرست للشيخ الطوسي .
٨٥ - القاموس المحيط للفيروز آبادي .
٨٦ - قرب الاسناد للحميري الطبع الحجري .
٨٧ - الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة في شروحه للسيد جواد المصطفوي .
٨٨ - الكافي للكليني الطبع الحروفي الحديث .
٨٩ - الكافي الشاف للعسقلاني بهامش تفسير الكشاف .
٩٠ - الكشاف للزمخشري .
٩١ - كشف المحجة لابن طاؤوس .

٩٢ ـ كشف الغمة لعلي بن عيسى الاربلي .
٩٣ ـ كمال الدين للشيخ الصدوق .
٩٤ ـ كنز العمال لعلي متقي .
٩٥ ـ كنز الفوائد للكراجكي .
٩٦ ـ كنوز الحقائق لعبد الرؤوف المناوي .
٩٧ ـ الكنى والالقاب للمحدث القمي .
٩٨ ـ المجازات النبوية للشريف الرضي .
٩٩ ـ مجمع البيان للطبرسي .
١٠٠ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي .
١٠١ ـ المحاسن لاحمد بن محمد بن خالد البرقي .
١٠٢ ـ المحلى لابن حزم .
١٠٣ ـ المختصر (مختصر بيان العلم) لاحمد عمر المحمصاني البيروتي طبع مصر .
١٠٤ ـ مرآة العقول للمجلسي .
١٠٥ ـ مراصد الاطلاع لعبد المؤمن البغدادي .
١٠٦ ـ مروج الذهب للمسعودي الطبعة الثالثة .
١٠٧ ـ المستدرك لابن البيع الحاكم النيشابوري .
١٠٨ ـ مستدرك الوسائل للنوري .
١٠٩ ـ المسند لابي عوانة .
١٠١ ـ المسند لابي عبدالله أحمد بن حنبل .
١١١ ـ المسند لابي داود الطيالسي .
١١٢ ـ مشكاة المصابيح لولي الدين محمد ابن عبدالله الخطيب التبريزي .
١١٣ ـ مصابيح السنة لابي محمد الحسين ابن مسعود الفراء البغوي .
١١٤ ـ مصباح الشريعة .
١١٥ ـ مصباح المنير للفيومي .
١١٦ ـ مطالب السؤول لابن طلحة .
١١٧ ـ معالم التنزيل للبغوي .
١١٨ ـ معاني الاخبار للصدوق ط ١٣٧٩ .
١١٩ ـ المعارف للدينوري .
١٢٠ ـ المغني عن الاسفار للعراقي برمز (م) .
١٢١ ـ مفتاح الفلاح للشيخ البهائي طبع مصر .
١٢٢ ـ مفردات القرآن للراغب .
١٢٣ ـ مقاييس اللغة لاحمد بن فارس .
١٢٤ ـ مكارم الاخلاق للطبرسي ط ١٣٧٦ .
١٢٥ ـ المناقب للخوارزمي .
١٢٦ ـ منتخب كنز العمال بهامش المسند .
١٢٧ ـ منية المريد للشهيد الثاني .
١٢٨ ـ المواهب اللدنية للقسطلاني .
١٢٩ ـ الموضوعات لمولى علي القاري .
١٣٠ ـ النوادر في جمع الاحاديث للفيض .
١٣١ ـ النهاية لابن الاثير الجزري .
١٣٢ ـ نهج البلاغة .
١٣٣ ـ نيل الاوطار للشوكاني .
١٣٤ ـ نظم درر السمطين للزرندي .
١٣٥ ـ وسائل الشيعة للشيخ الحر العاملي .
١٣٦ ـ الوافي لمولانا الفيض .
١٣٧ ـ الهداية للصدوق .

هذه المصادر هي التي نقلت عنها بلا واسطة وبقي غيرها من المصادر المنقولة عنها مع الواسطة و هي كثيرة كما هو المشاهد في الكتاب .